جامعـــة ابن طفيـــــل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطـــــــرة

جامعة ابن طفيل Université Ibn Tofail

شعبة التاريخ والحضارة
وحدة التكوين والبحث في
التاريـــخ المونوغـــرافي

<u>أطروحة دكتوراه</u>

المدن والحصون في الشمال الغربي المغربي

من الأدارسة إلى ظهور المرابطين

[ق 3-5هـ/9-11م]

دراسة تاريخية أثرية



إعداد:
أحمد حمود حاتم المخلافي

إشراف:
أ.د: عبد العزيز عينوز
أ.د: حسن الفكيكي

السنة الجامعية: 2008-2009

بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلى روح والدي المغفور له بإذن الله، ووالدتي أطال الله عمرها .

وزوجتي الغالية سندي ورفيقتي في الحياة.

وأولادي الذين عانوا من الفراق خلال أهم فترة من حياتهم:

"الرائعة غيداء، ريدان، غمدان، مراد، محمد، وعبد الرحمن" .

إليهم جميعاً أهدي هذا العمل.

الباحث



شكر وتقدير

أتقدم بالشكر لأساتذتي المشرفين الأجلاء:

الأستاذ الدكتور: عبد العزيز عينوز.

الأســـتاذ الدكتور: حسن الفكيكي.

اللــذان شـجعاني على خـوض غـمار البحـث المونوغرافي في بـلاد المغـرب الشـقيق، وبالتحديد حول المدينة المغربية بمنطقة الشمال الغربي خـلال العصر الوسيط. ولم يبخلا علي بالتوجيهات وتدريبي على التحلي بالصرامة المنهجية منذ ظهور الفكرة وخلال مراحـل البحث المختلفة.

ولن أنسى الأستاذ الفكيكي كيف كان يتغلب على كل العوائق لترتيب الجلسات العلمية الطويلة والمستمرة، وذلك التواضع غير المسبوق الذي يتحلى به، وروح الأب الأسـتاذ الـذي يتعامـل مـع طالبـه بـروح الأب وبمشـاعر إنسـانية جياشـة، وغـزارة الملاحظات المنهجية التي كان يستحضرها دوماً، وكيفية التغلب على مغريات المعطيات والسيطرة على تلابيب البحث. وفي الوقت ذاته كان الأستاذ عينوز يـذلل كـل العوائق الإدارية، ويزودني بالملاحظات المنهجية. فلهما مني كل التقدير والعرفان.

كما أشكر كل من تعاون معي في اليمن والمغرب.

الباحث

فهرس الموضوعات

المقدمة

تبين لنا بعد استقراء عدد من المصادر المتعلقة بتاريخ الشمال الغربي المغربي أن من الأهمية بمكان السعي لتعميق الإطلاع على ما تميزت به منطقة الشمال الغربي المغربي خلال العصر الوسيط. ونعلم أن الدول والإمارات التي مرت بالمنطقة اهتمت بعدد كبير من الجوانب الحضرية منها تأسيس المدن والحصون. والذي جلب اهتمامنا أكثر هو الجواب على التساؤل عن الخصائص العمرانية والفنية سواء للمدن أو الحصون، ولا يمكن استثناء المجالات التي تجعل من التجمعات السكانية مراكز لألوان أخرى من التقدم الحضاري.

ومن المعلوم أن ظهور الدولة الإدريسية في المنطقة قد أدى إلى بروز أول مدينة إسلامية مغربية جامعة، رغم قدمها لكل المميزات العمرانية التي نجدها مفقودة في غيرها ونعني بذلك مدينة فاس. ومن خلال استعراض المصادر العربية نجد أن أقدم ذكر لهذه المراكز الحضرية يرجع إلى بداية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، فذكرت المصادر أسماء بعض تلك المدن والحصون، ونجد في مؤلف أبي عبيد الله البكري ما يغنينا عن سردها، ومن خلال ذلك استقينا جل معلوماتنا، كما تمت الاستعانة بالدراسات الحديثة، ونتائج الحفريات المتوفرة.

ونركز هنا على الأهمية التاريخية: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية لمدن وحصون الشمال الغربي التي لم تحظ بدراسات مونوغرافية شافية.[1] ومن هذا المنطلق حددت هذه الدراسة خطتها وأهدافها. وتأتي أهميتها في كونها ركزت على نماذج من المدن والحصون من حيث الموقع الجغرافي، ومن الناحية الوظيفية.

كما حاولت الدراسة الإجابة عن عدد من الأسئلة المتعلقة بنشأة هذه المدن والحصون ومواقعها والهدف من تأسيسها ووصفها، والتطرق

---

[1]– باستثناء دراسة عامة قام بها أومليد(محمد)، ولكنها تطرقت للمدينة الإدريسية في عموم المغرب الأقصى.

للأدوار الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وعلاقة ذلك بالنمو والازدهار أو بالانكماش والانهيار. كما ركزت الدراسة على التوصل إلى استنتاجات متضمنة لمقاربات بين خصائص هذه المدن والحصون، ومما جرت به العادة الأكاديمية لاستكمال المقدمة بطرح الجوانب المنهجية.

1- منهجية الدراسة

يتحدد مجال الدراسة في المدن والحصون وما يندرج تحتها من الأشكال والأصناف. ويمكن أن نقول إن نتيجة البحث دلت على أن العدد المتوفر من النوعين كبير، وعملية الاستعراض تتطلب جهداً أكبر مع توقع وجود عدة صعوبات منها انعدام المعلومات الكافية عن كل صنف من تلك الأصناف. ولهذا السبب اقتضى النظر والمنهج القيام بجولة بين العديد من تلك المدن والحصون من جهة، وتقديم نماذج تبرز أهم المدن والحصون، خاصة تلك التي نرى أنها تجمع بين المواصفات المشتركة سواء بالنسبة للمدن أو الحصون.

وبالطبع هناك الحافز الأساسي لاقتحام الكتابة في هذا الموضوع واختياره بعد الاطلاع على تجنب الدراسات الأكاديمية الخوض فيه، علاوة على ما يكتسيه طرح هذا من الأهمية التاريخية بالنسبة للشمال الغربي المغربي خاصة وللتاريخ المغربي عامة.

ويضيق مجال البحث بالتحديد الزمني المختار ما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين/التاسع والحادي عشر الميلاديين. ولهذا فإن الفترة المدروسة تقع ضمن إطار العصر الوسيط الأول، وتحديداً من الأدارسة إلى ظهور المرابطين. وإذا شئنا أن نقدم تحديداً أكثر دقة فسنقول إننا سنبدأ من سنة تأسيس الدولة الإدريسية (172هـ) إلى سنة تأسيس مدينة مراكش على يد المرابطين (462هـ).

ويعود هذا التحديد الزمني إلى ظهور أول المراكز الحضرية الإسلامية في الشمال الغربي. وبالطبع لا نعني بهذا بعض مدن المنطقة

التي يرجع تأسيسها إلى ما قبل الفتح الإسلامي. ويكمنُ الدافع لهذا التحديد في أن المدينة المغربية خلال هذه الفترة شهدت نمواً واتساعاً، فضلاً عن أهم الأحداث السياسية والاقتصادية الرائجة في عهد الأدارسة.

وما يشغل بالنا ونريد التركيز عليه هو الإجابة عن سؤال عام هو:
هل ما تقدمه لنا النصوص العربية (المصدرية) عن المدن والحصون المغربية في الشمال الغربي خلال العصر الوسيط الأول كاف للتعرف على طبيعة النمو الحضري والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدته تلك المعالم الحضارية؟

والواقع أن هذا السؤال يتضمن أسئلة فرعية عديدة حاضرة الآن في بالنا، وسنفرد لها فراغاً ضمن منهجيتنا مما سنخوض فيه لاحقاً. وللتوضيح أكثر نقول إننا سنحاول الإجابة عنها عبر أقسام الدراسة المختلفة استناداً بشكل أساسي على كل ما توفر لدينا من نصوص معاصرة أو قريبة من الفترة المدروسة، وكل ما تم استحضاره من نتائج البحث الآركيولوجي، والدراسات الحديثة وما يماثلها من الزيارات الميدانية. ولن نستوفي ما نرجوه من هذا العمل إلا بتخصيص إطلالة سريعة عن البيئة الجغرافية للبحث.

و ينحصر النطاق الجغرافي للبحث والدراسة بصفة عامة في منطقة الشمال الغربي المغربي، حيث تم تقسيمه إلى أربع مناطق حسب تركز المدن والحصون، هي: منطقة الساحل المتوسطي، والتي تبدأ بمدينة بادس من ناحية الشرق، وتنتهي بحدود مدينة سبتة. ومنطقة المضيق من سبتة إلى طنجة. ومنطقة الساحل الأطلسي من أصيلا إلى المعمورة. وأخيراً المنطقة الداخلية التي تشمل مدن وحصون مناطق غمارة والهبط والغرب، وبتعبير أخر، المجال الجغرافي لمنطقة الشمال الغربي المغربي. وبصفة أكثر تحديداً، تم اختيار أربعة نماذج للمدن والحصون هي: مدينة البصرة. مدينة أصيلا مدينة كُرت . قلعة حجر النسر.

وقد طرح علينا من الوجهة المنهجية اللجوء إلى بعض الاختيارات المتعلقة بالمدن والحصون. وتكمن مبررات الاختيار في الحصول على عينات أساسها الشهرة التي حظيت بها كل واحدة من المراكز الأربعة. فإذا كانت البصرة وأصيلا نموذجين لمدينتين إدريسيتين متقاربتين في زمن الإنشاء، ومختلفتين من حيث الموقع، فإن هناك ما يميز بين المدينتين من حيث الدور المنوط بكل واحدة منهما. فالبصرة يمكن اعتبارها الحاضرة الإدريسية الأولى التي ذاع صيتها بعد الانتشار الإدريسي بالشمال الغربي، ويمكن أن نقول إنها كانت العاصمة الإدريسية بعد النزوح عن مدينة فاس. أما مدينة أصيلا فقد أتاح لها موقعها على الساحل الأطلسي بين طنجة شمالاً والقصر الكبير والعرائش جنوباً تتسلم القيادة في تلك الجهات ومنطقة الهبط خاصة، علاوة على ما سنقف عليه من النشاط التجاري.

ويبقى لنا سبب الاهتمام بقلعتي حجر النسر وحد كُرت. أما إدراج القلاعة الأولى فراجع إلى الدور الذي قامت به منذ بدايتها في العقد الثاني من القرن الرابع الهجري إلى سنة 375هـ ، فخلال هذه الفترة لم يخرج دورها عن كونها حصن النجاة للأمراء الأدارسة من التدخلات الحربية المقتحمة لأراضي الشمال الغربي المغربي، سوءاً من قبل قرطبة أو الموالين للاجتياح الفاطمي. أما مدينة كُرت فإن موقعها أهلها لأن تكون مصدر تمويل تحركات الأدارسة وحملاتهم.

ـ أدوات ووسائل البحث

اعتمد البحث على عدد من الأدوات والوسائل المنهجية المتداولة على الساحة الأكاديمية المغربية، ويمكن تقسيمها إلى مجموعتين رئيسيتين:

المجموعة الأولى، وتشمل الوسائل الآتية:

1- استغلال مختلف المعطيات التي جاءت بها المصادر العربية القريبة من الفترة المدروسة.

2- اعتماد نتائج الدراسات الآركيولوجية المتوفرة.

3- الاسترشاد بنتائج الدراسات الجامعية الحديثة.

4- الاستفادة من وثائق الندوات المتعلقة بالمدن.

المجموعة الثانية، وتشمل الوسائل الآتية:

1- التحري الميداني لبعض مواقع المدن والحصون المندرسة، وفي هذا الإطار تمت زيارة كل من مدينة البصرة، وكًرت، وأسجن، وقصر كتامة.

2- محاولة إسقاط مواقع المدن والحصون على خريطة شمال المغرب.

3- الاستفادة من الرواية الشفهية كلما كان ذلك ممكنا.

4- محتويات البحث

توزعت أقسام البحث إلى ثلاثة أبواب، على النحو التالي:

الباب الأول: عنوناه بالمجال الطبيعي والتطور التاريخي، ويتكون من فصلين، **الفصل الأول** بعنوان: لمحة عامة عن المدينة الوسيطية والحدود التاريخية، تعرضنا فيه للعناصر الآتية:

أولاً- المدينة عند مفكري العصور الوسطى.

ثانياً – المدينة قبل القرن الثالث الهجري/9م.

ثالثاً- عن الحدود التاريخية:

1- حدود المغرب الأقصى.

2- حدود الشمال الغربي المغربي.

رابعاً- المعطيات السكانية:

وخصصنا **الفصل الثاني** لدراسة المجال الطبيعي والتاريخي، حيث تعرضنا في المجال الطبيعي للتوزيع الجغرافي للمدن والحصون والقلاع حسب الموقع وفقاً للمفردات الآتية:

1- ساحل المضيق: سبتة، القصر الأول، حصن بني محمد، طنجة.

2- ساحل المتوسط: بادس، تيكساس، ترغة، تطوان.

3- الساحل الأطلسي: الحُمر، تشمس، المعمورة.

4- المدن والحصون الداخلية: ويناقام، قلعة ابن خروب، حصن الكرم، قلعة دمنة عشيرة، زلول، قصر كتامة، ايجاجن، زهجوكة، الأقلام، افتس، أصادة، ملوسة، جرماية، تاورات (تاودا)، ماسنة.

كما وزعنا مدن وحصون الشمال الغربي حسب التصنيف التاريخي، وحاولنا فيه مقاربة فترات التأسيس ما أمكن واعترضتنا صعوبات في ضبط التواريخ على وجه الدقة نظراً لتعاقب الفترات من القديم إلى الوسيط وغياب الإشارات الدالة على ذلك، وانعدام البحث الآركيولوجي بصفة عامة.

والباب الثاني عنوناه بالوصف والأوضاع السياسية والاقتصادية، فقد خصصنا **الفصل الأول** منه للوصف والتخطيط، ووزعناه على المحاور الآتية:

أولاً- وصف المدن الساحلية:

1- مدن الساحل المتوسطي.

2- مدن ساحل المضيق.

3- مدن الساحل الأطلسي.

ثانياً- وصف المدن الداخلية

ويتعلق **الفصل الثاني** بالتطور السياسي والاقتصادي، والذي ينقسم بدوره إلى:

أولاً- الوضع السياسي والعسكري

ثانياً- التطور الاقتصادي

وأخيراً خصصنا **الباب الثالث** لدراسة النماذج، حيث تعلق **الفصل الأول** بمدينتي البصرة وأصيلا، وهما نموذجان للمدن الداخلية والساحلية، وفقاً للمحاور الآتية:

أولاً- مدينة البصرة:

1- إشكالية تحديد الموقع والتسمية والتأسيس.

2- تخطيط ووصف المدينة والاندثار.

3- شذرات عن الوضع الاقتصادي.

4- إشارات حول الدور السياسي.

ثانياً – مدينة أصيلا :

1- إشكالية تحديد الموقع والتسمية والتأسيس.

2- تخطيط ووصف المدينة وتطورها.

3- الدور السياسي.

4- الوضع الاقتصادي والاجتماعي.

5- مقارنة بين البصرة وأصيلا.

ويتعلق **الفصل الثاني** بحصن كُرت وقلعة حجر النسر نموذجا الحصون والقلاع، تبعاً للمحاور الآتية:

أولا- كُرت نموذج الحصون:

1- الموقع الجغرافي بين المعطيات التاريخية والمشاهدات الميدانية.

2- التسمية والتأسيس والوصف.

3- إشارات فيما يتعلق بالدور الاقتصادي والاجتماعي.

ثانياً- حجر النسر نموذج القلاع:

1- الموقع والتسمية والتأسيس.

2- الوصف المعماري للقلعة.

3- إشارات فيما يتعلق بالتطور السياسي والعسكري.

4- مقارنة بين كُرت وقلعة حجر النسر.

وتوجنا البحث **بالاستنتاجات الختامية** التي توصلنا إليها، ثم قائمة المصادر والمراجع، وفهرس المحتويات. وقد تخلل العمل جداول تتصل

بالمدن والحصون، وخريطة تقريبية للمواقع، وبعض الصور للبقايا الأثرية في المدن التي قمنا بزيارة مواقعها.

هذا التقسيم - كما سبق القول ـ فرضته طبيعة الموضوع والإشارات الواردة في المصادر سواء منها الجغرافية أو التاريخية، وفيما يلي سوف نحاول إلقاء الضوء على طبيعة هذه المصادر ومدى ما أفادتنا به من معلومات.

ثانياً- مصادر البحث، رؤية تحليلية

جل هذه المصادر المتوفرة، كانت جغرافية وأصحابها مشارقة ومغاربة زاروا المدن المغربية أو قرأوا عنها أو استقوا أخبارها من مصادر مختلفة، بينما اقتصرت المصادر التاريخية على سرد الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدتها تلك المدن، وهنا تكمن أهمية هذه المصادر في استقاء معلومات عن مختلف الأوضاع التي عرفتها تلك المدن والحصون خلال الفترة المدروسة. وتنقسم مصادرنا - حسب تناولها للموضوع - إلى قسمين: مباشرة وتتكون أساساً من أوصاف الرحالة والمؤلفات الجغرافية، وغير مباشرة وتتمثل في كتب المؤرخين والإخباريين وأصحاب الحوليات، على النحو التالي:

كتب الجغرافيا و الرحلات

المسالك والممالك للأصطخري (ت 346هـ-957م) : في أواخر النصف الأول من القرن الرابع الهجري ظهر رحالة وجغرافي هو "أبو إسحاق الأصطخري"[1] كتب مؤلفاً بعنوان "مسالك الممالك" اعتمد في تأليفه على كتاب "صور الأقاليم، أو مسالك الممالك" لأبي زيد البلخي، وفيه أفرد عنواناً لذكر المغرب، واكتفى بتحديد أسماء المدن والمسافات

---

[1]- أبو إسحاق إبراهيم محمد الفارسي الأصطخري، المعروف بالكرخي. أنظر الزركلي، (خير الدين)، الأعلام، 1980، الجزء الأول، حرف الآلف.

بينهـــا[1]. وبالنســـبة للمـــدن والحصـــون التـــي تتناولهـــا الدراســـة أشـــار (الأصطخري) فقط إلـى مدينتي البصرة وأصيلا بإشارات عابرة، حيث حدد الأولى بالنسبة لمدينة فاس، وذكر الأخرى بأنها أقصى المعابر إلى الأندلس، لذلك فهذا المصدر لا يهم موضوعنا مباشرة، فهو يندرج في إطار المجموعة التي تعد ضمن المصادر العامة.

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي: ظهر أهم كتاب في تاريخ الجغرافيا آنذاك مع نهاية القرن الرابع الهجري ، بعنوان "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" الذي وضعه شمس الدين أبو عبيد الله محمد بن أحمد المقدسي، المتوفى سنة (390هـ 1000)[2] والبعض يجعل تاريخ وفاته سنة 387هـ[3]. يتناول فيه بالوصف المملكة الإسلامية التي قسمها إلى أربعة عشر إقليماً[4]. وبصفة عامة فالمقدسي استمد معلوماته من الملاحظات التي سجلها خلال أسفاره، ومن العلماء الذين اجتمع بهم والكتب التي اطلع عليها[5]، ومع ذلك جاءت معلوماته عن المدن المغربية ذات طابع يتسم بالعموم أكثر من التفصيل بالنسبة للمدن موضوع الدارسة. وعلى وجه التحديد أشار إلى أن البصرة تقع ضمن السوس الأدنى وأنها من مدن فاس وأن أهلها استخدموا نهر سفدد (لكوس)،الذي يمر في طريق القصر، للوصول إلى المحيط بأمتعتهم، وذكر أسماء مدن مثل: أزيلا، تشمس، زلول (أودلول)، الجاحد (غير معروفة)، سوق

---

[1]– الأصطخري: **المسالك والممالك**، دار صادر، بيروت، طبع ليدن، مطبعة برايـــل 1927، (المقدمة). محمد عبد الحليم رجب، **دولة بني صالح بتامسنا**، دار الثقافـــة للنشـــر والتوزيـــع، القاهرة، 1991، ص 55.

[2]– السيد عبد العزيز سالم، **التاريخ والمؤرخون العرب**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، [بدون تاريخ]. ،ص 191.

[3]-محمد عبد الحليم رجب، **دولة بني صالح بتامسنا**، م.س، ص191.

[4]– مقدمة المحقق (إسماعيل العربي) في كتاب ابن سعيد المغربـــي، **الجغرافيـــا**، منشـــورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، سنة 1970، ص 40.

[5]– المقدسي، **أحسن التقاسيم**، دار صادر، بيروت، ليدن، مطبعة برايل، 1909 مقتطفات من المقدمة

كتامي، سبتة، قلعة النسور (يقصد قلعة حجر النسر)، ونكور، ولم يضف أي معلومات أخرى.

كتاب صورة الأرض لابن حوقل (ت380هـ): يعد كتاب الجغرافي /الرحالة (ابن حوقل)[1] وعنوانه "صورة الأرض" من أبرز المصادر التي أمدتنا بمعلومات قيمة عن المدن المغربية الوسيطية، وينفرد عن غيره بكونه زار معظم هذه المدن، كما اعتمد على مصادر أخرى.

وكانت بداية رحلته من بغداد في يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة 331هـ[2]، الموافق 15 مايو 943م. حيث أمضى في رحلاته الواسعة زهاء ثلاثين سنة. وما يهمنا هنا هو رحلته إلى المغرب التي وصلها عام 336هـ/947م. وفي طريق عودته من الأندلس، مر على المغرب ثانية حيث نجده فيها عام 350هـ/961م[3].

وفضلاً عن كون هذا الكتاب من أدق كتب الرحلات، فقد بدأ برسم حدود إقليم المغرب، ثم رسم خارطة ثبت فيها أسماء المدن الساحلية والداخلية وثبت شبكة الطرق البرية التي ربطت مناطق المغرب ومدنه التجارية. وقد دون وصفا شاملاً لمدن المغرب ولم يترك شيئا منها إلا وصفه، وسجل بعض الاصطلاحات الإدارية مثل الكوره (وحدة إدارية أصغر من الإقليم)، والمدينة (وحدة إدارية)، والرستاق (المنطقة الزراعية التابعة للمدينة)، والناحية (أحد أقسام إقليم ما)، والقرية (وحدة إدارية أصغر من المدينة) وقسمها إلى صغيرة وكبيرة. كما اهتم كثيراً بالشؤون الاقتصادية[4]. ونالت بعض النظم التجارية اهتمام (ابن حوقل) أيضاً، فذكر

1- هو أبو القاسم محمد بن علي الموصلي، الحوقلي، البغدادي، ولد ببغداد ونشأ بها، وتعاطى التجارة بالموصل

2- ابن حوقل، **صورة الأرض**، دار صادر، بيروت، مطبعة ليدن، 1906، من مقدمة الناشر.

3- صباح إبراهيم الشيخلي، **النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال القرن الـ 4هـ/10م، دراسة لكتاب، "صورة الأرض" لابن حوقل**، نشرت ضمن مجلة التاريخ العربي، العدد السادس، ربيع 1998، الرباط، ص 23 إلى ص 62.

4- حيث شملت جوانب النشاط الزراعي، والصناعي، والتجاري لمغرب القرن الرابع الهجري/10م. اهتم أولاً بتبيان الأسباب التي تتحكم في تجارة هذا الإقليم، ثم صنف الأنشطة التجارية المغربية إلى تجارة داخلية وخارجية، برية وبحرية، ورسم شبكة الطرق الرئيسية

الأسواق وأنواعها والعاملين بالتجارة وكذلك الضرائب المفروضة على التجارة، ولم ينس التطرق إلى الأسعار والموازين والمكاييل، فجاءت معلوماته عن النشاط التجاري في غاية التفصيل والشمول معاً، ويعزى ذلك إلى الحس التجاري الذي امتاز به[1].

وأثناء وصفه لمدينة ما يتطرق (ابن حوقل) إلى بعض الجوانب التاريخية المتصلة بها، مثل تحديد زمن بنائها أو خرابها، بالإضافة إلى حجمها ووظائفها الإدارية والدينية والعسكرية والتجارية، وبعض الأحداث التي شهدتها، كما نالت الجوانب الاجتماعية اهتمامه أيضاً، فقد ذكر سكان إقليم المغرب وتقاليدهم وعاداتهم وأخلاقهم وعلمهم وملابسهم.

من هذا المنطلق فإن نصوص (ابن حوقل) عن المدن المغربية قد أفادتنا كثيرا في التعرف على بعض التفاصيل التي لم نجدها عند غيره من المصادر، حيث وصف لنا الوضع الاقتصادي والمعيشي لسكان مدن إقليم الهبط على عهد عبد الله بن إدريس بن عبيد الله بن إدريس، الذي كان حاكماً لهذا الإقليم عند زيارة (ابن حوقل) للمغرب، وقد تركز وصفه على خصوبة الأرض، ورخص الأسعار، وجودة الأغذية، وصلاح الأمور، وعمارة الطريق، كما وصف مدينة البصرة، وسورها، ومياهها، وبساتينها، وخصوبة تربتها، وأنواع الخيرات الفلاحية، وتجارة أهل البصرة، كما وصف أسواقها، والعمارة والهواء، وطبائع السكان.

ويعد كتاب (ابن حوقل) أقدم من أشار إلى مدينة كُرت، كما أورد ذكراً لقلعة حجر النسر. وأشار إلى طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين الأمويين والأدارسة، على عهد الناصر، منوهاً بأن نسب الأدارسة ـ في عهده ـ لا يزال منظوراً إليه وحقوقهم مرعية لديه، والناصر يحافظ عليهم ما بقي ولاءهم له. كما أنه يستخدم القوة ضدهم في حالة شق عصا الطاعة

والفرعية بدقة، وأعطى لمحطاتها التجارية اهتماما كبيراً، كما وضع قائمة بأسماء السلع الصادرة والواردة إلى بلاد المغرب من مختلف الأنواع ومن مختلف الجهات الداخلية والخارجية.

[1]– الشيخلي، مرجع سابق، نقل بتصرف.

عليه، في إشارة منه إلى أبي العيش كنون، وعلل (ابن حوقل) سر اهتمام الناصر بالأدارسة إلى أنه يرجع إلى محاذاة بلاد الأدارسة لبلاده. ولذلك يعد كتاب صورة الأرض لابن حوقل من المصادر الأساسية والمباشرة للبحث، ولهذا يصنفه بعض الباحثين بالمرتبة الثانية بعد (البكري) من حيث الوصف للمدن المغربية[1]، فهو الوحيد الذي أرشدنا إلى أن مدينة الأقلام.

وقد أتم ابن حوقل تنقيح الكتاب الذي سماه "المسالك والممالك"[2]، حوالي سنة 367هـ/977م، ثم خرجت طبعة منه باسم صورة الأرض. وإن كانت رحلاته، وخاصة إلى الأندلس، لا تخلو من هدف سياسي لصالح الفاطميين[3].

المُغرب في ذكر إفريقية والمغرب للبكري (432- 487هـ): في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ظهر جغرافي أندلسي هو عبد الله عبد العزيز بن يعقوب بن عمر أبو عبيد الله البكري، المولود عام 432هـ، وهو ينحدر من عائلة كانت تحكم إمارة "ولبة وشلطيش" غرب إشبيلية على ساحل المحيط، حتى سقوط الإمارة عام 443هـ على عهد ملوك الطوائف، فأنتقل رفقة أسرته إلى قرطبة. وفي مدينة قرطبة شب البكري وتلقى تعليمه، تتلمذ على يد أبي مروان بن حيان، وأبي العباس العذري. كان البكري عالماً في اللغة والجغرافيا، وقد خلف عددا من المؤلفات من بينها كتابان في الجغرافيا، أحدهما بعنوان (معجم ما استعجم) مرتب حسب أسماء الأماكن المذكورة في القرآن والحديث

---

[1] – محمد أمليد، **المدن الإدريسية خلال القرنين 3–4هـ**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، 1986، ص 8.

[2] – طبع كتاب ابن حوقل مرتين في ليدن، ففي الطبعة الأولى، نشر باسم "المسالك والممالك والمفاوز والمهالك"، ثم حسنت هذه الطبعة، ونشرت بعنوان "صورة الأرض" من منشورات دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، [بدون تاريخ طبعة]، وهو الكتاب الذي اعتمدناه في طبعته الأخيرة، للمزيد من المعلومات أنظر، مقدمة الكتاب

[3] – الحبيب الجنحاني، **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1986، ص 166.

والشعر العربي، والثاني - وهو ما يعنينا- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب "المسالك والممالك".

والكتاب من أهم المصادر حول المدن المغربية ووصف المعمار، والأطوال والمسافات بين مدينة وأخرى، وكذلك الاقتصاد، والعلاقات التجارية، ولكنه أحياناً كان يختصر بشدة إلى درجة ذكر الاسم فقط، ومع ذلك تحدث عن مدن المغرب بصورة شاملة، ولا يمكن لدارس تاريخ المغرب الوسيط بالخصوص الاستغناء عنه أو تعويضه، لأن ما انفرد به لا يوجد عند غيره، حتى عد البكري أكبر جغرافي أنجبته الأندلس على الرغم من أنه لم يبرح قط أرضها، واعتماده في تصنيف كتابه المسالك على مؤلفات من سبقوه من الجغرافيين. وخصوصاً كتاب "مسالك إفريقية وممالكها" لأبي عبد الله محمد بن يوسف الوراق[1] (291-362)هـ (904-973م)، إلا أنه ملك أسلوباً يمتاز بدقة الوصف وكأنه شاهد عيان، ولم يترك في الغالب الأعم مدينة أو قرية أو قلعة في المغرب الأقصى إلا وتحدث عنها.

وقد نقل عن البكري جل المتأخرين، كالإدريسي وابن عذارى، وابن خلدون، وابن أبي زرع، وصاحب الاستبصار، وابن سعيد المغربي، وياقوت الحموي والحميري وغيرهم. ويعد هذا المصدر أبرز مصادر الدراسة المباشرة إلى جانب ابن حوقل فيما يتعلق بوصف مدن الدراسة فهو أقدم من حدد زمن تأسيس مدينتي البصرة وأصيلا، ومن أسسهما، وموقعهما، والحيز المكاني الذي تشغله كل منهما، والأسوار،والأبواب، والجامع، والمقابر، والأسواق، والآبار، وتجارة أهل البصرة وجمال

---

[1]– الوراق أندلسي المولد، من وادي الحجارة شمالي مدريد، رحل به أهله إلى القيروان بتونس، وبها درس ثم عاد إلى قرطبة أيام الحكم المستنصر وبها توفي، له عدة تأليف في الجغرافيا والتاريخ، لم يبق منها غير ما نقل عنه الآخرون. انظر هامش **المقتبس** لابن حيان تحقيق عبد الرحمان الحجي، دار الثقافة بيروت، 1983، ص 33. وعن البكري أنظر كل من ابن سعيد المغربي، **الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، مصدر سابق، ص 43، وعبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج2، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000، ص 84. السيد عبد العزيز سالم، **التاريخ والمؤرخون**، مرجع سابق، ص 194، ومحمد أومليد، **المدن الإدريسية**، م. س، ص 7.

نسائها، ومرسى السفن في أصيلا، وذكر أنها لم تقم على أنقاض مدينة قديمة (محدثة)، كما أشار إلى أن مدينة كُرت اندثرت على عهده (ق5هـ)، كذلك حدد البكري موقع قلعة حجر النسر، ومؤسسها، وسنة التأسيس، وخبر مطاردة ابن أبي العافية للأمراء الأدارسة، واحتماءهم بقلعة حجر النسر، والحصار الذي ضرب على القلاعة، ومدته، وكيفية فك الأدارسة للحصار، وسبب نجاحهم في ذلك.

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي (493-560هـ/1100-1165م)[1]: شاهد الناس في القرن السادس الهجري - بفضل مؤلفات الشريف الإدريسي- الامتداد المعرفي المتعلق بحدود العالم مثل ما كان الجغرافيون العرب يتصورونها في ذلك الحين. وقد وضع المغرب الأقصى في الإقليم الرابع، ويصف أرض المغرب ابتداءاً من سبتة بتفصيل دقيق من حيث الأطوال والمواقع والمواضع، وما تتصف به كل مدينة، وكذلك الأنهار والأودية والشعاب والجبال والمزروعات والثروة السمكية، إلخ. ومن المدن (في الشمال الغربي المغربي) ذكر سبتة، طنجة، نكور، بادس، المزمة، قصر مصمودة، قصر عبد الكريم، أزيلا، البصرة، كُرت، وحجر النسر وغيرها.

ويعتبر كتاب الإدريسي حافلاً بالمعلومات المفيدة للمغرب الوسيط، والأدارسة خاصة، بالرغم من أنه لم يكن معاصراً لهم، ومع ذلك فقد أمدنا بمعلومات اقتصادية (تجارية، فلاحية، صناعية، معدنية) وقد لقب الشريف الإدريسي (باسترابون العرب)، ولذلك يعتبر أعظم جغرافي في العصور الوسطى، وكتابه يزخر بالمعلومات الصحيحة، وينتمي إلى اتجاه الجغرافيين المهتمين بشدة في وصف أقطار العالم الإسلامي أو البلدان أو

---

[1]– هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي، من أكابر علماء الجغرافية. ولد بسبتة، ونشأ وتعلم بقرطبة. رحل إلى صقلية ووضع لصاحبها كتاب أسماه **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، أكمله في سنة 548هـ. انظر: الزركلي، **الأعلام**، المجلد السابع، دار العلم للملايين، ط7، مايو 1986، ص 24.

الممالك[1]. وقد استفاد البحث من نزهة الإدريسي، في وصف مدينة البصرة وسورها والمجال المحيط بالمدينة والخيرات الفلاحية، وأهلها. كما وصف مدينة أصيلا على عهده، مشيراً إلى أنها كانت صغيرة. ويعد الإدريسي أول من وطن مدينة كُرت على سفح الجبل المسمى باسمها، كما أشار إلى وفرة مياهها العذبة، والعمران وأنواع المحاصيل الفلاحية، ونسبها إلى إقليم طنجة، وأضاف إلى معلوماتنا عن قلعة حجر النسر أنها محدثة لآل إدريس، خصبة كثيرة الخيرات، ولها بساتين وعمارات.

كتابا:الجغرافيا، وبسط الأرض في الطول والعرض لابن سعيد المغربي: هو علي بن موسى بن سعيد المغربي[2]، ولد في 22 رمضان سنة 610هـ، الموافق فبراير 1214م، في قلعة يحصب من أعمال غرناطة، كانت هذه القلاعة مقراً لإمارة بني سعيد، وقد منذ شهد النور لأول مرة في هذا المحيط الذي يمتزج فيه نفوذ السلطان بجلال العلم، حيث تلقى تربية وثقافة ممتازة، وكانت أشبيلية عاصمة الأندلس الأدبية والسياسية في ذلك الوقت أفضل مكان لتحقيق هذه الغاية، على رجال من أعلام اللغة والأدب معظم فترة شبابه، ولما عاد إلى مسقط رأسه ضم جهوده إلى جهود والده واشترك الاثنان في إتمام كتاب (المغرب في حلى المغرب) الذي كان جده قد شرع في تأليفه.

وما يهمنا هنا هو الإشارة إلى كتابين لابن سعيد هما، الجغرافيا، وبسط الأرض بالطول والعرض.

ويتميز الكتابان بوصف مدن المغرب، ويكفي أن علماء من مستوى ابن خلدون، والمقري، وأبي الفداء، اقتبسوا من مؤلفاته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة صفحات لفتت أنظار العلماء في العصر الحديث. كما التزم ابن سعيد الأمانة العلمية، فدائماً ينسب الأحداث إلى مصدرها. واستفدنا من هذين المصدرين كثيراً في تحديد مواقع المدن ووصفها والإشارات

---

[1]- عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 193.

[2]- سيرته ومؤلفاته وأسفاره مأخوذة من مقدمة كتابه الجغرافيا، [تحقيق إسماعيل العربي]، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1970، ص5 وما بعدها.

التي تميز كل منطقة على حدة، كوصفه لحركة ميناء أصيلا، ودقته في تحديد مواقع المدن المغربية بالدرجة والدقيقة والمرحلة، فالبصرة عنده إلى الغرب من مكناس بانحراف إلى الشمال، وأصيلا بالقرب من مصب نهر القصر في المحيط.

الاستبصار في عجائب الأمصار للمجهول

لم يشر في العصر الوسيط أي كاتب إلى هذا الكاتب أو مؤلفه، باستثناء ابن أبي زرع، كما أن المؤلف لم يتحدث بأية معلومات تكشف لنا عن شخصيته، ويرجع إلى فترة يعقوب المنصور وتدل التفاصيل التي يمدنا بها عن مكناسة، فاس، ومراكش، على أنه عاش فيها إن لم يكن أصله من إحداها، كما أنه كان مقرباً من البلاط الموحدي، يدل على ذلك المعلومات التي قدمها عن الحملة العسكرية ضد بني غانية في إفريقية.

وبالنسبة للكتاب فهو ليس كتاب جغرافية خالصة، فرغم تاريخ تأليفه المتأخر نلاحظ أنه يحتوي على خليط من التاريخ والجغرافية من كل لون، ويستند على مصادر يذكرها أحياناً مثل المسعودي (ت 345هـ، 956م)، وابن وصيف سنة 1000م، ونقل عن ابن عبد الحكم، والبكري، وتأثر بنزهة الإدريسي، فهو يسجل ما يشاهده ويعطي وصفاً أكثر دقة.

وقد أفادنا هذا المصدر كثيراً في معلوماته عن مدن الشمال الغربي المغربي، وتحديداً مدينة كُرت حيث انفرد بمعلومات مهمة عن المدينة وموقعها ونهرها والقبائل التي عمرتها، ووضع المدينة على عهده، كما وصف مدينة البصرة وحدد لون سورها (يبدو محمراً من بعيد)، بالإضافة إلى وصفه مدينة أصيلا، وسبب تأسيسها. ولذلك فإن مجهود المؤلف لا ينكر فهو ينتهج منهجاً خاصاً به ويعطي معلومات شخصية في غاية الأهمية[1].

---

[1]– المجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب**، وهو من أهل مراكش ومن كتاب القرن السادس الهجري/ 12م، [نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد]، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص 159، 219، 226.

2-كتب المؤرخين والإخباريين وأصحاب الحوليات

المقتبس في أخبار الأندلس لابن حيان (377-469هـ/987-1076م): صاحب المقتبس هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان القرطبي، ولد بقرطبة، من كُتاب المنصور ابن أبي عامر، كان عالماً من الطبقة العالية، ذا دراية واسعة في ميادين مختلفة، لكنه برز في ميدان التاريخ بطريقة الحوليات، فأحاط بالأحداث بدقة وتفصيل وأفاد من مؤرخين كبار فقد إنتاجهم وينقل بأمانة عنهم، لا يكتفي بذكر يوم الحادثة بل الساعة كما يبين لنا التاريخ الهجري ومقابله بالميلادي.

ويعد كتابه (المقتبس في أخبار بلد الأندلس - الجزء الخامس) أهم ما ذكر عن المغرب من خلال رصده لأحداث خمس سنوات من أيام الحكم المستنصر في قرطبة، أي من 360-364هـ 970-977م[1]، فالكتاب عبارة عن حوليات مقسمة إلى أحداث عبر العام، أشار فيها ابن حيان إلى حملات الخليفة الأموي الثاني (الحكم) إلى العدوة المغربية لقتال الثائر عليه الحسن بن كنون الإدريسي المتعاطف مع العبيديين.

هذه الحملات -التي بدأها برئاسة وزيره محمد بن قاسم طملس ثم الوزير الأعلى غالب بن عبد الرحمان- يسرد فيها تفصيلا تحركات الجيوش والمعارك ومواقعها، ويذكر علاقة الحكم بالقبائل في المغرب وموالاتها في الأموال والخلع. ويشير إلى رسائل الحكم وأوامره خلال هذه الأحداث، وكذلك رسائل قواده ومواليه من العدوة يخبره فيها بآخر الأخبار بخصوص ما يستجد من تحركات القبائل وما توصلوا إليه معها فيما يتعلق بالموقف من الأمير الإدريسي، ويبشره بالنصر أو بطلب التعزيزات.

---

[1] - أنظر مقدمة كتاب ابن حيان، **المقتبس**، ج5، [تحقيق عبد الرحمان علي الحجي]، دار الثقافة، بيروت، ط1983.

وقد أفادنا مقتبس ابن حيان كثيراً حول الأحداث السياسية التي شهدتها الدولة الإدريسية في مرحلتها الثانية بالريف، ومدنها وخاصة البصرة وأصيلا وحجر النسر والتي شهدت سقوط الدولة الإدريسية سنة 375هـ.

البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذراي(ت 695هـ، 1295م)

المؤلف هو أحمد بن محمد المراكشي، مؤرخ أندلسي المولد، من أهل مراكش، نبغ في أواخر القرن السابع الهجري/ 13م، وهو صاحب كتاب تاريخ الأندلس وشمال إفريقية طبع الجزء الأول منه والثاني في ليدن بمطبعة برايل سنة 1848م. وقد استفدنا من هذا الكتاب بجزئيه، بالرغم من كونه متأخراً نسبياً، إلا أنه يتميز بالدقة مقارنة بالمصادر الأخرى، وفيما يتعلق بوصفه للمدن المغربية فقد اعتمد على مصادر متقدمة، وبشكل رئيسي على" محمد بن يوسف الوراق"، الذي يوصف بـ" القروي". وابن عذاري من المؤرخين الذين تمكنوا من الربط بين وصف المدن وسرد الأحداث التاريخية بشكل أكثر مصداقية[1]. خصص في كتابه (البيان المُغرب) موضوعات مستقلة عن تاريخ مدينتي البصرة، وأصيلا على العهد الإدريسي، وذكر القبائل التي شكلت نواة المدينتين ومجتمعهما، وأشار إلى أن مدينة كُرت كانت قاعدة أحمد بن القاسم (أبو العيش)، ووصف الأحداث السياسية التي شهدتها قلعة حجر النسر خلال صراع الأدارسة مع أعداءهم.

القرطاس لابن أبي زرع (ت 741هـ)[2]**:** صاحب المؤلف هو علي بن عبد الله بن أبي زرع، وكتابه بعنوان: **" الأنيس المطرب بروض**

---

[1]- فيما يتعلق بأخبار المؤلف وكتابه تم الاعتماد على الزركلي، **الأعلام**، م7، م.س، ص95. العباس بن إبراهيم، **الإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام**، ج4، [تحقيق عبد الوهاب بن منصور]، المطبعة الملكية، الرباط، 1976، ص284-285.

[2]- يشير الرهوني (أبو العباس أحمد) في كتابه: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج1، [تحقيق جعفر السلمي]، منشورات كلية الآداب تطوان، وجمعية تطاون، ط1، 1998، ص 148، أن ابن أبي زرع توفي سنة 727هـ.

القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، ويعد من أهم مصادر المؤلفين المغاربة منذ تأليفه نظراً لشموله ووفرة أخباره، يتحدث فيه عن تاريخ المغرب عموماً وتاريخ مدينة فاس خصوصاً (من بداية الدولة الإدريسية إلى سنة 726هـ من سنوات عهد أبي السعيد عثمان المريني).

وطريقة ابن أبي زرع ليست هي طريقة الحوليات التي جرى عليها أغلب المؤرخين المسلمين في العصر الوسيط، ولكنها طريقة من يؤرخ للدول، فهو يذكر الدولة ونسبها، وتشعب قبائلها ومراحل تأسيسها، ثم يذكر سلاطينها واحداً واحداً، وما قاموا به من أعمال، ثم يذكر في نهاية الكلام عن كل دولة ما حدث في أيامها من أحداث اجتماعية واقتصادية وظواهر طبيعية كوفيات الأعيان، ورخاء الأسعار، وانتشار الأوبئة والمجاعات، ونزول الأمطار بغزارة، وظهور نجوم غريبة[1]. وتكمن استفادتنا من هذا المصدر فيما يتعلق بشروط تأسيس المدينة، ورصده للأحداث السياسية في عهد الدولة الإدريسية، ومدن الشمال الغربي المغربي التي شهدت تلك الأحداث، وتحديداً مدن البصرة، أصيلا، حجر النسر، وتم التعامل مع هذا المصدر بحذر شديد توخياً للدقة في المعلومات.

أعمال الأعلام، ومعايير الأخبار لابن الخطيب (ت 713-776هـ/1312-1371): صاحب الكتابين هو محمد بن سعيد[2]، المعروف بلسان الدين ابن الخطيب، كان وزيراً للغني بالله عبد الله محمد بن يوسف النصري بغرناطة، معظم حياته، وعندما فقد الغني بالله عرشه، فقد ابن الخطيب وزارته وثروته، غير أن سلطان المغرب يومئذ أبا سالم المريني تدخل لدى سلطان غرناطة الجديد بالسماح لهما بالجواز إلى المغرب فسمح لهما، فنزلا عند سلطان المغرب ضيفين كريمين، وبمقتل الغني بالله

1- تم الاقتباس من مقدمة كتاب **القرطاس** للناشر بتصرف.
2- المذكرة الثقافية، مجلة العربي، العدد (543)، فبراير، 2004، ص200.

أثناء محاولته استعادة عرشه، فقد ابن الخطيب صديقه، وشاهد مصرع ملوك وأمراء وتعاقب التصفيات، ومع ذلك ظلت غرناطة حتى القرن الثامن الهجري تتمتع بمستوى رفيع من الحيوية والازدهار الفكري.

وهذان الكتابان من أبرز مؤلفات ابن الخطيب بالنسبة للدراسة، فقد تمت الاستفادة منها كثيراً على النحو التالي:

1-أعمال الأعلام، القسم الثالث، المعروف بتاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، والذي أفادنا في رسم لوحة للوضع السياسي الذي شهدته الدولة الإدريسية حتى سقوطها سنة 375هـ، وعلى الأخص أحداث القلاعة الإدريسية (حجر النسر) منذ تأسيسها حتى سقوطها بيد ابن أبي عامر، حاجب هشام المؤيد، أخر خلفاء بني أمية في قرطبة بالأندلس.

2-كتاب معايير الأخبار في ذكر المعاهد والديار، وقد أفادنا في رسم لوحة وصفية للمدن المغربية في الشمال الغربي خلال العصر الوسيط الأعلى (القرن الثامن وبداية التاسع الهجريين)، باعتباره شاهد عيان طاف بالمدن المغربية قبل وفاته، ووصف تلك المدن وصفاً تميز بأسلوب أدبي ومحسنات بديعية، مكنتنا من الوقوف على مختلف المستجدات التي طرأت على مدن الدراسة، اقتصادياً واجتماعياً.

مفاخر البربر للمجهول (ق8هـ/14م): يجمع المؤرخون على أن مؤلف مفاخر البربر قد ألف كتابه سنة 712هـ، على العهد المريني[1]. تناول فيه البربر وأصولهم وتاريخهم قبل ابن خلدون، رغم أن ابن خلدون لم يشر إليه. وقد أفادنا هذا الكتاب كثيراً عن أخبار الأدارسة في المغرب، وأخبار تقسيم دولتهم، وصراعهم مع بربر مكناسة بزعامة موسى بن أبي العافية، وكذلك صراعهم مع زناتة، وزعيمهم محمد بن خزر، وفي ذكره

---

[1] - أي في العهد المريني (613-876هـ/1216-1471م)، وكان يعقوب بن عبد الحق المريني (656-685هـ) هو أول من تسمى من المرينيين بأمير المسلمين بعد أن وضع حدا للموحدين، سنة668هـ، وأعاد توحيد بلاد المغرب الأقصى من سجلماسة إلى سبتة، سنة674هـ. أي أنه أعاد ربط البلاد بالتجارة الصحراوية والتجارة البحرية. وقد خلفهم الوطاسيون(876-961هـ/1471-1554م).

لأخبار المنصور بن أبي عامر حاجب هشام المؤيد بقرطبة تحدث عن الحروب الأموية التي قادها العامريون ضد الأمير الإدريسي الحسن بن كنون، منذ أيام الخليفة الحكم المستنصر إلى عهد المنصور بن أبي عامر، وكذلك أخبار الحملة الفاطمية بقيادة بلقين بن زيري سنة 269هـ، لمواجهة التوسع الأندلسي في المغرب أيام المنصور.

وقد جاء هذا المصدر بجديد انفرد به عن غيره، من ذلك ذكره للموضع الذي قتل فيه الأمير الإدريسي الحسن بن كنون آخر أمراء بني إدريس، من قبل المنصور بن أبي عامر سنة 375هـ، وهو في طريقه إلى قرطبة أسيراً. ولذلك تمكنا - من خلال هذا الكتاب- من رسم لوحة متكاملة للأحداث السياسية التي شهدتها المدن المغربية (محل الدراسة)، حتى سنة 386هـ، أي بعد سقوط الدولة الإدريسية بعقد من الزمان تقريباً. وقد اعتمدنا على النسخة التي حققها عبد القادر بوياية، الصادرة عن دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الأولى، 2005.

المقدمة والعبر لابن خلدون (732-808هـ/1332-1405م):

صاحب الكتابين هو عبد الرحمن أبو زيد بن محمد ولي الدين بن خلدون الحضرمي، المغربي، ولد بتونس. وينتمي لأسرة يمتد نسبها إلى الصحابي الجليل وائل بن حجر، ومن حفدته دخل خالد بن عثمان إلى الأندلس مع الفاتحين العرب حيث تأسس بيت الأسرة الخلدونية في اشبيلية، ومن هناك هاجرت الأسرة إلى المغرب[1].

استفدنا من المقدمة معلومات تتعلق بتعريف المدينة وشروط تأسيسها وظاهرة الدولة، كما استفدنا من العبر، وخاصة الجزأين الرابع والسادس تعريفه لقبائل البربر ومواطنها ودورها في تأسيس المدن المغربية الوسيطية، وعلى الأخص خبر تقسيم المغرب إلى ولايات وزعت على أبناء إدريس الثاني، والحروب التي حدثت بين الأمراء

---

[1]- محمود السعيد الكردي، **ابن خلدون، مقال في المنهج التجريبي**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ط1، 1984، ص 32 وما بعدها.

الأدارسة وما نتج عنها من أحداث شهدها المغرب وخاصة الشمال الغربي منها.

وخلال بحثنا في تفاصيل الدراسة المختلفة عبر الأبواب والفصول المكونة لها سوف نعتمد على ما جاء في تلك المصادر باعتبارها سند ومصدر كل البيانات المعروضة، والتي نستهلها بالباب الأول المتعلق بالمجال الطبيعي والتطور التاريخي.

الباب الأول

المجال الطبيعي والتطور التاريخي

الفصل الأول
لمحة عامة عن المدينة الوسيطية

ما يشغل بالنا منذ البداية قبل الدخول في صلب الموضوع هو إيجاد الحلول لبعض المشاكل التي ترتبط بموضوعنا قبل البدء في تحرير سطوره الأولى، ومن تلك المشاكل ضرورة استحضار ما نسترشد به من أراء مفكري العصور الوسطى. وفكرة إدراج تلك الآراء راجعة إلى اعتقادنا بوجود روابط تاريخية بين عموم مدن العصور الوسطى في عالم البحر الأبيض المتوسط الذي يدخل من ضمنه العالم العربي. وبطبيعة الحال فإن التاريخ – حسب اعتقادنا- يؤيد هذا الطرح.

وما ألح علينا إدراج هذين العنصرين الأولين المتعلقين بتعريف المدينة ووضع إطار عام للمدن السابقة لفترة الدراسة هو حاجتنا إلى خلق رابطة بين السابق واللاحق من مفهوم المدينة وتوزيعها الجغرافي. ويدخل ضمن هذا الفصل القيام بجولة توضيحية لوضعية المدن التي أنشئت في المغرب قبل القرن الثالث الهجري/9م، أي قبل الفترة المحددة لبداية هذه الدراسة. ولا يمكن أن يتم وضع هذا التصور إلا بعد تقديم نظرة عن الإطار الجغرافي الذي سيكون مجال البحث والدراسة خلال الفترة المحددة لموضوعنا.

أولاً

المدينة عند مفكري العصور الوسطى[1]

ما يهمنا في هذه الفقرة التمهيدية هي الأفكار الخاصة بالمدينة خلال **الفترة التي عاشها المجتمع العربي الإسلامي** منذ الفتح العربي، حتى بداية القرن الخامس الهجري/11م، إذ أنها تمثل نقطة التحول الإيجابي نتيجة لظهور التمدن المتميز بسماته الإسلامية، لكونها قد سارت في الطريق الذي مهدته لها الظروف الطبيعية، وغير ذلك من العوامل، مما أضفى على الطراز المعماري والفني- خلال تلك الفترة التاريخية ـ طابعاً عاماً يحمل الكثير من السمات العامة المشتركة في البلدان المغاربية.

فما هو أولاً رأي المفكرين المسلمين فيما يتعلق **بالمدينة والتمدن؟** وما هي معايير **وشروط تأسيس المدينة** في نظرهم؟ هذان السؤالان الأساسيان رأينا إثارتهما للبحث عن الروابط والمؤشرات التي نسترشد بها لدراسة المدينة المغربية الوسيطية.

1- تعريف المدينة

ليس من السهل حدوث الاتفاق بين مؤرخي المدن سواء المشارقة أو المغاربة، ونشرع في اقتباس آراء الفرقة الأولى. ولمناقشة أراء هؤلاء المفكرين، فيما يتعلق بتعريف المدينة، نجد أنها تنقسم إلى قسمين، الأول يمثله رأي **ابن خلدون**، وهو ما يعنينا هنا، والقسم الآخر يمثله **"فقهاء التاريخ"**[2].

---

[1] – محمد أقوضاض، **المدينة المغربية"حصيلة الماضي وتحديات المستقبل"**، ضمن كتاب "**المدينة المغربية في أفق القرن الواحد والعشرين بين الهوية الوطنية والبعد المتوسطي**، سلسلة التراث (12)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000، ص224.

[2] – وهم الذين يعرفون المدينة بالمصر، وقد جاء في الحديث النبوي الشريف فيما يتعلق بالمصر. أنظر: محمد جمال الدين القاسمي، **إصلاح المساجد من البدع والعوائد**، المكتبة الإسلامية، ط4، 1399هـ، ص49-54، 25-53. محمد عبد الستار عثمان، م .س، ص18.

أشتغل الدارسون كثيراً بنظرية ابن خلدون (732-808هـ/1332-1406م) المتعلقة **بتطور التاريخ وانهيار الحضارة**[1]. وخلاصتها تتبلور في تعاقب ثلاثة أطوار على الدول والحضارات، أهمها: **طور البداوة**، الذي لا يخضع فيه البدو في الصحاري والبربر في الجبال والتتار في السهول لقوانين مدنية. **وطور التحضر**، وفيه يتم تأسيس الدولة عقب الفتح أو الغزو، ثم الاستقرار في المدن[2].

ووفقاً لعدد من المهتمين بالمدن من حيث شروط النشأة وضرورتها في الحقل الاجتماعي نجد أن هناك أراء كل من **القزويني وابن قتيبة**[3]. ولا ينبغي إغفال ما أدلى به **ابن رشد** القائل إن علم السياسة هو علم **تدبير المدينة**، ومن هنا كان تركيزه على القول بأن الإنسان **مدني بالطبع**[4]. ويمكن الاستفادة كذلك مما ذكره **المقدسي** عن المدينة [5]. ومما أدلى به **ابن منظور** و**الفيروزابادي** عن الحصن[6]. فضلاً عن قوله: إن المدينة تعادل الأمة[7].

وخلاصة القول من تلك التعاريف المتسمة بقسط من الرؤية النظرية إن المدينة هي تجمع بشري يختلف اختلافاً بيناً، بناءً على أن الإنسان

---

[1]– محمد فتح الله الزيادي، **الاستشراف أهدافه ووسائله دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون**، ط1، دمشق، 1988، ص212.

[2] – ابن خلدون، **المقدمة**، [تحقيق علي عبد الواحد وافي]، دار الفجالة، القاهرة، ج2، ص852–854.

[3] – القزويني، **أثار البلاد والعباد**، دار صادر، بيروت، [بدون تاريخ]، ص195.

[4]– زينب عفيفي شاكر، **ابن رشد ومدينته الفاضلة**، مجلة العربي، ع 578، ينساير، 2007، ص90–95.

[5] – هي المصر. المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، طبعة ليدن، 1906، ص47. محمد جمال الدين القاسمي، **إصلاح المساجد**، م.س، ص49–54، 25–53. محمد عبد الستار عثمان، م .س، ص16.

[6] – المدينة هي الحصن الذي يبنى في أصطمة الأرض. ابن منظور، (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، ت:711هـ/1311م)، **لسان العرب**، المجلد(17)، بيروت، 1970، ص 288–289. ويقول الفيروزابادي: هي الحصن الذي يبنى في أصطمة الأرض. الفيروزبادي، (محمد بن يعقوب، ت817هـ)، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978، ط2، ، ص1592

[7]– الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، م. س، ص1592.

ميال إلى التمدن بطبعه، ولا بد من توفر شرط آخر متوقف على مستوى تدبير مهام المدينة من الوجهة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ومن وجود المدن تنبعث الدولة والأمة.

والملاحظ أن هناك مصطلحات أخرى تحل أحياناً مكان التجمع المديني فمن اللافت للنظر وجود كلمة **قاعدة** في مصادر العصر الوسيط إشارة إلى المدينة، وهناك أمثلة واردة عند البكري، وعبد الرحيم الغرناطي، وابن فضل الله العمري، والقلقشندي، وأبو الفدا إسماعيل، والقزويني[1]. فيصنف **القلقشندي، مثلاً**، مدن المغرب الأقصى إلى قواعد، ولهذا مدلوله ومعناه[2]. كما ورد اسم **المحلة**، كأحد مصطلحات المدينة[3]، فضلاً عن **الكوره**، ونرجئ تحقيق دلالات المصطلحات إلى مكانه لاحقاً. ونذكر أن أمثال تلك المصطلحات موجودة في المنطقة المدروسة. وبصفة عامة فإن مراكز الاستيطان الحضري يمكن تصنيفها:

- من حيث الحجم: إلى **مدن كبيرة، ووسطى، وصغيرة.**
- ومن الوجهة الإدارية: إلى **مدينة وكوره** في آن واحد، **ومدينة ولاية.**
- ومن حيث الوجهة العسكرية: إلى **قصبة** وهي المدينة العامرة، أو **مدينة وقصبة**، أو **قصبة وكوره**، أو **بلد وقصبة** في ذات الوقت كما ورد

---

[1] – البكري، **المُغرب في ذكر إفريقية وبلاد المغرب**، طبعة باريس، 1965، ص76–77. الغرناطي، (عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي، ت: 565هـ)، **في تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، [تحقيق إسماعيل العربي]، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط1، 1993، ص 174. العمري، (أحمد بن فضل الله)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، [تحقيق/مصطفى أبو ضيف أحمد]، الأبواب:8–14، الدار البيضاء، 1988، ص120. القلقشندي، (أحمد بن علي)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج5، [شرح وتعليق نبيل خالد الخطيب]، دار الكتب العلمية، ط1، 1987، ص148، وما بعدها. أبوالفداء، (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، ت 732هـ)، حيث يشير إلى أن مدينة قصر عبد الكريم (قصر كتامة)، أصبحت هي القاعدة بعد تخريب البصرة. في كتابه: **تقويم البلدان**، [تصحيح ديسلان]، دار صادر، بيروت، طبع في باريس بالمطبعة السلطانية سنة 1840، ص133. القزويني، (زكريا بن محمد بن محمود)، **أثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، [بدون تاريخ]، ص201.

[2] – القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**،ج5، م.س، ص148–168.

[3] – عبد الأحد السبتي، وحليمة فرحات، **المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي)**، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1994، ص7–8.

تعبير قرية وهي قصبة أيضاً. وهذه **المصطلحات** مرتبطة **بالحصون والقلاع**، وأهمها: **القصبة:** اختلفت مصادر العصر الوسيط في دلالاتها، من ذلك: أن القصبة أعظم مدن البلاد، وأهم بناء في المدينة. وهي أيضاً ما يحفظ من المدينة القديمة داخل الجديدة. أو **الحصن**[1]. وأحياناً هناك من يربط بين القصبة وبين **القلاعة**، ففي حديثه عن فاس القاعدة الأولى بالمغرب، يشير (القلقشندي) إلى أنها تتوفر على قصبة، ويعرفها بقوله:" والقصبة هي القلاعة بها في غربيها، مرجلة على الأرض لا تتميز عن المدينة برفعة ولا ببناء عال"[2].

وتعد القصبة مكوناً رئيسياً من مكونات المدينة وقد شهدت القصبات تطوراً من حيث الوظيفة مع مرور الوقت، حيث كانت القصبة في الأصل مدناً ملكية مسورة ومحصنة، وعندما توسعت المدن خارج الأسوار فيما عرف بالأرباض تحولت مع الوقت لتصبح مدناً للعامة، وتضمنت في الوقت ذاته مقر للسلطة وجب تأمينه، ولأجل ذلك أنشئت قلعة محصنة بداخل تلك الأرباض عرفت بالقصبة، وظهر هذا الطراز المعماري في مدن الأندلس، ومدينة فاس الجديدة. ولا يختلف هذا على ما هو معروف بالمغرب **فالقصبة في المغرب** بناية محصنة بأسوار متينة، وهي التي تقابلها كلمة القلاعة الشائعة بالمشرق، والقصبة هي أهم بناء في المدينة[3].

وفي نفس الوقت اختلط في كثير من الأحيان التمييز بين القرية والمدينة، فقيل: **قرية كبيرة كالمدينة، وقرية كبيرة شبيهة بالمدينة، أو قرية كالبلدة.**

---

[1]– عبد الرحيم غالب، **موسوعة العمارة الإسلامية**، بيروت، ط1، ص 315.
[2]– القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج5، م.س، ص149.
[3]– مينة المغاري، **القصبة**، معلمة المغرب، ج19، مطابع سلا، 2004، ص 6633.

- كما نمطت المدينة **حسب نوع الوظيفة والشكل** إلى: **المدينة الحصن، والمدينة القلاعة، والمدينة التجارية، وعاصمة الدولة، وعاصمة الإقليم، والمدينة الملكية**[1].

وتجدر الإشارة إلى أن ظهور المدينة، حسب مفكري العصور الوسطى، هو في الأساس **نتاج لتقسيم العمل الاجتماعي**. ففي الوقت الذي كان فيه المجتمع بسيطاً وعلاقته غير معقدة، لم يكن هناك استقرار مدني. لكن بدأ الأمر يتغير، وصورة التجمعات تتحول تدريجياً. وقد تضمن هذا التجمع تكون الطوائف، فبظهور **الحرف** اليدوية تغير الوضع الاجتماعي، حيث أصبح لهذه الحرف جماعات مهنية متخصصة تتوارثها، ويتطلب القيام بها الاستقرار، فكان لهذه الجماعات وتلك الحرف مساهمة في تشكيل نواة المدينة، وبالتالي ظهور **الطبقات** والفئات والشرائح الاجتماعية، كالتجار والحرفيين، ورجال الدين، والأدباء، ورجال الحكم، الخ. وما تلا ذلك من ظهور **التشريعات والقوانين** الضرورية لتنظيم حياة المجتمع وعلاقاته، ولكي يتم العمل بالتشريعات وتطبيقها لابد من وجود سلطة ترتبط مصالحها أساساً بها وتحافظ عليها.

ومن خلال أوصاف **الجغرافيين والرحالة المسلمين**، نجد أن هناك معايير محددة لتمييز المدينة أهمها: **المعيار السياسي** وما يرتبط به من وجود سلطة إدارية وقضائية، ومن كبر المساحة وزيادة الكثافة السكانية. **ومعيار مادي** وما يرتبط به من وجود المرافق العامة. **ومعيار طبيعي** وما يرتبط به من توفر مصادر مرتبطة بالإنسان والحيوان والاستغلال، وعليها يتوقف ازدهار المدينة وتطورها، أو اضمحلالها واندراسها، أو تحولها بالتراجع إلى تجمع بدوي[2].

---

[1] - عبد الجبار ناجي، **مفهوم المدينة الإسلامية (2)**، مجلة المدينة العربية، عدد(15)، السنة الثالثة، 1984، ص58-62. محمد عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، م.س، ص89، 105-109.

[2] - بيتر فارب، **بنو الإنسان**، [ترجمة زهير الكرمي]، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1983، ص135-136.

كل ما سبق كان مدخلاً ضرورياً لتعريف المدينة، ومعايير تميزها عن غيرها، وكيفية نشأتها، حيث لم يقتصر رأي المفكرين على الطرح النظري، بل قدموا لنا شروطاً لتأسيس المدينة، نشير إليها على أساس التمهيد لما سنطرحه في موضوعنا الأساسي الخاص بالشمال الغربي المغربي.

2- التأسيس وشروطه

هناك شروط عامة تتفق عليها مصادر العصور الوسطى كلما تعلق الأمر بتأسيس المدينة. وفي هذا المجال نستأنس بمصدر أندلسي هو "بدائع السلك في طبائع الملك" لابن الأزرق (ق 9هـ/15م) [1]، إذ أننا لاحظنا أن العديد من الشروط التي ذكرها تنطبق على ما هو موجود في تاريخ المدن المغربية بالنسبة لمختلف الفترات المستعرضة في هذه الدراسة، وسنقدم الإشارات المرجعية التي توضح تلك العلاقة.

ويمكن لنا البدء بما ذكره **(ابن خلدون)**، في المقدمة، من أن هناك **شرطين خاصين** بالحماية من المضار وجلب المنافع، هما:

ـ وجوب مراعاة **الحماية** من المضار بإدارة المدينة بسياج من الأسوار، وأن يكون موضعها في تمنع من الأمكنة.

- جلب **المنافع** والمرافق، تراعى أمور عدة منها، توفر الماء والمرعى والمزارع، وقد يراعى أيضاً قربها من البحر لتسهيل جلب الحاجات من البلاد النائية. كما اشترط ابن خلدون ضرورة ضمان مناطق زراعية حول المدينة[2].

فإلى جانب الأسس العامة التي يجب مراعاتها عند تأسيس المدينة، اجتهدت مصادر العصر الوسيط في تحديد شروط خاصة بالأسس التي

1- ابن الأزرق، (محمد بن علي بن محمد الأندلسي، ت:896هـ/1491م)، **بدائع السلك في طبائع الملك**، ج2، [تحقيق/محمد عبد الكريم]، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1977، ص764-766.

2- ابن خلدون، **المقدمة**، ج3، القاهرة، 1967، ص 975.

يجب أن يراعيها الحاكم عند إنشاء المدينة، تظهر حسبما أورده كل من **ابن الأزرق**[1]، وبعده **ابن أبي الربيع**[2].

وبعد وفاة ابن أبي الربيع بحوالي قرن، **صنفت وظائف المدن،** وميز بينها من حيث الوظائف، وأشير إلى التركيب الداخلي للمدينة، وشروط اختيار موقعها، ومميزاتها، بصورة تتلاءم مع الأحوال الاجتماعية والاقتصادية السائدة آنذاك[3].

يتبين لنا من كل ذلك أن أمر **تأسيس المدينة** ليس مرهوناً بإرادة الحاكم فقط، ولكن هناك تدخل للعوامل المختلفة والعامة من اقتصادية وعسكرية وسياسية واجتماعية وثقافية، ستتأتى لنا فرصة الحديث عنها لاحقاً.

وحتى تكتمل الصورة المستخلصة من المدينة الإسلامية ومقارنتها بما كان عليه واقع المدينة المغربية قبل الفترة المدروسة، نحاول إعطاء توضيح أولي نرجو أن يكون ركيزة في دراسة مدن الشمال الغربي المغربي. وهذا لا يمكن تجاهله إذ إن مدن الشمال الغربي في نطاق الفترة المحددة للدراسة ليست سوى نتيجة لتطور المدن المغربية الأولى الناشئة ما قبل القرن الثالث الهجري/9م، مع قبول فكرة إنشاء مدن جديدة، وهذا ما سنقبل على بحثه لاحقاً.

---

[1] – فصل ابن الأزرق ما أشار إليه ابن خلدون، فيما يجب مراعاته عند تأسيس المدن، حيث قسم المضار إلى نوعين طبيعيين، هما: مضار أرضي، ومضار سماوي. ابن الأزرق، **بدائع السلك في طبائع الملك،** م. س، ص764–766.

[2] – أبرز تلك الشروط التي أوردها ابن أبي الربيع تتمثل في: أن يحوطها بسور، وإن أراد الحاكم سكناها فليسكن أفسح أطرافها، والإشراف على تقدير أسواقها حسب الكفاية، والعناية بتنظيم الشوارع والأزقة من حيث المساحة حتى تتناسب مع الحركة ولا تضيق، وأن يسوق إليها الماء العذب للشرب، حتى يسهل تناوله من غير عسف، وأن ينقل إليها من أهل الصنائع بقدر الحاجة لسكانها، وأن يميز بين قبائل ساكنيها، بأن لا يجمع أضداداً مختلفة متباينة. ابن أبي الربيع، **سلوك الممالك في تدبير الممالك،** [تحقيق ناجي التكريتي]، دار الأندلس، بيروت، 1981، ص192.

[3] – وليد المنيس، **التفسير الشرعي للتمدن،** سلسلة رسائل جغرافية (62)، كلية الآداب، جامعة الكويت، 1984. ص23. نقلاً عن الماوردي في الأحكام السلطانية.

ثانياً

المدينة المغربية قبل القرن الثالث الهجري/9م

من المعروف أن المغرب الأقصى يعد **جزءاً من المغرب الكبير** المندرج بدوره ضمن مكون جغرافي كبير هو العالم العربي الإسلامي. ومن المعلوم أن الحضارة الإسلامية كانت لها مكانة وميزة كبيرتان بين شعوب العالم في العصور الوسطى، وقد حدث تفاعل بين مكوناتها وبين المميزات الحضارية المحلية للبلدان المفتوحة، أنتج حضارة مشتركة ببعض السمات، وكان للمدن نصيب في ذلك. **فإلى أي حد تأثرت المدن المغربية بالحضارة الإسلامية؟.** في معرض الإجابة عن هذا السؤال نود القول إنه ينبغي لمعرفة أوضاع المدينة المغربية قبل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي الربط بين الدور الذي قام به المغاربة وبين التأثيرات الوافدة، حيث أشارت المصادر أن المدينة المغربية بوجه عام والمدينة في الشمال الغربي المغربي كانت في الأصل إما مدناً قديمة من إنشاء أهل البلاد (الموريون)، أو ما تسميهم بعض المصادر الأفارقة القدامى، وأحياناً تشير تلك المصادر إلى أسماء القبائل التي أسست بعضاً من هذه المدن، أو مدن استحدثت مع ظهور الدولة المغربية الأولى في العصر الوسيط (الإدريسية). وهو ما سنتعرف عليه بصورة أدق عند تناول مختلف أوضاع المدن والحصون في الشمال الغربي المغربي. ونكتفي هنا بوضع الجدول التالي لينوب عن تقديم صورة عامة توضيحية لما أشرنا إليه في هاته التناولة:

أسماء المدن والحصون	المؤسس (النشأة)	المصادر التي تحدثت عنها
أصيلا، أزجن، العرائش(لكسوس)، تطاوين، بادس، تشمس، أصادة	الأفارقة القدامى	البكري، ابن عذاري، صاحب الاستبصار، الحميري، الوزان، كربخال
لكسوس (قبالة مدينة العرائش الحالية)	الفينيقيون	الكيحل1
سبتة، طنجة، زيلي	تنسب إلى الرومان	الوزان، مارمول كربخال
أفتس، زلول، زهجوكة، الدمنة (حصن الكرم)، البصرة، الحمر، الأقلام، كُرت	القبائل المغربية + الأدارسة	ابن حوقل، ابن حيان، البكري، ابن عذاري، صاحب الاستبصار، الوزان، كربخال .
قصر مصمودة، قصر كتامة، المعمورة	تنسب إلى القبائل المغربية، وجددها المنصور الموحدي	الوزان، مارمول كربخال

وما ينبغي أن نؤكد عليه هنا أن المستوطنات والقلاع الرومانية قامت على أنقاض المدينة المغربية القديمة. دليلنا في ذلك أعمال المسح الأثري المتواضع لمنطقة غمارة وحوض سبو، والذي أشترك فيه عدد من الباحثين المغاربة، حيث تم الوقوف عند المآثر والبقايا التي تشهد على تاريخ المنطقة الطويل[2]. فالمدينة خلال المرحلة **الرومانية** تمتد من بداية النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، وتحديداً من سنة 40م، وحتى نهاية القرن الثالث الميلادي، حيث دخلت المنطقة - على إثر الاحتلال الروماني لموريطانيا الطنجية- مرحلة جديدة تميزت بخضوع الشمال الغربي عسكرياً، واقتصادياً لروما، وكانت أهم التأثيرات الحضارية الرومانية تتجلى في احتلال الجيوش الرومانية لمعظم مدن الشمال الغربي

---

[1]– أحمد الكيحل، **الصناعة الغذائية باللكوس وانعكاساتها الاقتصادية والمجالية**، رسالة دبلوم دراسات عليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987– 1988.

[2]– – عبد العزيز توري، **المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة**، مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، ع (11)، 1985، ص158–159.

المغربـي، وتغيير مكوناتها الحضـارية، وتمثلـت الـدلائل الماديـة بظهـور المؤسسـات الرومانيـة، وأبرزهـا: تخطـيط المدينـة، كالسـاحات العموميـة، وظهور ما يسمى بالشـارع الرئيسـي والشوارع المتميزة بزواياها القائمة في تقاطع عمودي، أشبه ما يكون بطاولة الشطرنج، وغالبا ما تكون ناحية الشارع الرئيسـي (شمال- جنوب) باتجاه مدينـة طنجـة، ثم شـارع رئيسـي ثـان، فـي وضـع متعامـد مـع الشـارع الأول باتجـاه (شـرق-غـرب)، ثـم الشوارع الفرعية أو الأزقة، والتي تتعامد بدورها مع بقية الشوارع1.

والواقع أن الاحتلال الروماني كـان يشكل مثلثـاً، رأسـه مدينـة طنجـة وقاعدته من شالة غرباً، إلى وليلي شرقاً، وضلعه الشرقي من طنجـة إلـى وليلـي، أمـا ضـلعه الغربـي فيمتـد مـن طنجـة إلـى شـالة. وهـو مـا عـرف بموريطانيا الطنجية. وعلى أثر ثورات البكوات انسحبت روما من العديد من المدن والمراكز الداخلية لتتوقف عند وادي اللوكس كأقصـى حد من جهـة الجنـوب وهـي التـي اسـتمرت إلـى غايـة مطلـع القـرن الخـامس الميلادي[2].

نعرف أن أثر وجود **الونـدال** فـي المنطقـة كـان ضـعيفاً، ومـن بعـدهم **البيزنطيون**، الذين تمكنوا من إسقاط مدينة سبتة كآخر معقل للونـدال، سنة 534م. واعتباراً من هذا التـاريخ تمكن الإمبراطـور البيزنطـي جستنيان (Justinien) مـن الاسـتيلاء علـى موريطانيـا الطنجيـة[3]، واسـتمر تواجـدهم في المغـرب حتـى بدايـة القـرن الثـامن. وقد تميـز العهـد البيزنطـي بتراجـع الطـابع المدني، فانتشر الطـابع البدوي فـي عمـوم المغـرب الأقصـى، فضـلاً عـن انتشـار ظـاهرة المعاقـل التـي بناهـا المغاربـة للتصـدي للاحـتلال.

1 – أحمد الطاهري، **الآثار في منطقة الغرب**، أثناء استضافة وحدة التكـوين والبحـث فـي التاريخ المونوغرافي، بالقنيطرة، له في يومين دراسيين،26أبريل،10مـايو،2004. وقـد تـم الاقتباس بتصرف.

[2] – محمد اللبار، **موريطانيا الطنجية**، معلمـة المغـرب، ج21، مطـابع سـلا، 2005، ص 7311– 7313.

[3] – اليضاوية بلكامل، معلمة المغرب، ج 14، مطابع سلا، 2001، ص4843–4844.

وتمكنت قبيلة البكواط والمتحالفين معها من المحافظة على استقلالها واستمرار مقاومتها للبيزنطيين إلى أن قدم العرب[1].

ثم جاء **الفتح العربي** في ظل وضع تراجعت فيه المدينة، منذ الفترة البيزنطية، فكان أول ما قام به العرب الفاتحون هو تأسيس المساجد، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لا يمكن أن نتصور أن يتقدم الفاتحون من منطقة إلى أخرى دون أن ينشئوا القواعد لمعسكراتهم، وللمحافظة على منجزات الفتح، خاصة ونحن نعلم أن تغلغل العرب الفاتحين في شمال إفريقية، اصطدم بمقاومتين: الأولى من قبل الساكنة المحلية، والثانية من قبل البيزنطيين، وبالتالي، فلم يكن أمامهم غير تأسيس المدن والحصون كمراكز للدين الجديد، ونقط انطلاق للمزيد من الفتوحات، خاصة إذا ما علمنا أن العرب قدموا إلى بلاد المغرب حاملين رصيداً حضارياً في مجال تخطيط وإنشاء المدن، منذ عصور ما قبل التاريخ، فضلاً عن تعليمات الدين الجديد التي تحث على البناء والتعمير.

وتحفظ لنا المصادر نصوصاً تؤكد على أن مجهود التعمير العربي الأول بدأ منذ فترة مبكرة، وهذا التخطيط على الأرض للمدينة يقتضي إرادة، ويبرهن على وجود تقاليد راسخة للتمدن. فعمل عقبة بن نافع على تأسيس مدينة القيروان، وتعني إقامة المعسكر في موضع بعيد عن الأسطول البيزنطي، ولتكون قاعدة للانطلاق في فتح غربها[2].

هذا المجهود التعميري، سيرثه مؤسسو الدول المستقلة في المغرب، إذ أنهم عملوا على تأسيس المدن في البلاد المفتوحة، لتتحول بعد فترة وجيزة إلى حواضر إسلامية ظل معظمها مزدهراً حتى اليوم، ومن هذه المدن، على سبيل المثال، تونس، المهدية، وتاهرت، وفاس، وغيرها[3].

1- محمد اللبار، م. س، ص 7315.

[2]- أحمد عزاوي، **مختصر تاريخ الغرب الإسلامي**،الرباط، ط 2007، ج1، ص19-20.

[3]- لم تشر المصادر إلى تخريب العرب للمدن المغربية إلا فيما يتعلق بالانتقام من أتباع القائد الأوربي (كسيلة) في قلعتهم سقوما بعد فتح طنجة، أنظر: الرقيق القيرواني، (إبراهيم بن القاسم): **قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب**، [تحقيق عبد الله العلي الزيدان، وعز الدين بن عمر موسى]، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990، ص44.

وفي هذا المقام ينبغي التنويه بالدور الذي قام به المغاربة الذين استلهموا مبادئ الدين الجديد، واستثمروا معارفه وثقافته وخصوصيته الحضارية لتخطيط وبناء المدن من برقة إلى طنجة، وعلى وجه الخصوص منذ انتهاء الحروب والصراعات التي أثارها الخوارج، وبعد انسحاب الإدارة الأموية.

ولعل أبرز مدينة مثلت حالة الانتقال من وضع العصور القديمة إلى العصور الوسطى هي مدينة طنجة. **من خلال دورها في الفتح الإسلامي** وكمركز لتعليم مبادئ الإسلام، وما لعبته من أحداث خلال **فترة الولاة العرب، وثورات البربر**. وهكذا قدر لمدينة طنجة أن تلعب دوراً تاريخياً كبيراً في السنوات الأولى من الفتح العربي الإسلامي[1]. ومع كل ما تعرضت له مدينة طنجة فإنها ظلت خاضعة للدول المغربية التي تعاقبت على حكم المغرب[2].

وبصفة عامة، بدأت المدينة الإسلامية كمعسكرات حربية لجيوش الفتح، ثم تمدنت بشكل تام بعد توقف الفتوحات لتفسح المجال أمام ظهور أنماط جديدة من المدن، منها: المدينة العاصمة للدولة، والمدينة العاصمة للولاية، والمدينة الأميرية، والمدينة القصبة، والمدينة الدينية، والمدينة الميناء، والمدينة التجارية. ولا توجد حدود فاصلة لتنميط المدينة المغربية، ولكن اعتمدنا في هذا التنميط على أساس النشاط الغالب، والتخطيط للمدينة، ويمكن توضيح ذلك في ما يتعلق بالمدينة المغربية على النحو التالي:

1- المدينة عاصمة الإمارة

تمثل أهم أنماط المدينة المغربية، باعتبار أهميتها السياسية، نظراً لكون السلطة السياسية من أهم المعايير الحضرية التي ميزت المدينة عن

---

1 - مجموعة مقالات مترجمة أصدرت في كتاب بعنوان: **طنجة في التاريخ المعاصر، 1800-1956**، من إصدارات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس،ا رباط، ومدرسة الملك فهد العليا للترجمة، جامعة عبد الملك السعدي، طنجة،1991، ص48.

2 - هامش محققي **أعمال الأعلام**، ق3، م.س، ص203.

غيرها من مراكز الاستيطان، وقد يتأثر عمران هذا النمط من المدن بزوال أهميتها السياسية الناجم عن زوال دولتها.

2- المدينة عاصمة الولاية

تزامن ظهور هذا النمط من المدن مع اتساع الفتوحات حيث بدت الحاجة ملحة لإنشاء قواعد للأقاليم المفتوحة، يعين لها الولاة من قبل الخليفة لإدارة المدينة وإقليمها، وانعكس ذلك بشكل واضح على تخطيطها، وأهمها: سبتة والبصرة. وهما من المدن التي بدأ تخطيطها كمعسكرات مع بداية الفتح، فأنشئ في كل منها دار للإمارة لتغدو المركزين السياسي والإداري للمدينة وإقليمها، وأصبحت محوراً أساسياً من محاور تخطيط المدينة، وجرت العادة أن يكون موضعها مجاوراً للمسجد الجامع، قريبة أو ملاصقة له، نظراً للتكامل الوظيفي لكل منها. وهذا النمط من المدن شائع في المنطقة المدروسة.

3- المدينة الأميرية الخاصة

نجد أحياناً أن بعض الأمراء قد اتخذوا من بعض المراكز العمرانية مدناً خاصة، دليلنا في ذلك التسميات التي اتخذتها مثل تلك المراكز، كقصر مصمودة، وقصر بني محمد، وقصر كتامة، واستمر هذا النمط شائعاً بعد ذلك في مدينة الحُمر، وغيرها.

4- المدينة القصبة

هناك نمط من المدن هي: المدن الدفاعية (حصن، قصبة)، التي أنشئت في الأصل لتكون رباطات للمجاهدين في الثغور كسبتة وطنجة وغيرهما من المدن الساحلية، فضلاً عن الحصون والقلاع الداخلية، وهو ما ينطبق على عموم الحصون والقلاع في المغرب عامة والشمال الغربي المغربي خاصة.

وهناك نمط المدن التجارية، وهي المدن التي تنشأ على الثغور البحرية لغرض تجاري، وتأتي مدينة أصيلا خير مثال على هذا النمط من المدن، فضلاً عن قصر مصمودة. ونمط المدن التجارية هي التي تنشأ

على جانبي الطرق الرئيسية لخطوط التجارة، والتي يتحكم موقعها بحركة القوافل التجارية المارة عبرها، فضلاً عن اضطلاع الأنماط المختلفة من المدن بأنشطة أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية .

ظهرت هذه الأنماط خلال فترة ما قبل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، غير أنها بالضرورة لا تمثل وحدة معمارية وفنية ووظيفية متطابقة، حيث نجد اختلافات حتى على صعيد الإقليم الواحد. فالمدينة في المغرب الأقصى، وعلى الأخص المدن والحصون في الشمال الغربي المغربي موضوع الدراسة، تختلف باختلاف الغرض من التأسيس والموقع والوظيفة، وهو ما سنخصص له الفصول التالية.

ويمكننا القول إن المدينة المغربية في الأساس هي من إنشاء المغاربة، ولا سيما بعد قيام الدولة المغربية الأولى (الإدريسية)، حيث شكل قيامها عامل استقرار للسكان، وهو ما أشار إليه معظم الجغرافيين منذ القرن الثالث الهجري/9م ، وفي هذه الفترة نشأت مدن الشمال الغربي المغربي[1]. وهنا ينبعث السؤال: **هل يمكن أن نرسم إطاراً للحدود التاريخية؟**، ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في التناولة التالية.

---

[1]- من الأدلة على الرواج التجاري كثرة مراكز سك العملة بالمدن والقرى وأحيانا بجانب مناجم الفضة، مثل مدينة تامدلت قرب منجم للفضة بالأطلس الصغير وعلى طريق التجارة الصحراوية. نقلاً عن أحمد عزاوي، **مختصر تاريخ الغرب الإسلامي**، ج1، م.س، ص111، 112.

ثالثاً

عن الحدود التاريخية

سنكون مضطرين للاهتمام بالإطار الجغرافي العام الذي يمثله المغرب الكبير، ثم المغرب الأقصى، ومنه سنتحول إلى التركيز على محيط الشمال الغربي المغربي. فالمقصود بالمغرب الكبير أرض المغرب الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية من قارة إفريقيا، وتمتد على شكل جزيرة بين البحر والصحراء بين خطي عرض 21و 36 شمالاً، وخطي طول 1و 17 غرباً[1]. ويختلف الاصطلاح الجغرافي لبلاد المغرب باختلاف العصور والمراحل التاريخية التي مر بها، ففي العصور القديمة كانت تعرف باسم بلاد الموريين، وفي عهد الاحتلال الروماني، شمل المغرب مجالين جغرافيين لمملكتين قديمتين هما: نوميديا، وهي مملكة موريطانيا القيصرية، وغطى مجالها شرق نهر ملوية، وهو ما يعرف اليوم (بالجزائر). وموريطانيا الطنجية، وكان مجالها يشمل غرب ملوية، وهو ما يعرف اليوم (بالمغرب الأقصى).

وفي العصور الوسطى، اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تحديد مدلول بلاد المغرب. وخلاصة ما جادت به المصادر الوسيطية حول حدود المغرب الكبير يمكن إجماله بما يأتي: المغرب عبارة عن قطر واحد، حده من جهة الغرب بالبحر المحيط[2]. ومن الشمال البحر

---

[1]– عبد الله العوينة، معلمة المغرب، مطابع سلا، م 1، 1998، ص313.

[2] – البحر المحيط في المصادر الوسيطية هو المحيط الأطلسي أو الأطلنطي، وسبب تسميته بالبحر المحيط، يرجع في الأساس إلى كون العالم المعروف آنذاك انحصر بقارات العالم القديم الثلاث، وبالتالي جاءت تسميته لاعتقادهم بأنه يحيط بما أنكشف من الأرض. كما عرف بتسميات أخرى منها: البحر الأخضر لتلونه غالباً بالخضرة. وسمي كذلك ببحر الظلمات لقلة أضواء الشمس المنعكسه فيه. أنظر– ابن خلدون، **تاريخه**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، م6، ص98.

الرومي[1] والذي يخرج في مضيق أو خليج ضيق بين طنجة من بلاد المغرب وطريف من بلاد الأندلس، ويسمى الزقاق[2]، وحده من جهة الجنوب سلسلة الجبال الممتدة من الشاطئ الغربي للمحيط الأطلسي غرباً، إلى برنيق من برقة وطرابلس شرقاً، والتي تمثل حاجزاً بين بلاد البربر وبلاد السودان، ويليها جنوباً الصحراء الكبرى، وكانت تعرف باسم "العرق"[3].

وبهذا المدلول أصبح المغرب محدداً بشمال إفريقية فقط، وهو ما عرف بالمغرب الكبير، واصطلح على تقسيمه إلى ثلاثة أقسام كبيرة حسب قربها أو بعدها من مركز الخلافة بالمشرق، وهي: المغرب الأدنى، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى الذي يحتل الجزء الشمالي الغربي، وهو موقع استراتيجي عبر العصور[4]. ويعد المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط أحد أقطاره.

وقد تباينت أراء المصادر الوسيطية في وضع تحديد جغرافي للمغرب الأقصى، وسنركز على ما أشار إليه ابن خلدون فهو يقول إن حد المغرب من جهة الغرب البحر المحيط... ومن الشمال البحر الرومي... والمغرب الأقصى فهو ما بين ملوية من جهة الشرق إلى أسفي حاضرة

---

[1] – بحر الروم، وهو البحر الأبيض المتوسط الذي يمتد من السواحل الجنوبية الغربية لإسبانيا عند نقطة التقائه مع المحيط الأطلسي غرباً وحتى الشواطئ الشرقية لبلاد الشام، وعلى شواطئه الجنوبية قامت حضارات بلاد المغرب أو بلاد الموريين.

[2] – هذا المضيق شهد هو الآخر تسميات مختلفة باختلاف الفترات التاريخية، فقد كان يعرف قديما بأعمدة هرقل نسبة إلى الجبال المحيطة به. ولما فتح المسلمون هذه الجهات أطلقوا عليه اسم مضيق جبل طارق نسبة إلى فاتح الأندلس (طارق بن زياد). ومضيق المجاز نسبة إلى جواز الجيوش العربية وخاصة في عهدي المرابطين والموحدين. أو خليج الزقاق، أو البحر الزقاقي. أنظر ابن خلدون، **تاريخه**، ج6، م.س، ص128. أحمد العبادي، **في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، [ب]، ص 23–24.

[3]– وتعني لغة: الأراضي الرملية قليلة الماء. وفي الجزء الغربي منها، والمتاخم للمحيط، توجد الصحراء المغربية الموطن الذي عاشت فيه قبائل صنهاجة الصحراء، أو صنهاجة الجنوب، منذ القدم، ومنها خرجت صنهاجة الملثمين (المرابطون)، ق (5هـ/11م). أنظر: أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً**، دار نشر المعرفة، الرباط، طبعة 1991، ص66.

[4]– أحمد العبادي، **في تاريخ المغرب والأندلس**، م.س، ص 23–24.

البحر المحيط وجبال درن من جهة الغرب، يحيط به البحر الكبير [المحيط] من غربيه، والرومي من شماليه، والجبال الصاعدة المتكاثفة مثل درن وجانب القبلة وجبال تازا من جهة الشرق، فصار كله جزيرة وبلد واحد أحاطت به الجبال والبحار.

ويعتبر المغرب الأقصى امتداداً للمغرب الأوسط لعدم وضوح الفواصل بينهما، ولذا نجدهما في معظم الفترات التاريخية يكونان دولة واحدة تحكم من المغرب الأقصى، ويعد نهر ملوية هو الحد الفاصل بينهما، وهو حد غير ثابت إلى اليوم1. وكان المغرب الأقصى خلال فترات تاريخية مختلفة من العصر الوسيط يعرف ببلاد طنجة، والسوس الأدنى، والسوس الأقصى. وتبعاً لهذا التباين اختلفت أراء الجغرافيين والرحالة في وضع حدود واضحة المعالم لبلاد المغرب، فأحيانا هي الأقطار المغاربية الخمسة كما هو معروف اليوم، وأحياناً المغرب الأقصى. فضلاً عن ذلك هناك اختلاف في الامتداد الجغرافي للمغرب الكبير، وحتى في إطار المغرب الأقصى. وحول ذلك يقول ابن خلدون:" فأما المغرب الأقصى منه [أي من المغرب الكبير] هو ما بين وادي ملوية من جهة الشرق إلى أسفي حاضرة البحر المحيط، وجبال درن [الأطلس الكبير] من جهة الغرب، يحيط به البحر الكبير [الأطلسي] والرومي [المتوسط] من شماليه، والجبال الصاعدة المتكاثفة مثل درن وجانب القبلة وجبال تازا من جهة الشرق". وهذا التحديد، واقعياً، كان في القرن الثامن الهجري/16م. لذلك يمكن اعتبار أن التقسيمات السالفة الذكر لبلاد المغرب مجرد تقسيمات اصطلاحية أوجبته الضرورة السياسية والإدارية، لأن المغرب الكبير يمثل وحدة متماسكة تجلت مظاهرها في الوحدة الجغرافية والبشرية والاقتصادية والاجتماعية.

والثابت أن المجال الجغرافي لبلاد المغرب الأقصى يختلف تقديره باختلاف المراحل التاريخية، فهو أيضاً، بين مد وجزر. وما يهمنا هنا هو حدود المغرب الأقصى في بداية العصر الوسيط، وخاصة خلال الفترة

الزمنية من القرن الثالث إلى الخامس الهجريين (9-11م)، حيث شمل إقليم تلمسان من المغرب الأوسط في بداية عهد الدولة الإدريسية، ومع ظهور المد الشيعي اعتباراً من بداية القرن الرابع الهجري (10م)، أصبح المغرب الأقصى ينحصر في المجال الممتد من نهر ملوية شرقاً، إلى الساحل الشرقي للمحيط الأطلسي غرباً، والساحل الجنوبي لمضيق جبل طارق شمالاً، وفيما وراء سلسلة جبال درن والصحراء الجنوبية والغربية[1].

وظل هذا المجال الجغرافي المميز لحدود المغرب الكبير بين مد وجزر، وخاصة من الجهة الشرقية[2]. ولعل التحديد الذي أورده (ابن عذري) كان أقرب فهو يوزع المغرب الأقصى إلى ثلاثة أقسام هي: بلاد طنجة وتامسنا أو السوس الأدنى إلى الأطلس الكبير، والسوس الأقصى أو بلاد ماسة[3]. وينحصر موقع المغرب الأقصى بين واجهتين تجاريتين هما الواجهة البحرية والواجهة الصحراوية، فالواجهة البحرية بدورها تتوزع على الساحل المتوسطي، أو ما كان يعرف ببحر الروم، وساحل المضيق أو ما كان يعرف ببحر الزقاق، والساحل الأطلسي، أو ما كان يعرف ببحر الظلمات[4]. **فما هو موقع الشمال الغربي المغربي من حدود المغرب الأقصى؟.**

---

[1]– شبهته المصادر الوسيطية بالجزيرة، حيث يحيط به الماء من ثلاث جهات، هي: البحر المتوسط من الشمال، والمحيط الأطلسي من الغرب، ونهر ملوية من الشرق. كما تحيط بها سلاسل جبلية من ثلاث جهات، هي: سلسلة جبال غمارة وبلاد الريف من الشمال، والتي تمتد من المحيط غرباً إلى قرب تلمسان شرقاً. وسلسلة جبال الأطلس من الجنوب. وعرف هذا المجال الجغرافي باسم بلاد طنجة، وسوس منذ القدم، وهو ما عُرف بالمغرب الأقصى.

[2]– وأحياناً كان يدخل فيه إقليم برقة ومصر إلى حدود الضفة الغربية لنهر النيل.

[3]– ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، [نشر دوزي]، الدار العربي للكتاب، بيروت، 1948، ج1، ص5.

4– للمزيد من التفاصيل أنظر: عيسى قوراري، مجلة الجندول للعلوم الإنسانية، المركز الجامعي بالمدية بالجزائر، العدد (31) السنة الرابعة، نوفمبر 2006، الموضوع رقم (34).

حدود الشمال الغربي المغربي

ينحصر المجال الطبيعي للشمال الغربي المغربي في رقعة جغرافية يمكن تحديدها بالمدن الشمالية الممتدة على ساحل المتوسط، والتي تبدأ من الشرق إلى الغرب بمدينة بادس، ثم تيكساس، وتطوان. وبمدن ساحل المضيق شمالاً تبدأ بمدينة سبتة، ثم قصر مصمودة وحتى مدينة طنجة. وغرباً تنتشر المدن على ساحل المحيط الأطلسي من بعد طنجة بدءاً بمدينة أصيلا، والُحمر وتشُمس إلى المعمورة. وفي المناطق الداخلة ضمن هذا المجال تنتشر العديد من المدن، يحدها جنوباً نهرا ورغة وسبو، وأبرز أمثلتها: البصرة، الأقلام، أصادة، أفتس، كُرت، إيجاجن، زهجوكة، قصر كتامة، زلول، ويناقام، فضلاً عن الحصون والقلاع. هذا النطاق تتخلله تضاريس متنوعة من جبال وهضاب، وأودية، وسهول ومنخفضات، وسواحل. ولا يظهر هذا النطاق الجغرافي إلا باستعراض التقسيمات الجغرافية المكونة لهذا الإطار، ضمن منطقتي الهبط وغمارة.

1- منطقة الهبط

وردت تسمية في المصادر العربية الوسيطية، فهناك نص لـ(ابن حوقل) يرجع إلى النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ 10م- عندما زار المغرب حوالي سنة 331هـ (942م)- أشار إلى الهبط عند وصفه للعلاقات بين خليفة الأندلس (الناصر:300-350هـ)، وبين الأدارسة أمراء المغرب. يقول: "... ومن بالسواحل من البربر بنواحي الهبط وأرض طنجة وأزيلي وخاصة من بالهبط في ضمن عبد الله بن إدريس..." [1]. هذا النص لا يدل على بداية استعمال اللفظ (الهبط)، وإنما كان أول من أشار إليه، ولا بد أن يكون الهبط كمجال وكلفظ مستعملين أسبق بكثير.

وترجع كتابة النص الثاني الذي أشار إلى الهبط، (لابن عذاري) إلى القرن السابع الهجري/13م، ويتضمن أخبار تقسيم الأمير محمد بن

---

[1] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص79.

إدريس الثاني المغرب إلى ولايات وتوزيعها بين أخوته، وهي أخبار تتعلق ببداية القرن الثالث الهجري/9م. حيث ورد فيه أنه كان من نصيب عمر بن إدريس "صنهاجة والهبط وغمارة"[1].

وبناء على ما سبق، فأننا نرى أن تداول لفظ الهبط مرتبط بالعهد الإدريسي، على الأقل منذ بداية القرن الثالث الهجري/9م، وهو التاريخ المحدد لبداية انتشار الأسر الإدريسية بالشمال الغربي المغربي. ثم استمر هذا اللفظ (الهبط) متداولاً بعد ذلك، حيث ورد عند كل من: (ابن خلدون، البيدق، الأنصاري). وما يهمنا في هذا المجال الجغرافي هو أنه كان مجالاً لانتشار نفوذ الأدارسة بالشمال الغربي المغربي، وبالتالي ظهر فيه عدد من المدن والحصون الإدريسية كنتيجة لذلك الانتشار، إلى جانب القديم منها. ويمكن تصنيفها إلى صنفين اثنين هما:

1- **المدن والحصون الجبلية:** وهي المنتشرة بين ساحل المضيق شمالاً ومجرى واد اللكوس جنوباً، مع تراجع نحو الشرق إلى حدود بلد النكور. وهذه المنطقة هي المعروفة بجبال غمارة. ويبين الجدول التالي أبرز المدن والحصون الجبلية:

اسم المدينة/ الحصن	تاريخ تأسيسها ومؤسسها	المصدر
سبتة	العصر القديم، حكمتها أسرة مجكسة الغمارية الموالية للأدارسة حتى سقوطها بيد الناصر سنة 319هـ/931م.	معظم المصادر
طنجة	العصر القديم، كانت بيد الأدارسة حتى سقوطها بيد الناصر بعد سبتة.	معظم المصادر
أصيلا	229هـ (لواتة، كتامة)+االقاسم بن إدريس، والواقع أنها كانت من نصيب أخيه يحيى.	معظم المصادر
قلعة حجر النسر	317هـ (إبراهيم بن محمد بن القاسم الإدريسي)، بجبال سُماتة	ابن حيان، البكري، ص114. الإدريسي، ابن عذارى، ابن أبي زرع، ابن الخطيب،

[1] – ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص299–230.

		ابن خلدون، الناصري
تشومس	القرن3هـ (ميمون بن القاسم الإدريسي)	البكري، الإدريسي، ابن سعيد، صاحب الاستبصار
تطاوين	القرن 4هـ، القبائل المحلية، الأدارسة من بني محمد	معظم المصادر
حصن الكرم	الأدارسة، تحصن فيه الحسن بن قنون بعد مقتل ابن طملس، حصنه القائد الأموي يحيى التجيبي.	ابن حيان، البكري، ابن عذارى، ابن أبي زرع، ابن خلدون، صاحب مفاخر البربر
قلعة دمنة عشيرة	القرن 4هـ، صنهاجة+الأدارسة، دمرها الأمويون سنة 362-363هـ، بجوار قلعة ابن خروب	
قلعة ابن خروب	قبيلة كتامة+الأدارسة	البكري، صاحب الاستبصار
دلول (زلول)	القرن 4هـ، (الحسن بن كنون الإدريسي)، أسقطها غالب بن عبد الرحمن بعد أن كان تحصن بها ابن قنون سنة (361هـ).	ابن حيان، ابن حوقل، البكري، ابن عذارى
زهجوكة	القرن4هـ (إبراهيم بن محمد بن القاسم الإدريسي)	البكري
جرماية(جرمانة)	القرن4هـ، الأدارسة	البكري
إيجاجن، (أزجن)	قديمة+الأدارسة(جنون بن محمد بن القاسم)	البكري، ابن أبي زرع، الوزان
حصن مهران/بني مصرخ/بني مصور	قتل فيه قائد الحملة الأموي سنة 362هـ، من قبل الحسن بن قنون.	ابن حيان
حصن الريح	تحصن فيه ابن قنون في حروبه مع الأمويين سنة 361هـ	ابن حيان
ويناقام	ق4هـ، (حمود بن إبراهيم بن محمد بن القاسم)، بجبل واد راس	البكري، المُغرب
قصر مصمودة (القصر الأول/الصغير/المجاز)	قديم، دمره الأدارسة من بني محمد، سنة 340هـ، بعد استيلاء الأمويين على طنجة سنة 339هـ، نزلت فيه الحملة الأموية على ابن قنون سنة362هـ، جدده الموحدون.	البكري، الإدريسي، الوزان

2-المدن والحصون السهلية والساحلية: وهي المحدثة على طول الأراضي المقابلة لسفوح غرب جبال غمارة، من ساحل المضيق إلى واد اللكوس. ومن أمثلتها:

اسم المدينة/ الحصن	تاريخ تأسيسهـــــــــــا ومؤسسها	المصــدر
أصيـــلا	سنة 229 هـ (لواتة، كتامة)+االقاسم بن إدريس، ويقال أنها كانت من نصيب أخيه يحيى.	معظم المصادر
البصرة	النصف الأول من القرن3هـ (كتامة+محمد بن إدريس) في عهد أبيه، كانت من نصيب القاسم	معظم المصادر
كُرت	بياتـة+ محمد بن إدريس الثـاني، النصف الثـاني من القـرن3هــ. كانـت ضـمن نصـيب أحمـد بـن القاسم الإدريسي.	البكري، الإدريسي، ابن عـــذاري، صــــاحب الاستبصـــار، ابـــن أبـــي زرع، ابـــن خلـــدون، الناصري
الأقلام	القرن 3هـ(يحيى بن إدريس)، يذكر (ابن حيان) اسم حنون بن إدريس.	ابـن حوقـل، ابـن حيـان، البكـري، الإدريســي، ابـن عذاري
الحُمر	القرن 3هـ (علي بن محمد بن إدريس"حيدرة")	الوزان، مارمول كربخال
ســــــوق كتامة(القصر الكبير)	قاعدة إدريس بن القاسم بن إبراهيم	البكري
أفتس	مدينة جنون بن إبراهيم، على واد اللكوس	البكري

فاسم الهبط يعبر عن مضمون تضـاريس المجـال الجغرافي لـه، والمتمثل بنـوعين متضـادين مـن التضـاريس همـا، الجبـل والوطـأ[1]. وكانـت الحـدود

[1] – الوطأ، تعبير عن الأرض الوطئة. وعادة ما يطلق على لفظ "الوطأ" اسماء محلية أخـــرى مثل: أزغار، والعزيب. ومصطلح "الهبط" من تلك المسميات الخاصة بالشمال الغربي المغربي. أنظر: حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بـــالثغور الشـــمالية المحتلـــة 1415-1574**، دكتوراه دولة، ج1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخـــامس، الربـــاط، 1990، ص26-41.

الداخلة في إطار الهبط –آنذاك- تتألف من مجالين جغرافيين متبايني التضاريس، هما: الامتدادان الجبلي والسهلي الساحلي، اللذان يمتدان طولياً من الشمال إلى الجنوب متوازيين، كما يلي:

* **الامتداد الجبلي:** يتمثل بالجدار الجبلي الذي تمثله مرتفعات جبال غمارة الغربية، بدءاً من مرتفعات بني مصور، وتشكل حدود الهبط من ناحية الشمال، وتفصله عن فحص طنجة. والمجال الشمالي للهبط عبارة عن كتلة جبلية تمتد بين نهري "تهدرات" وعدد من روافده، وبين "الواد الكبير" المعروف بواد الخروب، وعدد من روافده. ويتصل" جبل حبيب" بهذه الكتلة عند الزاوية الجنوبية الشرقية، على شكل مخروط يعلو بين الواد الكبير(واد الخروب) ورافده "حريشة".

ويستمر الامتداد الجبلي بوجود كتلتين جبليتين صغيرتين. الكتلة الأولى: يمثلها الجبل الذي قالت (حوليات أصيلا) إنه يدعى "جبل بني وامراس، وينتصب بين واد الخروب عند نهاية مجراه الأعلى، وبين مجرى واد المخازن. أما الكتلة الثانية: فيمثلها "جبل بني كرفط"، بارتفاعات تتراوح ما بين (300-500م)، والممتد موازيا لمجرى "واد عياشة" أحد روافد واد المخازن. ويشغل ما تبقى من المساحة الجبلية إلى مصب واد اللكوس "جبل أهل سريف" المشرف على القصر الكبير، آخر بلد الهبط مما يلي الجنوب، بارتفاعات تتراوح ما بين (300-700م)[1].

* **الامتداد السهلي والساحلي:** تشرف عليه جبال غمارة الغربية، وهو عبارة عن مساحة سهلية واسعة، يمتد طولها من مجرى الواد الكبير المجاور لجبال بني مصور إلى القصر الكبير، ويغلب على سطح هذا السهل الاستواء والانخفاض، حيث لا يتجاوز الارتفاع (100م) إلا نادرا، نتيجة ظهور بعض التلال المنعزلة، أمثال: كدية عين الغزل(174م)، وتميسا (164م)، وظهر ألياف (185م).

---

[1]- نقلاً عن حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة 1415-1574**، م.س، ص26-41.

وأهم ما يتميز به هذا السهل، غناه بالفرشة المائية، وبكونه معبراً لعدد من الأنهار المهمة، منها: الواد الكبير: وهو واد الخروب، أو واد زلول حسب (البكري)، ومنابعه من جبال بني عروس، وتمر مياهه ببني أحمايد، ثم يشق طريقه، نحو الغرب، بمحاذاة السفوح الجنوبية لمخروط جبل حبيب، إلى أن يتصل بنهر تهدرات بأولاد بني خلوف. وواد بني عروس (واد عياشة، واد الغريفة): وتطلق هذه التسميات على أجزاء منه، فهو في مجراه الأعلى واد بني عروس (حسب حوليات أصيلا). وفي قسمه الأوسط واد عياشة حينما يلامس مرتفعات بني كرفط الشمالية، وفي مجراه الأخير يدعى واد الغريفة عند مصبه بالمحيط شمال مدينة أصيلا. وواد المخازن: ويسمى أحياناً واد العروس، وأحياناً أخرى واد القنطرة، نسبة إلى قنطرة واد المخازن (حسب المصادر البرتغالية)، وكان يدعى أحياناً بالواد الكبير. وما يهمنا منه هو القسم الداخل في هذا السهل، والذي يبدأ من نقطة اختراقه لجبل بني كرفط، ثم تتصل به بعض الروافد، مثل: واد وارور، وواد الرسانة.

الجزء الساحلي من الامتداد السهلي: وهو عبارة عن مجال للغطاء النباتي الغابوي، يعرف بـ"الساحل"، ويمتد من ناحية "الحُمر" إلى مصب واد اللكوس. وتظهر به بعض التضرسات السطحية دون أن تسجل ارتفاعاً ملحوظاً.

هذه المساحة السهلية هي التي حملت اسم الهبط منذ القرون الهجرية الأولى، حسبما سبق، وهو نفس المجال الذي احتلته قبائل بني هلال العربية، من رياح والخلط، خلال العصر الموحدي. وفي مستهل القرن العشرين كانت هذه الناحية ما تزال حاملة اسم "الوطاويين"، أي أنها كانت ما تزال محتفظة بالمدلول الجغرافي المرادف للهبط[1].

---

[1]- حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة 1415-1574**، م.س، ص26-41.

وقد توسع النطاق الجغرافي للهبط عبر الفترات التاريخية المختلفة، حتى أصبحت حدوده في العصر الحديث كالتالي: يمثل مجرى واد تيكساس الحدود الجنوبية الشرقية، وتتجسد الحدود الجنوبية والجنوبية الغربية في مجرى واد اللكوس، ماراً ببني زكار والقصر الكبير إلى مصبه بالمحيط الأطلسي. وتدخل في نطاق تلك الحدود مجموعات من القبائل التي جمعها (الوزان) فيما أطلق عليه "الجبال". وهي التي أشارت إليها المصادر البرتغالية، وهي: جبال مجكسة: بين سبتة وتطوان.وجبل أنجرة: جنوب القصر الصغير. وبني حزمار: بين الحدود الغربية لأنجرة وفحص طنجة. وجبل واد راس: مجاور لأنجرة مما يلي الجنوب، بين جبال مجكسة وجبال بني مصور. وبني مصور: بين واد تهدرات ورافده الواد الكبير. وجبل حبيب: يعلو ويشرف على شطري الساحل الشمالي الغربي. وجبل بني حسان: وهو من الجبال الداخلية العالية، وتشغل أراضي القبيلة الهضاب العليا الواقعة بين جبل العلم، والمجرى الأعلى لواد لو. وجبل بني عروس: ويعد من أهم التجمعات السكانية بإقليم الهبط، يحدها شمالاً الفضاء الواقع بين واد المخازن جنوباً، وواد الخروب "الواد الكبير". وشرقاً جبل العلم، وجبل بني وامراس: من التلال الواقعة بين جبل حبيب وبين جبل بني كرفط الذي يقع على كتلة صغيرة تشرف على الهبط الأصلي مباشرة. وجبل أهل سريف: شرق القصر الكبير. وجبل سُماتة: شرق أهل سريف وبني كرفط وبني عروس. وبني يسف: يقع بين أهل سريف وسُماتة وبني عروس والأخماس، وإلى المنطقة ينسب بنو عمران الهبطيين. وبنو زكار: في منخفض يقع بين واد اللكوس جنوباً، وتحيط به أراضي بني يسف والأخماس. وأخيراً، جبل رهونة المجاور لمدينة أزاجن[1].

---

[1] – حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة 1415–1574**، م.س، ص26–41.

نخلص إلى القول إن المدن والحصون في الشمال الغربي المغربي خلال العصر الوسيط، كانت تقع على محورين أو طريقين تجاريين رئيسيين مهمين هما: المحور الأول: هو الذي يربط بين سبتة وفاس، وعليه تقع معظم المدن والحصون الجبلية. والمحور الثاني: هو الذي يربط بين طنجة وفاس، وهو محور سجلماسة التجاري المهم، ساهم بظهور وتطور مدن سهلية وساحلية، ازدهرت خلال العصر الوسيط. ولم يبق من أغلبها غير الاسم، ونتيجة لذلك فإن البحث عنها يستدعي الانطلاق من النصوص، مع الاستعانة بنتائج البحث الآركيولوجي لتوطينها.

2- منطقة غمارة

تبدأ حدود منطقة غمارة من تخوم مضيق أعمدة هرقل عند طنجة، ويمتد شرقاً إلى نهر النكور، أي على مسافة مائة وأربعين ميلاً (221 كلم) طولاً، وتنتهي شمالاً عند البحر المتوسط في القسم الأول منه، لتمتد من هناك جنوباً على نحو أربعين ميلاً (63 كلم)، حتى الجبال المحاذية لنهر ورغة الواقعة بمنطقة فاس. ومن أهم مدنها: ترغة وبادس وتيكيساس[1].

وهذا الإقليم عبارة عن سلسلة من الجبال الوعرة، تمتد بمحاذاة ساحل البحر المتوسط شمالي المغرب[2]. وينبع من بلاد غمارة عدد مهم من الأنهار منها، التي تصب في الساحل المتوسطي، ومنها التي تصب في ساحل المحيط الأطلسي[3]. وتحتضن هذه المنطقة عدد من المدن والحصون الإدريسية[4].

---

[1] – الوزان، **وصف إفريقية**،ج1، م.س، ص324.

[2] – يحيى وزيري، **العمارة الإسلامية والبيئة**، م.س، ص195.

[3]– عبد الملك بن عبد الله، معلمة المغرب، ج13، مطابع سلا، 2001، ص4529– 4535.

[4] – اليعقوبي، **البلدان**، م. س، ص108.ابن سعيد المغربي، م. س، ص. 74. البيدق، (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1971، ص 55. حسن الفكيكي، م. س، ص. 190، 260..

واسم غمارة دال على حلف قبلي تابع لبربر مصمودة الشمال[1]، وعلى مجال جغرافي جبلي جد فسيح، مساحته وحدوده غير ثابتة ولا مضبوطة من الوجهة التاريخية. ويبدو الاضطراب في تحديد المجال فيما نستخلصه من المصنفات الجغرافية الوسيطية، وخلاصات بعض المؤرخين. فغمارة حسب (البكري)، كانت تعني المنطقة الممتدة من طنجة غرباً إلى سهل نكور شرقاً "... من سبتة [غرباً] إلى مدينة تيقيساس [تيكساس شرقاً]... "[2]، غير أن هذا التحديد لا يعني سوى الجانب الطولي، وهو بذلك يفتقر إلى تعيين الحد الجنوبي الغماري، المشار إليه فقط بجبل الكواكب، كما في (نزهة المشتاق للإدريسي)، وربما كان التحديد الذي وضعه (ابن خلدون) لمنطقة غمارة أهم من التحديدين السابقين، فغمارة في نظره تمتد من يمين بسائط الغرب من بلاد غساسة، فنكور، فبادس، فتجساس، فتطاوين، فسبتة، فقصر مصمودة، إلى طنجة خمس مراحل وأزيد أوطنوا بها جبالاً شاهقة اتصل بعضها ببعض سياجاً بعد سياج خمس مراحل أخرى في العرض إلى أن ينحط إلى بسائط قصر كتامة ووادي ورغة من بسائط الغرب[3].

وإذا تجاوزنا ما هو من قبيل المبالغة في تقدير (ابن خلدون) بإدماجه كل من غساسة، ونكور، وبادس، وما لم يشر إليه تجاوزاً أو اختصاراً فيما يخص، مثلاً، المساحة الواقعة بين تجساس وتطوان، وإذا ما استثنينا كذلك الأراضي التي كانت تشغلها صنهاجة وكتامة، واستفدنا مما ذكره (البكري) و(الإدريسي)، وجدنا أن أراضي غمارة هي التي كانت تمتد جهاتها الأربع من المتوسط شمالاً، وبوغاز وبادس شرقاً، وبسائط الغرب وورغة جنوباً، وبتأملنا في تقدير (ابن خلدون) الطولي

[1] – مصمودة الشمال، هي شعب كبير من البربر، أبناء مصمودة بن برانس، كانت مواطنهم الأصلية بالريف وسوس الأدنى، منها قبائل غمارة وبرغواطة وتنيمل وحاحة ودكالة ورجراجة وكلاوة وكنفيسة وصادة وهرتمة ووريكة، الخ. راجع، هامش **القرطاس**، ط2، 1999، ص280.

[2] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص108.

[3] – ابن خلدون، **العبر**، ج6، بيروت، ط1983، ص436.

والعرضي لمجال غمارة، يمكننا مقاربة المساحة الداخلية المتميزة بجبالها وعناصر سكانها، بجرد أسماء القبائل المنضوية في حضيرة الكتلة الغمارية خلال العصر الوسيط، وهي: مجكسة وتجساس وبني سعيد وبني حزمار وأنجرة وواد راس وبني زكار وغزاوة وبني أحمد وبني زروال بني بشارة وبني بوزرة وبني جرير وبني سميح ومتيوة وبني رزين وبني منصور وبني سلمان وبني سدات والأخماس وبني بوشداد وبني مصور وجبل حبيب وبني عروس وبني كرفط وسُماتة وبني يسف وأهل سريف[1].

وتتميز جبال غمارة بالكثير من الخيرات، وغزارة المياه، والعديد من الثروات الطبيعية اللازمة للتغذية والصناعة، فضلاً عن التنوع الجغرافي والبشري، وقد أشار إلى ذلك عدد من الجغرافيين والمؤرخين، خلال العصر الوسيط[2]." وجبل غمارة من أخصب جبال المغرب، وهو من الجبال المشهورة، يسكنه قبائل من غمارة وهم أمم لا تحصى، وفي هذا الجبل مساقط كثيرة لا تحصى للحرث... وطول هذا الجبل مسيرة ستة أيام، وعرضه نحو ثلاثة أيام، وهو الآن كثير العمارة تشقه الأنهار والمياه السائحة، ففيه غياض وأودية ومنتزهات لا توجد في غيره من الأماكن، وهو كثير الأعناب والفواكه والعسل والضرع، وفيه جبال لحقت بعنان السماء علواً، وحصون كثيرة تمتنع فيها غمارة... ولأهل هذا الجبل مذاهب شتى وسير مختلفة... "[3] . ومن أهم مدن غمارة، من الشرق إلى الغرب على ساحل المتوسط، بادس، تيكساس، ترغة، تطاوين، سبتة، الخ.

3- منطقة الغرب

بالنظر إلى ما ورد في المصادر المختلفة التي اهتمت بمنطقة الشمال الغربي المغربي، نجد الإشارة إلى منطقة الغرب تارة، وأزغار

---

[1] – نقلاً عن محمد عمراني، **غمارة**، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2004، ج(19)، ص6357-6358.

[2] – ابن سعيد، **الجغرافيا**، م. س، ص139 و**بسط الأرض**، م. س، ص73-74.

[3] – المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص190-191.

تارة أخرى. والمعلوم أن هناك تسميات تاريخية للمجالات الترابية والقبلية المغربية للدلالة على أقاليم معينة[1]. فما هو مدلول هاتين التسميتين ومجالهما؟ ومتى بدأ تداولهما؟

1- **الأزغار:** هي جزء من منطقة الغرب، واصل التسمية لفظة أمازيغية تعني المحراث، وتطلق من الوجهة الجغرافية على عدة أماكن بالمغرب، وتعني: السهل الواقع عند سفح السلسلة الجبلية. وهناك تفسيرات أخرى لمعنى "أزغار"، منها: أرض الماء. الغابة والحطب. بينما يرى البعض أنها تدل على الوادي، وعلى منطقة منبسطة تتخللها هضاب، أكثر من دلالتها على السهل[2]. والواقع أن للفظ أزغار ثلاثة مدلولات أو استعمالات هي:

مدلول جغرافي: ويقصد بها مقدمة الجبل.

مدلول فلاحي: وتعني الأرض المحروثة بالمحراث، أ ي أزغار.

مدلول إداري: ويقصد به منطقة أو إقليم، وهو ما يوازي منطقة الغرب.

وكان أول مصدر ورد فيه ذكر لفظة "أزغار" هو كتاب "القرطاس" لابن أبي زرع، في بداية القرن الثامن الهجري/14م، فقد ورد في أخبار السلطان المريني "عثمان بن عبد الحق" انه في سنة إحدى وعشرين (721هـ /1326 م) غزا من بفحص أزغار من العرب فأبادهم وأخلى بلادهم. وفي الخبر عن دولة السلطان أبي ثابت أنه ارتحل برسم حرب عرب رياح الذين هم بفحص أزغار[3].

و"أزغار" عند (ابن خلدون) هو أحد البسائط من الغرب، يمتد إلى سلا، وينطبق هذا التعريف على المدلول الإداري. والغرب عنده يضم

---

[1]– من ذلك، على سبيل المثال: بلاد الريف، بلاد الهبط، الحوز، تامسنا، سجلماسة، تافيلالت، درعة، الصحراء، والسوس.

[2]– عبد العزيز توري، معلمة المغرب، المجلد الأول، مطابع سلا، 1989، ص345.

[3] – ابن أبي زرع، **القرطاس**، م.س، ص378، 517.

"أزغار، وتامسنا وتادلة، ودكالة"[1]. وترد لفظة "أزغار" عند (الوزان: ق10هـ/16م) كناحية وكإقليم، وحدوده "تنتهي عند المحيط شمالاً، ونهر أبي رقراق غرباً، وبعض جبال غمارة شرقاً، وبعضها عند زرهون وسفح جبل زلاغ، وتنتهي جنوباً بجوار نهر أبي نصر[مكس]، وهو سهل يمتد على طول ثمانين ميلاً (130 كلم)، وعرض ستون ميلاً (95 كلم)، ويخترقه نهر سبو في وسطه، وهو أحد الأقاليم السبعة من مملكة فاس، ويضم مدن: الجمعة، العرائش، القصر الكبير، البصرة[2]. و"أزغار" عند (مارمول كربخال): ق10هـ/16م" يبدأ من نهر أبي رقراق جنوباً، ويمتد في الجانب الآخر على جبال الريف، منتهيا في بعض المواضع إلى جبلي "زرهون" و "زلاغ"، يحده المحيط غرباً، والنهر المعروف حالياً بـ "مكس" شرقاً، ويخترقه واد سبو الكبير من طرف إلى طرف[3]. والملاحظ أن هناك خلطاً عند الجغرافيين المتأخرين بين إقليمي الهبط والغرب (أزغار)، فبلاد "أزغار" عند مؤرخ الدولة السعدية (عبد العزيز الفشتالي) من ممالك فاس، تمتد من سفح جبل لمطة، أي من نواحي فاس، إلى البحر وإلى سلا[4].

وبغض النظر عن التقسيمات الداخلية، فهذه الحدود تدخل ضمن منطقة الشمال الغربي المغربي، التي هي تمثل حدود بحثنا ونطاقه الجغرافي. وانحصر مجال "أزغار" في الفترة الحديثة ليشمل مجموعة "الشررادة" بين سيدي سليمان وسيدي قاسم، في المجال المحصور بين نهري "بهت" و"ردم". ويبدو أنه استعاد مدلوله الجغرافي الأصلي بعد اختفاء الدلالة الإدارية. وربما احتفظ بمدلول ناحية فقط، وهذا يجعله أقل مستوى من المنطقة والإقليم. ونثير هنا بحث مدلول الغرب.

---

[1]- ابن خلدون، **تاريخه**، م6، م.س، ص101.

[2] – الوزان، **وصف أفريقية**، م.س، ص301.

[3] – مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م.س، ص187.

[4]- نقلاً عن البوعناني المصطفى، **التعمير بمنطقة الغرب**، مجموعة محاضرات، 2005-2006، عن عبد العزيز الفشتالي.

- **المدلول القبلي:** أخذ مصطلح الغرب في الفترة الحديثة يأخذ بعداً قبلياً، أي أصبح يعني مجموعة من القبائل (الغرباوية). فيلاحظ - أولاً – أن كل من (محمد القادري) و (أبو قاسم الزياني) أظهرا اسم بني حسان لأول مرة مقروناً باسم "الغرب"، ويلاحظ – ثانياً- أن اسم الغرب أصبح يعني تجمعات قبلية متعددة أغلبها من قبيلتي (سفيان وبني مالك). وأخيراً، أصبح مصطلح "بنوحسن" مرادفاً للضفة الجنوبية لنهر سبو، والقبائل المستقرة فيها هي من عرب المعقل خاصة "بنو حسن".

- **مدلول الغرب الجغرافي:** واستعمل مفهوم الغرب للتفريق بين شمال المغرب الأقصى وجنوبه وشرقه، ففي حديثه عن بيعة الخليفة الموحدي العادل، يذكر (ابن عذاري) وصول البيعة إليه وهو بأشبيلية، من مراكش وبلاد الغرب. واستعمل (العبدري) في رحلته مفهوم الغرب بمعنى الشمال كمقابل لبلاد القبلة (الجنوب) أي بلاد سوس، وذلك حسب الموقع الذي يتحدث منه. ثم أصبح مدلول الغرب يستعمل للتمييز بين شرق المغرب الأقصى وغربه، حسب (مارمول كربخال). وبالتالي فالغرب من الناحية الجغرافية يمتد من تلال مقدمة الريف شمالاً وتلال للا زهرة في الشمال الغربي إلى هضبة المعمورة في الجنوب، ويحده غرباً أشرطة كثيبية تشكل الحدود الغربية، أما شرقاً فتشكلا تجاعيد مقدمة الريف حدوده الشمالية[1].

نخلص إلى القول، إن مصطلح "الغرب" ظهر في المصادر الوسيطية المبكرة نسبياً (المُغرب للبكري) في القرن الخامس الهجري/11م، أي قبل تداول مصطلح "الأزغار" بحوالي ثلاثة قرون، دون أن يعني ذلك أن أحدهما أقدم من الآخر في التداول[2].

---

[1]– نقلاً عن سعيد البوزيدي، عبدالعزيز أمريدخ، **الضيعات الفلاحية بمنطقة الغرب مقاربة تاريخية للمخلفات الأثرية والمواقع التاريخية**، ندوة المواقع الأثرية في منطقة الغرب، م س، ص55.

[2] – حول التطور التاريخي والمجالي لمفهوم الغرب أنظر: البوعناني المصطفى، م.س.

وبعد أن تعرفنا على الموقع الجغرافي لمنطقة الشمال الغربي المغربي، رأينا أنه من المفيد وضع **لائحة بأسماء المدن والحصون الوسيطية المنتشرة فيه**، على نحو ما يلي:

م	اسم المدينة/ الحصن	تأسيسها	المصادر التي تحدثت عنها
1	سبتة	العصر القديم، حكمتها أسرة مجكسة الغمارية الموالية للأدارسة حتى سقوطها بيد الناصر سنة 319هـ/931م.	معظم المصادر
2	طنجة	العصر القديم، كانت بيد الأدارسة ضمن ولاية القاسم حتى سقوطها بيد الناصر بعد سبتة سنة 339هـ.	معظم المصادر
3	أصيلا	229هـ (لواتة، كتامة)+االقاسم بن إدريس، والواقع أنها كانت من نصيب أخيه يحيى.	معظم المصادر
4	قلعة حجر النسر	317هـ (إبراهيم بن محمد بن القاسم الإدريسي)	ابن حيان، البكري، ص114 الإدريسي، ابن عذارى، ابن أبي زرع، ابن الخطيب، ابن خلدون، الناصري
5	البصرة	النصف الأول من القرن3هـ (كتامة+محمد بن إدريس) في عهد أبيه، كانت من نصيب القاسم، ثم مدينة أبي العيش بن إبراهيم.	جميع المصادر. البكري، ص110.
6	كُرت	بياتة+ محمد بن إدريس الثاني، النصف الثاني من القرن3هـ. كانت ضمن نصيب أحمد بن القاسم الإدريسي (أحمد الأكبر).	البكري، ص130. الإدريسي، ابن عذاري، صاحب الاستبصار، ابن أبي زرع، ابن خلدون، الناصري
7	الأقلام	القرن 3هـ(يحيى بن إدريس)، يذكر ابن	ابن حوقل، ابن

		حيان اسم حنون بن إدريس.	حيان، ج5، ص103 .البكري،الإدريسي، ابن عذارى
8	الحمر	القرن 3هـ (علي بن محمد بن إدريس"حيدرة")	الوزان، مارمول كربخال
9	تشومس	القرن3هـ (ميمون بن القاسم الإدريسي)	البكري، ص114. الإدريسي، ابن سعيد، صاحب الاستبصار
10	تطاوين	القرن 4هـ، القبائل المحلية، الأدارسة من بني محمد	معظم المصادر
11	حصن الكرم	الأدارسة، تحصن فيه الحسن بن قنون بعد مقتل ابن طملس، حصنه القائد الأموي يحيى التجيبي.	ابن حيان، البكري، ابن عذارى، ابن أبي زرع، ابن خلدون، صاحب مفاخر البربر
12	قلعة دمنة عشيرة	القرن 4هـ، صنهاجة + الأدارسة، دمرها الأمويون سنة 362-363هـ، بجوار قلعة بن خروب	
13	قلعة ابن خروب	قبيلة كتامة + الأدارسة	البكري، صاحب الاستبصار
14	دلول (زلول)	القرن 4هـ، (الحسن بن كنون الإدريسي)، أسقطها غالب بن عبد الرحمن بعد أن كان تحصن بها ابن قنون سنة (361هـ).	ابن حيان، ابن حوقل، البكري، ابن عذارى
15	زهجوكة	القرن4هـ (إبراهيم بن محمد بن القاسم الإدريسي)	البكري، ص114.
16	جرماية(جرمانة)	القرن4هـ، الأدارسة	البكري
19	إيجاجن، (أزاجن)	قديمة + الأدارسة(جنون بن محمد بن القاسم: 323-337هـ)	البكري، ص114. ابن أبي زرع، الوزان
20	تيجساس (السطيحة-الحسيمة)	بنو مسارة من غمارة، القرن 3هـ عاصمة ولاية عمر بن إدريس في غمارة والريف	البكري
23	حصن مهران/بني مصرخ/بني مصور	قتل فيه قائد الحملة الأموي سنة 362هـ، من قبل الحسن بن قنون.	ابن حيان

24	حصن الريح	تحصن فيه ابن قنون في حروبه مع الأمويين سنة 361هـ	ابن حيان
25	ويناقام	ق4هـ، (حمود بن إبراهيم بن محمد بن القاسم)، من غمارة	
26	قصر مصمودة (القصر الأول/الصغير/المجاز)	قديم، دمره الأدارسة سنة 340هـ، بعد احتلال طنجة سنة 339هـ، نزلت فيه الحملة الأندلسية سنة 362هـ على ابن قنون، جدده الموحدون.	البكري، الإدريسي، الوزان
20	سوق كتامة(القصر الكبير)	قاعدة إدريس بن القاسم بن إبراهيم. طورها الموحدون	البكري، المُغرب، ص110
21	المعمورة	أسسها بنو يفرن، ق4هـ، طورها الموحدون	البوعناني، الوزان، مارمول كربخال
27	منطقة سبو	كانت قاعدة حمزة بن داوود بن إدريس، ق3هـ/9م	اليعقوبي
28	بادس	قديمة، كانت أول حد للدولة الإدريسية شرقاً	اليعقوبي
29	ترغة	قديمة، كانت ضمن ولاية عمر بن إدريس	
30	أفتس	مدينة جنون بن إبراهيم، على واد اللكوس	البكري، المُغرب، ص114
31	العرائش (لكسوس)		
32	مزوجة		
33	ماسنة (ماسينة) قرب فاس	مدينة عيسى بن الحسن الحجام	البكري، المُغرب، ص110
34	جنيارة	القاسم جنون بن محمد بن القاسم بن إدريس	البكري، المُغرب، ص114

رابعاً
التطور السكاني

يعتبر البربر هم سكان المغرب الأصليون، وينقسمون إلى قسمين رئيسيين كبيرين، هما: البتر، والبرانس. والفوارق بينهما هي فوارق اجتماعية واقتصادية، وليست فوارق عنصرية، لأنهم جميعاً من جنس واحد. فالبربر البتر هم الذين كانوا يعيشون على الرعي والتنقل (غير مستقرين)، وأهم قبائله هم "زناتة"، التي تنقسم بدورها إلى عدة قبائل، مثل: جراوة، مغراوة، بني يفرن، بني مرين، بني زيان، بني وطاس، الخ. وانتشرت في جميع أرجاء المغرب من أقصاه إلى أدناه. أما البربر البرانس فهم الذين كانوا يعيشون على الزراعة (مستقرون)، وأهم قبائلهم: صنهاجة الشمال بفروعها، وهي التي ساندت الدولة الفاطمية، وخلفتها في حكم المغرب بعد انتقال الفاطميين إلى مصر ق (4هـ/10م). وصنهاجة الجنوب، وأهم فروعها: لمتونة، جدالة، مسوفة، لمطة، جزولة، الخ. وهم امتداد لصنهاجة الشمال، وعرفوا بالملثمين، وهم الذين أسسوا الدولة المرابطية.

ونستطيع القول، إن البربر كانوا مستقلين في كل مكان، إذا استثنينا قبائل البرانس في ولاية إفريقية الوسيطية أو تونس حالياً، والجزء الشمالي مما يعرف الآن بولاية قسنطينة، والبلاد التي على الشاطئ، والمعاقل التي في الداخل. وكان البربر، آنذاك، ينقسمون مجالياً إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

القسم الأول: في الشرق، وتحديداً في برقة، وطرابلس، والجريد، وأوراس (إفريقية)، وتقيم فيها قبائل: هوارة، وأورزيغة، ونفزاوة، وأوربة.

القسم الثاني: في الغرب، حيث تنتشر صنهاجة، في المغربين الأوسط والأقصى. فكتامة، تقيم في بلاد القبائل الصغرى. وزواوة، في

بلاد القبائل الكبرى. وزناتة، على شاطئ الجزائر، بين بلاد القبائل، وفي تلمسان، وشلف. وبنو يفرن، من شلف إلى ملوية. وقبائل غمارة، في الريف. وبرغواطة، ومصمودة، على الشاطئ الأطلسي لبلاد مراكش من (طنجة إلى تامسنا). وكزولة (جزولة)، في جبال الأطلس الكبير. ولمطة في جنوبي مراكش. والملثمون من صنهاجة، في الصحراء الغربية.

القسم الثالث: وهو بلاد قبائل زناتة، حيث تعيش في بقاع متوازية على حدود الهضبة، من طرابلس، إلى جبل عمور، ثم ينتشرون تدريجياً باتجاه المغربين الأوسط والأقصى[1].

وشهد العصر الوسيط أكبر الهجرات التي أدخلت تغييراً على التركيبة السكانية للمغرب الأقصى هي على التوالي[2]:

1- هجرات العرب الفاتحين: وعند وصولهم وجدوا أن السكان الأصليون منقسمين إلى مجموعتين كبيرتين: مستقرون يمارسون الزراعة وتربية المواشي، ورحل يعتمدون في حياتهم على الرعي، وبين المجموعتين يوجد أنصاف الرحل الذين يجمعون بين النشاطين. وكان أغلب المستقرين من قبائل المصامدة وخاصة في جبال غمارة والهبط، وساكنهم في ظروف تاريخية معينة بعض من صنهاجة وزناتة.

2- رافق هجرة العرب الأول عناصر بربرية من المغربين الأدنى والأوسط.

3- يضاف إلى ذلك موجة أخرى من الهجرات البربرية، خاصة صنهاجة الصحراء وبعض العناصر السودانية، فضلاً عن الهجرات الأيبيرية كمجموعات تجارية استوطنت في الثغور المغربية.

---

[1] – ج. يفر (G. Yver)، **دائرة المعارف الإسلامية**، م3، حرف الباء، [مراجعة محمد مهدي علام]، ص501–504.

[2]– للمزيد من الإيضاح يمكن الرجوع إلى ابن خلدون، **العبر**، ج6. و محمد حجاج الطويل، **دور الفلاحة في تأسيس المدن وتطورها**، أعمال ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي، 24–26 نونبر 1988، ص167–176.

هذا المزيج البشري هو الذي نجده مستوطناً للبلاد المغربية. ويقتضي منا اقتصار الحديث عن الشمال الغربي في البحث عن التجمعات السكانية المقيمة في مجاله الطبيعي. تمهيداً للتعرف على ساكنة المدن والطوابق الفاعلة في تاريخها. وفي هذا المجال فقد أنتشر الأدارسة في عموم منطقة الشمال الغربي، وخاصة بعد خروجهم من فاس، فمثلاً كان أول من نزل جوطة من الأدارسة الأمير يحيى بن محمد بن يحيى (العدام) بن القاسم بن إدريس، وتكاثر أبناؤه فيها، وشكلوا فروعاً ظلت تسكن المدينة إلى غاية بداية الدولة المرينية، ثم انتقلوا إلى فاس ومكناس في فترات متقاربة. كما كانت جوطة تأوي الأدارسة بعد نكبتهم على يد موسى بن أبي العافية، وضياع الحكم منهم، وانغمارهم في الجبال زمن المرابطين والموحدين، مثلما حدث في قلعة حجر النسر[1].

وعند التطرق للمدينة المغربية في الشمال الغربي المغربي، سوف نقوم برسم لوحة موضحة لتقسيمات السكان، ومجالهم، لكي نتمكن من الربط بين التأثيرات الوافدة على الخصائص الثقافية المحلية، وذلك في القسم الخاص بالمدينة المغربية في الشمال الغربي.

---

[1] – محمد عمراني، مادة **جوطة**، معلمة المغرب، ج10، ص3198. أنظر أيضاً: محمد العمراني: **دراسة وتحقيق لمخطوطة تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وزان، لحمدون الطاهري الجوطي الفاسي (ت 1191هـ/ 1777م)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2003– 2004، القسم الأول، ص 52–54.

الفصل الثاني
المجال الطبيعي والتاريخي

إن البحث في المجال الطبيعي وتقديم المعطيات الجغرافية والتاريخية هو صلب الموضوع الذي نحن بصدد تناوله بكل التقسيمات والتفاصيل الممكنة. ومن أجل ذلك سنستعرض في هذا الفصل توزيعاً جغرافياً للمدن والحصون حسب الموقع والموضع[1]، قسمناه إلى أربع مناطق هي: مدن واقعة على الضفة المتوسطية، ومدن تطل على مضيق جبل طارق، ومدن تقع على ساحل المحيط الأطلسي، وأخيراً المدن والحصون والقلاع التي تتموضع في الداخل، كل ذلك في نطاق المجال الجغرافي للشمال الغربي المغربي.

كما اعتمدنا تصنيفاً تاريخياً يتضمن توزيعاً لهذه المدن والحصون حسب تاريخ وفترة التأسيس، وهذا بدوره يتوزع إلى تقسيمات أخرى هي: المدن والحصون المعروف تاريخ تأسيسها، والمجهولة التأسيس، وتلك التي يمكن لنا تقدير فترة تأسيسها بناء على معطيات من المصادر المتوفرة.

أولاً- التوزيع الجغرافي

هناك في حدود الشمال الغربي المغربي ثلاث واجهات بحرية لكل واحدة منها خصائصها الجغرافية، وبناءاً على ذلك فإن المدن الناشئة فيها مرتبطة بها ارتباطاً جغرافياً وبشرياً، وما يتبع ذلك من الجوانب الاقتصادية والحربية. ولابد من إعارة الأهمية إلى المجموعة الواقعة بداخل المنطقة الداخلية الوسطى المتميزة بطابعها الجغرافي المرتفع

---

[1]– يقصد بالموقع ارتباط المدينة بمحيطها الطبيعي، أما الموضع فيتعلق بالخصائص الجغرافية للمكان. أنظر: ابن خلدون، **المقدمة**، م. س، ص851–853. عبد الهادي التازي، **تصميم المدينة من خلال المصادر العربية والأجنبية، وثائق ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي**، منشورات كلية الآداب، ابن مسيك، الدار البيضاء، من 24– 26 نونبر 1988، ص17–23.

والمتضرس. وحتى يتسنى لنا تقديم التفاصيل سنبادر إلى الاهتمام بكل مدن وحصون الواجهات المذكورة بالبحث والدراسة.

وقبل مناقشة هذا الموضوع رأينا تقديم نبذة عن مميزات الموقع وشروط تأسيس المدينة المغربية، فيذكر **ابن القاضي** عن الحكماء قولهم: لا تستوطن إلا بلداً فيه سلطان حاضر، وطبيب ماهر، ونهر جار، وقاض عادل، وعالم عامل، وأسواق قائمة. والمدينة المثالية في نظره هي التي تجمع **خمسة أشياء، نهر جار، ومحرث طيب، وحطب قريب، وسور حصين، وسلطان قاهر إذ به صلاح أهلها وتأمين سبلها**[1]. وقد ورد عند كل من: **ابن أبي زرع، والجزنائي** تلك الشروط بصيغة مماثلة لما ذكره ابن القاضي[2]. **فهل توفرت مدن الشمال الغربي المغربي على هذه الشروط أو على الأقل على أغلبها؟** وسنبادر أولاً إلى تقديم البيانات عن المدن، بعد تصنيفها حسب مواقعها وواجهاتها المتوسطية والمضيقية والأطلسية وما وجد منها في المجال الداخلي.

1- المدن المتوسطية

تنحصر المدن المتوسطية الداخلة في حدود الشمال الغربي في: بادس، وتيكساس، وترغة، ثم تطوان، وهي المراكز الحضرية التي تمتد من خليج النكور شرقاً إلى حدود سبتة غرباً، وهذا لا يعني أن هذه المدن هي فقط كل ما كان هنالك من عمران غير أنه لا يرقى إلى مستوى المدن. وتكتسي هذه المنطقة أهمية كبيرة في الاتصال بتلمسان والأندلس خلال الفترة المدروسة.

---

[1] – أحمد ابن القاضي المكناسي، (ت. 960–1025هـ)، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل بالأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، القسم الأول، ص42. ولمزيد من الإيضاح، أنظر: خالد عزب، **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**، م.س، ص73–74.

[2] – ابن أبي زرع، **القرطاس**، م. س، ص40. علي الجزنائي، **جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، [تحقيق عبد الوهاب بن منصور]، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1991، ص33.

- **بادس:** هي مدينة ومرسى بساحل قبيلة بقوية على ساحل المتوسط، وعلى بعد مائة متر منها توجد جزيرة معروفة باسمها، يصلها بالبر عند انحسار الماء ذراع رملي[1]. وهي أهم المراسي الواقعة بين بلد النكور[2] وسبتة[3]. **وموضعها بين جبلين شاهقين قرب واد يتكون فيه عندما ينزل المطر**، ويقال إن الأفارقة مؤسسوها، ويقول آخرون إن القوط هم بناتها[4]. وتحتل النقطة الساحلية من الحد الشمالي من أرض قبيلة **بني يطوفت**[5]، بين تخمها الشرقي بالنسبة لقبيلة **بقوية**[6]، وحدها الغربي المتصل بأراضي قبيلة **بني بوفرح**[7]. وهي بهذا الموقع تتموضع في المساحة الضيقة الوحيدة المنحصرة بين القسم الأخير من مصب وادي بادس، وتمثل بهذا التموضع شكلاً مستطيلاً باتجاه شمالي جنوبي. ويحمي هذه المساحة من جهة الشرق تلان مرتفعان (300م) شديدا الانحدار، تفصل بينهما مسيلة

---

1 – محمد الأنصاري السبتي، **اختصار الأخبار عما بثغر سبتة من سني الآثار**، م. س، هامش ص، 33.

2 – المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص136.

3– أبو الفدا إسماعيل، (ت 732هـ)، **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت، طبعة باريس، 1840، ص125. ويضعها ابن سعيد في موضع متوسط بين سبتة والمزمة بمسافة تقدر بـ100ميل. أما حليمة فرحات فتضعها إلى الشمال من تطوان بمسافة 120 كلم. ابن سعيد، **بسط الأرض**، م. س، ص74. حليمة فرحات، **بادس**، معلمة المغرب، ج3، مطابع سلا، 1991، ص966.

4 – الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ص325.

5– ترجع أصول قبيلة بني يطوفت إلى نفزاوة، كانت مستقرة ببلد النكور قبل بداية القرن الرابع الهجري/10م، ثم انتقلت إلى حوز بادس واستقرت بين تركيست جنوباً وبني بوفراح غرباً. حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، أطروحة دكتوراه دولة، ج2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1990، ص579.

6– تنتمي قبيلة بقوية إلى فخذ من صنهاجة المغرب الأوسط، استقرت بالريف الشرقي (أراضي كرط)، ثم تجاوزت وادي النكور وغيس لتستقر على طول الهضبة المشرفة على المتوسط. وتحتل بذلك امتداداً على البحر ساحل بادس بمسافة (47 كلم)، واستمرارها بتلك المواطن سابق لظهور إمارة النكور. حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م.س، ص581.

7– تقع مواطن قبيلة بني بو فرح حول وادي تنساب فيه المياه بسرعة من منابعه بجبل تركيست فتتجه في خط شبه مستقيم نحو مصبها في المتوسط، وتقطن السفوح الشرقية من الكتلة القائمة بينها وبين قبيلة بني كميل (جبال تيذا، بو خدل، بو خشخاش) والسفوح الغربية الفاصلة بينها وبين بني يطوفت (جبل اكراكور وقرن المعزة). حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م.س، ص 574.

صغيرة، من المفروض أن يسير مجراها بمحاذاة السور الشرقي[1]. والملاحظ أن مدينة بادس جمعت في موقعها بين البحر والنهر، والتحصين الطبيعي، وهي بذلك تكون قد توفرت على الشروط الطبيعية اللازمة لتأسيس المدن.

- **تيكساس:** تعد تيكساس من أهم مدن غمارة الساحلية، وكثيراً ما يشار إليها كمركز للنشاط المتنوع الذي طبع مناطق الشمال، حتى إن (العماري) مثلاً، يذكرها ضمن الإثنتين والأربعين مدينة [2]. وكانت تقوم بإدوار وظيفية متعددة، فهي مدينة عاصمة إقليم ولاية عمر بن إدريس، وهي مدينة ميناء، فموضعها على ضفاف نهر صغير يبعد عن ساحل المتوسط نحو ميلين أتاح لها القيام بدور ميناء إقليمي، وهي حصن من الحصون الإدريسية. "... **وعلى مقربة من أنزلان حصن تيقساس** على البحر، وبينهم نصف يوم، وهو **حصن معمور في غمارة**... "[3].

وموقع مدينة تيكساس بساحل قبائل غمارة، على بعد (70كلم شرق تطوان، وعلى بعد (15كلم) من ترغة شرقاً، ويتكون موضعها من هضبتين شمالية وجنوبية، يفصل بينهما منحدر استقل كممر في اتجاه السطيحة، وهو اسم القرية الحالية الواقعة بجوار موضع مدينة تيكساس[4]. زارها الفاسي صاحب مرآة المحاسن في القرن الحادي عشر الهجري/ 17م، ووطن بقاياها في موضع كثير الحجارة والصخر في سفح جبل في غربيها، تحتها في شمالها جرف كثير الصخر، على مكسر موج البحر،

1- حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م.س، ص 264.

2 - العماري، (ابن فضل الله، ق:7هـ/14م)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، [تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد]، الأبواب:8-14، الدار البيضاء، 1988، ص162-163.

3 - البكري، **المُغرب**، م، س، ص 108. الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص532.

4 - هامش محقق **القرطاس**، ص64. عبد العزيز توري، **المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة**، م. س، ص161.

لها نباع يجلب إليها من جدول، ولها بسيط تركبه الجداول من كل جهة، فيسقي الزرع والكتان والثمار[1].

مما سبق يتضح كذلك أن مدينة تيكساس واقعة على البحر وعلى مقربة من النهر، وقد انعكس اختيار موقعها إيجابياً على المدينة والأدوار التي اضطلعت بها، وكان من مميزات هذا الموقع، خصوبة الوادي الفسيح، وغنى الشاطئ وقابليته لإنشاء مرسى للمراكب البحرية التجارية، فاجتمعت للموقع مميزات لم تجتمع لغيره، الشيء الذي جعل منه في القرن الرابع الهجري/10م مقراً لصاحب السلطة الأموية-الأندلسية في المنطقة، بعد أن كانت قد ارتقت، فيما قبل، إلى مرتبة عاصمة لواحدة من الإمارات الإدريسية، هي إمارة عمر بن إدريس، في بداية القرن الثالث الهجري/9م.

- **ترغة:** هي المدينة الساحلية الثالثة في منطقة غمارة من الجهة الشرقية بعد بادس وتيكساس، تقع على ساحل بحر الروم (المتوسط)، على بعد سبعة فراسخ (=65 كلم) تقريباً إلى الجنوب الشرقي من تطوان، **في سهل ممتد بين جبلين**[2]، بساحل قبيلة **بني زيات**، إحدى قبائل غمارة بإقليم شفشاون. وقبيلة بني زيات بذلك تتوسط موقعين هما تيكساس من الجهة الشرقية، ورأس غمارة من الجهة الشمالية الغربية، ضمن إقليم الريف[3]. وترغة الآن موقع لقرية صغيرة، تقع تقريباً في منتصف الطريق بين واد لاو غرباً، وبو أحمد شرقاً، وإلى الجنوب من مصب واد لو، على الضفة اليمنى من مصب نهر يحمل اسم المدينة. وتتكون من ربض ساحلي - يعرف حالياً باسم الزاوية – حول ضريحي سيدي أحمد الغزالي، وسيدي عبد الرحمن الغربي، وربض داخلي محاذ لسفح جبل

---

[1]- الفاسي، **مرآة المحاسن**، م. س، ص165. عمر الجيدي، **تيكساس**، معلمة المغرب، ج8، مطابع سلا، 1995، ص 2734-2735.

[2]- مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م. س، ص229.

[3]- ترغة الإسلامية تقع أسفل موقع المدينة القديمة بحوالي 500م، وهي مدينة صغيرة بنيت بناءاً بسيطاً. أنظر: سعيد أعراب، **ترغة**، معلمة المغرب، ج7، مطابع سلا، 1995، ص2325- 2326.

أزنتي، وبين الربضين الأول والثاني مساحة شاسعة، يستغلها أهل البلد إما رعياً أو زراعة[1]. ويتميز موقع ترغة بكونه على سهل فلاحي خصب، وهو من الشروط اللازمة للموقع.

- **تطوان:** يحدد البكري موضع تطوان، بقوله: " وهي **بسفح جبل ايشقار**[2] **وهو متصل بجبل الدرقة،** ويبلغ إلى راس جبل الثور إلى مرسى موسى بالبحر الغربي، ومدينة تطاوان على أسفل واد راس [مرتيل حالياً]، قال محمد: [يقصد الوراق] وادي مجكسة، وهذا النهر يتسع هناك وتدخله المراكب اللطاف من البحر إلى أن تصل تطاوان، ومسافة ما بين البحر وبينها عشرة أميال [الحقيقة 10كلم شرقاً]... وبينها وجبل الدرقة سكة... ومن سبتة إلى تيطاون مرحلة [أي مسيرة يوم واحد]..."[3]. وكان هذا القسم من الواد صالحاً لسير المراكب البحرية الصغيرة التي كانت تستطيع دخول مدينة تطوان نفسها. ففي العهد الروماني كانت تصل السفن على مدينة تامودا المحصنة التي لازالت آثارها ظاهرة للعيان في موقعها المجاور لموقع تطوان من ناحية الغرب، على الضفة اليمنى للواد[4]. ويضعها (الإدريسي) بالنسبة لسبتة "... بين جنوب وشرق، إلى حصن تطاون مرحلة صغيرة، وهو **حصن** في بسيط الأرض بينه وبين البحر الشامي خمسة أميال... "[5] وعلى بعد ثمانية عشر ميلاً من المضيق، وستة أميال من البحر[6]. وتحتل مدينة تطوان موضعاً على نتوء من الحجر الجيري، ينفصل عن السفح الجنوبي لجبل درسة، ويشرف هذا الموضع على المجرى الأوسط لوادي مجكسة (وادي تطوان)، من جهة،

---

[1] – حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، ج2، م، س، ص 383. عبد العزيز توري، **المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة**، م. س، ص158.

[2] – هو جبل درسة حالياً. أحمد قدور، **تيطاوين المدينة والمجتمع في العصر الوسيط والحديث**، أطروحة دكتوراه دولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، 2003–2004، ج1، ص40.

[3] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص106–107، 115.

[4] – س. كولان، **تطوان**، الموسوعة الإسلامية، ج4، 1934، ص840–841.

[5] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، ص531.

[6] – الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م. س، ص318.

وتهيمن على المصب، إلى جانب موقعها على الطريق البري المتجه إلى مدينة سبتة[1]، وهكذا تشرف الجبال العالية على مدينة تطوان من الناحية الشمالية، ومن الناحية الجنوبية، وتشرف المدينة في نفس الوقت على وادي مرتيل الأدنى[2]، الذي ينحدر من أحد جبال ناحية شفشاون، ويصب في البحر على بعد سبعة فراسخ من سبتة باتجاه الشرق، في المكان المسمى مصب تطوان، وتقع المدينة على ضفته، في عالية الواد، على بعد فرسخ واحد عن شاطئ البحر، في سهل جميل تكتنفه الحدائق[3]. وموضعها هذا ممتد على طول منحدر جبل ايشقار (الدرسة) بارتفاع عن النهر بنحو (60 م) في جزئها الأعلى، وبـ (40 م) في جزئها الأسفل، حيث تطل بجرفها الصخري وما تتخلله من المغاور على الوادي من جهة الجنوب، ونواة المدينة مقامة على هيئة مصطبة كلسية سطحها منخور بخدود عميقة، ومقسم إلى خمسة مدرجات تبدأ من جبل الدرقة وتنتهي عند منحدرات الوادي، وتقع المباني الأولى للمدينة في أسفل المنحدرات الأولى لجبل الدرقة، وتشرف عليها حافة القصبة من جهة الشمال[4].

إذن، موضع تطوان مشرف على النهر وغير بعيد عن البحر، وتحيط بها جبال عالية، وظهير فلاحي مناسب أتاح لها الاستمرار والتطور كونه يتضمن الشروط الأساسية لتأسيس المدن حسب مفكري العصور الوسطى.

2- المدن المضيقية

لا تخفى أهمية مضيق جبل طارق عبر المراحل التاريخية ومنذ أقدم العصور الإنسانية مما يصعب التحدث عنه في هذا المقام الذي يستوجب مساهمة الساحل المغربي الممتد من سبتة شرقاً إلى طنجة غرباً.

---

[1]- أحمد قدور، **تطوان**، معلمة المغرب، ج7، مطابع سلا، 1995، ص2400.

[2] – حسان عوض، **جغرافية المدن المغربية**، م. س، ص74. محمد داود، تاريخ تطوان، ق3، من مجلد4، تطوان، 1964، ص243.

[3] – مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م. س، ص222.

[4]- أحمد قدور، **تيطاوين المدينة والمجتمع في العصر الوسيط والحديث**، م.س، ج1، ص41.

وسنحاول في هذه التوطئة وصف المواقع الجغرافية للمراسي والمنطقة الواقعة ما بين سبتة وقصر مصمودة

ويمكن وصف المنطقة ما بين سبتة ومدينة القصر الأول على الشريط الساحلي الجنوبي لمضيق جبل طارق اعتماداً على المصادر وبخاصة (البكري)، على النحو التالي: فبعد الخروج من سبتة غرباً، نجد ناحية بني سمغرة (قبيلة من المصامدة) التي كانت تضم جبل موسى، ثم مرسى دنيل الصغير، ثم شاطئ ماء الحياة، الذي يتوفر على عيون، ومنه إلى موضع يسمى القصر، ومنه إلى مرسى بليونيش، وموضعه يحتله واد بليونز الحالي، ثم نجد غرباً، مرسى موسى في قعر الخليج الذي يصب فيه واد موسى، وفيه يسهل الإرساء في جميع الفصول، إلا أنه معرض للرياح الجنوبية الشرقية، كما يمكن للسفن أن تتزود فيه بالماء العذب، أما النواحي المجاورة ففيها قنص كثير وعدد كبير من القردة، ولازال جبل موسى إلى اليوم يسمى جبل القرود، ويقصده سكان سبتة للصيد. وكما كان الحال بالنسبة للموانئ الشمالية الواقعة بهذا الساحل، فإن علاقات مرسى موسى بالموانئ والمدن الأندلسية كانت- من غير شك- نشطة جداً، حيث كان يقابله من ناحية شاطئ الأندلس، ميناء لب (بورت لب)، قرب رأس كرنيرو، الذي يشكل الطرف الغربي لخليج جبل طر، على بعد مسيرة نصف يوم في البحر. ومن مرسى موسى، غرباً، نجد أرضاً رملية فيها ماء طيب، ثم مرسى باب اليم، يحرسه رباط، وحول هذا الرباط دور يسكنها المصامدة [1].

ذلك أن من أهم المواضع المشهورة والمنازل المعمورة ما بين سبتة وطنجة " نهر أليان وقصر أليان[2] ثم الموضع المعروف بالقصر، وموضع القصر على خندق يجري فيه ماء كثير في الشتاء، ويقل في

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص105–108.

[2] – نهر أليان في الخرائط هو واد اليم، وينسب إلى الكونت جوليان، ويمثل حدود المنطقة التي كانت قديما تحت حكم ممثل الإمبراطور البيزنطي، وهناك نجد قصر أليان. راجع، ابن عبد الحكم، **فتوح أفريقية والأندلس**، الجزائر، 1984. البكري، **المُغرب**، م. س، ص108.

الصيف، وفي غربي هذا النهر موضع يعرف بكروشت، وهو أخر غمارة ومصمودة[1]. ويقع قصر مصمودة إلى الغرب من سبتة، بنحو أثني عشر ميلاً [18كلم]، وإلى الشرق من طنجة، بنحو 12ميلاً، على الساحل الجنوبي لمضيق جبل طارق، في سهل جميل يرى منه ساحل الأندلس[2].

وتتجلى أهمية مرسى باب اليم في أن الواد الذي يحمل نفس الاسم يصب فيه. ويقابل من الجانب الشمالي للشاطئ الأندلسي، ميناء جزيرة طريف، التي تنسب إلى القائد الأمازيغي (طريف بن ملوك) الذي نزلها خلال أول حملة عسكرية للمسلمين على الأندلس، سنة (91هـ /710م) على بعد مسيرة ثلث يوم في البحر. وبالرغم من هذه المسافة القصيرة، إلا أنها لم تخلق تياراً قوياً للمبادلات التجارية بينهما، نظراً لأن مرسى باب اليم لم يكن مأموناً، ولا يوجد بجواره أي مركز هام، الشيء الذي جعل الطريق التجاري البحري ينحرف عن هذا المرسى، ويتجه نحو مينائي سبتة وطنجة الهامين، ونحو ميناء قصر مصمودة.

- سبتة: تبدأ المدن المضيقية من الجهة الشرقية للمضيق **بمدينة سبتة** التي تقع على الضفة الجنوبية لمضيق جبل طارق على بحر الزقاق[3] ويلخص مجمل مميزاتها ما قيل عنها من كونها نظام باب المغربين، ومفتاح باب المشرقين، **ومجمع البحرين**، قاعدة البر والبحر"[4]. في أقصى الشمال الغربي المغربي.

تحتل رقعة سبتة جزيرة تمتد من الغرب في اتجاه الشرق، وهي بذلك تتوفر على موقع استراتيجي يمكنها من التحكم في مدخل المضيق،

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص106–108.
[2] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص529. الحميري، **الروض المعطار**، م. س، ص476. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م. س، ص315.
[3] – الزقاق، اسم كان يطلقه المغاربة والأندلسيون على ما يعرف اليوم بمضيق جبل طارق. وهو المجاز ما بين سبتة المغربية والجزيرة الخضراء الأندلسية، بينهما اثنا عشر ميلاً في أضيق موضع وثماني عشر ميلاً في أوسع موضع. السبتي، (محمد بن القاسم الأنصاري)، **اختصار الأخبار عما بثغر سبتة من سني الآثار**، [تحقيق، عبد الوهاب بن منصور]، ط2، الرباط، 1983، ص33. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج3، م.س، ص144.
[4] – ابن عذاري، **البيان**، ج1، م. س، ص200–201.

أهلها لأن تقوم بأدوار تاريخية مهمة على مستوى أحداث الحوض الغربي للبحر المتوسط منذ أقدم العصور[1]. وهذا ما جعل أبا عبيد الله البكري يقول فيها: " والبحر محيط بها شرقاً وشمالاً وقبلة، ولو شاء ساكنوها أن يوصلوه من ناحية الشمال لوصلوه، فتكون جزيرة منقطعة"[2]. وتقابل الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس، وعلى ميلين منها جبل موسى، ويجاوره موضع بليونيش"[3]. وموقعها حيث الطول تسع درجات والعرض خمس وثلاثون درجة ونصف، وهي عبارة عن نقطة اتصال ما بين البحر الأبيض المتوسط، والمضيق[4].

وقد أشار المؤرخون إلى قرب المسافة بين ضفتي المضيق، أي بين الساحل الشمالي للمغرب عند سبتة والساحل الجنوبي للجزيرة الخضراء في الأندلس عند جبل طارق[5]. وبالمقابل فإن المضيق الذي تطل عليه المدينة لا يزيد عرضه في أضيق الأماكن عن خمسة عشر كيلو متراً[6].

مما سبق يتضح أن سبتة تتميز عن غيرها من المدن بالتحصين الطبيعي الذي أثر بشكل مباشر على دورها السياسي على مر التاريخ، وخاصة خلال العصر الوسيط، إذ كانت تتمتع بما يمكن تسميته اليوم بالحكم الذاتي، إما تحت السيادة المغربية أو الأندلسية. وهذا الوضع ظلت محتفظة به إلى يومنا هذا.

- قصر مصمودة أو القصر الأول: تقع مدينة **قصر مصمودة** الوسيطية على الضفة اليمنى من مصب وادي القصر بالبحر المتوسط، قبالة جزيرة طريفة الأندلسية، وعلى بعد (35 كلم) شرق مدينة طنجة،

---

[1]- البيضاوية بلكامل، **سبتة**، معلمة المغرب، ج 14، مطابع سلا، ص4843.

[2] - البكري، **المُغرب**، م. س، ص102-103.

[3] - الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص528-529.

[4] -ابن سعيد، **الجغرافيا**، م. س، ص138-139. **بسط الأرض**، م. س، ص73.

[5] - ....العذري، **ترصيع الأخبار وتنيع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك والممالك**، ص118.

[6]- عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، [وضع حواشيه خليل عمر المنصور]، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1998، ص253، 254.

و(20 كلم) غرب مدينة سبتة. وربما على مقربة من موقع المدينة القديمة ليسا [1] (lissa) أو اكليليسا.

ويحدد البكري موقع هذا الحصن الإدريسي، عند وصفه الطريق من سبتة إلى طنجة، قائلاً: " ثم مرسى موسى... وفيه نهر يريق في البحر، **كان عليه حصن هدمه بنو محمد ومصمودة سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة، ثم بناه أمير المؤمنين الناصر فهدموه أيضاً، سنة أربعين [340هـ]**، وحول هذا الحصن في غربيه قبائل من البربر، في ساحل رمل فيه ماء طيب، وهو متصيد أهل سبتة... "[2].

نعتقد أن هذا الحصن ليس إلا القصر الأول أو قصر مصمودة. وقد بنينا اعتقادنا هذا على أساس الحقائق الآتية:

1- بالرغم من أن البكري لم يذكر اسم هذا الحصن، إلا إن ذكره في المصادر جاء مقترناً بمصمودة، والمعروف أنها أحدى تسمياته، بالإضافة إلى التسميات الأخرى: القصر الأول ربما لأقدميته، وقصر الجواز أو قصر المجاز إلى الأندلس، وعرف في ما بعد بالقصر الصغير لتميزه عن القصر الكبير.

2- وإلى مصمودة الساحل ينسب قصر مصمودة الذي بناه زعماء مصمودة بالقرب من طنجة، على عهد طارق بن زياد

3- وجود أول حصن إدريسي في بر العدوة المغربية مما يلي الأندلس بعد اجتياز مضيق جبل طارق، يتموضع بإحدى ضفتي واد موسى، على الطريق من سبتة إلى طنجة، وتوطينه هذا لا يخرج عن توطين قصر مصمودة. بعد اجتياز واد زلول (الذي ذكره الوراق بهذا الاسم، وربما أن الأمر يتعلق بواد (فرميول) المشار إليه ضمن المواضع المشهورة.

---

[1]- أحمد صالح الطاهري، **القصر الصغير**، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2004، ج19، ص6641.

[2] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص105.

4- يعد هذا القصر (الحصن) بمثابة محطة يفصلها عن طنجة مسافة يوم واحد[1]... ومن قصر مصمودة إلى مدينة طنجة غرباً عشرون ميلاً... "[2].

5- ويحتل موضعاً وسط أراضي بها غرس كثير، وفي مخرج النواحي الخصبة التي تقيم بها قبائل مصمودة، الواقعة في شبه الجزيرة الطنجية.

6- ثم إن ميناء القصر يحظى بموقع ممتاز، هو أقرب مكان للشاطئ الأندلسي تجاه بلدة طريف على الساحل الأندلسي المقابل، والمسافة بينهما 12 ميلاً[3] .

7- والموقع محصن ويحتل موضعاً بالقسم الأعلى من مصب نهر فزر (ومصبه اليوم مملوء بالرمل)، وهو ما أوضحه البكري، بقوله: " وتدخل المراكب في هذا الوادي إلى حايط القصر"[4].

8- كان حصناً إدريسياً شاهداً على حدة الصراع الذي كان قائماً بين الأدارسة من بني محمد والأمويين، في بداية القرن الرابع الهجري/10م.

9- القصر الأول يتضمن ثلاثة مواقع، هي:

- الموقع الإسلامي المعروف والذي نهتم به.

- موقع على الشاطئ شرق مصب وادي صغير، يبدو أنه قديم يرجع إلى القرن الثالث الميلادي.

- موقع ثالث قديم أيضاً، يحمل نفس الاسم، ويقع داخلياً على بعد كيلو متر واحد شرق مصب نفس الوادي، يتضمن آثاراً تعود لفترة الاحتلال الروماني[1].

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص106–108. جاك كيني، **المغرب الشمالي في أواسط القرن الخامس الهجري(11م)**، [تعريب، سعيد النجار]، مجلة البحث العلمي، الرباط، ع (210)، ص135–138.

[2] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص529.

[3] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص101. ابن خلدون، **العبر**، ج6، م. س، ص210–211.

[4] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص106–108.

- **طنجة:** تقع **مدينة طنجة** بالطرف الشمالي الغربي للمغرب وشمال إفريقيا، وعلى الجزء الجنوبي الغربي من مضيق جبل طارق، إلى الغرب من حوض البحر الأبيض المتوسط عند انفتاحه والتقائه-عبر المضيق، بوغاز- بالمحيط الأطلسي. وتعطي طنجة بالظهر لهضبة مرشان التي يفصلها عن الجبل الكبير وادي ليهود[2]. تمثل طنجة بهذا الموقع بوابة إفريقيا والمغرب إلى العالم الخارجي: عبر المضيق والبحر المتوسط إلى أوربا، وعبر الأطلسي إلى بلاد السودان، على سيف المحيط جنوباً، وعلى العالم الجديد غرباً (في العصر الحديث). إذ تبعد عن شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس في العصر الوسيط، وإسبانيا حالياً) بحوالي (18كلم)، وبذلك تشرف طنجة على جبهتين بحريتين، جبهة المضيق والبحر المتوسط شمالاً، وجبهة المحيط الأطلسي إلي تطل عليه غرباً. وإلى الجنوب منها تمتد تضاريس مقدمة جبال الريف، وإقليم الهبط، بمرتفعاتها ومنخفضاتها، كما يقابلها على الجانب الشمالي بعد المضيق سلسلة جبال البيتيك كودبليرا، في إسبانيا[3]. "... ومن قصر مصمودة إلى مدينة طنجة غرباً عشرون ميلاً... وهي على جبل مطل على البحر وسكنى أهلها منه في مسند الجبل"[4]. وعلى وجه التحديد تقع طنجة بالقسم الشمالي الشرقي من كتلة الجبل الكبير، بين واد ليهود والجرف الساحلي، وهو موضع به آبار كثيرة ومجال للبساتين والأشجار المثمرة. وتقع طنجة البالية التي تهمنا في الجانب الشرقي من جنوب طنجة مقابلة للحديثة الواقعة على الطرف الغربي[5].

---

[1]– لمزيد من الإيضاح أنظر: مصطفى أعشي، **القصر الصغير**، معلمة المغرب، ج 19، مطابع سلا، 2004، ص 6643.

2– مصطفى أعشي، **طنجة**، معلمة المغرب، ج17، م، س، ص5769.

3 – عزيزة محمد علي بدر، **طنجة بوابة إفريقيا، دراسة في جغرافية المدن**، القاهرة، 1996-1997.

[4] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص529.

5– حسن الفكيكي، **سبتة المغربية صفحات من الجهاد الوطني**، سلسلة المعرفة للجميع، العدد (14)، منشورات رمسيس، الرباط، أبريل 200، ص176.

ونجد في بعض المصادر الإشارة إلى طنجة ليس كمدينة وإنما كإقليم في المغرب الأقصى، هو شمال المغرب، والأقاليم الأخرى هي السوس الأدنى، والسوس الأقصى، ومن ذلك أن طنجة: "هي كوره[1] عظيمة تحيط بمدن وقرى وبواد من البربر كثيرة، ومدينتها العظمى التي هي القصبة[2] تسمى فاس، وهي المدينة التي بها يحيى الفاطمي[3] [الإدريسي]، ولم يفتحها عبيد الله الخارج بالمغرب إلى حين تصنيف هذا الكتاب"[4] .

3- مواقع المدن الأطلسية

يتميز الساحل الشمالي الغربي المغربي من المحيط الأطلسي بعدد من المدن الوسيطية التي لعبت دوراً في التأثير على تاريخ الشمال الغربي برمته، وكانت بمثابة نوافذ مطلة على الشعوب المجاورة، وفي هذا المقام سنورد وصفاً للمواقع الجغرافية للمدن الأطلسية.

- **الحُمر:** تبدأ المدن الأطلسية بمدينة أصيلا التي خصصنا لها موضعاً خاصاً ضمن النماذج. والمدينة التالية لها **الحُمر**، وهي من الحصون الإدريسية التي تحولت إلى قرية. تقع بحوز أصيلا، على الجانب الأيسر من الواد الذي يحمل اسمها، وهو أحد روافد وادي لحلو، تبعد عن مدينة أصيلا جنوباً بنحو ستة كيلو مترات. وقد كان وطنها (كربخال)، بين أصيلا والقصر الكبير، على بعد خمسة أميال من كل منهما. غير أن (الفكيكي) تمكن من توطينها بصورة أدق، يقول: إن موقع القرية لا يبعد عن أصيلا سوى بفرسخ واحد، مما يقابل تندافل على

---

[1]- الكوره: وردت هذه التسمية في مصادر العصور الوسطى، وتدل على تقسيم إداري بما يرادف اليوم تعبير الإقليم.

[2]- كذلك وردت تسمية القصبة وهي عبارة عن مصطلح عسكري للمكان المحصن والذي يقطنه الحاكم.

[3]- هذه الإشارة من الأصطخري تفتح الباب للنقاش حول المقصود منها، ومن المعلوم أن ابن حوقل كررها في كتابه **وصف الأرض** عند حديثه عن بلاد طنجة.

[4] - الأصطخري، (ت. 346هـ)، **مسالك الممالك**، م. س، ص39.

طريق القصر الكبير الواصل إلى أصيلا، مروراً بالمنارة والحضرة[1]. وحصن الحُمر اليوم عبارة عن مدشر، يقع في قبيلة الساحل التي تحد غرباً بالمحيط الأطلسي، وشمالاً بقبيلة الغربية، وشرقاً وجنوباً بالخلط[2]. وهذه هي الحدود القبلية للحُمر، ضمن مدن الساحل الأطلسي[3]. ويمكن لنا تحديد الموقع الحالي هو بين دشر أولاد غانم جنوباً وأولاد العربي شمالاً. ويمكن لنا تقدير حجم مدينة الحمر بكونها من المدن الصغرى الشيء الذي جعل بعض المصادر تصفها بالحصن.

ـ **تشُمس: تقع مدينة تشُمس** على الضفة اليمنى لواد اللوكس قبل نفاذه إلى المحيط، وهي مجاورة للموقع المدينة القديم (ليكسوس) فإذا اتجهنا من طنجة أو أصيلا جنوباً "على سيف البحر المحيط [نجد] وادي سُفدد [لوكس] وهو واد عظيم غزير الماء، يحمل المراكب، عذب ومنه شرب أهل تشُمس. ووادي تشمس هذا معروف بسفدد، ويمد سفدد شعبتان، تقع فيه أحدها من بلد دنهاجة [صنهاجة] من جبلي البصرة، والثانية من بلد كتامة. وكلتاهما ماء كثير، وبينها وبين المحيط نحو ميل، وبين مدينة تشمس ومدينة البصرة دون المرحلة[4]. وفي وصفه الطريق (سبتة-فاس)، يضع (البكري) مدينة تشُمس إلى الجنوب من مدينة سوق كتامة، [بينما هي في الواقع إلى الشمال منه]، على نهر لوكس، وجريته من الشرق إلى الغرب، ويلتقي عند افتس ثم يهبط إلى سوق كتامة فيسمى هناك واد لُوكس، ثم إلى مدينة تشمس، التي تقع على مدخل مصب الوادي في المحيط[5]. ومصب نهر القصر إلى الشمال من نهر سبو، وعلى جانبه

---

[1] – الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م. س، ص311. كربخال، **إفريقيا**، م. س، ص197. الفكيكي، **مقاومة الغزو الأيبيري بمليلة، دار** النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997، ص355.

[2] – محمد أخريف، **مادة الحُمر**، معلمة المغرب، المجلد (11)، مطابع سلا، 2000، ص3582.

[3] – لمزيد من الإيضاح أنظر: حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية الغربية**، ج1، م. س، ص28، 30.

[4] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص80. الإدريسي، **النزهة**، ج1، م. س، ص529-530.

[5] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص114. المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص140.

الجنوبي عند البحر العرائش، وعلى جانبه الشمالي تشُمس[1]. والواقع أن روجي (R Roget) كان قد تتبع المواقع البحرية ما بين سلا وأصيلا، وذكر أن موقعاً باسم تشمس، فهل هو موقع تشمس القديمة أم أن الأسماء تنتقل عبر التاريخ لتطلق على مواقع أخرى؟ للحسم في الموضوع لابد من تدخل علم الآثار[2].

ـ **المعمورة:** تنتمي مدينة **المعمورة** إلى المرحلة الثانية من النشأة والتطور خلال العهد الإسلامي الأول. وهي من المدن المعروفة بموقعها إلى اليوم، والمطل على مرسى حلق البحر على واد سبو[3]، وهي عبارة عن هضبة تقع على الواجهة الأطلسية، وتمتد على شكل مستطيل ما بين الساحل الأطلسي غرباً ووادي بهت شرقاً، مشكلة مجالاً انتقالياً على شكل حادور واسع يربط بين هضاب زغير وزمور جنوباً وسهل الغرب الفيضي شمالاً. وتحمل هذه الهضبة أكبر غابات البلوط المنبسطة في العالم والممتدة ما بين وادي بو رقراق في الجنوب وسهل الغرب في الشمال، ويتراوح ارتفاعها بين بضعة أمتار في الغرب والشمال الغربي بالقرب من الساحل، وتتعدى 400م في الجزء الشرقي. وتتعمق في الهضبة مجموعة من الأودية التي تشكل روافد لوادي بهت ووادي سبو، تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتصبح في الغرب على شكل هضبة متموجة مؤلفة من أشرطة كثبانية ساحلية قديمة وموازية لخط الساحل[4]. وموقعها إلى الشمال من مدينة سلا، على بعد حوالي (30كلم)، عند مصب وادي سبو بالمحيط الأطلسي[5].

---

[1] – ابن سعيد، **الجغرافيا**، م. س، ص137. **بسط الأرض**، م. س، ص72.

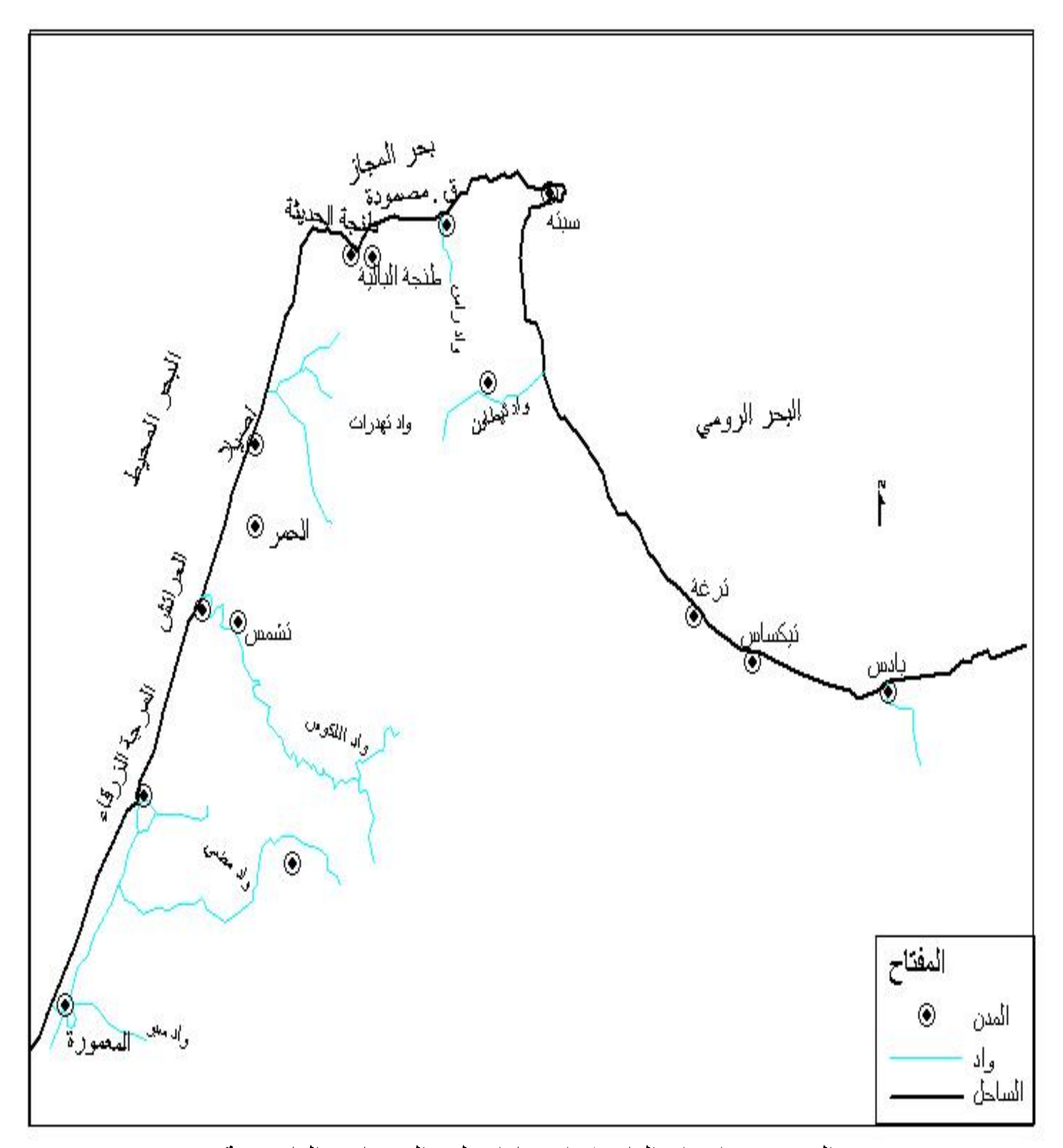
2– محمد حجاج الطويل، **تشمس**، معلمة المغرب، ج7، مطابع سلا، 1995، ص2381.

3– أحمد قدور، **المعمورة والبصرة: دراسة مقارنة**، ضمن أعمال الندوة الوطنية التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة حول قصبة المهدية، أيام 22 و 23 أبريل 2003، ص37– 53.

4– رشيدة نافع، **المعمورة**، معلمة المغرب، ج21، مطابع سلا، 2005، ص7200. عبد الرحمان عافي، **المعمورة**، المعلمة، م، س، ص7199.

[5] – هناك إشارات تتعلق بموقع آخر للمعمورة بينته الخرائط الجغرافية التي تنتمي للقرن 17م، حيث أشارت إلى أن هناك موقعاً في المرجة الزرقاء أو ما يسمى بمولاي بوسلهام، تحت

خريطة (1) المدن الساحلية



المصدر: إعداد الباحث اعتمادا على المصادر التاريخية

مسمى "المعمورة القديمة". لذلك رجح أحد الباحثين في تاريخ منطقة الغرب إلى أنه من المحتمل أسبقية معمورة المرجة الزرقاء على معمورة سبو. المصطفى البوعناني، **معالم مرفأ نهري على ضفة المرجة الزرقاء بمنطقة الغرب**، ندوة المواقع الأثرية في منطقة الغرب بين البحث العلمي والبعد التنموي، إصدار كلية لآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم(9)، 2007، ص108.

4- المدن والحصون الداخلية

تتميز المنطقة الداخلية للشمال الغربي بتنوع التضاريس في إطار ما يعرف بغمارة والهبط، وفيها تنتشر الحصون والقلاع الجبلية، وكانت المنطقة عبر تاريخها الطويل صعبة المنال على الغزاة، وارتبطت بشبكة من الطرق التجارية الفرعية.

- **المدن:** تتوزع المدن الداخلية ما بين مدن سهلية وأخرى جبلية، كما هو مبين في التناول الآتي.

- **ويناقام:** تعد مدينة **ويناقام** ضمن المراكز الإدريسية الجبلية المنتشرة بين ساحل المضيق شمالاً ومجرى واد لكوس جنوباً، وتقع بجبل واد راس، إلى جانب ما كان بيد الأدارسة من المدن[1]. ومن خلال الوصف الذي أورده (البكري) حاولنا توطين موقع هذه المدينة وإسقاطها على خريطة الشمال الغربي، فهو يوطنها ضمن خطوط التجارة الجبلية (الداخلية) بوسيلتين:

-الأولى عن طريق مواقع المحطات: حيث يتم المرور إليها من جبل الدرقة الذي يتصل ببلاد غمارة، ثم إلى نهر راس، ثم إلى سوق بني مغراوت، وهو أخر بلاد مجكسة في غرب راس، ثم إلى فج الفرس، وهناك نجد مدينة ويناقام بسفح جبل ولها ثمار ومياه كثيرة، وهي على نهر سسهور[2]. لكن المشكل هو بقاء بعض أسماء تلك المحطات غير معروف، والإشارة موجهة إلى سوق بني مغروات وفج الفرس، الذي هو بجوار المدينة، ومنها إلى محطة جبل حبيب.

-الثانية عن طريق المسافة: بين ويناقام وجبل الدرقة ميلان، وهو ما بين الغرب والقبلة (الجنوب) من المدينة، ويتصل به جبل حبيب"[3].

مما سبق يتبين لنا أن موقع مدينة ويناقام جاء مراعياً لشروط تأسيس المدن، في سفح جبل، وبجوار نهر. ويضيف عدم معرفة أسباب

---

[1] – حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، ج1، م.س، ص28.

[2] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص107.

[3] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص107.

اندثارها صعوبة أخرى. ولا يمكن تقديم أية افتراضات قبل أن يحظى الموقع بالمسح الأركيولوجي. وفقط يمكن لنا أن نقدم اقتراحاً يشير إلى أن موقع مدينة ويناقام يوجد بين قبيلتي واد راس شمالاً وبني مصور جنوباً، ولا شك أن اندثارها في ظروف غامضة هو الذي فوت علينا فرصة تقديم بيانات أكثر وضوحاً عن موقع المدينة.

- **زلول (دلول)**: في الأصل مدينة قديمة، عرفت باسم زيليل **(Zilil)** كما وجد بالنقائش التي اكتشفت بالموقع، وليس **(Zilis)** المذكور في الخرائط القديمة، تقع إلى الشرق من أصيلا بحوالي خمسة عشر كيلو متراً، في موضع يسمى اليوم الدشر الجديد، إلى الجنوب من طنجة (**Tinigi**)[1].

أما المدينة الوسيطية فأنه من خلال النصوص المتوفرة، نجد أن أقدم إشارة لها ترجع إلى القرن الرابع الهجري/10م، وردت عند رحالة مشرقي، هو ابن حوقل. وإلى نفس الفترة ترد إشارة أخرى للمؤرخ الأندلسي ابن حيان. وفي القرن التالي (5هـ /11م) أشار إليها البكري إليها بشكل مباشر. وأخيراً، نجد لزلول صدى عند المؤرخ المغربي ابن عذاري (ق7هـ/13 م). فإذا كان ابن حوقل يسميها (زلول)، فهي عند البكري ذلول قرية كبيرة، وكذلك ابن حيان وابن عذاري. كما أشار البكري لوادي زلول بقوله: "... ثم يلقي بعد باب اليم وادي زلول عليه ثمار وعمارة كثيرة... وبقرب هذه القلاعة قرية كبيرة لعرب خولان[2] ... وهي على نهر زلول، وهذا النهر تلقاه قبل الوصول إلى قلعة ابن خروب"[3]

إذا كانت زلول مدينة قديمة أتى عليها الخراب قبل الفتح الإسلامي (40 ق. م)[4]، فإن الحياة أعيدت إليها من قبل الحسن بن كنون

---

[1]- محمد مجدوب، **زليل**، معلمة المغرب، ج14، مطابع سلا، 2001، ص4700-4702.
[2] - خولان اسم لقبيلتين ومنطقتين كبيرتين في اليمن.
[3] - البكري، **المُغرب**، م. س، ص105، 109.
[4]- محمد مجدوب، **زليل**، معلمة المغرب، م، س، ص4700-4702.

الإدريسي، ونقدر أن تاريخ الإحداث هو قريب من سنة 341هـ، التي ظهر فيها الأمير الإدريسي بالمنطقة، إذ أنه كان مهدداً بتدخلات قرطبة على عهد الحكم المستنصر ثم خلفه الحاجب المنصور ن أبي عامر.

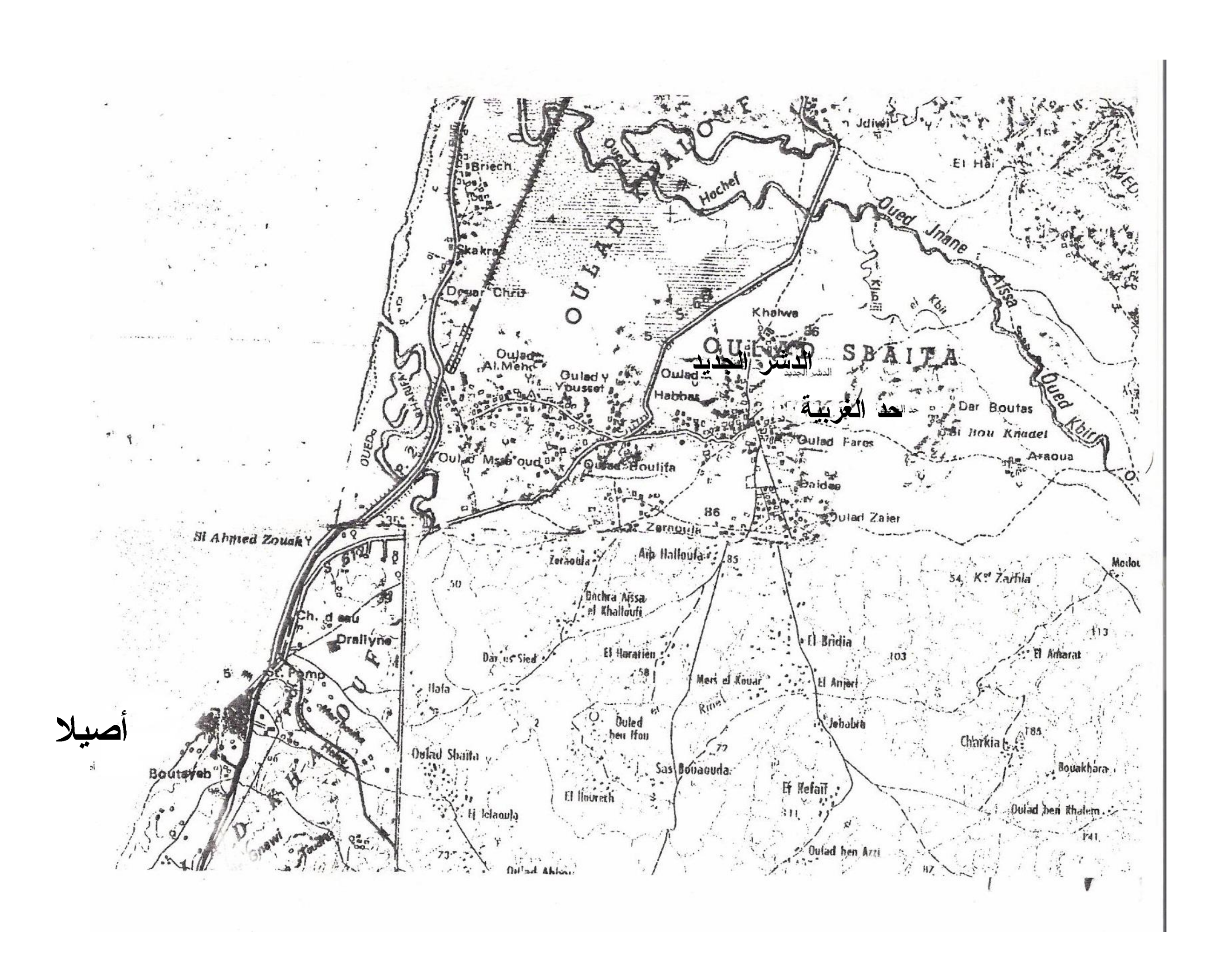
والملاحظ أن إحداث البناء قد تم شرق أزيلي القديمة، ولن نتمكن من تقديم أي وصف للمدينة المستحدثة قبل الاستماع إلى الكشف الأركيولوجي. وانتعشت بفضل وجود أسواق قريبة منها. يمكن التعرف على مواقع تلك الأسواق دون التأكد من الاحتفاظ بالأسماء القديمة. وهو ما أشار إليه ابن حوقل، الذي يصفها وينسبها إلى الأمير الإدريسي (الحسن بن كنون، ق4هـ /10م)، بقوله: " زلول مدينة لطيفة **بشرق أزيلي،** لها أسواق قريبة، وكان عليها معول حسن بن كنون الحسني الفاطمي وهو مستحدثها، وشربهم كشرب أهل طنجة مجهول المبتدأ غير معلوم الأصل"[1].

وبناء على ما جاء به ابن حيان الأندلسي صاحب المقتبس، فإننا نتأكد على أن مدينة زلول كانت قائمة إلى سنة 361هـ. وآنذاك كانت على موعد تخريبها على يد القائد الأندلسي الوزير محمد بن قاسم طملس، الذي تعقب الأمير الإدريسي إلى جبل الريح، **وفي اليوم التالي مدينة أصيلا، ومنها دبر القضاء على مدينة زلول لتختفي أخبارها بصفة نهائية، وانهب الجند بقية ما غادر الحسن بها، ثم أمر بهدم أسوارها، وتضريم بيوتها ناراً فتركها جوف حمار**[2].

---

[1] – ابن حوقل، صورة **الأرض،** م. س، ص80. ياقوت الحموي، **معجم البلـــدان،** ج3، م. س، ص146.

[2] – ابن حيان، **المقتبس،** ج5، م. س، ص90. ابن عذاري، **البيان،** ج2، م. س، ص246.



خارطة مدينة أصيلا، (نقلاً عن معلمة المغرب، حرف الألف)

- **جرماية:** الإشارة الوحيدة التي وردت في المصادر وتتحدث عن موقع **جرماية** وجدت عند (ابن حوقل) باسم جرمانة، ولكنها غير مقنعة[1]، إذ يقدم لنا اقتراحاً ولكن يصعب الاستفادة منه فيذكر جرماية ضمن المدن القريبة من المحيط الأطلسي إلى جانب تاورات والحجر، والأقلام والبصرة وحد كُرت، وهذا تحديد فضفاض يجمع ما بين الغرب والشرق، وبالتالي لا ينبني على أي اتجاه معين، ولذلك توجه النظر إلى استغلال مسالك الجيش الأندلسي الداخل إلى الشمال الغربي للقضاء على الأمير الإدريسي الحسن بن كنون. فالذي تبين لنا على أنها ملتقى الطريق القادم من جبل حبيب والآخر المنطلق من مدينة زلول، وكل هذا قبل الوصول إلى قرية العيون وحصن الكرم الواقعين بجبل بني كرفط، وبناء على ذلك يستقر اقتراحنا بأنها واقعة في السفح الشمالي لجبل بني كرفط قبل الوصول إلى قرية العيون التي ما تزال إلى اليوم ماثلة للعيان. وبصورة تقريبية مع استثارة الخريطة نشير إلى القرية المسماة في القرن السادس عشر الميلادي بالخطوط، والفرق أن جرماية كانت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري من ضمن مدن الشمال الغربي المغربي.

والغريب في الأمر أن البكري لم يشر إلى جرماية، بالرغم من أنها شهدت فصولاً من الصراع الإدريسي الأموي، ففي إشارة نجدها عند ابن حيان جاءت في معرض حديثه عن الحملة الأموية التي وجهها الخليفة الحكم المستنصر، من قرطبة سنة 362هـ، لقتال الأمير الإدريسي الحسن بن كنون، والتي مرت عبر مدينة طنجة[2].

الإشارة المصدرية حول جرماية غير كافية لتمكننا من توطينها، فضلاً عن غياب أية أدلة مادية على السطح توحي بأنها كانت موجودة في مكان محدد، وفي ظل غياب البحث الأركيولوجي يزداد الأمر تعقيداً،

---

[1] – مضمون النص يقول ومن مدينة تشمس تعطف على البحر يساراً وعليه من المدن قريبة منه وبعيدة: جرمانة وتوارت والحجر، ودونها في البحر مشرقاً الأقلام ثم البصرة ثم كُرت. ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص80–81.

[2] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص116.

ومع كل ذلك سنحاول توطين مدينة أو محلة جرماية إلى الجنوب الشرقي من طنجة، بجوار السلسلة الجبلية المتصلة بجبل حبيب وحصن الكرم اعتماداً على إشارة ابن حوقل السابقة.

ـ **زهجوكة:** تقع مدينة **زهجوكة** مما يلي مدينة افتس باتجاه الجنوب الشرقي وبالقرب من الضفة اليمنى لواد اللوكس،**ولعلها كانت تقع بين وزان ومدينة القصر الكبير**[1]. ففي وصف البكري للطريق من سبتة إلى فاس، يحدد موقعها، ومجالها القبلي، إذ يقول: "... ثم تسير من افتس إلى زهجوكة... وهي لزرهونة [رهونة] وبعدها مدينة يجاجن... وزهجوكة مدينة إبراهيم بن محمد، ومنها قام إبراهيم وبنوه وملكوا دار طنجة إلى حد سبتة "[2] . ومثلما يظهر فإن تحديد الموقع متوقف على معرفة أفتس، وهذا مثلما سنرى فإنه محدد بما قبل قلعة حجر النسر. من خلال نص يتبين أن مدينة زهجوكة هي واقعة بين مدينة أفتس غرباً ومدينة إزاجن شرقاً، وهنا نحتاج إلى من يرشدا لتحقيق الموقع المراد من قبل البكري، مع اعتبار أن الإشارات المماثلة كثيراً ما تكون غير دقيقة أو خاطئة لاعتمادها على الراوية وليس على المشاهدة.

والرأي الأخير هو أن زهجوكة عبارة عن قرية جبلية بقبيلة أهل سريف، تقع على بعد حوالي عشرين كيلو متراً من مدينة القصر الكبير.أما اليوم فتعرف بزهجوكة الجبل أو زهجوكة الغياطين، تمييزاً لها عن قرية أخرى تحمل نفس الاسم وهي زهجوكة العرب[3]. وما أشار إليه ابن خلدون ليس سوى نقل عن البكري.[4]

---

[1]– محمد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط**، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط الأولى، 1999، ص378.

[2] – البكري، المُغرب، م. س، ص114.

[3]– عبد المالك بنعبيد، **زهجوكة**، معلمة المغرب، ج14، مطابع سلا، 2001، ص 4731-4732.

[4]– بينما يوطنها ابن خلدون ضمن مجال قبيلة أوربة ابن خلدون. **العبر**، ج6، بيروت، 1981، ص 192.

ـ افتس: بالتأمل في نص البكري حول توطين مدينة افتس نجد أنه يضعها إلى الغرب من قلعة حجر النسر. وهذا مؤشر نعتبره صحيحاً يسمح لنا بالانتقال إلى غيره. وإذا تجاوزنا ما ذكره من وقوع المدينة عند أول الطريق القادم من سبتة إلى حجر النسر لكون المسافة بين سبتة وحجر النسر طويلة من جهة، والطريق يمر عبر أوعار جبال غمارة مما يدفعنا إلى اعتبار هذا التوجيه غير دقيق. وما سيأخذ به هو ما ذكره عن وقوع مدينة افتس على النهر الذي يستمر في الجريان إلى أن يهبط باتجاه مدينة سوق كتامة، وهناك يعرف باسم لوكس، أو كما يسميه البكري " واولكس"[1]. وكيف ما كان الحال فيمكن الاستعانة بما ذكره من قرب مدينة افتس من سوق كتامة، وهذا السوق يوجد على الضفة اليمنى من واد اللوكس وعلى قرب من التقاء وادي المخازن بنفس الواد. والرأي الذي نخلص إليه أن موقع المدينة الذي نبحث عنه نرجح أنه واقع على واد المخازن شمال قصر كتامة وهذا الترجيح لن يتأكد إلا بوجود البحوث الآركيولوجية وظهور نتائجها التي نفتقر إليها بصفة شاملة إلى حد الساعة.

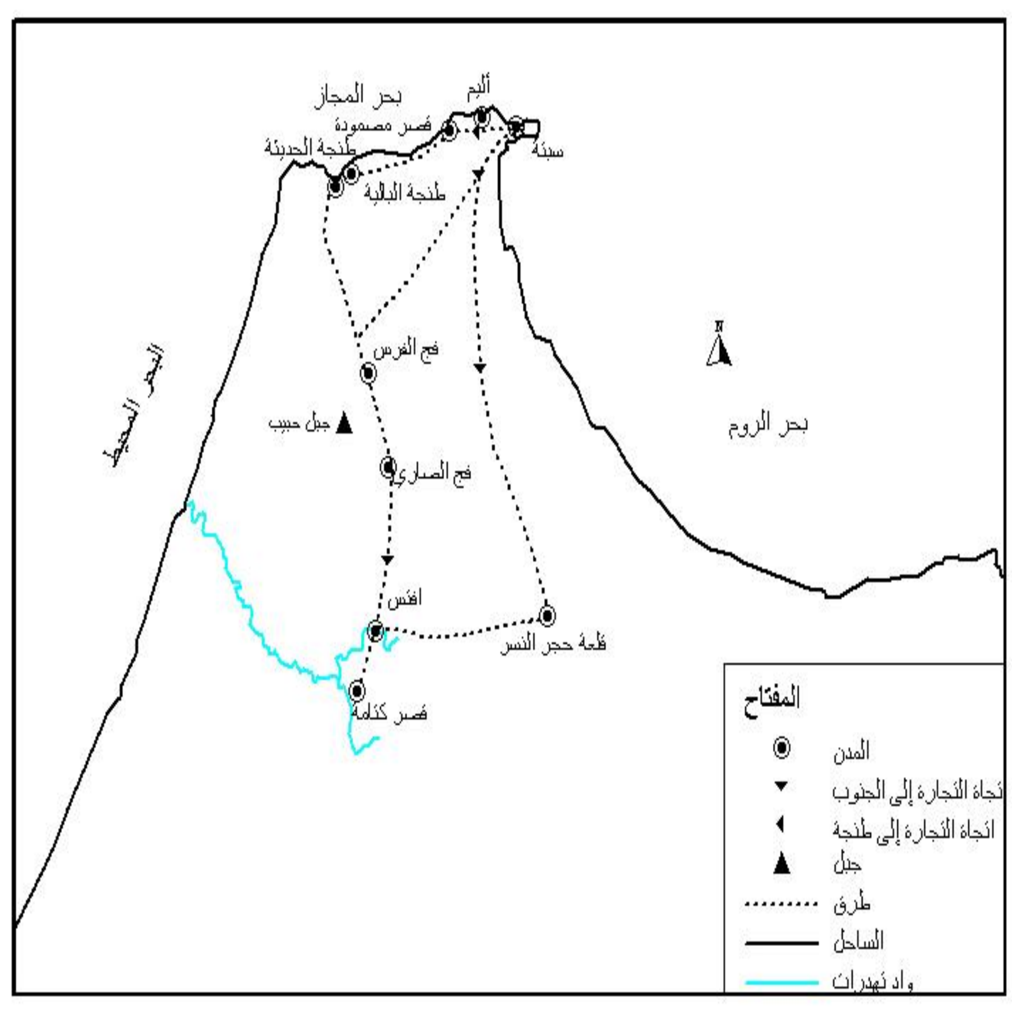
وفي موضع آخر يشير البكري إلى أننا إذا كنا تجاوزنا طريق سبتة حجر النسر، فإن هناك طريقاً آخر يمكن أن يقدم لنا توضيحات أفضل وهو الطريق الذي يبدأ من جبل حبيب ومدشر الخروب الذي هو نقطة التقاء طريق سبتة وطنجة في اتجاه قصر كتامة مدينة افتس واقعة على هذا الطريق عبر فج الفرس، ثم إلى فج الصاري بطرف جبل حبيب، وبين هذا الفج ومدينة افتس مرحلة، وتتخلل المسافة الواقعة بينهما قلعتان أحدهما قلعة ابن خروب[2]. وهناك ما يقربنا من تحقيق الغاية للبحث عن موقع مدينة افتس. فالإشارة إلى قلعتي ابن خروب والدمنة وأن الموضع كائن بأول الطريق القادم من سبتة إلى قلعة حجر النسر لا يقدم شيئاً يعتمد

[1]– البكري، **المُغرب**، م. س، ص114

[2] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص115.

عليه نظراً للتضارب الحاصل في تحديد الموقع. والرأي الأقرب إلى الصواب هو أن أحد فروع نهر اللوكس الذي أشار إليه البكري ليس سوى وادي المخازن القريب من مدينة قصر كتامة، وبالتالي يمكن لنا توطين مدينة افتس على وادي المخازن بالقرب من قصر كتامة قبل الوصول إليها من جهة الشمال.

خريطة(2) موقع مدينة أفتس



المصدر: إعداد الباحث اعتمادا على المصادر التاريخية

يجاجن(أزجن): مدينة يجاجن معروفة بموقعها الذي مازال إلى يومنا هذا معروفاً بأسجن، بالقرب من مدينة وزان، بمسافة تقدر بحوالي (9كلم) حذا جبل رهونة[1]، إلى الجنوب الغربي، في مقدمة جبال الريف، وإلى الجنوب منها قلعة حجر النسر، وفي الشرق بنو فتركان من غمارة، وبالقرب من مدينة زهجوكة، وهي على نهر عذب، وتعرف بالجبل الأشهب [زرهونة]، وبعدها مدينة أصادة، ثم مدينة كُرت[2] . وتحتل موضعاً في منحدر الجبل، وأمامها سهل زراعي فسيح. وموقع جبل رهونة إلى الجنوب من واد لوكس في اتجاه وادي ورغة[3]. وأزجن بوضعها الراهن، عبارة عن قرية كبيرة، ببطن بني زكون من قبيلة رهونة، وجبل رهونة هو من الجبال الهبطية الخصبة بمواردها الفلاحية.

ـ أصادة: للبحث عن موقع مدينة أصادة نجد أمامنا مثالين مذكورين من قبل أبي عبيد الله البكري. ففي المرة الأولى يقول إنها واقعة بقبيلة بني مسارة مع الإشارة إلى وقوعها على نهر ورغة وعلى بعد ستة أميال جنوب مدينة أزجن المعروفة لدينا[4]. وفي هذه الحال من الضروري تحديد قبيلة بني مسارة على الخريطة. وفي الحالة الثانية يشير علينا توجيه النظر إلى جبل صرصر، وموقع هذا الجبل معروف بقبيلة رهونة التي سماها هو قبيلة آصادة[5]. وتكون نتيجة البحث أن مدينة آصادة التي نبحث عنها كانت موجودة شمال البصرة على الطريق المتجه إلى مدينة وزان التي لا تبعد عن مدينة أزجن سوى بتسعة كيلومترات.

وبالنظر إلى هذين النصين، نجد أن الاختلاف بينهما يكمن في تحديد الموقع الجغرافي لمدينة أصادة، فقط من حيث التسمية، ففي وصفه الطريق (سبتة- فاس)، يضعها إلى الجنوب من أزجن، وفي النص التالي

---

[1]– الزيارة الميدانية التي قام بها الباحث ضمن فريق طلبة السلك الثالث بوحدة التكوين والبحث في التاريخ المونوغرافي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، سنة 2005.

[2]– المُغرب، م. س، 114، 129.

[3] – حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م. س، ص40.

[4]– البكري، **المُغرب**، م. س، ص114، 129.

[5] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص110، 114.

يضعها بعد القصر الكبير باتجاه مدينة البصرة، أي أن المجال الجغرافي لموقع المدينة الإدريسية (أصادة) ينحصر ما بين مدينتي البصرة والقصر، بجوار موقع جبل صرصر تقريباً الذي يقع بقبلي سوق كتامي[1].

- **(سوق) كتامة**[قصر كتامة، قصر عبد الكريم]: إذا كان الحديث سينطلق من البحث عن موقع القصر الكبير فالذي يهمنا هنا هو تحديد موقع سوق كتامة، وهو الاسم المعروف قبل ظهور اسم القصر الكبير على العهد الموحدي، ولم نجد أفضل من أبي عبيد الله البكري. فعند وصفه للطرق التجارية في الشمال الغربي المغربي، يوطن موقع مدينة سوق كتامة، عند ملتقى الطرق المنطلقة سواء من سبتة أو طنجة في اتجاه مدينة فاس[2].

كما نجد أن أشارة البكري إلى سوق كتامي[3]. تحيلنا على أن هناك موضع للسوق في ملتقى الطريق المشار إليه.

وإشارة البكري إلى وجود سوق كتامة يعني أن القبيلة هي التي أنشأت واحتضنت السوق، وهذا إشارة أيضاً أن اشتهار المكان راجع إلى تجمعاته التي نعتقد على أنها بدأت مثل ما جرت به العادة أسبوعياً، وعبارة البكري على كون شوق كتامة مدينة يعني أن التجمع الأسبوعي أصبح بالتدريج موطن السكن والاستقرار المتطور إلى تحول إلى مدينة وموضع هذه المدينة من حيث الطول ثمان درجات، وثلاثون دقيقة. والعرض أربعة وثلاثون درجة، وأربعين دقيقة، وهو على شمالي النهر المنسوب إليه، وبينه وبين سبتة أربعة أيام"[4]. ومدينة القصر سهلية على واد لوكس بالعدوة الشمالية منه[5]. ويمر نهر لكوس قرب المدينة بجوار سور القصر حتى أنه يدخل المدينة من بابها، عندما يفيض ويجرف الدور

1- البكري، **المُغرب**، م. س، ص 110.

2- البكري، **المُغرب**، م. س، ص 109-110، ص 111، 114.

3- البكري، **المُغرب**، م. س، ص 111، 114.

4 - ابن سعيد، **بسط الأرض**، م. س، ص75.

5-الفاسي، مرآة المحاسن، م. س، ص145.

أحياناً[1]. ويحيط بالمدينة الأراضي الفلاحية من جهة الجنوب والشمال الغربي[2].. وبذلك أصبح ملتقى الطرق الشمالية في اتجاه فاس قبل القرن الخامس الهجري. ومما لوحظ أن سوق كتامة لم يحظ بعناية الأدارسة المنتشرين بالشمال الغربي، فلم تقع أي إشارة لوجود أمير أو استقراره بالمكان.

نخلص إلى القول إن مدينة القصر الكبير (قصر كتامة، سوق كتامي، قصر عبد الكريم) من المدن الإدريسية التي جددها الموحدون فيما بعد، تقع إلى الجنوب من مدينة العرائش، على بعد (36كلم) من ساحل المحيط الأطلسي.

- **الأقلام:** يصعب تحديد موقع مدينة الأقلام نظراً لاختفاء آثارها في وقت سابق للقرن الخامس الهجري، ولم نجد لها إشارة عند البكري، والبحث عن الموقع يبين أنها كانت واقعة إلى الشمال الغربي من مدينة البصرة، بالقرب من ساحل المحيط، بينها وبين البصرة أقل من مرحلة[3]. وقدر الإدريسي المسافة التي تفصل بين المدينتين بنحو ثمانية عشر ميلاً[4]. ويتفق كل من ابن حوقل والإدريسي على المسافة بين مدينة البصرة والأقلام إذ يصل تقديرها إلى نحو ما يزيد أو ينقص على ثلاثين كيلو متر، ولكن المصدرين لم يذكرا الجهة التي تقع فيها مدينة الأقلام، ويبقى مشكل البحث عن اتجاه غير أن التوصل إلى هذه النتيجة يمكن أن نصل إليها اعتماداً على ما ردده ابن حوقل حين قال إنها واقعة قريباً من ساحل المحيط الأطلسي، ولكنها توجد في فسحة برية شرقية لساحل

---

[1] – الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م. س، ص304. مارمول كربخال، أفريقيا، ج2، م. س، ص190.

[2] – عبد السلام القيسي الحسني، **مدينة القصر الكبير**، جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير، مطبعة الأمنية، الرباط، 2006، ص14.

[3] – المرحلة هي مسيرة يوم للراجل، وتقدر بستة وثلاثين كيلو متراً. ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص81.

[4] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص81 . الإدريسي، النزهة، ج2، م. س، ص531.

المحيط[1]. والنتيجة أن المشكل يبقى قائماً دون أن تسعفنا المصادر لتحديد الاتجاه الصحيح خاصة الموقع. وكل ما يمكن إضافته أن المدينة لم تكن سهلية بل اختارت موضعها بين المرتفعات[2]. وهذا يدفعنا إلى القول إن الموضع الذي نبحث عنه يوجد على طول الخط الجبلي المشرف على سهل الهبط، ولا يمكن أن نضيف أي شيء آخر لاختفاء المدينة في القرن الخامس الهجري/11م، في ظروف نجهلها.

- **الجوطـة:** هـي أحدى المراكز الإدريسية الواقعة إلـى الجنـوب الغربي من بلقصيري، ومعنى هذا أن المدينة تنتمي إلى منطقة الغرب، بالقرب من نهر سبو على الضفة الجنوبية منه.[3] وإليها ينسب الشرفاء الجوطيون. (تأكد من الخريطة لتقديم معلومات أوضح)

وقد اندثرت جوطة، ولازالت الأطلال قائمة، ويبدو أن اندثارها كان بسبب الحروب التي جرت في أزغار، بين قوة بني مرين الصاعدة، وعرب رياح أنصار الدولة الموحدية، وقد كانت أكثر شدة وقسوة بعد مقتل الأمير المريني (عبد الحق) قرب سبو، مما دفع بالمرينيين إلى الانتقام من عرب رياح وتشريدهم، وما رافق ذلك من تخريب للعمران. بالإضافة إلى دور فيضانات نهر سبو التي زادت في غمر أنقاض جوطة، فانطمست معالمها، واستعصى على المؤرخين والآثاريين ضبط موقعها. فكانت اجتهادات (الفاسي) المبنية على أساس الروايات الشفوية، في مقاربة موقع جوطة، حيث أشار إلى وجود " مسيل شتوي يعرف بمخرط جوطة، وأن النهر تحيف كثيراً منه، وهي من بلاد أولاد عمران من الخلط". وهناك التباس حول ضريح كان مزارة، دعي صاحبه "سيدي

---

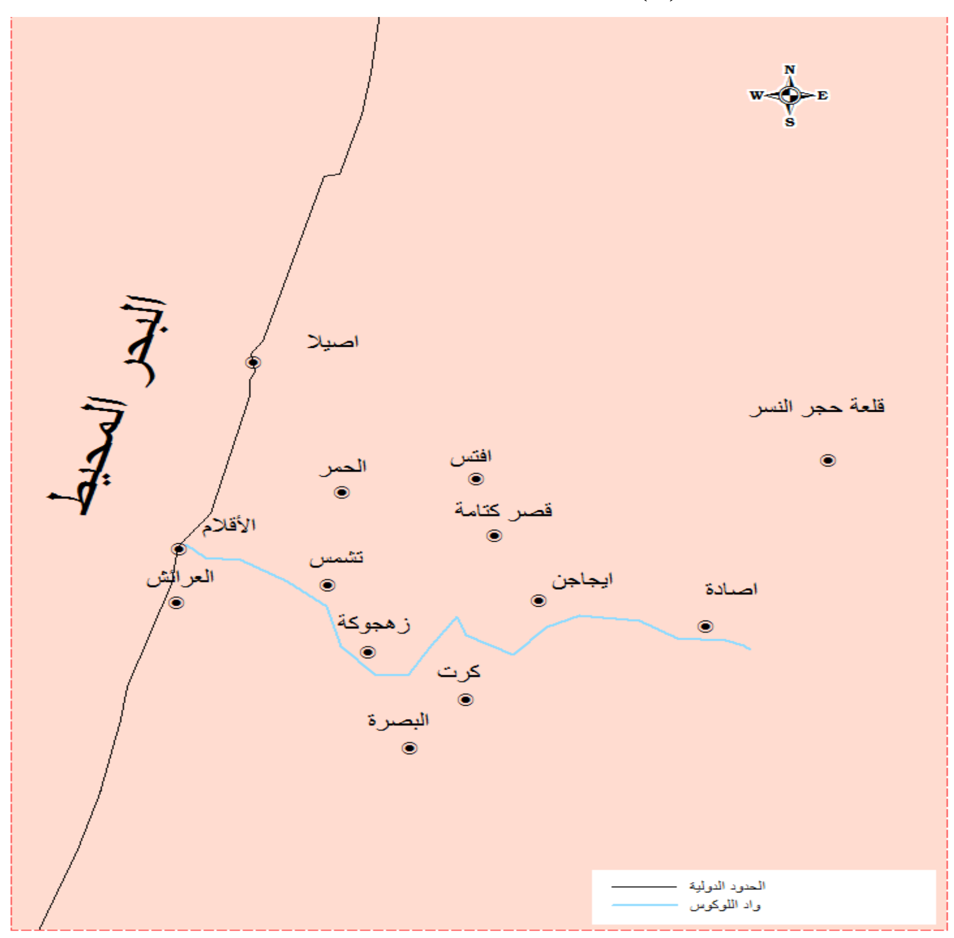
[1] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص81.

[2] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص81.

[3] – الفاسي، **مرآة المحاسن**، م. س، ص188. بوسلهام الكط، **من وحي التراث الغرباوي**، الرباط، ط1، 1999، ص278.

حسون الغريب" يعتقد أنه ليحيى الجوطي. كما يوجد بالقرب منه آثار لجدران قرية يحتمل أن يكون دالاً على موضع جوطة[1]



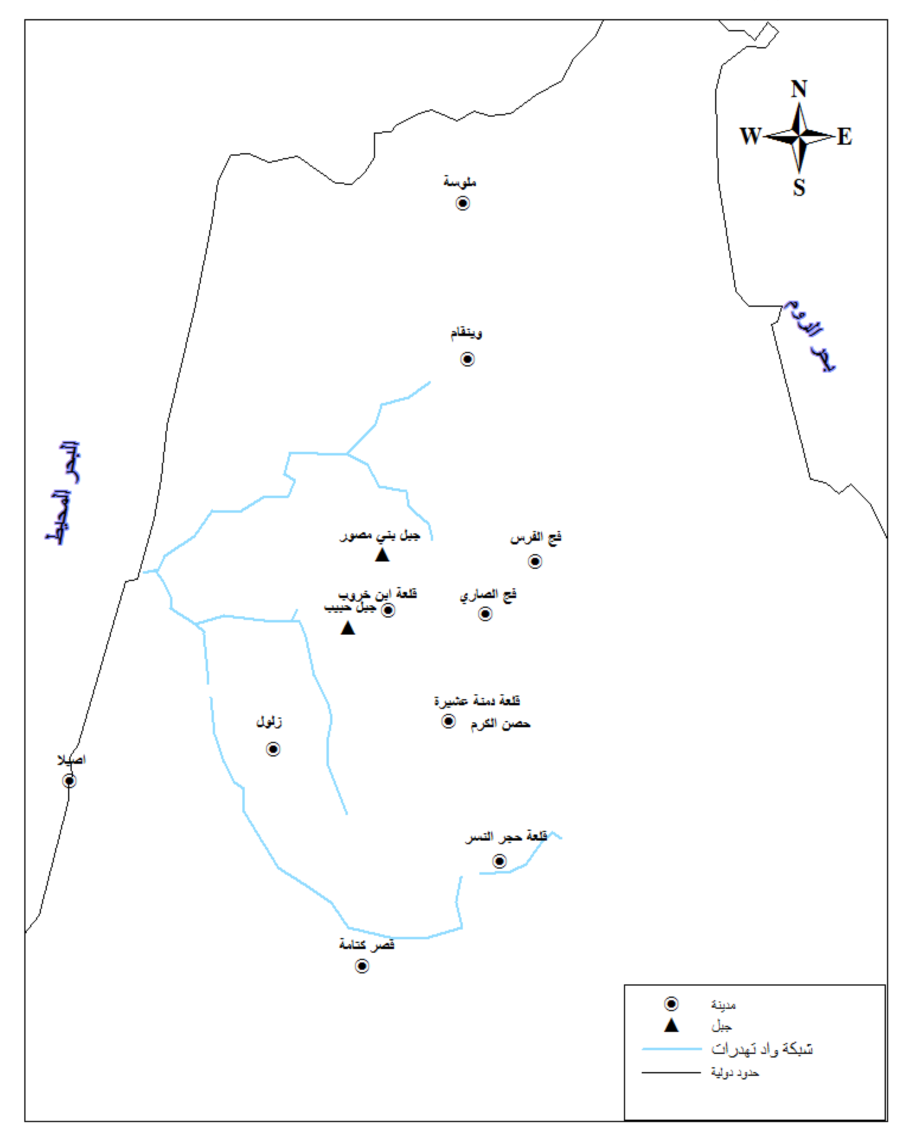


المصدر: عمل الباحث اعتماداً على المصادر

---

[1]– الفاسي، (محمد المهدي بن أحمد الفهري)، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن،** طبع على الحجر بفاس، 1906،ص188. البوعناني، **مساهمة في دراسة تاريخ منطقة الغرب،** م. س، ص269، 285. محمد عمراني، **جوطة،** معلمة المغرب، ج10، حرف الجيم، ص 3198.

خريطة (5) المدن والحصون حول نهر تهدارت



: المصدر: عمل الباحث اعتماداً على المصادر

الحصون والقلاع:

يطرح علينا موضوع الأطروحة دراسة الحصون والقلاع القائمة والمندثرة بالشمال الغربي المغربي. والواقع أن الإحاطة بجميع تلك المنشآت العسكرية لا يمكن تحقيقه بسبب ندرة المصادر وانعدام الدراسات الآركيولوجية بكافة أصنافها. وحسبنا أن نقدم منها ما ضبطناه في المصادر القليلة المعروفة. وإذا كان الموضوع المطلوب بحثه هو الحصون والقلاع، **فهل هناك فرق بين الاسمين؟.**

الواقع، حسبما توصل إليه نظرنا المتواضع، أنه لا يوجد فارق معماري بين الحصن والقلاعة من حيث الشكل العام، لذلك نجد أن الكثير من الباحثين والمؤرخين يخلطون بين المفهومين أو التسميتين معاً فيقولون مثلاً قلعة الحصن أو حصن القلاعة وهكذا. وأحياناً يأتي مصطلح حصن بمعنى الرباط، حيث يشير (اليعقوبي) إلى أنه "من اسفاقس إلى بنزرت مسيرة ثمانية أيام، وفي جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العباد والمرابطون". [1]. وهذا الاختلاف يرتبط أساساً بالموقع و الوظيفة الحربية.

فإذا بدأنا بالحصن، سنجد أن ما قيل عنه إنه المكان المنيع[2]، الذي يصعب الوصول إلى جوفه[3]. فمن حيث الموقع: يشكل بناءاً منفصلاً قائماً بذاته، يقام على السواحل أو طرق القوافل أو في المراكز العسكرية الحساسة المشرفة على حدود البلدان وثغورها. ويتميز بوقوعه على قمة جبل عال، قد يكون بالقرب من المدينة أو بعيداً منها، لكنه واقع في دائرة حمايتها وأمنها. وهنا تظهر وظيفته المتمثلة في حراسة المنطقة

---

[1]- اليعقوبي: (أحمد بن يعقوب بن واضح الكاتب)، **كتاب البلدان**، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، العراق، ط3، 1957، ص 102. عبد الله الحداد، **مقدمة في الآثار الإسلامية اليمنية**، دار الشوكاني للنشر والتوزيع، صنعاء، ط1، 2003، ص94.

[2]–ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، [بدون]، مادة حصن، ص264.

[3]– الفيروزبادي، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، دار الريان للتراث، بيروت، لبنان، ط2، 1987، **مادة (ن)**، ص1536.

الاستراتيجية التي يقع فيها. ونوجه الأنظار إلى حصون جبل الريح والكرم وفحص مهران التي سيقع التعريف بها.

القلاع[1]

كانت نشأة القلاع الأولى كبناء ملحق بداخل محيط المدينة، روعي في اختيار موقعه المكان المهيمن على البوابات، ويحتل الأركان والأبراج[2]، محاطاً بسور خاص يتصل بالسور الأصلي للمدينة، تدعمه عناصر دفاعية متنوعة يراعي في تصميمها أن تؤدي وظيفتها الدفاعية والهجومية، فضلاً عن إحداث الأبراج والدروب والقناطر المتحركة[3].

ومن المرافق المراعى إحداثها في القلاعة بناء مسجد للصلاة، ودار الإمارة، ومخازن للمؤن والذخيرة والسلاح، إلى جانب الاصطبلات، وعدد آخر من المنشآت العامة[4]. ومثال ذلك قلعة حجر النسر التي أفردنا لها قسماً خاصاً. من هذا المنطلق سنقدم وصفاً لمواقع الحصون ثم القلاع التي حظيت بالبحث والدراسة.

وينبغي أن نشير كملاحظة أن التعاريف التي قدمناها عن القلاعة لا تنطبق على السلسلة التي أعددناها للدراسة لأنها غير متصلة بالمدينة بوجه من الوجوه، بل هي وحدات عسكرية منعزلة مشرفة على المحاور الطرقية، ولا تختلف في شيء من حيث الموقع مع ما خصصناه للحصون. وما أشرنا إليه من تلك التعاريف غايته بيان ما توصلنا إليه من التمييز بين الحصن والقلاعة حسب المتعارف عليه في المصادر المغربية، ومبررنا لا يعتمد سوى على التشبث بما رددته المصادر المعتمدة.

1- القلاعة لغة الحصن الذي يقام على تل مرتفع أو جبل عال يصعب الوصول إليه. الفيروزبادي، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، دار الريان للتراث، ط2، 1987، بيروت، لبنان، **مادة (ع)**، ص975.

[2] – ولكن بعض المدن الأولى التي بناها المسلمون لم يكن لها حصون، كالفسطاط بمصر، وسامراء بالعراق، لأنهم اعتبروا مكانها آمناً بعيداً عن الأعداء، مما ساعدها على الامتداد. عبد الرحيم غالب، **موسوعة العمارة الإسلامية**، بيروت، ط1، 1988، ص133.

[3] – عبد الرحيم غالب، **موسوعة العمارة الإسلامية**، م.س، ص319.

[4]– الحداد، **مقدمة**، م.س، ص92-93.

ـ حصن جبل الريح

تعرفنا على هذا الحصن من ابن حيان الأندلسي المنفرد بذكر هذا الحصن حيث أشار إليه مرتين ما بين سنوات 361، و 375هـ، وذلك خلال حملة ابن طملس والقائد غالب على عهد الحكم المستنصر، والأخرى بقيادة عسكلاجة على عهد المنصور بن أبي عامر حاجب هشام المؤيد[1]. من خلال تلك الإشارتين لا يمكن لنا تحقيق الموقع على وجه الدقة نظراً للأسباب التي نتحاشى تكرارها، وبالجملة فإن المعلومات المستمدة من المصدر لا تفيد سوى أن الحصن واقع إلى الجنوب من طنجة، وبالقرب من قلعة ابن خروب شمالاً مما يقابل مدينة زلول. ومحاولة البحث عن الموقع في الخريطة الخالية تماماً من هذا الاسم غير مفيد الآن. والمقترح من قبلنا أن الحصن واقع بجنوب شرق جبل بني مصور، وما يساند هذا الاقتراح هو وجود الممر الطبيعي الفاصل بين جبلي بني مصور وجبل حبيب، مما يتلاءم مع وظيفة الحصون.

ـ حصن الكرم

وبالنسبة لحصن الكرم فقد سلف الحديث عن دمنة عشيرة التي سبق أن أشار إليها أبو عبيد الله البكري، وخرجنا بنتيجة الحوار أن الدمنة واقعة على الكتلة الجنوبية الشرقية من جبل بني كرفط المشرفة على مجرى واد المخازن الذي يفصلها عن جبل سُماتة. وحسب الزيارة التي قام بها حسن الفكيكي برفقة مجموعة منتمية إلى الأبحاث الآركيولوجية الإسلامية فإن حصن الكرم بني على أعلى كتلة الدمنة بعد أن استند إلى بعدد من الشهادات الدالة على ذلك لا سيما بعد قراءة نص حصار حصن الكرم من قبل موسى بن أبي العافية ما بين 317- 321هـ، أولاً، وحصار الأندلسيين للحسن بن كنون سنة 362ـ. ومما يشهد على ذلك تحقيق موقع تجمع الجيش الأندلسي بالمسارح المذكورة باسم المصارة خطأً.

1- ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص112.

ـ قلعة ابن خروب

تقع **قلعة ابن خروب في منطقة غمارة، بجبل حبيب،** وقد ذكرها (البكري) في موضعين مختلفين، نستدل منهما على موقع القلاعة الإدريسية (الحصن). فهي أول موضع بعد طنجة في الطريق إلى فاس، على مسافة يوم واحد، وبالقرب منها مدينة زلول[1].

وموقعها الحالي واضح على الخريطة، في أعلى الجبل الحامل لقبة الفقيه حبيب بن يوسف الفهري[2]، حيث توجد دُور القرية موزعة على ارتفاع (400م)، منتظمة على المنحدر الذي يخترقه واد صغير سريع الجريان[3]. ونستنبط أهمية موقع هذه القلاعة من إشرافها على ملتقى طريقي سبتة وطنجة المؤديين إلى قصر كتامة. ويعد موقعها من الوجهة العسكرية استراتيجيا في الأحداث التي مر بها الشمال الغربي المغربي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين(10و 11م)، لا سيما أثناء الحملات الأندلسية على أدارسة الشمال الغربي. ويمكن أن نقول إنها كانت نقطة مراقبة بالنسبة لمدينة زلول الواقعة غرباً، وجرماية جنوباً بمساعدة حصن جبل الريح المذكور آنفاً.

---

[1] – يقول البكري: " من مدينة طنجة إلى قلعة ابن خروب مرحلة، وبقرب هذه القلاعة قرية كبيرة لعرب خولان... وهي على نهر زلول، وهذا النهر تلقاه قبل الوصول إلى قلعة ابن خروب، وبالقرب منها أيضاً دمنة عشيرة... ". وفي وصفه للطريق من سبتة إلى فاس، أشار (البكري) إلى القلاعة المذكورة، عند المرور بإحدى الطرق الفرعية، قائلاً: " وطريق أخر إلى فاس من سبتة إلى تيطاوان مرحلة... ثم الطريق–كما تقدم–من سبتة إلى طنجة حتى تأتي فج الفرس، ثم إلى فج الصاري بطرف جبل حبيب... وبين هذا الفج ومدينة افتس مرحلة... وبين الفج وأفتس قلعتان إحداهما قلعة ابن خروب". البكري، **المُغرب**، م. س، ص109، 115.

2– من الفقهاء المرافقين لجيش موسى بن نصير، كان له دور منذ أواخر القرن الثاني الهجري في تثبيت الدين الإسلامي بالمنطقة.

[3] – حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، ج1، م. س، ص405.

ـ قلعة دمنة عشيرة[1].

من المواقع التي لازالت مجهولة لدى المؤرخين والغموض الذي يكتنف موقعها هو الذي يحول دون إدراجها في البحوث. فأن كل ما نعرفه اليوم عن مدينة دمنة عشيرة فقط هو من خلال نص وحيد للبكري والذي من خلاله يمكن محاولة تحديد موقع دمنة عشيرة[2].

وتبعاً لتلك المؤشرات المستخرجة من نص البكري نرى، كخطوة أولى، أنها تقع بجوار جبل حبيب جنوباً، وبالقرب من قلعة ابن خروب المعروفة لدينا والتي تفصل بينها وبين الدمنة مسافة مرحلة [حوالي 35 كلم]. وكخطوة ثانية، يمكننا تتبع الطريق القادم من جبل حبيب باتجاه الجنوب عبر قلعة ابن خروب إلى دمنة عشيرة فنتجه جنوباً إلى موضع يعرف بالكنيسة، وهنا نعطي الأهمية لما ذكره البكري عن المسافة الفاصلة بين جبل حبيب والدمنة حين ذكر على أنها تصل إلى مرحلة، وهذه نعرف على أنها مسيرة يوم المقدرة بما يساوي نحو ثلاثين كيلومتراً. وهذه المسافة هي التي نتعمق بها جنوباً في اتجاه قلعة حجر النسر. وهذه المسافة نقدر حسب المقاييس الحالية أنها تصل إلى كتلة جبل بني كرفط. وما يضع أمامنا صعوبة اقتراح الموقع المطلوب هو عدم معرفتنا بموضع الكنيسة المشار إليها من قبل البكري. وكيف ما كان الحال فإن المحور الطرقي الرابط بين قلعة ابن خروب وقلعة حجر النسر يشير علينا أن موقع دمنة عشيرة واقع بأقصى جنوب جبل بني كرفط، وبالمكان الذي سيشيد الأدارسة حصن الكرم، وما زال المكان إلى يومنا هذا يعرف بالدمنة.

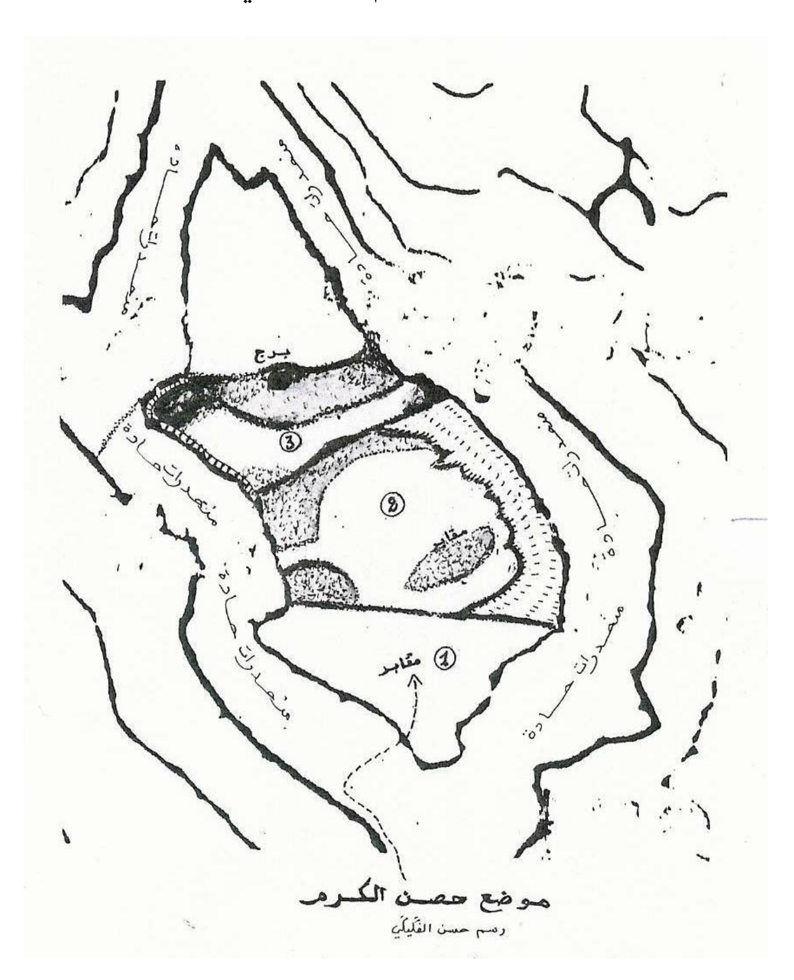
---

[1] – الدمنة اسم لعدد من المدن والقبائل، التي كانت ضمن نطاق طنجة، منها قبيلة"صرصر القنيطرة"، وأهل سريف العرائش. وبقبيلة مزيات/إقليم سيدي قاسم، قلعة عتيقة تسمى الدمنة. أنظر، هامش محقق **القرطاس**، ص180. وفيه دارت المعركة الفاصلة بين يوسف بن تاشفين وأمير سبتة الحاجب بن سكوت البرغواطي في بداية عهد المرابطين. أنظر: أحمد قدور، **تيطاوين**، م. س، ص74.

[2] – الدمنة، أيضاً، مكان من الأرض مسطح ليس به غطاء غابوي، يزرع بالحبوب، وفي غالب الأحيان يكون مرعى للماشية. أحمد قدور، **تيطاوين**، م. س، ص74.

وعلى عكس المناطق المجاورة الواقعة ضمن المجال التابع لقبائل مصمودة من كتامة وغيرها، نجد أن دمنة عشيرة، تقع ضمن نطاق صنهاجة الشمال[1]، " بلد طيب لصنهاجة"[2].

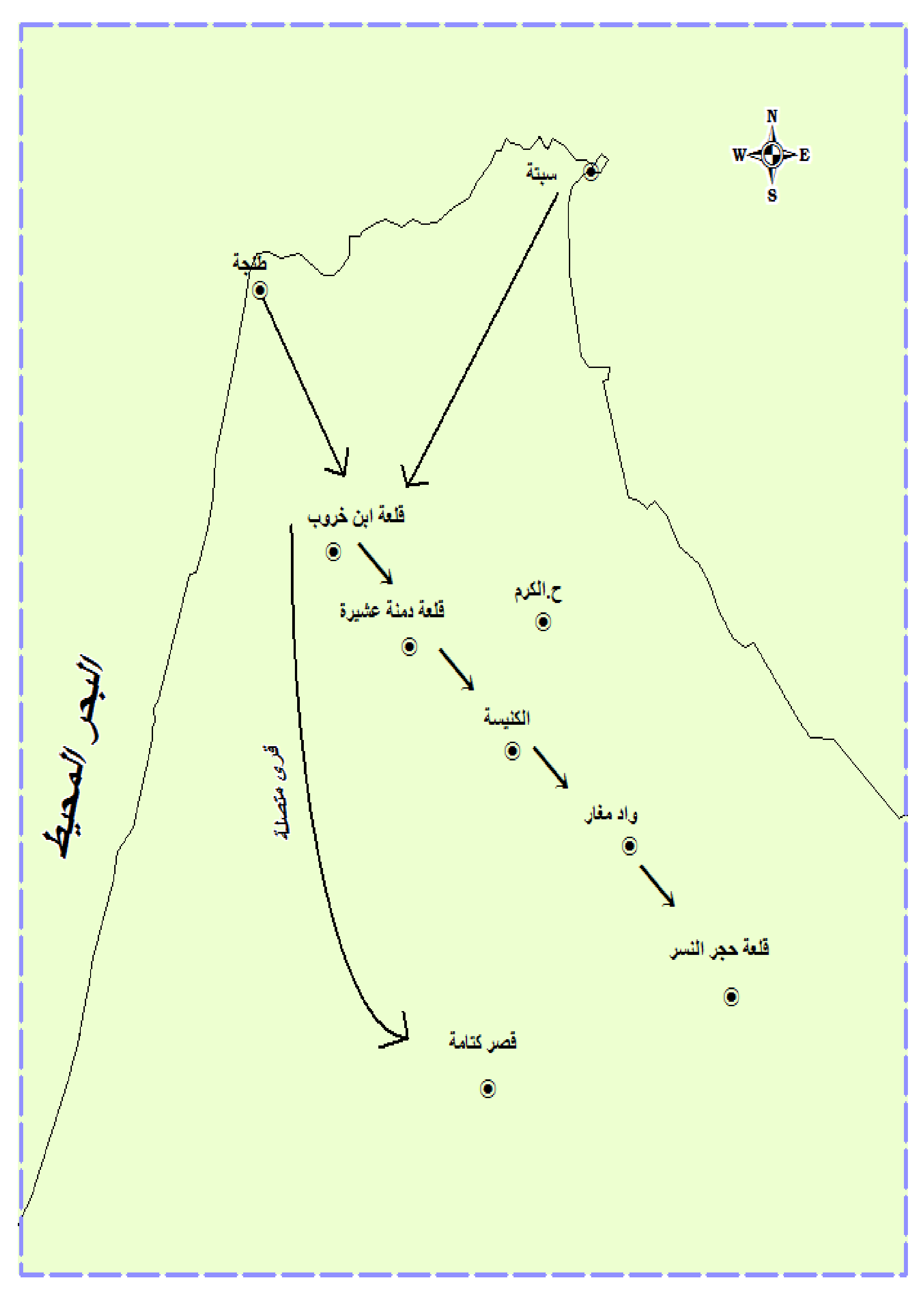

حصن الكرم الإدريسي



[1] – كان مجالها يمتد من جنوب تازة إلى ناحية بني ملال الحالية ومشارف تادلا، وفي بلاد الريف وناحية أزمور، وبين واد سرغو وبلاد غمارة. أنظر، البوعناني المصطفى، **التعمير بمنطقة الغرب**، م.س.

[2] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص109–110، 113–115.

خريطة (5) موقع قلعة دمنة عشيرة



المصدر: إعداد الباحث اعتمادا على المصادر التاريخية

ثانياً

التصنيف التاريخي حسب فترة التأسيس

كل باحث في مدن الفترة الوسيطية الأولى سيصادف صعوبة كبرى في تقديم المعطيات التاريخية الأساسية عن المواقع التاريخية، ومن أمثلة ذلك ما يتعلق بظرفية التأسيس وتاريخه، بل وبالمؤسس أيضاً. لقد حاولنا طرح الأسئلة المفيدة في هذا الموضوع، فتبين لنا في البداية إحداث تصنيف يسهل علينا مأمورية البحث في هذا النطاق. والنتيجة التي لاحت لنا هي تصنيف المدن والحصون إلى: معروفة التأسيس، وغير معروفة بفترة تأسيسها، ثم مدن وحصون يمكن لنا تقدير تاريخ تأسيسها.

وهنا واجهتنا صعوبة جمع المدن والقلاع وفق هذا التصنيف لسبب عدم التأكد تاريخياً سواء من تاريخ التأسيس أو من المؤسس أو الجماعة المؤسسة للمدينة أو القلاعة، وقد تعذر علينا أيضاً استجلاء الظروف التي تم تأسيس أو إحداث أو تطوير المعمار القديم لكل من المدن والقلاع، وبناء على ذلك لم يسعنا سوى اللجوء إلى استعراض القائمة التي أعددناها للبحث، وهنا سنقف على النتائج التي توصلنا إليها في البحث عن كل مدينة أو قلعة أو حصن، وهذا هو المهم بالنسبة إلينا وهو كشف الغموض أو نسبة منه عن المواقع العمرانية والمنشآت العسكرية.

- **طنجة:** أشارت دراسات المتخصصين في تاريخ المغرب القديم أن مدينة **طنجة** تنتمي إلى العصر الروماني، ولكن هناك دراسات غيرت هذا الرأي وأقرت أن تأسيسها تم على العهد الفينيقي[1]، وأن اسمها يعني باللغة الأمازيغية العالية[2].

1- مصطفى أعشى، **طنجة**، معلمة المغرب، ج 17، مطابع سلا، 2003، ص 5767-5770.

2 – محمد مجدوب، **لكسوس Lixus مدينة مورية**، معلمة المغرب، ج20، مطابع سلا، 2004، ص6890-6893. محمد أبو المحاسن عصفور، **المدن الفينيقية**، دار النهضة العربية، بيروت،1981، ص67-70.

وخلال العصر الوسيط كانت طنجة مدينة ضمن مجالات قبيلة صنهاجة الشمال أو الساحل حسب البكري[1]. والمدينة التي ذكرها البكري هي طنجة القديمة التي تقع بالجبل المشرف على واد مغوغا، وكانت آنذاك مهملة ومعرضة لزحف الرمال.

أما طنجة الحديثة فتحتل القسم القديم المشرف على المرسى الحالي في الجزء الشرقي من الهضبة المطلة على خليج واسع طوله حوالي خمسة كيلو مترات[2]. ونظراً لكون المدينة المحدثة احتلت جزءاً من موضع القديمة فقد شكل ذلك عائقاً أمام جهود البحث الآركيولوجي في سبر أغوار التطورات العمرانية التي شهدتها المدينة بمراحلها المختلفة.

وما يهمنا هنا هو إبراز المدينة الوسيطية التي أشار إليها البكري حيث نستخلص من حديثه عنها ما يلي:

1- أن طنجة كانت في عهده (ق5هـ/11م)، كوره، أي ما يطابق ما نسميه اليوم إقليماً.

2- أن هذه الكوره كانت تضم عدة قبائل كبرى منها، صنهاجة ومصمودة.

3- كانت طنجة ضمن ولاية القاسم بن إدريس في تقسيم المغرب إلى ولايات، وهو التقسيم الذي أجراه الأمير محمد بعد وفاة والده إدريس الثاني بعد سنة 213هـ، وأكدته المصادر، على النحو التالي:

البكري، المغرب، ص124	**ابن عذاري، البيان،**	**ابن أبي زرع، القرطاس، ص62**	**ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق3، ص202-203**	**ابن خلدون، العبر، ج4، ص14، ج6، ص216**
البصرة وطنجة وما والاها	**طنجة وما يليها**	**طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر وتطوان وبلاد مصمودة وما إلى ذلك من البلاد والقبائل**	**سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر وما إلى ذلك من البلاد والقبائل**	**طنجة وسبتة والبصرة وتيطاوين وقلعة حجر النسر وما إلى ذلك من بلاد غمارة**

1 – البكري، **المُغرب**، م. س، ص104، 105، 108.

2– محمد المنصور، **طنجة**، المعلمة، ج17، م، س ، ص5773.

إذن، طنجة التي نحن بصددها هي التي استوطنها الأدارسة منذ بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وارتبطت بالأمراء الأدارسة، وهم الذين أسسوا المدينة الوسيطية، نظراً لأهمية موقعها. غير أن المصادر التي اطلعنا غليها لا تفيدنا في ضبط تاريخ إحداث طنجة الحديثة خلال العهد الوسيط، والمتعارف عليه من تلك المصادر أن المدينة كانت تابعة للقاسم ومن تولى بعده، والمعلوم أن القاسم كان قد اختار الإقامة بمدينة أصيلا على ما يبدو.

ـ **قصر مصمودة، (القصر الأول، قصر المجاز):** ينسب تأسيس مدينة القصر إلى قبيلة مصمودة الساحل عند الفتح العربي، وعلى الأخص عند جواز طارق بن زياد برسم فتح الأندلس، مع نهاية القرن الأول الهجري/بداية القرن الثامن الميلادي، وتحديداً نهاية سنة 91هـ(710م)[1]. واعتباراً من نهاية القرن الثاني وبداية الثالث الهجريين/ 8 و9م، تحول الموقع إلى مرسى للمجاز إلى الأندلس، وتجمعت حوله قبائل مصمودة، ولكنه لم يرق إلى مستوى مدينة آنذاك، وهي الصفة التي اكتسبها القصر في القرن الخامس الهجري/11م، حيث استقرت فيه قبيلة بني طريف على هيئة رباط[2]. ونعتقد أنه كان يجمع بين المرسى والمركز الحضري.

والواقع أن المصادر أغفلت ذكر مدينة قصر مصمودة على العهد الإدريسي دون أن يعني ذلك أن المدينة لم تكن موجودة، بل إن وجودها سابق على قدوم الأدارسة إلى المنطقة، وليس كما هو الحال في أغلب مدن الشمال الغربي المغربي التي تقترن في المصادر بأسماء مؤسسيها.

---

[1]- يقصد بهم مصمودة الشمال.أنظر: ابن خلدون، **العبر**، م. س، م 6، ص 206. محمد العمراني، دراسة وتحقيق تحفة الإخوان، م. س، ص 324. فضيلة الوزاني التهامي: **الزاوية الوزانية، الشيخ وعالمه، بحث في التصوف والتاريخ، مع تحقيق كتاب الكوكب الأسعد في مناقب سيدنا ومولانا علي بن سيدنا ومولانا أحمد، لأبي عبد الله محمد بن حمزة المكناسي، المتوفى بعد 1238هـ، من سنة 1005- 1238هـ**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، 2002- 2003، ص54.

[2]- أحمد الطاهري، **القصر الصغير**، المعلمة، مطابع سلا، 2004، ج19، ص6641- 6643.

ومع ذلك فإن هذا الإغفال لا يغير من الأمر شيئاً، ولكن المصادر لم تحدثنا عن مؤسسها وسنة التأسيس في العصر الوسيط.

والمعلوم أن هذه المدينة لها أساس قديم معروف عند علماء الآثار وتاريخ المغرب القديم، غير أن موقع المدينة الوسيطية شهد حفريات دشنت بين سني 1974، 1977.[1] أوضحناها تفصيلا في الموضع المخصص للوصف، ولم تتمكن تلك الحفريات من حسم تاريخ التأسيس والمؤسس. وسنتعرض للمحيط الآركيولوجي حين ما يأتي وقت استعراض وصف المدينة.

ويعرف قصر مصمودة بعدة أسماء ترجع إلى فترات تاريخية متفاوتة، منها: قصر مصمودة، وهي التسمية المترافقة مع تأسيسه[2]. كما عرف باسم القصر الأول، وقصر المجاز أو قصر الجواز، وهي تسميات مرتبطة بالوظيفة والموقع الاستراتيجي للقصر، فهو أول موضع يقابلك إذا كنت قادماً من ناحية بلاد الأندلس، وهو أيضاً، أول موضع يتم الجواز منه إلى الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس عبر مضيق جبل طارق، أو مضيق المجاز. وعُرف في ما بعد باسم القصر الصغير تمييزاً له عن القصر الكبير (قصر كتامة).

- **الحُمر:** لاحظنا عند الحديث عن الموقع أن الحُمر وردت كمدينة وكحصن. والواقع أنها بالنسبة لموضعها الحصين عُدت ضمن الحصون الإدريسية، والسؤال الذي يطرح علينا الآن هو هل كانت الحُمر حصن أو مدينة؟ الواقع أننا اعتمدنا على كل من الوزان ومارمول كربخال في التأكد من أنها كانت مدينة، على خلاف ما هو موجود حالياً في الخرائط الطبوغرافية التي لا تدل إلا على وجود مدشر بسيط مجاور لقرية أولاد العربي. ولم تكشف الأبحاث الآركيولوجية عن محيط الموقع الجغرافي. غير أنها تعرضت للاندثار بعد القرن الخامس الهجري/11م كغيرها من

1- أنظر، عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، ج1، الطبعة الأولى، 1992، م، س، ص286.

2 - البكري، **المُغرب**، م. س، ص101. ابن خلدن، **العبر**، ج6، م.س، ص210-211.

بعض المدن الإدريسية في الشمال الغربي المغربي، ثم تحولت إلى قرية أو مدشر، كما هو الشأن بالنسبة للبصرة. وتنسب هذه المدينة الحصن إلى الأمير الإدريسي علي بن محمد بن إدريس الثاني، الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه الأمير محمد بن إدريس خلال الفترة من سنة 221- 234هـ. أي أن الحُمر ترجع إلى السنوات الفاصلة ما بين فترة حكم الأمير علي بن محمد. وتعد ضمن المدن التي نجهل تاريخ اندثارها.

- **تشُمس:** بضمتين وتشديد الميم والسين المهملة، في الأصل مدينة قديمة بشمال المغرب عليها سور من البناء القديم "وهي دون طنجة بأيام كثيرة"[1]. وردت في المصادر العربية بصيغ مختلفة، فهي بالواو عند البكري. ولا يعرف عن أصل الاسم، وإن كان الاحتمال أن يكون من أصل فينيقي نقل إلى العربية[2].

ينسب البكري تأسيس مدينة تشمس إلى الأمير الإدريسي ميمون بن القاسم، وهو الأمير الذي لم يرد ذكره بين الأمراء الأدارسة الذين تولوا الحكم في إمارة الريف، ونعتقد أنه أحد أبناء القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس الملقب بكنون، والذي تولى إمارة الريف خلال الفترة ما بين 324- 337هـ. كما ينسبها صاحب الاستبصار إلى أخيه إدريس بن القاسم الذي أحيى رسم حصن تشُمس وأظهره فهو إلى الآن معمور [ق6هـ/12م][3]. وإدريس هذا كذلك غير معروف لدينا ضمن سلسلة أمراء الريف، وما يمكن لنا إضافته هنا هو أنه إذا كان للقاسم كنون ولد أو أثنين فلا بد أن يكون قد قام أحدهما أو كلاهما بإعادة بناء مدينة تشُمس بعد الفترة التي حكم خلالها أبوهما القاسم كنون. والمعروف لدينا فقط أن القاسم كنون كان لديه ولد هو أحمد الملقب بأبي العيش الذي تولى الحكم من بعده خلال الفترة من 337- 343هـ. وهذه هي الفترة التي نرجح فيها إعادة إحياء مدينة تشُمس الإدريسية.

---

[1] – ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج2، م.س، ص32.

[2] – محمد حجاج الطويل، **تشمس**، معلمة المغرب، ج7، مطابع سلا، 1995، ص 2381.

[3] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص114. المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص189.

مما سبق يتضح أن مدينة تشمس هي من ضمن المدينة الحصن، وكما كان الحال بالنسبة لبعض المدن الإدريسية في الشمال الغربي المغربي، فقد كان لهذا الحصن الإدريسي أساس قديم، فجاء الأدارسة وأحيوا رسمه، وتنتمي إلى مجموعة المدن التي أنشأها الأدارسة بعد خروجهم من فاس، سنة 315هـ، والإشارات المصدرية تؤكد على أن تشُمس مدينة إذ تقول إنه كان عليها سور صخري كبير.[1]

- **زلول:** ينسبها ابن حوقل ومن أتى بعده إلى الأمير الإدريسي الحسن بن كنون، ق4هـ /10م)، بقوله: " زلول مدينة بشرق أزيلي، كان عليها معول حسن بن كنون، وهو مستحدثها"[2]. وهذا يتفق مع ازدهار المنطقة خلال فترة الحسن بن كنون في ولايته الأولى الممتدة من سنة (341-365هـ). وكما سبقت الإشارة في الحديث عن موقع المدينة فإن زلول مدينة استحدثها الأدارسة على أنقاض مدينة **Zilil** القديمة. وهو ما ألمح إليه كل من: ابن حوقل وابن حيان والبكري وابن عذاري من كون المدينة إدريسية[3].

- **زهجوكة:** لا يمكن لنا إثبات تأسيس مدينة زهجوكة على يد إبراهيم بن محمد بن القاسم، ومن الواضح أنها كانت موجودة من قبل، فالمعروف عنه أنه وجد السهولة في تعميرها واتخاذها قاعدة قبل الانتقال من قلعة حجر النسر التي كلف هو بتأسيسها حوالي سنة 317هـ، وبها استقر وكانت قاعدته، وتحولت بفضله إلى مركز حربي صارت منطلقاً لعملياته قصد السيطرة على مدن الشمال الغربي، ومنها انطلق وبنوه للسيطرة على سبتة وطنجة في حركة توجت ببناء قلعة حجر النسر سنة

1- ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص80. البكري، **المُغرب**، م. س، ص114. المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص189. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج2، م. س، ص32.

2 – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص80. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج3، م. س، ص146.

3 – البكري، **المُغرب**، م. س، ص114. ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص80. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج3، م. س، ص146. ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص90. ابن عذاري، **البيان**، ج2، م. س، ص246.

317هـ[1]. من هذه الإشارة الوحيدة يمكن لنا مقاربة تحديد تاريخ تأسيس مدينة زهجوكة بالفترة السابقة للفترة من 317-323هـ.

- **افتس:** سبق أن ذكرنا أن افتس هي إحدى المدن الإدريسية التي كانت ضمن ممتلكات القاسم جنون، ثم ابنه المعروف بأبي العيش. والمعروف أن القاسم (جنون)، حكم الإمارة الإدريسية الثانية في الريف، ومن بعده ابنه أحمد الملقب بأبي العيش جنون مدة ست سنوات من (337- 343هـ). وبالتالي فإن تحديد تاريخ تأسيس افتس يقع بين سني(324, 337هـ)، وازدهرت على عهد أبي العيش في العقد الموالي لهذا التاريخ، وتحديداً خلال سني (337- 343هـ). ولكن الذي يهمنا هنا هو محاولة البحث عن تاريخ التأسيس والمؤسس، فهل يمكن التوصل إلى نتيجة؟ الواقع انه لا يمكن البت في موضوع تأسيس المدينة المذكور بمجرد القول إنها كانت من ممتلكات القاسم كنون وأبنه أو العيش بل إن ما توحي به الجملة أن المدينة كانت موجودة واكتفى الأمير الإدريسي بالانتقال إليها والسيطرة عليها ما بين الفترة من سنة 324 إلى سنة 337هـ، وهي فترة حكم الأمير كنون. ولذلك ما يحق لنا قوله أنها كانت سابقة دون المجازفة بتحديد الفترة أو التاريخ الذي ظهرت به مدينة افتس بالموقع المشار إليه آنفاً.

- **يجاجن:** تنتمي يجاجن - وفقاً للمصادر العربية- لبلد جنيارة والجبل الأشهب المطل عليها، والمعروف كذلك بجبل زرهونة أو رهونة، وهو اسم لقبيلة تعيش في المجال الجغرافي للمدينة[2]. وتنسب هذه المدينة - كما هو شأن معظم المدن الإدريسية بشمال المغرب- إلى أدارسة الريف، من بني محمد، في القرن الرابع الهجري/10م. وربما كان للمدينة أساس قديم من بناء الموريين[3]. ويحدد البكري جنون بن محمد

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص108.

[2] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص111، 114. ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص144. المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص188.

[3] – مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م. س، ص193.

كمؤسس لها، وهو لقب القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس 323 - 337هـ، وأخ للأمير إبراهيم بن محمد بن القاسم مؤسس قلعة حجر النسر، سنة 317هـ. وفي موضع أخر، نجد ما يشير إلى أن المدينة أصبحت من ممتلكات أبي العيش بن جنون[1]، أي أن جنون أباه أسسها، وورثها من بعده ابنه أبو العيش 337-343هـ. يقول البكري: " وكان أعلى بني محمد كلهم يداً أبو العيش بن جنون بن محمد، وكان له من البلد ما جر من إجاجن إلى مدينة سبتة"[2]. وقد عرفت تسمية المدينة تعديلات منذ القرن الرابع الهجري/10م- على الأقل منذ عهد محمد بن يوسف الوراق (ق4هـ) أحد أبرز مصادر البكري- وحتى اليوم، حيث وردت أول تسمية يجاجن أو يجاجين عند البكري، الذي كان قد نقلها عن الوراق[3]. وفي موضع أخر كتبها البكري إجاجن وايجاجن. وفي القرن الثامن الهجري/14م وردت عند ابن أبي زرع باسم إزاجن. وفي القرن (10هـ/16م) وردت عند الوزان أزجن، وتعرف اليوم بأسماء: إسجن، أزجن، إزجن.[4]

- **قصر كتامة:** هناك من يرجع تأسيس مدينة قصر كتامة أو القصر الكبير إلى بداية القرن الثاني الهجري، وتحديداً سنة 102هـ من قبل كتامة، وحجته في ذلك، هي أن المغرب آنذاك كان يعيش المراحل الأولى

---

[1] – هو أحمد بن القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس الثاني، الملقب بأبي العيش، كان أبوه اتخذ من قلعة حجر النسر مقرا للأمارة الإدريسية بالريف، وكان متحمسا للشيعة العبيديين، وداعية لمذهبهم، فلما تولى أبو العيش قطع دعوة العبيديين، ودعا للأمويين بالأندلس، وكان فقيهاً ورعاً حافظاً للأخبار والسير عارفا بأيام الناس، وانساب القبائل العربية والأمازيغية، شجاعاً جواداً، وكان يعرف في بني إدريس بـ(أحمد الفاضل)، استولى الناصر الأموي في عهده على طنجة وضمها إلى سبتة، فزاد نفوذ الأمويين بالمغرب، فلجأ الفاضل إلى الأندلس، بعد أن ترك أعماله لأخيه الشهير بمقاومة النفوذ الأموي(الحسن بن جنون) أخر أمراء بني إدريس. للمزيد انظر: الناصري، **الاستقصا**، ج1، م. س، ص195، 197. و ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ق3، م. س، ص188.

[2] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص129–130.

[3]– البكري، **المُغرب**، م. س، ص114.

[4] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص114، 129. ابن أبي زرع، **القرطاس**، م. س، ص383. الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ص307. مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م. س، ص193.

من الفتح الإسلامي[1]. بينما ينسب كل من الوزان، ومارمول كربخال تأسيس القصر إلى رابع ملوك الموحدين يعقوب المنصور[2]. وهي أقوال لا تدعمها الأسانيد العلمية، هذا من ناحية. كما أن يعقوب المنصور لم يكن مؤسساً لها، بل كان مثل باقي الملوك من بعده مهتماً بها فأضاف إليها مجموعة من البناءات. لذلك نما عمرانها على العهد الموحدي[3].

ومن ناحية أخرى، لسنا على دراية بصحة ما قاله أحد الباحثين من أن تأسيس المدينة تم ما بين القرنين الثالث والرابع الهجري/9، 10م[4]، وهي الفترة القريبة من استقرار قبيلة كتامة بالمغرب الأقصى.

وبالعودة إلى الإشارات التي وردت عند البكري نجد أنه يذكر سوق كتامى كقاعدة للأمير إدريس بن القاسم بن إبراهيم[5]. وهو غير معروف لدينا بين أمراء أدارسة الريف. ويسميه صاحب الاستبصار قصر صنهاجة، وأنه تعرف أيضاً بقصر عبد الكريم، وهنا كان من أشياخ كتامة القاطنين هناك، فرأس فيهم واستوطن ذلك الموضع، وكانت فيه آثار قديمة، فبني فيه داراً سميت قصراً، لعدم وجود القصور بتلك الجهات[6]. ويسميه ابن الخطيب قصر كتامة[7]. أما ابن سعيد فيسميه مدينة القصر، وقصر عبد الكريم، وبقصر كتامة وهم باديته[8]. ويضيف أبو الفداء أن

---

[1] – ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، هامش، ص330.

[2] – الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م. س، ص303. مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م. س، ص190.

[3] – الفكيكي، **المقاومة المغربية للوجود الأيبيري بمليلة**، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997، ص328.

[4] – المصطفى البوعناني، **القصر الكبير**، المعلمة، طبعة سلا، 2004، ج19، ص6643-6645.

[5] – البكري، **المغْرب**، م. س، ص109، 114.

[6] – المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص189.

[7] – ابن الخطيب، **المعيار**، م. س، ص73.

[8] – ابن سعيد، **بسط الأرض**، م. س، ص75.

مدينـة قصـر كتامـة أصـبحت هـي القاعدة بعد خـراب البصـرة[1]. مـع قـدوم الحملة الفاطمية على المغرب سنة 369هـ.

- **الأقلام:** مدينة استحدثها الأدارسة، وينسبها ابـن حوقـل إلـى الأميـر يحيى بن إدريس. بينما يقول الشريف الإدريسـي إنهـا مـن بنـاء الأميـر عبـد الله بن إدريس[2]. ولمناقشة هذين النصين المختلفين في اسم مؤسس الأقلام، مـن ناحيـة، والمتباعـدين زمنيـاً، مـن ناحيـة أخـرى، حيـث ينتمـي صـاحب النص الأول إلى القرن الرابع الهجري، وصـاحب الـنص الثـاني إلـى القـرن السـادس الهجـري. الأمـر الـذي يسـتلزم منـا أن نحـدد المجـالات الجغرافيـة لولاية كل من هذين الأميرين الإدريسـيين، عنـد توزيـع الأميـر محمـد بـن إدريــس المغــرب إلــى ولايــات بــين إخوتــه القــادرين، بعــد ســنة (213هـ/977م)، حسـب النصـوص المصـدرية المتـوفرة، علـى النحـو التالي:

1- مجال ولاية يحيى بن إدريس:

رواية البكري	رواية ابن أبي زرع	رواية ابن خلدون	رواية ابن الخطيب	رواية السلاوي
داي وما والاها	**البصرة وأصيلا والعرائش إلى بلاد ورغة**	**مكناسة وغياثة وأصيلة والعرائش وبلاد ورغة**	**البصرة وأصيلا**	**أصيلة والعرائش والبصرة وورغة**

2- مجال ولاية عبد الله بن إدريس:

رواية البكري	رواية ابن أبي زرع	رواية ابن خلدون	رواية ابن الخطيب	رواية السلاوي
لمطة وما والاها	**آغمات وبلاد نفيس والسوس الأقصى**	**آغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس**	**السوس الأقصى وبلاد نفيس**	**آغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس**

---

[1] – أبو الفداء، (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، ت732هـ)، **تقويم البلدان**، [تصحيح ديسلان]، دار صادر، بيروت، طبع في باريس بالمطبعة السلطانية، 1840، ص 133.

[2] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص81. الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص531.

		الأقصى		الأقصى

يلاحظ من الجدولين السابقين أن المصادر تجمع على أن مجال ولاية الأمير يحيى بن إدريس في الشمال الغربي المغربي وفي الإطار الجغرافي الذي تقع ضمنه مدينة الأقلام، وبناءاً على ذلك، فإننا نرجح نسبة تأسيس مدينة الأقلام للأمير يحيى بن إدريس في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وبالتحديد من بعد سنة 231هـ. وترجيحنا هذا بنيناه بعد الرجوع إلى جميع المصادر التي اطلعنا عليها - باستثناء البكري- وهي تثبت وصول يحي بن إدريس إلى الشمال الغربي. لكن هناك اختلاف في الأماكن التي استقر بها أو حكمها. ويبدو أننا سنأخذ بما قاله ابن حوقل فهو أقدم مصدر ذكر مدينة الأقلام واستقرار الأمير يحيى بها، ونستبعد ما ذكره الشريف الإدريسي حين نسب المدينة إلى عبد الله بن إدريس وذلك لعلمنا أن هذا الأمير كان من حظه في التقسيم المنطقة الجنوبية الغربية بناحية سوس. وهل يمكن أن نوفق في تقدير تاريخ ظهور يحيى بن إدريس بمدينة الأقلام؟ وبالتالي القول إنه مؤسسها؟ يبدو أن هذا سيكون صعب المنال نتيجة الاعتماد على مصدر واحد ونص مغرق في العمومية. وبالطبع فإن التاريخ الذي نعتمد عليه هو التاريخ العام المعروف بتاريخ تقسيم المملكة الإدريسية وهو 213هـ.

- **سبتة**: عرفت سبتة استقراراً بشرياً يعود إلى ما قبل التاريخ، ويميل الباحثون إلى اعتبار أن الإغريق أول شعب وطأ المنطقة، ثم جاء من بعدهم الفينيقيون، غير أنه لا توجد أدلة تاريخية مادية للحديث عن تأسيس الفينيقيين لسبتة، سوى العثور على نقود قرطاجية بجبل الميناء الشيء الذي دفع البعض على القول بالأصل القرطاجي للمدينة، ولا نعلم الكيفية التي انتقل فيها الحكم من القرطاجيين إلى الرومان، حيث تبين البحوث الأثرية أهمية سبتة بالنسبة لروما (نقود وأدوات فخارية

وغيرها)، وفي سنة 534م ضمت إلى الممتلكات البيزنطية[1]، ويرى البعض أن السيطرة البيزنطية على سبتة استمرت حتى بعد سقوط قرطاج بيد العرب سنة 698م، والتي فقدت بيزنطة على إثر ذلك جميع ممتلكاتها في الشمال الإفريقي باستثناء سبتة التي كانت تحت حكم الكونت يوليان، الذي استقل بحكمها مع بداية القرن الأول الهجري/8م، وهو الشخصية التي تؤكد المصادر العربية أنها يسرت مهمة الفاتحين العرب ليس فقط في دخول سبتة بل في فتح إسبانيا القوطية[2]. وابتداء من سنة 89هـ/ 708م أصبحت سبتة مقاطعة مستقلة تحت حكم أوليان أولاً، ثم الولاة العرب، ثم حدثت فيها أهم وأبرز الثورات الخارجية سنة 122هـ التي طردت الولاة وبقاء سبتة مهجورة حتى مجيء المجكسيون الذين عملوا على تطوير المدينة وازدهارها، في إطار التبعية للأدارسة، وفي سنة 319هـ سقطت بيد أموي قرطبة[3]. ويقال إن سبتة هي أول ما بني ببر العدوة، وكانت القاعدة لهذا القطر قبل الإسلام، وهي يومئذ ديار معمورة من المصامدة، وأصبحت القاعدة الثانية لبلاد المغرب في العصر الوسيط بعد فاس[4].

وفي ما يتعلق بالتسمية فقد كان الإغريق يعتبرونها أحد هياكل هرقل، وهي أبيلا **(Abyla)** المعروفة اليوم بجبل هاشو **(Hacho)**. ونظراً لوجود الجبال السبعة المشرفة على شبه الجزيرة الأيبيرية وأطرافها المباشرة أطلق الرومان على سبتة اسم **(Septem Fratres)**[5]. وسماها

---

[1]– هناك من يحدد سنة 532م كتاريخ لضم الإمبراطور البيزنطي جوستينان مدينة سبتة للإمبراطورية، بعد أن كان سيطر عليها الوندال من بعد الرومان سنة 429م، واعتباراً من سنة 582م تقريباً أصبحت سبتة عاصمة لموريطانيا الطنجية. ثم احتلها القوط وأزاحوا البيزنطيين عنها قبل أن يصل موسى بن نصير إلى المنطقة. عبد العزيز بن عبد الله: سبتة **ومليلة معتقلان مغربيان أماميان على البحر المتوسط**، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996، ص5.

[2]– ابن عبد الحكم، (عبد الرحمن بن عبد الله)، **فتوح أفريقية والأندلس**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1987، ص71– 73.

[3]– البيضاوية بلكامل، **سبتة**، معلمة المغرب، ج 14، مطابع سلا، 2001، ص4843–4845.

[4] – القلقشندي، **صبح الأعشى**،ج5، م.س، ص153.

[5]– عبد العزيز بن عبد الله، **سبتة ومليلة**، م، س، ص5.

البرتغاليون سوبتة[1]. واختلف في تسميتها بسبتة، فقال قوم: سميت بذلك لانقطاعها في البحر، تقول العرب: سبت النعل إذا قطعته. وقال آخرون إن رجلاً من ولد سام بن نوح اسمه سبت، خرج من المشرق لأسباب عرضت له، فتوغل في المغرب حتى أتى موضعها، فاختط فيه موضعاً يعمره[2]. وسميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة والبحر يطيف بها في جميع جهاتها إلا من ناحية المغرب فإن البحر يكاد يلتقي بعضه ببعض هناك ولا يبقى بينهما إلا أقل من رمية سهم. والبحر الذي يليها شمالاً يسمى بحر الزقاق، والبحر الأخر الذي يليها في جهة الجنوب يقال له بحر بسول وهو مرسى حسن يرسى به فيكن من كل ريح[3].

وبالنسبة للمدينة الوسيطية يحدثنا البكري عن بداية تداول المصطلح، وأصله يرجع إلى مجكس الغماري حاكم سبتة وتطوان خلال الربع الأول من القرن الثاني الهجري. ظهر بعد سنة 123هـ إثر تخريب خوارج طنجة لسبتة. وتمكن من الاستقرار فيها، وبها استمرت إمارة بني عاصم المجكسيين، وظلت بها إلى سنة 319هـ حينما آل حكم المدينة إلى المروانيين الأندلسيين[4].

والخلاصة أن سبتة كانت لها أصول قديمة يصعب التكهن بأولها، ولكننا نعلم أن الوجود الفينيقي كان متمركزاً بها، ثم وقعت بيد الرومان ومن بعدهم البيزنطيين، وهنا أن المدينة كانت تحت حكم شخص من غُمارة مسيحي يدعى يوليان، وهو الذي كان الاتصال الأول بالفلول الإسلامية الأولى التي حلت بالمنطقة في أواخر القرن الأول الهجري، وآنذاك كانت سبتة عاصمة الإمارة اليوليانية التي ارتبطت في آخر عهدها بالحكم القوطي المتحكم بجنوب شبه الجزيرة الإيبيرية قبل سنة 89هـ. ولسنا ندري عن علاقته بالزحف العربي الأول بقيادة عقبة بن نافع

[1] – الوزان، وصف **إفريقيا**، ج1، م. س، ص316. ويذكر أن الرومان سموها سيفاطيس.
[2] – ابن عذاري، **البيان**، ج1، م. س، ص202.
[3] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص528–529.
[4] – حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الايبيري**، ج1، م.س، ص87.

الفهري سنة 60هـ. وما يهمنا هنا هو الصورة العمرانية التي كانت عليها المدينة في هذه الفترة الإسلامية الأولى، وهو ما سنشير إليه في الفصل المخصص للوصف العمراني.

- **ترغة**: لم نجد في المصادر الوسيطية أية معلومات عن ترغة تفيدنا عن التأسيس، فلم يذكرها أبو عبيد الله البكري[1]. وهناك فقط إشارة وردت عند ابن خلدون ضمن أخبار التقسيم الذي أجراه الأمير محمد بن إدريس للمغرب بعد سنة 213هـ بين إخوته، مما يبين أن المدينة كانت موجودة قبل هذا التاريخ. وفي بداية العصر الحديث وردت إشارتان عن ترغة عند كل من الوزان ومارمول كربخال، حيث حاول كل منهما إرجاعها إلى القوط، غير أن الوزان لم يؤكد ذلك واكتفى بالقول " حسب قول بعض المؤلفين"[2]، وكانت تسمى قديما (تاغات)، حسب بطليموس الذي يجعلها في الدرجة الثامنة والدقيقة العشرين طولاً، وفي الدرجة الخامسة والثلاثين والدقيقة السادسة عرضاً، وهناك من يرى بأن اسمها تغير مع استعمال الاسم باللهجات المحلية، مع مرور الوقت،فأصبحت تعرف بهذا الاسم ترغة[3]. وكانت ضمن ولاية عمر بن إدريس الغمارية، حسب (ابن خلدون)، كما هو مبين في الجدول التالي:

ولاية عمر بن إدريس	المصدر
تيكساس وترغة وبلاد صنهاجة وغمارة	ابن خلدون، العبر، ج4، ج6

هذه الإشارة التي أوردها ابن خلدون تثير تساؤل مضمونه أن المدينة كانت موجودة على عهد ولاية الأمير عمر بن إدريس أو على الأقل كانت موجودة من قبل. وكل ما يمكن قوله عن أي تقدير لتاريخ التأسيس لن يخرج عن ما سبق أن قلناه عن سنة تقسيم المملكة إلى ولايات، وكانت من

1– ورد اسم ترغة في كتاب البكري في ذكر مدينة سجلماسة والمقصود بها تدغة القريبة من واد زيز. البكري، **المُغرب**، م، س، ص 148.

2– الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م.س، ص324. مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م.س، ص229.

3– سعيد أعراب، **ترغة**، معلمة المغرب، ج7، مطابع سلا، 1995، ص2325– 2326.

نصيب عمر الذي تولى الحكم في غمارة خلال الفترة من 213- 220هـ، وكيف ما كان الحال فإن ظهور ترغة يمكن أن يعزى إلى هذه الفترة.

- **جرماية**: وردت الإشارة الأولى عن جرماية عند ابن حوقل باسم جرمانة في سنة 331هـ. وكانت في سنة 362هـ قائمة بدليل ذكرها من قبل ابن حيان الأندلسي من أحياء القرن الرابع الهجري، في معرض حديثه عن الحملة الأندلسية على بني إدريس سنة 362هـ[1]. وهل لعدم تعرض البكري لها معنى يفيد باختفائها في معرض النصف الثاني منة القرن الخامس الهجري؟.

من خلال ما ورد من إشارات في المصادر المتوفرة يتضح لنا أن جرماية هي محلة (مدينة) تنسب إلى الأمير الإدريسي الحسن بن كنون، وشهدت الصراع الإدريسي الأموي في القرن الرابع الهجري/10م، وكان لها نصيب فيه، حيث اتخذها الحسن بن كنون موقعاً عسكرياً احتمى به عند مطاردة الحملة الأموية بقيادة الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن، بعد أن تمكن الحسن من إلحاق الهزيمة بالحملة الأموية السابقة، وظفر بقتل قائدها الوزير ابن طملس، سنة 361هـ، فكان قدوم حملة غالب، سنة 362هـ، مدداً لمن تبقى من أفراد الحملة المندحرة، الذين وجهوا نداء استغاثة، للحكم المستنصر من ملجئهم بحامية سبتة، غير أن المدينة يمكن أن تكون سابقة في تأسيسها على سنة 331هـ، وهو ما نفتقد لتحديده على وجه الدقة.

- **بادس**: تعتبر مدينة بادس " فرضة مشهورة من فرض غمارة" شرقاً2. وما يمكن استنتاجه من المصادر المتأخرة أمثال الوزان ومارمول كربخال أن الأفارقة هم مؤسسوها، ومعلوم لدينا أن الأفارقة هم السكان الأصليون للمنطقة، وحسب المستنبط من بعض المصادر أن السكان ينتمون إلى فخذ من صنهاجة، وبالتالي فإن صح ذلك فهذا يعني

[1] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص116.

[2] – القلقشندي، صبح **الأعشى في صناعة الإنشا**، ج5،م.س، ص16ت7.

أن للمدينة أساس قديم، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن المؤسسين هم السكان المستقرون بالمنطقة قبل الفترة الإسلامية، ونظراً لموقع المدينة على ساحل البحر وبالقرب من الغابة التي أمدت السكان بصناعة السفن فإن من دواعي تأسيسها هو النشاط البحري. وكل ما يمكن قوله أن الحسن الوزان ذكر أن القوط هم بناة المدينة1. وهذا يجعلنا نميل إلى ربط الصلة بباقي المدن الساحلية المتوسطية مثل ترغة وسبتة التي يرد ارتباطها بسيادة القوط ربما أيام يوليان الغماري.

وهناك من ينسب تأسيس مدينة بادس إلى إدريس بن صالح الحميري، كما يشير أبو القاسم الزياني2. غير أن الاعتراض على هذا المصدر نابع من كونه غير معاصر ولا نعرف مصدر خبره. فإذا رجحنا أنها ترجع إلى بداية القرن الأول الهجري/8م، فإن هذا التحديد لم نجده في المصادر المعاصرة، لذلك فإن أصل بادس يبدو غامضاً[3].

ويدخل مجالها ضمن حدود قبيلة بقوية، والتي استقرت بالريف الشرقي (أراضي كرط)، ثم تجاوزت وادي النكور وغيس لتستقر على طول الهضبة المشرفة على البحر المتوسط. وهي بهذا الوضع تمتد أراضيها من مصب وادي بادس غرباً إلى مشارف وادي النكور شرقاً، وتحتل بذلك امتداداً على ساحل بادس بمسافة (47 كلم)، واستمرارها بتلك المواطن سابق لظهور إمارة النكور، يشهد بذلك التفاف القبيلة حول مؤسس الإمارة إلى جانب أختها بني ورياغل4. كما تستقر فيها قبيلة يطوفت التي ترجع أصولها إلى نفزاوة، وكانت منتشرة ببلد النكور قبل بداية القرن الرابع الهجري/10م، ثم انتقلت إلى حوز بادس واستقرت بين

---

[1] – الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ص325.

[2] – الحميري، م. س، ص576–577. ويذكر الزياني في الترجمانة الكبرى أن مؤسس نكور هو إدريس بن صالح على عهد عبد الملك بن مروان. الحسن السائح، **الحضارة الإسلامية في المغرب**، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1986، ص192.

[3] أ– نظر: حليمة فرحات، **بادس**، المعلمة، م، س، ص966. تقول: أنها ضع لنفوذ سكوت البرغواطي في سبتة، بدليل نفيه للفقهاء الذين جاحدوه ولية المسلمين.

[4] – حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م. س، ص581.

تركيست جنوباً وبني بوفرح غرباً، وبني ورياغل شرقاً، وبقوية التي لم تحل بينها وبين الوصول إلى الساحل المتوسطي. وقد أشرفت قبيلة بني يطوفت على بادس ومرساتها في الشمال الغربي، وشاركت في أنشطة بادس المتنوعة[1]. وتقع ضمن بادس مواطن قبيلة بني بو فرح، وتتركز حول وادي تنساب فيه المياه بسرعة من منابعه بجبل تركيست فتتجه في خط شبه مستقيم نحو مصبها في المتوسط، وتقطن السفوح الشرقية من الكتلة القائمة بينها وبين قبيلة كميل (جبال تيذا، بو خدل، بو خشخاش) والسفوح الغربية الفاصلة بينها وبين بني يطوفت (جبل اكراكور وقرن المعزة)[2]. وبالتالي فلدينا معرفة بالطوائف السكانية في بداية الفترة الإسلامية. وهي المنطقة التي كانت من ضمن ولاية عمر بن إدريس المعروف لدينا.

- **تيكيساس:** تسمية أمازيغية لمدينة إدريسية. ويروى أن سبب التسمية آت من مؤسسها تيجساس الغماري الذي كان أميراً عليها قبل الفتح[3]. والمتأمل إلى العلاقة بين اسم المدينة وحاكمها لا يسعه سوى أن يؤكد عن العلاقة المتينة بين الاسمين، وربما سيؤدي بنا الرأي إلى معرفة مؤسس المدينة، فمن هو مؤسسها؟. كل ما يمكن قوله الآن هو أن تيجساس الغماري كان سابقاً لولاية عمر بن إدريس. وتعرف اليوم باسم السطيحة، وهو اسم القرية الحالية الواقعة بجوار موضع مدينة تيكساس[4]. والمعروف لدينا أن عمر بن إدريس مدنها وبنى بها الحصون والقلاع، وجعلها قاعدة لحكم ولايته[5]. والجدول التالي يوضح مجال ولاية الأمير عمر كما ورد في المصادر:

---

[1] – حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م، س، ص579.

[2] – حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م.س، ص 574.

[3] – نقلاً عن عمر الجيدي، معلمة المغرب، م س، ص 2734.

[4] – هامش محقق القرطاس، ص64. عبد العزيز توري، **المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة**، م. س، ص161.

[5] – **القرطاس**، هامش المحقق، م. س، ص64. عبد العزيز توري، **المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة**، م. س، ص161.

ولاية عمر بن إدريس	المصدر
صنهاجة وغمارة	البكري، المُغرب، ط،باريس، ص124
صنهاجة والهبط وغمارة	ابن عذاري، البيان
تيجساس وبلاد غمارة وما والاها	ابن ابي زرع، القرطاس، ط 1965،2، ص62
صنهاجة وغمارة	ابن الخطيب،الأعلام، ق3، 204
تيكساس وترغة وبلاد صنهاجة وغمارة	ابن خلدون، العبر، ج4، ج6

- تطاوين (تطوان): اسم أمازيغي، يعني العيون، أو الينابيع الجارية "[1]. وهذا مما هو مطابق لما ذكره البكري حين قال: كان بها مياه كثيرة سائحة، في عهده، ولذلك ارتباط بالاسم. ومن خلال النصوص يتضح أن الساكنة المحلية كان لها دور في تأسيس تطوان، وخاصة بني سكين القاطنين جنوبها، وهو ما أشار إليه البكري نقلاً عن الوراق(ت 362هـ) من أن مدينة تطاوان قاعدة بني سكين[2]. هذا النص الذي ذكره البكري يرجع إلى منتصف القرن الرابع الهجري، وسكوت البكري عن المؤسس وإشارته إلى بني سكين من مصمودة يدل على أن تطوان من تأسيس أهالي المنطقة. وربما كان مارمول كربخال على حق حينما أشار إلى أن تطوان من تأسيس أهل البلاد[3]، أي القبائل المحلية التي ساهمت في تطوير المدينة.

[1] – هناك ثلاث روايات لم يؤكدها رواتها، وتتضمن الرواية الأولى، أن تطاوين لفظ مركب من كلمتين، (تيط)، ومعناها العين، و(وين) وهي كناية عن المخاطب، نحو يا فلان، وما أشبه ذلك، فقالوا والسبب في تسميتها بذلك أنهم في وقت اختطاطهم لها كانوا يضعون الحرس على أسوارها مخافة فجأة العدو، فكان الحراس ينادون بالليل أو بالنهار تطاوين، تطاوين، أي يا فلان أفتح عينيك، فصار اللفظ علماً عليها. والرواية الثانية تتضمن أن (تيط) تعني العين و(وين) معناها المقلة، ومعنى مجموع الكلمتين "مقلة العين". أنظر: السلاوي، (أحمد بن خالد الناصري)، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، ج3، م.س، ص96. محمد المازوني، **تيط**، معلمة المغرب، ج8، مطابع سلا، 1995، ص704.

[2] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص 107.

[3] – مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م. س، ص222.

وبنو سكين قطنوا المنطقة قبل مجيء الأدارسة إلى الشمال الغربي سنة 213هـ، حيث خلفوا بني ماجكن المجسكيين في قيادة المنطقة بعد انسحاب قائدهم ماجكن أو ماجكس إلى سبتة بعد سنة 122هـ، وبالتالي فإلى حدود هذا التاريخ كانت تطوان موجودة، وذكر البكري إلى أنه كان بها منارة وقصبة للأول[1] دليل على أن وجود المدينة سابق للفترة الوسيطية، أي ما بعد خراب مدينة تامودا الرومانية[2] على يد سكان المنطقة المصمودية قبل الميلاد، لتقوم تطوان بوظائف المدينة القديمة[3].

مما سبق يتضح أن تأسيس تطوان يرجع إلى الفترة السابقة لتقسيم المغرب إلى ولايات من قبل محمد بن إدريس وتوزيعها بين إخوته بناءاً على اقتراح جدته (كنزة) أم أبيه، سنة (213هـ)[4]. فكانت تطوان ضمن ولاية أخيه القاسم بن إدريس، وهو ما أكدته المصادر، على النحو التالي:

البكري، المُغرب، ص124	**ابن عذاري، البيان،**	**ابن أبي زرع، القرطاس، ص62**	**ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق3، ص202-203**	**ابن خلدون، العبر، ج4، ص14، ج6، ص216**
البصرة وطنجة وما والاها	**طنجة وما يليها**	**طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر وتطوان وبلاد مصمودة وما إلى ذلك من البلاد والقبائل**	**سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر وما إلى ذلك من البلاد والقبائل**	**طنجة وسبتة والبصرة وتيطاوين وقلعة حجر النسر وما إلى ذلك من بلاد غمارة**

[1]- البكري، **المُغرب**، م. س، ص 107.

[2]- والمعروف أنه على مقربة من موقع تطوان بثمانية كيلو مترات باتجاه المصب أنشئ القرطاجنيون مدينة في الموضع القديم لمدينة تامودا الرومانية، ثم اندثرت ولم يعد هناك استمرار لذلك الموضع في العصور التالية، والتي احتلها القوط بعد الرومان، وفتحها المسلمون عندما استعادوا مدينة سبتة من يد القوط ، ثم أتى عليها البحر، فجددها البربر والأدارسة في الإسلام، وكانت حينئذ مركزاً تجارياً هاماً، وأول من ملكها من الأدارسة القاسم بن إدريس، اعتباراً من سنة 213هـ، وقد استمر بها الأدارسة مدة طويلة، وكان يقطن بها بربر من لواتة . الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م. س، ص318.

[3]- أحمد قدور، **تطوان**، معلمة المغرب، ج7، م. س، 1995، ص2399- 2400.

[4] - إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط3، 1993، ص126.

وللمزيد من التأكيد على أن وجود تطوان سابق لتاريخ التقسيم، هو ورد ذكرها في أخبار التقسيم بنفس التسمية.

وفي كل الأحوال فأن المدينة الإدريسية (تطوان) كانت موجودة في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/9م، حيث ساهم الأدارسة في تطوير بناء المدينة إلى جانب أهلها. ففي بداية القرن الرابع الهجري/10م كانت ناحية تيطاون تحت نفوذ بني محمد وزعيمهم إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس باني قلعة حجر النسر (315-317هـ).

في الوقت الذي كانت الأدارسة يعملون لتطوير المدينة حدث ما لم يكن في حسبانهم، فنتيجة لمضايقة تطوان لأصحاب سبتة تجارياً، بعد الاستقرار الأندلسي فيها، بحجة أنها تلحق الضرر بمدينتهم وتقطع عليها مرافقها، وتركز ثقل بني محمد فيها، وتشابه وظائفها البحرية مع وظائف مدينة سبتة، فكانت تطوان منافسة لسبتة سياسياً واقتصادياً، ويبدو أنه لم يكن هناك حل غير قرار الهدم الصادر من الحاكم الأندلسي الناصر لدين الله الأموي (300- 350هـ) وهذا يعني القضاء نهائياً على مدينة تطوان وتجمعاتها، والاستقرار الإدريسي بها. والأدهى من هذا هو وضع تنفيذ عملية الهدم بيد حكام المدينة من بني محمد ، ويظهر أن القرار نفذ بالفعل، واستمرت على هذا الحال حتى زوال الوجود الإدريسي من المنطقة كلها.

- **المعمورة:** يحيل الاسم بالمعنى المناقض إلى المكان الخال من العمارة وفيه أقيمت المدينة[1]. والذي أمدتنا به مصادرنا أن اسم المعمورة كان معروفاً على الأقل في بداية ظهور الموحدين، حيث ذكره الإدريسي. فالمعمورة بناءاً على تصورها أنها ليست من انجاز الموحدين، بل هي من المدن التي تنتمي للفترة السابقة لظهورهم[2].

1- الحسين إسكان، **المعمورة بين الخراب والتعمير خلال العصر الوسيط**، ضمن أعمال الندوة الوطنية حول قصبة المهدية، م. س، ص27- 35.

[2] - البوعناني، **مساهمة في دراسة تاريخ منطقة الغرب**، م. س، ص269

وسنناقش هنا ما قراءناه بخصوص ما ذكرته أطروحة عن وجود موقعين لمعمورة: معمورة المرجة الزرقاء ومعمورة سبو، ففيما يخص معمورة المرجة الزرقاء يعتقد أحد الباحثين أن هناك إشارات تتعلق بهذا الموقع الذي بينته الخرائط الجغرافية المنتمية إلى القرن 17م، حيث أشارت إلى موقعها المعروف اليوم بمولاي بوسلهام، تحت عبارة "المعمورة القديمة"، ورجح أقدميتها على معمورة سبو[1]. وهذا مردود من الوجهة التاريخية، حيث لا يمكن الاعتماد على خريطة منتمية إلى القرن المذكور بمجرد كتابة اسم المعمورة القديمة.

ونعود إلى ما ذكره عبد الرحمن بن زيدان من أن المعمورة كانت قائمة في بداية القرن 5هـ/11م، على عهد دولة زناتة من بني يفرن، حُكام سلا، وانه كان قد استولى عليها البرغواطين من أيدي بني يفرن، وخربوها فيما خربوه من المدن[2]. فهل يمكن لنا أن نصدق ما ذكره الإخباري المتأخر عن الفترة المدروسة بمدة طويلة. الحقيقة أننا مضطرون للأخذ بما جاء به إلى حين التوصل بمعلومات أخرى، نظراً لكونه المرجع الوحيد، والعيب هو أنه لم يشر إلى المصدر الذي استقى منه تلك المعلومات.

وفي ما يلي جدول خاص بحكام فاس وسلا على عهد الدولة الزناتية (مغراوة وبني يفرن)362-462هـ حتى سقوط فاس بيد المرابطين:

أبو بياش(يطوت بن بلكين المغراوي)	**367**	**دخل فاس وقتل عامل العبيديين على القرويين(المكناسي)وخطب لبني أمية**	
زيري بن عطية المغراوي	**377-382**	**اخرج الأمويين من فاس،واسكن قبيلته بأنحائها.كان ملك أمر زناتة قبل دخوله فاس،سنة368هـ. توفى**	**استدعاه المنصور العامري إلى قرطبة،فخلف على**

[1] – المصطفى البوعناني، **معالم مرفأ نهري على ضفة المرجة الزرقاء بمنطقة الغرب**، ندوة المواقع الأثرية في منطقة الغرب بين البحث العلمي والبعد التنموي، إصدار كلية لآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم(9)، 2007، ص108.

[2] – ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج2، م. س، ص72.

		سنة391هـ وهي سنة دخول المظفر العامري(عبدالملك) فاس	العدوتين عمالا من قبله
محمد بن أبي علي بن قشوش+عبدالرحمن عبد الكريم بن ثعلبة	387-377	كانا عاملين لزيري على العدوتين،ابن قشوش على القرويين،وابن ثعلبة على الأندلسيين	ولى زيري وقف العدوتين الفقيه قاسم بن عامر الأزدي
يدو بن يعلى اليفرني	383-382	دخل عدوة الأندلس بالسيف في غياب زيري بالأندلس	قتله زيري المغراوي سنة386هـ
المظفر عبدالملك العامري	387،استمر ستة أشهر	هزم زيري المغراوي،وولى فاس حتى استدعاه والده إلى الأندلس،وعين بديلا عنه	هو قائد الحملة الأندلسية على زيري المغراوي،بأمر والده المنصور بن أبي عامر
عيسى بن سعيد	389	حل محل المظفر على فاس	هو صاحب الشرطة بالأندلس للمنصور،واحد قادة الحملة على المغرب
واضح الفتى	389	حل محل صاحب الشرطة على فاس	احد قادة الحملة العامرية على المغرب
المعز بن زيري بن عطية المغراوي	393/1-422	صالح المنصور العامري،فقلده أمر المغرب مدة(20)سنة،ثم خلفه ابنه على فاس	
حمامة بن المعز	424-422	في عهده تغلب عليه اليفرني(تميم بن زيري بن يعلى) وحكم فاس سبع سنوات،ثم تمكن المعز من استعادتها من بني يفرن	
تميم بن زيري بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرني	431-424	قتل في فاس ما يزيد عن ستة الف يهودي،كان يقاتل برغواطة سنويا ويعود إلى فاس.وعادت فاس لمغراوة	توفى سنة448هـ
حمامة بن المعز (الولاية الثانية)	440-431	تمكن من استعادة فاس من بني يفرن،وحكمها حتى وفاته	توفى بفاس سنة440هـ،وخلفه ابنه دوناس
دوناس بن	452-440	لم يشتغل إلا في البناء والتشييد،ففي	استمر يعمر فاس أكثر

حمامـة المغراوي		عهده نمت وازدهرت فاس	من عقدين من الزمن
الفتوح بن دوناس+عجيسة بن دوناس	الفتوح(452-457) وعجيسة(452-455)	كان الفتوح على الأندلسيين،وعجيسة على القرويين.وكان بينهما قتال،فتمكن الفتوح من قتل اخيه عجيسة بعد ثلاث سنوات من توليه القرويين	بعد مقتل عجيسة استمر الفتوح على فاس حتى قدوم لمتونة الذين ضيقوا عليه الحصار،فتنازل عن فاس لابن عمه
معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن زيري	460-457	دخول يوسف بن تاشفين فاس صلحا،في المرة الأولى	تولى فاس بعد أن تخلى عنها الفتوح نتيجة شدة حصار المرابطين
تميم بن معنصر	462-460	استعاد فاس وطرد حامية المرابطين،ودخل يوسف بن تاشفين فاس بالسيف وقتل بها جموع زناتة،462هـ	انتهت في عهده دولة مغراوة وبني يفرن،بعد(100)عام،وبدأت الدولة المرابطية

- **ويناقام:** أشارت المصادر إلى أن مدينة ويناقام كانت قاعدة للأدارسة، وتحديداً " قاعدة حمود بن إبراهيم"[1] ولعله حمود بن إدريس[2]. والواقع أن تاريخ حياة أي منهما غير معروفة على وجه التحديد، غير أننا يمكن أن نرجح أنه إذا كان هو حمود بن إدريس فأنه يرجع إلى القرن الثالث الهجري، أي بعد سنة التقسيم الذي أجري بين بني إدريس الثاني، وإن لم يكن حمود ضمن من أسند لهم مهمة حكم أحد هذه الأقاليم، غير أننا يمكن أن نرجح أنه يرجع إلى الفترة التي حكم فيها إخوته. أما إذا كان هو حمود بن إبراهيم فأنه يرجع إلى القرن الرابع الهجري، أي إلى الفترة التي أنتشر فيها الأدارسة في الشمال الغربي من بعد سنة 315هـ. وبذلك يمكننا أن نربط بين صاحب المدينة وفترة تأسيسها على وجه التقريب، غير أننا لا نستطيع الجزم إلى أي منهما يرجع تأسيسها. والخلاصة التي

1- البكري، **المُغرب**، م. س، ص107.

2 - حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، ج1، م. س، ص28.

نختم بها البحث أن مدينة ويناقام كانت بمثابة قاعدة للأدارسة وهذا يعني أنها كانت موجودة قبل قدومهم إلى الشمال الغربي، وإن كنا لا نستطيع أن نجزم متى ظهرت على وجه الدقة.

- **أصادة:** لمدينة أصادة أساس قديم "فيها آثار للأول"، شأنها في ذلك شأن العديد من المدن الإدريسية في الشمال الغربي المغربي، حيث قام الأدارسة بتجديد (إحياء رسم) عدد من المدن. وربما تحولت تلك المدن القديمة إلى قرى ثم هجرت واندثرت. ومع قدوم الأدارسة إلى المنطقة، المترافق مع الازدهار التجاري، تمت إعادة تعميرها من جديد. فقد اشتهرت مدينة أصادة بالمنتجات الفلاحية العديدة، كان أهمها- كما أشارت المصادر- الأعناب والأشجار الكثيرة[1]. غير أننا لا نستطيع التقرير إلى أي من الأدارسة تنتمي أو تحديد تاريخ على وجه الدقة، وكل ما نستطيع قوله إن آصادة تعد ضمن المدن التي يمكننا فقط ترجيح الفترة التي تنتمي إليها وهي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

والراجح عند حسن الفكيكي أنها مشتقة من اسم روماني **(Calzada)** وهي الطريق المبلطة بالحجارة على الطريقة الرومانية. وهذا يخالف المعنى المستخلص من التركيب اللغوي الذي يشير أن الاسم صيغة معربة لأصادن، وهو جمع والصاد فيه مشمومة زاياً، والفعل الذي اشتق منه الاسم يعطي لأزاصن معنى أهل الرحاء الحجرية، أو أهل النسيج[2].

بعد جولتنا هذه التي خصصناها للتعرف على مواقع المدن والحصون وتأسيسها، سوف يكون من المناسب تناول موضوع وصف المدن والحصون في الشمال الغربي المغربي، والأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية في الفصل التالي. وقبل الانتقال حري بنا عرض جدول خاص بتقسيم المغرب إلى ولايات من قبل الأمير محمد بن إدريس على إخوته القادرين حسب المصادر المختلفة.

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م. س114.

[2]– أحمد التوفيق، **أصادة**، معلمة المغرب، ج2، مطابع سلا، 1989، ص473.

	عمر	القاسم	عيسى	يحيى	داود	حمزة	عبدالله	أحمد	إدريس
البكري،المُغرب، ط،باريس، ص124	صنهاجة وغمارة	البصرة وطنجة وماوالاها	زقور وسلا	داي وما والاها	هوارة وتاسلمت	الأودية بقرب وليلي	لمطة وما والاها	.....	
ابن عذاري،البيان	صنهاجة والهبط وغمارة	طنجة ومايليها	.....	.....	هوارة تامليث	.....	.....	.....	.....
ابن ابي زرع، القرطاس،ط2، 1999،ص62	تيجساس وبلاد غمارة وماوالاها	طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر وتطوان وبلاد مصمودة	شالة وسلا وازمور وبلاد تامسنا وماإلى ذلك من القبائل	البصرة واصيلا والعرائش إلى بلاد درعة [ورغة]	بلاد هوارة وتسول ومكناسة وغياثة	تلمسان واعمالها	آغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة والسوس	مكناسة وبلاد فازاز وبلاد تادله	.....
ابن الخطيب،الاعلام، ق204،3	صنهاجة وغمارة	سبتة وطنجة وقلعة النسروماإلى ذلك من البلاد والقبائل	شالة وازمور وتامسنا وبرغواطة	مدينة البصرة ومدينة اصيلا	بلاد هوارة وما والاهما	مدينة تلمسان	السوس الأقصى وبلاد نفيس وآغمات	مكناسة وجبال فازاز و تادلا	شالة
ابن خلدون،العبر، ج4،ج6،ص،14 162	تيكساس وترغة وبلاد صنهاجة وغمارة	طنجة وسبتة والبصرة وتيطاوين وقلعة حجر النسر وماإلى ذلك من بلاد غمارة	شالة وسلا وازمور وتامسنا وماإلى ذلك من قبائل	مكناسة وغياثة واصيلة والعرائش وبلاد ورغة	هوارة وتسول وتازا وما بينها من القبائل	وليلي واعمالها	آغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة والسوس الأقصى	.....	.....

الباب الثاني

الوصف والأدوار السياسية والاقتصادية

الفصل الأول

وصف المدن والحصون

جاء دور القيام بوصف المدن والحصون بمنطقة الريف التي سبق الحديث عن مواقعها وما تعلق بتأسيسها، ابتداءاً من مدينة بادس شرقاً على الساحل المتوسطي[1]. وسنحاول أن نوضح الهيئة التي كانت عليها المدن والحصون اعتماداً على النصوص التاريخية المصدرية، وما أمكن من التقارير الآركيولوجية، بغية إعادة هيكلتها والتعرف على مواصفاتها العمرانية وبالتالي أسس الحياة فيها. وقد وقع اختيارنا على تقديم تصنيف يسهل ما نحن بصدده من البحث، وبهذا الخصوص اعتمدنا تقسيماً يقوم على توزيع المدن والحصون إلى ما هو في الساحل وما هو بداخل منطقة الشمال الغربي.

أولاً- المدن الساحلية

ويبدو أننا سنكون مضطرين، لمزيد من الفهم والسهولة، إلى تخصيص الحديث في هذه الفقرة لوصف المدن الساحلية في الواجهات البحرية الآتية: المتوسطية، والمضيقية، والأطلسية. سيراً على المنهجية التي اتبعناها في الاستعراض السابق، وبذلك نكون قد وفرنا لكل المدن والحصون والقلاع ما يحتاجه البحث التاريخي من تحقيق الموقع والتعريف بالتأسيس والمواصفات العمرانية، ثم نستعرض الأدوار السياسية والأنشطة الاجتماعية والاقتصادية.

1- مدن الساحل المتوسطي

يمتد الساحل المتوسطي في نطاق العديد من المدن، بدرجة أقل نظراً إلى وعورة تضاريس الساحل الممتد من بادس شرقاً إلى مدينة تطوان المنتصبة في الشمال الغربي من نفس الساحل.

---

[1] – أنظر: يحيى وزيري، **العمارة الإسلامية والبيئة: الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي**، عالم المعرفة، يونيو 2004، الكويت، ص196.

- بادس: كسبت مدينة بادس شهرة كبرى بالساحل المتوسطي خلال العصر الوسيط، نظراً لموقعها الوسطي شرق الريف وغربه، من جهة، ولمواجهتها للمدن الساحلية الأندلسية من أمثال مالقة والمرية، من جهة أخرى. ولا شك أن ضآلة المصادر قد هضم الكثير من تلك الشهرة**.** فماذا بقي لنا منها؟.

الواقع أنه سبقت الإشارة إلى أن محيط مدينة بادس مستطيل الشكل يمتد باتجاه شمالي جنوبي، وبالتالي فرض الموضع شكل الأسوار التي تحيط بالمدينة، ففي الوقت الذي كان فيه السوران الشمالي والشرقي محاذيين لحافات المرتفعات المشرفة على المدينة، كان السوران الغربي والجنوبي مرافقين لحافة مجرى وادي بادس، مما جعلهما معرضين لأضرار الانجراف من حين لآخر، ولذلك عد هذان الجانبان من أضعف جوانب المدينة حصانة، ويبرز منهما برجان يحتلان الزاويتين الشمالية والجنوبية. وللمدينة باب رئيسي يقع في الزاوية الجنوبية الغربية المشرفة على مجرى وادي بادس[1]. كما أشارت النصوص إلى وجود الحصن أو القلاعة، لكنها لم تؤد دورها لضعف تحصينها فهي "جميلة أكثر منها حصينة".

وكان للمدينة مسجد جامع، وموقعه بالساحة قرب السوق، بينما جرت العادة أن يقام المسجد بجوار القصبة لتسهيل انتقال الحاكم، فإن موضعه يحتل الفراغ الواقع بين السوق والقصبة، وهذا المسجد سبق أن أشار إليه الحسن الوزان بأنه صغير، بينما أعتبره مارمول كربخال كبيراً محاطاً بسور قديم. هذه هي بادس التي قال عنها الشريف الإدريسي إنها مدينة صغيرة متحضرة[2].

كما كان للمدينة أسواق وصناعات، وأهل غمارة يتزودون من أسواقها. وماء المدينة من بئر خارجها، بالقرب من ضريح أحد الأولياء

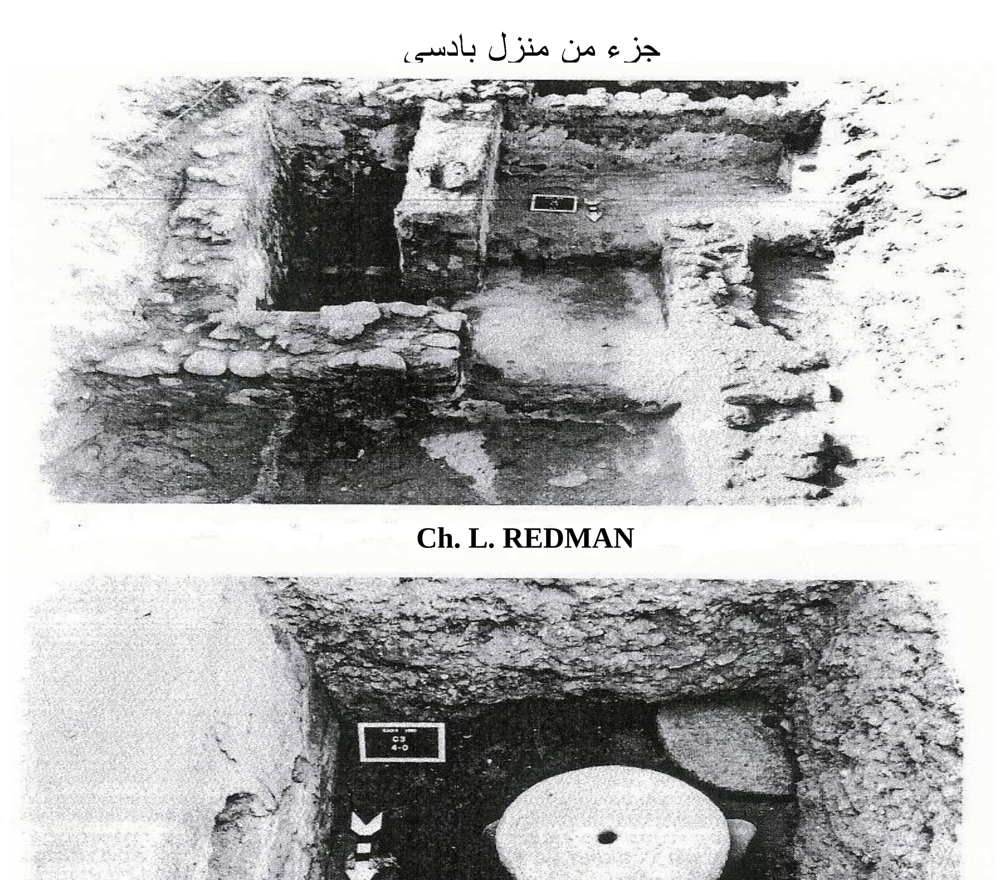
---

[1]– حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري في الثغور الشمالية المحتلة**، م، س، 264.

[2]– حسن الفكيكي، **نفسه**، ص 264.

[أبو يعقوب البادیسي المغراوي، ت:734هـ/1333م]. ومعظم سكان المدينة يزاولون مهنة الصيد والقرصنة. والجبال حول بادس شاهقة، ووعرة، ينمو فيها خشب جيد صالح لبناء المراكب البحرية والزوارق والسفن الشراعية والحربية، حيث كانت تتوفر على دار لصناعة السفن، ولا يعيش الجبليون إلا من هذا الخشب، يحملونه إلى مختلف الجهات[1]. ويصفها ابن الخطيب ببلد ذي معارج وعرة، تنبت فيها الأخشاب الجيدة، والفواكه، ويصطاد من ساحلها الحوت[2].

جزء من منزل بادسي



Ch. L. REDMAN

Ch. L. REDMAN

[1] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص532–533. الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ص325–326.

[2] – ابن الخطيب، **معيار الأخبار في ذكر المعاهد والديار**، [دراسة وترجمة إسبانية للنص العربي، محمد كمال شبانه]، المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب، 1977، ص71.

ـ تيكَساس: تعتبر مدينة تيكَساس من المدن المندثرة، ولم يتبق من معالمها كثير، كما هو الحال بالنسبة لمدينتي البصرة وكُرت، والكثير من المدن والحصون الوسيطية في المغرب، وخاصة الشمال الغربي منها، فالمعالم الباقية والواضحة للعيان من مدينة تيكَساس هي: أجزاء من السور، وخزان مياه أرضي موجودة في الهضبة الشمالية، وبعض معالم للخندق الذي كان يحيط بالسور[1]. أما المباني السكنية وغيرها من البنايات الأخرى المتعددة قد اندثرت وغرقت تحت كميات كبيرة من الأتربة الناجمة عن أنقاضها، ومن التقلبات التي طرأت عليها من جراء إنشاء ثكنة عسكرية في قمة الهضبة الجنوبية، من قبل الاحتلال الإسباني إبان الحماية، ثم كان من أسباب الاندثار لمعالم المدينة، أيضاً، ما تعرضت له أثار المدينة، نتيجة القيام بحملة التشجير التي قامت بها مصلحة المياه والغابات، سعياً منها في التقليل من انجراف التربة. ومن خلال تلك البقايا، يمكن التعرف بشكل عام على نمط التخطيط الخارجي لمدينة تيكَساس، على النحو التالي:

الخندق: الجديد في هذا النظام الدفاعي هو وجود خندق عميق، محاذٍ للسور من الجهة الغربية، يفوق عمقه في بعض الأماكن عن (12م)، واتساعه (7م). هذا الاتساع يوحي بأن الخندق كان- زيادة على مهمته الدفاعية الرئيسية والواضحة- يتحول إلى ممر محمي يتخذه الخيالة والراجلون، على السواء، لشن هجمات مضادة في اتجاه الميناء.

أما الخزان الأرضي، أو الصهريج، فهو منقور في الصخرة الأم، على شكل نصف دائري، كسيت جدرانه من الداخل بملاط من الجير، وبنيت فوهته بالآجر المشوي[2].

السور: كان محيط المدينة محصناً بخندق، فضلاً عن السور. ومن بقايا السور نتعرف على طريقة البناء، والمواد المستعملة، وهي طريقة

---

[1]– عبد العزيز توري، **المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة**، مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، ع (11)، 1985، ص158–159.

[2]– عبد العزيز توري، **المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة**، م، س، ص158–159.

جمعت بين أسلوبين، الأول استعمل في بناء القسم الأسفل من السور، والمكون من الحجارة المنحوتة، والمرصوصة بملاط من مادة الجير الجيد. والثاني استعمل في بناء القسم العلوي، وهو المكون من طابية متقنة البناء.

- ترغة: حظيت مدينة ترغة بمسح أثري شمل المعالم الموجودة على السطح، الشيء الذي وفر مادة مهمة للوصف، ومن خلال الشهادات المتوفرة، يمكن القول إن مدينة ترغة، عبارة عن موقعين متباعدين، حيث ذكرت لجنة المسح الأثري لمنطقة غمارة[1] أن ترغة تتكون من ربضين، ساحلي وداخلي، وبينهما مساحة. هذه الإشارة، تعطينا تصوراً هو أن ترغة في الأساس مدينة مجاورة للساحل، ولها ميناء خاص بها على شاطئ المتوسط، إذ نستطيع الترجيح أن ما سمته لجنة التحريات الأثرية بالربض الساحلي، هو ميناء مدينة ترغة، وما سمي بالربض الداخلي، لا يعدو أن يكون الموقع الأصلي للمدينة، وقد بنينا ترجيحنا هذا اعتماداً على تلك المسافة التي تفصل بين الموقعين، إذ لا يوجد سبب أو مبرر لأن تكون المدينة موزعة إلى مجالين جغرافيين متباعدين، خاصة في ظل عدم وجود موانع طبيعية لتوسع رقعة المدينة، فالمجال الموجود عبارة عن سهل واسع، لذلك فأنه من المنطقي أن يكون ميناء المدينة على الساحل، وتكون المدينة بجواره باتجاه الداخل.

والشيء الثاني الذي لفت الانتباه ورسخ لدينا هذا التصور هو أن موضع المدينة تم اختياره بسفح جبل أزنتي، وهذا الصنف من المواقع نراه كثيراً بالنسبة للمدينة العربية التاريخية في اليمن، والكثير من المدن الإسلامية في بلاد المغرب. ويعزز ذلك أيضاً ما أشارت إليه المصادر من أن مدينة ترغة كانت تتوفر على مرسى " ولترغة مرسى، كان من قواعد الجهاد في العصر الحديث، وإليه التجأ العديد من مسلمي الأندلس، لما صدر قرار طردهم منها، بعد سقوط غرناطة

---

[1] – عبد العزيز توري، **المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة**، م. س، ص158–159.

سنة(897هـ/1492م)"[1]. وتتكون الآثار الباقية من: الخندق، السور، والحصن أو القلاعة أو القصبة، أو دار الأمارة، والمسجد الجامع، والمقبرة الواقعة إلى جوار مسجد المدينة الجامع.

والسور بمدينة ترغة يحيط بالقلاعة، وهي قلعة حصينة تعلو ترغة جنوباً، والتي تم تشييدها على نتوء صخري منيع من جانبيه الشمالي والغربي، ويشرف على وادي ترغة الفسيح في أقصى اتساعه، وقليل المنعة من الناحية الجنوبية، الشيء الذي استدعى حفر خندق بعمق كبير يفصل ما بين القلاعة والجبل. إذاً كان السبب في عدم التحصين من ناحية الجنوب هو وجود التحصين الطبيعي الممثل بالجبل، غير انه زيادة في التحصين تم حفر خندق ما بينهما. وتوحي مرافق القلاعة، بأنها سُكنت مدة طويلة من قبل مجموعات مختلفة من الناس، وذلك واضح من التعديلات والتغيرات التي طرأت على أجزاء كاملة من القلاعة، خاصة الواجهة الشمالية الغربية التي أعيد ترميم أقسام منها، إبان الزحف الإيبيري على الثغور الشمالية للمغرب، في بداية القرن(9هـ/15م). وهذه التعديلات تظهر في توسيع المدخل وجعله باباً مُحرباً، أي جعله باباً حديدياً منزلقاً على بكرات، كنوع من الاستحكامات الحربية. وعند إعادة بناء القسم العلوي من السور استحدثت فيه فتحات دفاعية موجهة نحو الوادي[2].

كما تعرضت قلعة ترغة وملحقاتها لبعض التجديدات، في الواجهات الغربية والجنوبية الغربية، خلال الفترة الموحدية، نعرف ذلك من خلال بعض الدعامات الخارجية المقوية للجدران الضعيفة آنذاك، والتي احتفظت لنا بالشكل والتقنية، المعروفة بالبنايات الموحدية أو الفترة

---

[1] – – مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م. س، ص229.

[2] – شاهدنا مثل هذا النوع من الاستحكامات الحربية في المدينة العربية القديمة (اليمن)، كمدخل العاصمة الحضرمية (شبوة) الذي يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد، ثم في المدخل المنزلق في بوابة العاصمة العباسية بغداد (144هـ)، وفي عاصمة الدولة الزيادية باليمن (زبيد) سنة204هـ.

المعاصرة لها في المغرب والأندلس، وهي تقنية التابوت أو الركز، بسكون الراء والكاف والزاي. وتتمثل التقنية في خلط المواد الآتية: التراب، الرمل، الأحجار الصغيرة، قطع مكسرة من الفخار، والكل مختلط مع الجير، داخل بطانة خشبية بحجم معين لا يزيد عن متر تقريباً، وهذه البطانة هي ما تسمى في المغرب ب(التابوت أو اللوح)، أما البناء نفسه فيسمى الطابية[1].

وهناك قلعة أخرى في الميناء، بنيت كذلك فوق صخرة ضخمة، تعلو البحر بخمسة أمتار، وتختلف عن قلعة المدينة من حيث التصميم ومواد البناء وتقنيته، فهي مبنية بالحجارة المستخرجة من الصخرة نفسها ومن الصخور المجاورة، وزينت نهاية الجدران والمدخل والنوافذ بالآجر، والكل ملتصق بملاط من رمل وجير.

أما عن تخطيط القلاعة من الداخل، فيظهر من البقايا أن وسط القلاعة كان مكشوفاً، وأن الجوانب كانت مغطاة بسقف، وهو - وإن كان تاريخ بناء القلاعة حديثاً- نفس تخطيط القلاع والحصون والمنازل والقصور العربية الإسلامية، واستمر حتى العهد العلوي الأول في المغرب، فنجده في القلاع التي بناها المولى إسماعيل في مدن الشمال المغربي. ما سبق كان إيضاحاً للسور، والخندق، والقلاعة، في مدينة ترغة، وهو ما أشارت إليه المصادر بالقول: " ويحيط بترغة أسوار قديمة، وقصبة موجودة من ناحية البحر، مشيدة فوق صخرة ولكنها غير محصنة كما يجب"[2].

أما في ما يتعلق بمسجد المدينة فهو يتكون من بيت صلاة مغطى، ينقسم إلى بلاطتين أفقيتين [أسكوبان] يغطي كل منها سقف ذو انحدارين،

---

[1] – الطابية مادة بنائية تصنع من الطين المخلوط بالقش المضغوط بألواح من الخشب، تتميز بعد تجفيفها بالقوة والصلابة. لحسن تاوشيخت: **عمران سجلماسة دراسة تاريخية وأثرية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج1، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 2008، ص323. أنظر عن الطابية، أيضاً، وعن طريقة ترصيصها، ابن خلدون، **المقدمة**، بيروت، ط2، ص407–408.

[2] – مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م. س، ص229.

على نمط تصميم المساجد المغربية خلال العصر الوسيط المنتشر في مجموع الشمال المغربي، وهو التصميم المعروف في المساجد المغربية الأولى[1]، ويتقدم بيت الصلاة صحن مكشوف فسيح ينقسم إلى قسمين، الأسفل وهو الذي يُدخل منه إلى بيت الصلاة، والعلوي، ويقع إلى الغرب من الأول، يتوسطه بئر أُعيد ترميم فوهته مؤخراً.

أما الصومعة، فتقع في الزاوية الجنوبية للمستوى الأول من الصحن. بالإضافة إلى أن هناك العديد من البقايا التي أشارت إليها المصادر بقولها: وبترغة العديد من الآثار، منها حوض مسجد عقبة، ومعروف بهذا الاسم إلى يومنا هذا، وهذا يدل على أن المدن التي تعرضت للفتح الإسلامي الأول في عهد عقبة بن نافع الفهري (50هـ)، وأنه استقر بها.

وبترغة كذلك جامع عتيق، وحجرة لإله إلا الله التي تذكر أسطورة السكان أنها كانت مدخلاً لغار تحت البحر يصل إلى شاطئ الأندلس. وبمدينة ترغة أيضاً روضة (ضريح) المديني شيخ عبد السلام بن مشيش. ولترغة مرسى، كان من قواعد الجهاد في العصر الحديث، وإليه التجأ العديد من مسلمي الأندلس، وكذلك الزاوية التي نزل بها مهاجرة الأندلس[2].

ـ **تطوان:** سبق القول أن مدينة تيطاوان هي من الحصون الإدريسية المهمة في مواجهة المد الأندلسي، لذلك فأنه من الطبيعي أن تكون محصنة بالأسوار والأبراج والأبواب المتينة والقوية التحصين، وتحصين قصبة المدينة، فضلاً عن موضعها ذي التحصين الطبيعي، إذ أنشئت فوق تل من الصخر الجيري ينفصل عن السفح الجنوبي لجبل

---

[1] – وصف البكري مسجد عدوة الأندلسيين بفاس، قائلاً: "وبها جامع حسن فيه ستة بلاطات طولها من الشرق إلى الغرب وأعمدة أرجل كذان له صحن فسيح فيه أصول جوز وشجر وساقية غزيرة الماء". **المُغرب**، م. س، ص116.

[2] – عبد العزيز توري، **المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة**، م. س، ص158–159.

درسة الشاهق الارتفاع، وتشرف الجبال العالية على المدينة من الشمال والجنوب، وفي الوقت ذاته تشرف هي على واد مرتيل الأدنى[1].

وهناك إشارة وردت عند البكري تقول إن المدينة على العهد القديم كان بها قصبة للأول ومنار[2]. ويظهر أن الحي الذي يسمى بالعيون هو الموضع الأصلي للمدينة الإدريسية، والذي يقع أعلى الزقاق الرابط بين باب النوادر والحدادين، وكان هذا الحي يتصل من جهة الشرق بحومة النيارين أو سوق النيارين، ويمتد من ناحية الغرب إلى المساحة الأرضية المرتبطة بسور باب النوادر، وهذا الحي هو الذي تنساب منه العيون من سفح جبل درسة أسفل القصبة القديمة وهو ما أشار إليه البكري وأكده الرهوني[3]. والواقع أن المصادر لم تسعفنا للتعرف على وصف المدينة خلال الفترة المدروسة، فكل ما هنالك من إشارات عن المدينة ترجع إلى عهد تأسيسها مجدداً في مطلع العصر الحديث، نهاية القرن التاسع الهجري/ 15م على يد المنظري، لكن المدينة كانت موجودة قبل ذلك التاريخ بقرون[4].

2- مدن ساحل المضيق:

أما فيما يتعلق بالمدن الواقعة في نطاق ساحل المضيق والتي تبدأ بمدينة سبتة شرقاً وتمر عبر مدينة قصر مصمودة، ثم مدينة طنجة التي تمثل نهاية المضيق عند نقطة التقائه بالمحيط الأطلسي، فسوف نركز عليها بالتحليل في التناولات الآتية:

- سبتة: قبل البدء بتقديم وصف البكري لمدينة سبتة خلال الفترة المدروسة، ينبغي الإشارة إلى أن المدينة كانت محاطة بسور يرجع إلى

---

1 – محمد داود، **مختصر تاريخ تطوان**، ج1، المطبعة المهدية بتطوان، 1955، ص14.

2– البكري، **المُغرب**، م.س، ص107.

3– نقلاً عن: أحمد قدور، **تيطاوين المدينة والمجتمع في العصر الوسيط والحديث**، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية– تطوان، ج2، 2003–2004، ص255.

4 – هناك أفراك وقصبة المرينيين إلى الشرق من المدينة. مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م.س، ص222–223.

الفترة القديمة، وبعد الفتح الإسلامي ظلت المدينة محتفظة بتحصيناتها الموروثة من العهد السابق، حتى قيام ثورة ميسرة المطغري (123هـ/740م) وكان من أثارها السلبية تعرضها لتخريب لا نعرف مستواه شمل تحصيناتها وأسوارها، وظلت المدينة مهجورة لفترة من الزمن حتى ظهور الأسرة المجكسية[1] التي أعادت لها الحياة، غير أن أهم تحصيناتها عادت إليها على أيدي أمويي الأندلس، خلال عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ)، واستكملت تحصينات سبتة خلال حكم المنصور بن أبي عامر، وإن كان هناك بعض الأجزاء لم تبن إلا في فترة متأخرة. وهنا نورد نص البكري الذي يصف فيه سبتة بقوله: "سبتة مدينة قديمة سكنها الأول وبها آثارهم، بقايا كنائس وحمامات، وماؤه مجلوب من نهر أويات من ضفة البحر القبلي في فناء الكنيسة التي هي اليوم الجامع"[2].

هذا الوصف يتعلق بالمدينة القديمة، حيث يشير فيه البكري إلى البعض من آثار سبتة على العهد البيزنطي كما توحي إليه ذكر بقايا الكنائس. أما الإشارة إلى الحمامات فالمعروف أنها من مخلفات الرومان، ومع ذلك هذا لا يتعارض مع استمرار استخدامها في العصور التالية، والبقايا تؤكد هذا الطرح. ويتداخل هذا الوصف مع الفترة الإسلامية بذكره للمسجد الذي احتل موضع الكنيسة وهو الشيء الذي كان متبعاً في الكثير من البلدان المفتوحة.

ثم يصف البكري المدينة في العصر الوسيط، وعلى الأخص في عهد السيطرة الأموية على سبتة اعتباراً من سنة 319هـ، وهي سنة احتلال سبتة، وأبرز معلم أثري كان واضحاً فيها هو سورها الذي بناه

1- يحدثنا البكري عن بداية تداول المصطلح، وأصله يرجع إلى مجكس الغماري حاكم سبتة وتطوان خلال الربع الأول من القرن الثاني الهجري. ظهر بعد سنة 123هـ إثر تخريب خوارج طنجة لسبتة. وتمكن من الاستقرار فيها، وبها استمرت إمارة بني عاصم المجكسيين، وظلت بها إلى سنة 319هـ حينما آل حكم المدينة إلى المروانيين الأندلسيين. حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بمليلة**، ج1، م.س، ص87.

2- البكري، **المُغرب**، م. س، ص102.

الناصر من الأحجار، وذلك ليس خافياً بالنسبة لمدينة بأهمية سبتة، وإستراتيجية موقعها، وما تشكله من خطورة على الأندلس، وبالتالي كان هذا السور يمثل أحدث الاستحكامات الحربية، ويمكن لنا تتبع تفاصيل التخطيط الخارجي لمدينة سبتة، ثم الأسوار المزدوجة التي تتخللها الأبراج والأبواب التي تفتح عادة من الأبراج، ويكتمل مشهد التخطيط الخارجي بوجود بستان أمام القنطرة، أي أمام مدخل المدينة الرئيسي، ثم تنتشر الآبار، والمقابر خارج أسوار المدينة[1]. وسنقوم باستعراض هذا الوصف على نحو ما يلي:

أولاً- الأسوار: كانت الحصانة البحرية دائماً وراء مشكل أمن سبتة من الخطر الخارجي، بسبب موضع المدينة وامتداده الطولي مسافة كيلومترين، مما جعل أراضيها مفتوحة من جهاتها الثلاث تجاه البحر، ولا يمكن للحصانة البحرية الاستناد إلى محيط الأسوار وعلوه وما تضمنه من الدروب والأبراج والأبواب[2].

وبالاستناد إلى رواية البكري فقد تحولت سبتة بعد التحصين الأموي إلى حصن حصين، حيث كانت الأسوار تحيط بها من الشرق إلى الغرب على طول 2500 ذراع[3]، وكان السور الشرقي مجاوراً لسور آخر أصغر منه علواً، إذ كان يكفي لإخفاء قامة رجل، كما كان مدعماً بتسعة أبراج وباب في الوسط، وفي اتجاه الجنوب يمتد هذا السور متسلقاً المرتفعات، ثم ينحدر شرقاً ليمتد على طول الخط الشمالي، وهي الجهة الخطرة المواجهة للبحر الشيء الذي يجعل تعدد الأبراج ضرورة ملحة، وإن كان البكري لم يذكر إلا برجاً واحداً[4].

---

[1]- البكري، **المُغرب**، م. س، ص102.

[2]- حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م، س. ص55-56.

[3]- الذراع يساوي خمسين سنتمتراً (نصف متر).

[4]- زليخة بن رمضان، **قضية أسوار المدن المحتلة**: نموذج سبتة، ضمن أعمال الندوة الوطنية حول أسوار المدن العتيقة، مديرية التراث الثقافي، مطبعة دار المناهل، الرباط، [بدون تاريخ]، ص49.

يحيط بسبتة أسوار من ثلاث جهات رئيسية هي الجنوب والشرق والغرب، وسور جزئي من جهة الشمال المطلة على المضيق.

1- السور الغربي وهو أكبرها وأبرزها، حيث يمتد من ناحية الغرب إلى أخر الجزيرة بعرض خمسة أميال، والمدينة في الجانب الغربي منه، ويليه سور آخر خارجي، ارتفاعه أعلى قليلاً من قامة الإنسان، يدور الخندق حوله.

2- السور القبلي (الجنوبي) مبني على نتوء صخري عبارة عن أجراف عالية.

3- والسور الشرقي كان قد بدأ بناؤه على جبل منيف من قبل الحاجب المنصور بن أبي عامر، صاحب قرطبة، ولكنه لم يكتمل.

4- والسوران الشرقي والجنوبي فيهما تطامن، وكلمة طمن وردت في لسان العرب بمعنيين، الأول: أنحنى، والثاني: انخفض[1]. والانخفاض هو الأكثر منطقية من الانحناء في البناء، لذلك يمكن القول إنهما كانا منخفضين.

ثانياً- الأبراج: كان سور سبتة مدعماً بالأبراج من جهاته الثلاث، أكثرها عدداً تلك التي كانت تتخلل السور الغربي.

1- بلغ عدد أبراج السور الغربي تسعة أبراج، ويفتح باب المدينة بهذا السور في البرج الأوسط.

2- كذلك كانت الأبراج تنتشر على الأسوار الأخرى، وإن لم يشر البكري إلا إلى واحد منها في الشمال.

ثالثاً- الأبواب: تقع أبواب المدينة على محاور الأسوار، وهي عبارة عن فتحات غائرة داخل الأبراج، أو تكتنفها الأبراج، ذُكر منها باب في البرج الأوسط من السور الغربي، وباب آخر مما يلي الجوف يخترق أحد الأبراج، وهو الباب الذي يدخل منه إلى دار الإمارة.

---

[1]– ابن منظور، **لسان العرب**، حرف "ن"، م، س، م 13، ص268.

رابعاً- الخندق والقنطرة: استكمالاً للاستحكامات الحربية، إلى جانب الأسوار والأبراج نجد استحكامات أخرى مكونة من **خندق** يحيط بسور المدينة من الخارج ويعزل السور عن الخارج، يجلب إليه الماء من واد أويات[1] على طول الساحل، ويتصل الخندق بالسور الغربي للسور الخارجي، ويتصف بكونه خندقاً عميقاً وعريضاً. ولا يتم الوصول إلى أبواب المدينة ودخولها إلا عبر قنطرة مصنوعة من الخشب يعبر من خلالها فوق الخندق، وفي الليل أو عندما يحدث هجوم على المدينة يتم رفع هذه القنطرة، وبذلك لا يمكن اقتحام المدينة. وهذا ما يفسر لنا سر استعصاء سبتة على الحملات الفاطمية، وغيرها. فضلاً عن القنطرة التي يجلب بواسطتها الماء للمدينة، وهي التي يشير البكري إلى نسبتها لأوليان، وقد تعرضت للهدم في نهاية القرن الثالث الهجري/9م على إثر الصراع الأموي العُبيدي، من جهة، وبني محمد الأدارسة، من جهة أخرى[2].

خامساً- البستان والآبار والمقابر وخزانات المياه:

1- يقع **البستان** مباشرة أمام القنطرة، أي على محور المدخل الرئيسي للمدينة، الشيء الذي يعطي لمسات جمالية على المدينة ومحيطها، وهذا تقليد درجت عليه المدن الأندلسية خلال تلك الفترة.

2- توفرت سبتة على **آبار خارج السور**، ذكرت هكذا "آبار" ولم يحدد عددها، المهم أنها أكثر من واحدة.

3- كان لسبتة ثلاث مقابر، الأولى وهي المقبرة الرئيسية، أيضاً، كانت تقع خارج الأسوار، والثانية في شمال المدينة على شاطئ المضيق " بحر الرملة"، وثالثة في شرق المدينة في الجبل.

---

[1]- هو نهر الخلط الذي يصب على بعد أربعة كيلومترات جنوب سبتة. عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، ج1، الطبعة الأولى، 1992، ص295.

[2]- البكري، **المُغرب**، م، س، ص 103- 104.

4- نظراً لكون الماء بعيداً عن المدينة فمن الضروري أن يتوفر الموقع على خزانات المياه لحفظ كميات مهمة للاستعمال اليومي.

التخطيط الداخلي:

استعرضناً في التناولة السابقة التخطيط الخارجي، وسوف نقوم بجولة للتعرف على معالم المدينة الوسيطية من الداخل، حيث وردت إشارات تتعلق ببعض المعالم والمرافق العمرانية لسبتة آنذاك، هي مساحة المدينة من الداخل، والأرباض، وأسماء ومواضع المباني فيها، وأهمها: المسجد ودار الإمارة والحمام.

1- المسجد: بني مسجد المدينة في الجهة الشمالية على شاطئ المضيق، فيما عُرف " ببحر بسول" على أنقاض كنيسة قديمة، ويتكون المسجد من خمس بلاطات - والبلاطة هي المساحة المحصورة بين صفي الأعمدة المتعامدة مع جدار القبلة- وللمسجد صحن مكشوف، تتوسطه جُبان [حوضان للوضوء]، يجلب إليهما المياه من واد الخلط المعروف باسم أويات.

2- **دار الإمارة:**

يقع في جوفي المدينة، وهذا ما يميز تخطيط المدينة المغربية عن مثيلاتها في المشرق خلال الفترة الوسيطية، إذ أن المسجد عادة ما يكون في وسط المدينة، بل هو محورها الرئيسي في المدينة الإسلامية، بينما نجده هنا يحتل موضعاً في شمال المدينة.

3 -الحمامات: توفرت سبتة على عدد من الحمامات التي يجلب إليها الماء على الظهر من البحر، وهناك حمام يرجع إلى الفترة القديمة، يعرف بحمام خالد، كما يوجد ثلاثة حمامات إلى الشرق من أحد أرباض المدينة، وتتخلل هذه الحمامات بساتين الكروم.

1- **أرباض المدينة:** توفرت المدينة على عدد من الأرباض، والمعروف أن الربض هو الحي الذي يقام خارج أسوار المدن، فعندما

ضاقت سبتة بالسكان تم إنشاء الربضين خارج الأسوار من جهتي الشرق والغرب[1]، احدها يطل على جبل منيف الذي سبقت الإشارة إلى أن المنصور بن أبي عامر بدأ بناء سور عليه ولم يتمه.

-مساحة المدينة من الداخل: وذرع المدينة من السور الغربي إلى الشرقي ألفان وخمسمائة ذراع، وذرع ما يأخذه ثقاف [بداية] الربض المتصل بالسور الغربي سبعة ألاف وأربع مائة ذراع[2].

2- ولعل أثرياء سبتة قد شيدوا على غرار أغنياء قرطبة بالقرن الرابع الهجري/10م **مساكن خاصة** فخمة بالمنحدرات التي تشرف على المدينة وبحر المضيق، ومن الممكن أن يوجد على مقربة من تلك المساكن الخصوصية حي متواضع لسكنى الجبليين الذين جلبهم ازدهار المدينة.

3- كانت **مادة البناء** بمدينة سبتة من نوع واحد هو **الأحجار** رغبة في المزيد من التحصين[3].

ـ مدينة قصر مصمودة: يعد تصميم مدينة قصر مصمودة منفرداً، إذ ينتمي إلى مجموعة المدن المدورة، الشيء الذي يجعل تحصينات قصر مصمودة شبيهة بشكل بغداد العباسية، حسب أحد الباحثين[4]. يشغل محيط مباني القصر زاوية انحراف مجرى واد القصر نحو الشمال إلى اقترابه من المصب. وضمن هذا الفراغ تمتد المباني نحو الشرق. وبذلك يبدو الشكل العام مستقراً على أرضية متصلة بشاطئ البحر في وادي أنجرة، أو وادي القصر، ويشرف على المدينة تلان، الغربي منهما يدعى بجبل غمارة، والشرقي بكدية الرمان، ويفصل بينهما حقل الدوالي والأشجار المثمرة. وكان شكل القصر مربعاً، يبرز فيه الحصن بالزاوية الشمالية

1- عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، م، س، ص295.

2 – البكري، **المُغرب**، م. س، ص102–104.

3– القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، م. س، ص201.

4– أحمد صالح الطاهري، **القصر الصغير**، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2004، ج19، ص6641–6643.

الغربية، بينما تتجمع المباني الهامة في الزاوية الجنوبية الغربية، ويظهر البرج الرئيسي بالزاوية الجنوبية الشرقية، أما الزاوية الشمالية الشرقية فالامتداد بها عادي[1].

وقد كشفت المسوحات والتنقيبات الأثرية التي أجراها فريق علمي (مغربي/ أمريكي) خلال سني 1975، 1980[2]، عن العديد من المعالم، منها **السور** الذي بنيت جدرانه من الحجر الكبير والحجر الدبش المردوم، والآجر الطيني، بارتفاع يصل إلى ثمانية أمتار، وبسمك يبلغ (1.80) م. هذا السور يحف به مجموعة من **الأبراج** النصف دائرية التخطيط، والمفتوحة إلى الداخل، والتي تتكون من مستويين أو طابقين. فضلاً عن الباب الرئيسي للمدينة وهو عبارة عن مدخل منكسر قوي التحصين (أنظر المسقط الأفقي للمدخل)[3].

وتفتح من الأسوار ثلاثة أبواب رئيسية هي:

1- **باب البحر:** وهو شمالي، ويعد أهم الأبواب نظراً للدور الذي تلعبه المدينة في المجال البحري، ينفتح عند نهاية مسلك محمي بامتداد السور، وهو بعيد عن الزاوية الشمالية الغربية بنحو 12م.

2- **باب سبتة:** وهو شرقي، يحمي مدخله برج، وهو المنفذ الوحيد على البادية، تجاوره هناك البساتين وحقول الدوالي.

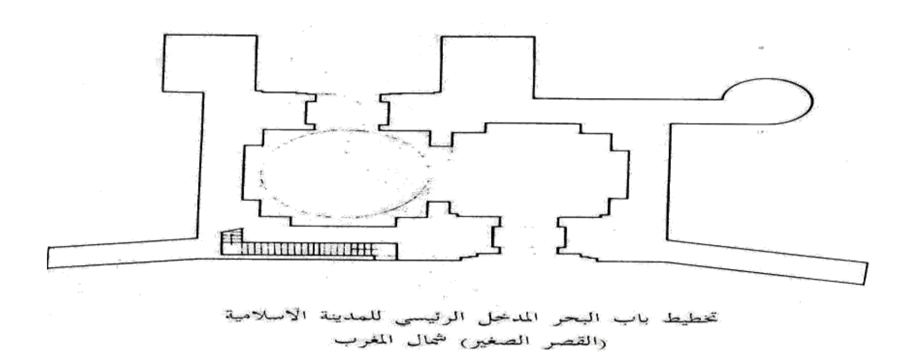
3- **باب فاس:** مدخله في الزاوية الجنوبية الغربية المطلة على منعطف مجرى واد القصر[4].

1- حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري**، م، س، ص، ص209-211.

2- شهد موقع المدينة الوسيطية حفريات دشنت بين سني 1974، 1977. أنظر، عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة بالمغرب**، م، س، ص286.

3 نقلا عن عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية بالمغرب**، م،س،ص 287.

4- حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري**، م، س، ص209-211.



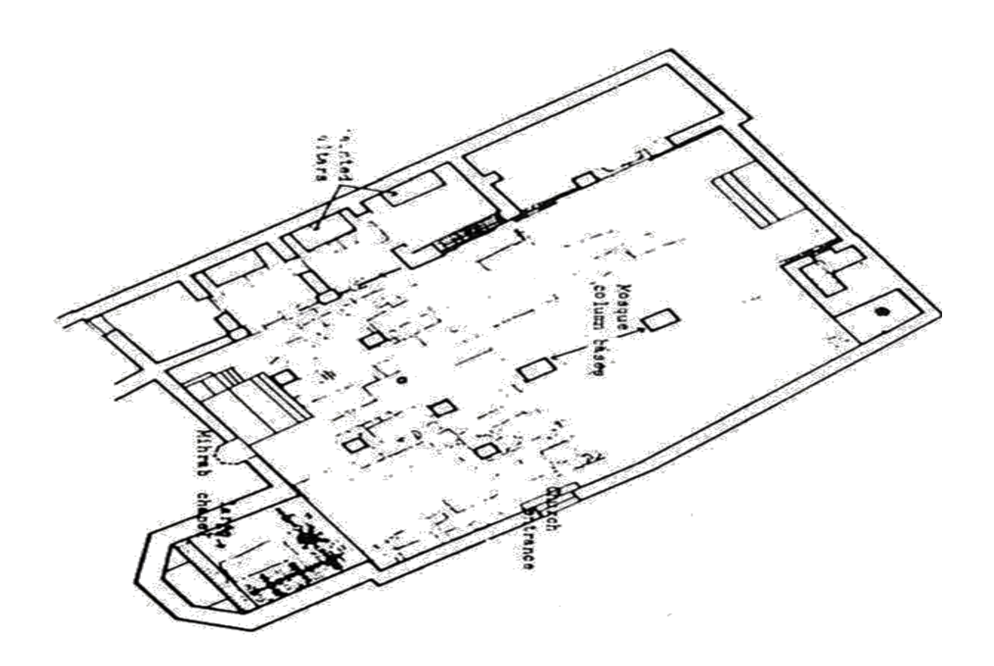
تخطيط باب البحر المدخل الرئيسي للمدينة الاسلامية
(القصر الصغير) شمال المغرب

كما كشفت التنقيبات التي أجريت في الجزء الشمالي الغربي للموقع أن المدينة كانت **تأوي 1200 ساكن،** كما كشفت عن بقايا مسجد وحمام، ربما شكلت مركز المدينة الوسيطية، يمكن وصفهما كما يلي:

1- المسجد: يأخذ شكلاً مستطيلاً طول ضلعه (30) متراً، وعرضه (17) متر تقريباً، يتكون من قاعة للصلاة تحتل الجزء الجنوبي الشرقي للمسجد، وهذه القاعة تنقسم إلى ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، وترتكز على دعامات مستطيلة الشكل مبنية من الآجر المشوي، وتتميز باتساع البلاطة الوسطى (المجاز القاطع). والمحراب يقع على محور الباب الرئيسي للقاعة بالجهة الشمالية الغربية للجامع، ثم صحن مكشوف في الجهة الشمالية، وقاعدة مربعة، ربما أنها كانت أساس الصومعة، ثم رواق مسقف موازياً للجدار الجنوبي الغربي للجامع. والشكل التالي يوضح تخطيط المسجد الذي احتلت الكنيسة موقعه[1].

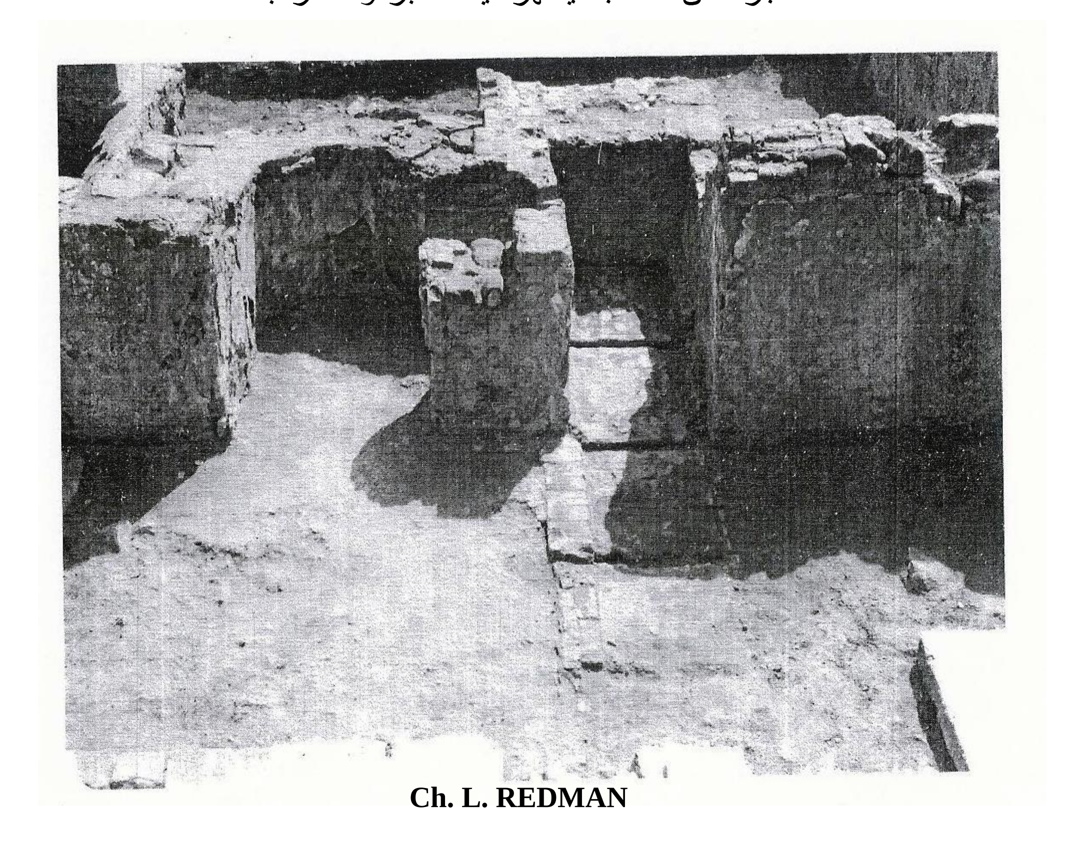
---

[1] – نقلا عن عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية بالمغرب**، م،س،ص 289.



مخطط للكنيسة البرتغالية ويظهر مخطط المسجد الأصلي لقصر مصمودة

جزء من المسجد يظهر فيه المنبر والمحراب



Ch. L. REDMAN

2 **- الحمام**: توجد بقاياه إلى الجنوب الشرقي للجامع، وهو عبارة عن مبنى مستطيل الشكل، ينقسم – وفق التصميم التقليدي للحمام الموري- إلى أربع قاعات متتالية، تفضي إليها بوابات ملتوية، الأولى خصصت لخلع الملابس، وثلاث قاعات مستطيلة على التوالي: البراني للماء البارد، والوسطى الدافئة، والداخلية الساخنة[1]. (أنظر صورة بقايا للحمام)[2].



تفصيل من مباني الحمام حيث الأرضيات المبلطة بالآجر

2- المساكن: من خلال الكشوف الأثرية يمكن لنا وصف الشكل العام للمسكن في المدينة الوسيطية على النحو التالي: يأخذ المسكن شكلاً مستطيلاً مبني من الحجر، يقع المدخل على أحد الجدران الطويلة، ومقسم من الداخل إلى عدد من الحجرات بواسطة جدران أقل متانة من الجدران الخارجية، ويتم الولوج إلى هذه الحجرات عبر

[1]– أحمد صالح الطاهري، **القصر الصغير**، معلمة المغرب، ج19، م س، ص6641–6643.
[2] - نقلا عن عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية بالمغرب**، م،س،ص 288.

ردهات أو ممرات. ومن المحتمل أنه كان يتضمن ممرات جانبية مكشوفة، (أنظر الصورة المرفقة)[1].



مسكن اسلامي كشفت عنه حفائر القصر الصغير





Ch. L. REDMAN

والجدير بالذكر أن هناك حفريات أجريت في موقع مدينة القصر مؤخراً لم يتم الكشف عن نتائجها حتى إعداد هذا البحث، وقد أجريت هذه التنقيبات في ما يسمى اليوم بـ(ظهر أسقفان)، يمكن أن تزيح الكثير من الغموض عن المدينة الوسيطية في الأفق المنظور.

---

[1] – نقلا عن عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية بالمغرب**، م،س،ص 288.

ـ طنجـة: طنجـة الحديثـة مدينـة مسـورة، بنيـت فـوق مرتفـع غربـي مشرف على الخليج، مقابل لموقع المدينة القديمة التـي غمرتها الرمـال من جهة الشرق، وهذه المدينـة المعروفـة فـي التواريخ بطنجـة الباليـة هي المدينة المستهدفة في دراستنا. وسنحاول هنا أن نقصر الوصف على طنجة البالية خلال الفترة المدروسة، ذلك لأنها شهدت مراحل مختلفة عبر العصور، والنص التالي يشير إلى طنجة الإدريسية بما يلي:"... وقيل إن ملوك المغرب كانت دار مملكتهم طنجة... وقد غلب على مدينة طنجة القديمة الرمل، والعمارة اليوم فوقها، وهناك جامع حسن، وسوق عامرة... ". وكانت طنجة مدينة حسنة لها أسواق وصناع، وبها إنشاء المراكب، وهي على أرض متصلة بالبر فيها مزارع وغلات.[1]. ثم يأتي بعد البكري، بقرن من الزمان، جغرافي أخر هو الشريف الإدريسي، ليؤكد على أهمية طنجة البالية، ملحاً على الجانب العمراني والاقتصادي، ودورها التجاري والصناعي، إذ يقول: "... وهي مدينة حسنة لها أسواق وصناع وفعله، وبها إنشاء المراكب، وفيها إقلاع وحط..."[2].

ونستخلص من النصين السابقين الحقائق الآتية:

-إن المدينة الوسيطية أنشئت فوق تل هو موضع المدينة القديمة.

-إن مدينة طنجة ذاتها، كانت دار ملوك المغرب" وهي طنجة البيضاء القديمة المذكورة في التواريخ وفيها آثار للأول كثيرة قصور وأقباء غيران وحمام وماء مجلوب في قناء ورخام كثير وصخر منجور، وتحتفر خرائبها فيوجد فيها أصناف الجواهر في قبور أولية، وغيرها من المواضع"[3]. ولا زالت بعض أثار طنجة البالية ظاهرة إلى اليوم بين مصبي واد مكوكا أو واد الخليج، كما سماه البكري، غرباً، وواد الملالح شرقاً، موضعها في الزاوية الجنوبية الشرقية من الخليج، كانت أثارها

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص104، 105، 108.
[2] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص529.
[3] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص 108.

بينـة، وأبنيتهـا بالحجـارة قائمـة علـى وجـه البحـر خـلال القـرن الرابـع الهجري.

- إنـه كـان يقـام فـي حـوز طنجـة أسـواق، ذكـر منهـا سـوقا الثلاثـاء والجمعة.

- وفي القرن الخامس الهجري كانت المدينة البالية خالية، وقد غلب عليها زحف الرمال. كما كانت مساحة المدينة صغيرة، بعيدة عن الساحل بأزيد من 100م، وهي محاطة بأسوار مبنية من الحجارة، ويبدو أن الأسوار كانت عالية، وبذلك كان السكان أمنين داخلها. ولا وجود لدور ملتصقة بالسور الثاني، مما سيسهل التسلق دون تفطن الساكنين. ويقع الحصن داخل المدينة من جهة سور البحر، وكان محاطاً بخندق[1].

- كانـت تقـام فـي طنجـة صـناعة السـفن والمراكـب. والعديـد مـن الصناعات الأخرى، كالحدادة والنجارة والنسيج.

- هذه الصناعات تتطلب اوراشاً ومعامل ومخازن، ومباني سكنية للعاملين، وبالتالي أسواق لعرض وتصريف المنتجات.

-إن موقعها كنقطة التقاء بين المتوسط والمحيط عبر المضيق خلق منها مدينة اقتصادية مهمة.

- فضلاً عن الظهير الفلاحي الذي تتزود منه باحتياجاتها من الحبوب. فهي على أرض متصلة بالبر، فيها مزارع وغلات[2].

- تـوفرت المدينـة علـى **مسـجد،** وإن كانـت المصـادر لا تحـدد لنـا موقعه داخل المدينة أو وصفه ومكوناته وسعته.

- من بقايا الآثار القديمة تذكر المصادر **القصور** التي كانت تتميز بها طنجة القديمة، وتميز مبانيها بالأقبية، وهي نوع من التغطيات للسقوف، تبنى على هيئة نصف دائرية تكون إما أفقية أو عمودية على الجدران، وهي ظاهرة معمارية قديمة.

1- حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بمليلة**، م.س، ص263-264.

2- الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص529.

ـ توفر المدينة على **الحمامات،** وإن كانت النصوص المصدرية لا تذكر لنا سوى واحد منها فقط، مع احتمال وجود غيره.

ـ وباعتبار أن طنجة تقع على ساحل المضيق، فإن المياه الصالحة للاستخدام غير موجودة في موضعها، لذلك جلبت إليها المياه من خارجها عبر قناة رئيسية، والشيء اللافت للنظر أن وجود الرخام والصخر المنجور، دليل على ثراء المدينة كونها اقتصادية. ومما يزيدنا يقيناً هو الإشارة إلى أن القبور القديمة للمدينة، ومواضع أخرى، كانت تحتوي على الجواهر.

طنجة الحديثة والحفريات الأثرية: سبق القول إن طنجة الحديثة كانت ضمن نصيب القاسم بن إدريس واحتلت مكانة طنجة البالية الاقتصادية والسياسية. فهل من السهل اكتشاف معمار طنجة الخاص بالعصر الوسيط؟ من الصعب التوصل إلى نتيجة واضحة ومرضية لتعاقب فترات التعمير المتوالية من العصر القديم إلى الوسيط الذي ندرسه، ونعتقد أن القاسم بن إدريس حينما ضمها إلى نفوذه كانت ما تزال محتفظة برسومها القديمة. وكيف ما كان الأمر فإننا نبحث عن الإطار المعماري الذي احتفظت به إلى الفترة الإسلامية. وبحثاً عن هذا الإطار واجهتنا صعوبة عدم توفر الحفريات التي من شأنها إظهار معالم القرون التي نشتغل فيها. ولكن هذا لا يمنع من تقديم النتائج الآركيولوجية العامة المتوفرة لاعتقادنا أن جزءاً من تلك النتائج تدخل في معمار الوسيطية.

والواقع أن ما هو موجود عبارة عن استبارات محدودة أجراها المستشرق بونسك في السوق الصغير استخرج منها عددا من النقائش بلغت خمسين تتعلق بالفترة الرومانية والبيزنطية، بالإضافة إلى مجموعة من المسكوكات والقناديل وكتابات وتماثيل أشهرها تمثال المرأة الملتحفة، وجميع هذه المواد معروضة بمتحف القصبة بطنجة. وفي سنة 1935 اكتشفت مجموعة من المواد الأثرية في ظرف زمني متقارب. كما عثر في موقع بنك المغرب على أسس بناية يبدو أنها ترجع إلى عهد الاحتلال

الروماني، وفي فترة لاحقة عثر على فسيفساء تعرف باسم أورفي (. (Orphee[1]

وعلى ما يبدو، فحتى الأسوار الحالية للمدينة قد تكون استمراراً لأسوار طنجة القديمة. وفي سنة 1958 أجرى مونطالبان استبارات في المنبت البلدي واكتشف بقايا بناية اعتقد أنها حمامات. إلا أن بونسيك وبعد إجراء حوالي 12 استباراً في المنطقة تبين له أن حمامات مونطالبان عبارة عن تحصين عسكري صغير أهمل في وقت ما وتحولت بوابته الرئيسية المدعمة ببرجين إلى حمام. وكان الهدف من هذا التحصين هو حماية المدينة وخليج طنجة والمنطقة الشرقية من القبائل التي تسكن الجبال المجاورة. ويكاد يكون تصميم هذا التحصين مربع الشكل طوله 27م وعرضه 26م، ويبدو أن هذا التحصين معزول ولا وجود لأبنية مهمة مجاورة له، كما تؤكد ذلك الاستبارات[2].

3- مدن الساحل الأطلسي:

في هذه الفقرة سنتعرض للمدن الواقعة في نطاق الساحل الأطلسي سواء منها الملتصقة بالساحل أو القريبة منه، وسنبدأ هنا بمدينة الحُمر القريبة من ساحل الأطلسي إلى الجنوب من مدينة أصيلا، متجاوزين بذلك أصيلا التي أفردنا لها موضوعاً مستقلاً ضمن النماذج.

- الحُمر: يصعب الجزم بالقول إن الحمر كانت مدينة، غير أن الإشارات التي أمدتنا بها مصادر القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وهي المعلومات المتوفرة عنها، تفيد أن الحُمر لم تكن مدينة كبيرة، لكنها كانت جميلة وحصينة، بنيت فوق ربوة على الضفة اليُسرى لواد صغير يحمل اسمها، أو هو واد الريحان، حسب مارمول كربخال، والذي يعد أحد روافد واد لحلو. وكانت الحُمر مدينة مسورة، ترى أسوارها من بعيد، لأن المدينة مرتفعة فوق ربوة ارتفاعها ما بين 139 و 142م، وعند الوقوف

1- مصطفى أعشى، **طنجة**، المعلمة، ج17، م، س، ص 5769.
2- مصطفى أعشى، **طنجة**، المعلمة، ج17، م، س، ص 5770.

على الأسوار يتبين أن الحُمر اكتسبت صفة المدينة ذلك لأن أي تجمع سكاني يرق لمستوى مدينة لابد أن يحاط بسور. كما كانت الحُمر محاطة بحدائق عديدة وكروم، والبادية حولها بهيجة، كلها أراضي جيدة، واقعة في السهل، غنية بالقمح والرعي، وتوجد في الضواحي عدة أشجار مثمرة وبعض الكروم. ويجنى في البادية الكثير من الكتان، نظراً لتوفر المياه التي يغدق بها واديها بغزارة[1].

- تشُمس: وصفت تشومس بالمدينة اللطيفة، والقديمة، والأزلية، والأولية، والجاهلية، وأنه كان عليها سور من البناء. وهو سور صخري كبير من البناء القديم ، يحيط بالحصن الكبير القديم[2]. فالمدينة في الأساس عبارة عن حصن يرجع إلى الفترة القديمة، هذا الحصن عبارة عن ربوة صخرية يعلو فوقها بناء مسور بالصخور الحجرية الكبيرة، وجاء الأدارسة وطوروا هذا الحصن ليكتسب صفة مدينة، ولكن غابت الإشارات الدالة على وصف هذه المدينة.

المعمورة: نتيجة غياب أية إشارات عن وصف مدينة المعمورة في مصادر العصر الوسيط، وبالتحديد على عهد الأدارسة الأمر الذي يجعلنا عاجزين عن تقديم أي شيء يذكر بهذا الخصوص، ومع ذلك يمكننا الاطمئنان إلى أن المعمورة ارتقت إلى مستوى مدينة في فترة الأدارسة، وتبوأت مكانة في عهد المرابطين حيث يبدو أنها كانت من المراسي المهمة في المنطقة[3].

---

[1] – الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م. س، ص311. كربخال، إفريقيا، م. س، ص197. الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بمليلة، م. س، ص355.**

[2] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص80. البكري، المُغرب، م. س، ص114. المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص189. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج2، م. س، ص32.

[3]– أحمد قدور، **المعمورة والبصرة**، م.س، ص37–53.

أطلال مدينة زلول (الدشر الجديد)



محمد بن عزوز حكيم، أصيلا

ثانياً

وصف المدن والحصون والقلاع الداخلية

1- المدن:

لم تكن المدن منحصرة على السواحل فقط فعلى الرغم من وعورة التضاريس كانت المنطقة الداخلية تضم هي بدورها عدداً من المدن والحصون والقلاع تختلف وظائفها وأهداف تأسيسها حسب المواقع التي تحتلها، وهو ما سنطلع عليه في أمكنته المناسبة. ونعطي الأسبقية لاستعراض المدن ثم ما يليها.

- **زلول**: زلول مدينة إدريسية، كانت محصنة من خلال السور والتحصين الطبيعي، كما كانت قاعدة عسكرية للقوات الإدريسية لا تقل أهمية عن قلعة حجر النسر، حيث كان مخزوناً بها كمية كبيرة من العتاد والمؤن، وكانت عامرة بالدور الحصينة. وكان أول عمل يقوم به الجيش الأموي هو هدم سور المدينة1. ولم نعثر على نصوص أخرى تشير إلى وصف المدينة، ويعزى ذلك في نظرنا لكون المدينة القديمة (Zilil) لم تكن معروفة في مصادر العصر الوسيط2، ولم تتطور المدينة الوسيطية على أنقاضها. وعثرنا على صورة لتقدم نموذج من الأبنية أصبحت اليوم أطلالاً غير مشجعة على المضي في الوصف وتقييم درجة مكانتها.

- **ايجاجن:** يصف البكري مدينة اجاجن (أزجن) بالمدينة الجيدة المفيدة، وأنها بنيت على نهر عذب، وصفه بالسوسق، والنهر الكبير، وشبهه بنهر قرطبة (الوادي الكبير)، وأضاف أنها تتوفر على عيون.

وعند زيارتنا للمدينة الإدريسية ايجاجن (أسجن)- ضمن بعثة طلبة الدراسات العليا بوحدة التكوين والبحث في التاريخ المونوغرافي، سنة 2005- وجدنا ذلك النهر لازال جارياً، وهو عبارة عن نبع (عين) غزيرة المياه، دائمة الجريان، تزود المدينة بالمياه العذبة، وتستعمل هذه المياه

---

[1] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص90. ابن عذاري، **البيان**، ج2، م. س، ص246.

2– دمرت المدينة القديمة سنة 40 ق.م، واكتشفت سنة 1986.

أيضاً لري البساتين والمزارع المجاورة للمدينة من خلال توجيه الكميات اللازمة منه بواسطة قنوات تصل بين النبع والضياع الفلاحية.

هذا النبع هو الذي أشارت إليه مصادر الفترة المعاصرة للأدارسة خلال القرنين (4، 5هـ/10، 11م). وتكثر في المدينة خزانات وصهاريج المياه. وتشير مصادر الفترة الإدريسية إلى توفر المدينة على مسجد جامع، وأسواق وحمام[1]، ولا يزال هذا المسجد الجامع قائماً، وقد شاهدناه أثناء الزيارة الميدانية للمدينة، ولا شك أنه قد مر بعدة تجديدات منذ تأسيسه إلى اليوم. ولذلك يمكننا القول إن أزجن من المراكز الحضرية التي توفرت على الشروط الضرورية واللازمة لتأسيس المدن، وأبرزها الموقع المحصن طبيعياً بسفح الجبل الأشهب، والظهير الفلاحي الخصب. وكانت **نتائج الزيارة الميدانية** التي قمنا بها للمدينة قد خرجت بالخلاصة الآتية:

الأسوار: كانت مدينة أزجن محاطة بأسوار محكمة، وربما فقط من الجهات غير النافذة إلى الجبل، وقد شاهدنا جزءاً من السور في المنحدر الغربي للمدينة، مبني بالحجر ومغطى بطبقة من الملاط الجيري، ومرتفع البناء ومتين. "ولهذه المدينة أسوار جيدة حسنة المنظر"[2].

خزانات المياه: وصفت أزجن بأنها جميلة وتكثر فيها صهاريج المياه[3]، هذا الوصف يرتبط بخصوصية المجال، فقد كان لموقع مدينة أزجن وتضاريسها والعوامل المناخية أثر في إكساب الساكنة وعيٌ بطبيعة مدينتهم، وبكيفية الاستفادة القصوى من هذه الظروف الطبيعية، ونعني بذلك، أن الجبل المطل على المدينة كثير العيون المائية، وموضع المدينة على منحدر يهبط تدريجياً نحو السهل المنبسط، وبالتالي فالعيون التي تنبع من الجبل تتجه نحو السهل الفسيح بعد أن تخترق المدينة بشكل أودية.

---

1 – البكري، **المُغرب**، م. س، ص114.

2 – مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م. س، ص193.

3 – الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ص307.

وفضلاً عن ما يحدث أثناء موسم الأمطار من تشكيل مجاري مائية تتدفق مياهها بغزارة، باتجاه السهل أيضاً. هذه الظاهرة استرعت اهتمام السكان وبدأوا يفكروا في ابتكار وسائل للحد من شدة تدفق هذه المياه الغزيرة، حتى لا تتعرض منشأتهم العامة والخاصة للضرر، من ناحية، ولكي يستفيدوا من هذه المياه الغزيرة والعذبة في استعمالاتهم اليومية داخل وخارج المباني السكنية، من ناحية أخرى، فكان عليهم التفكير في اختراع تقنيات لإنشاء الوسائل المناسبة، ومع تراكم الخبرة، اهتدوا إلى وسيلة بناء وتشييد الخزانات الأرضية أو الصهاريج، واستعملوا في ذلك تقنيات تعتمد على الحفر في الصخر وتغطية الأرضيات والجوانب بطبقة من الملاط الذي لا يسمح بنفاذ المياه من خلالها، أو بناء هذه الصهاريج في المنحدرات بشكل صاعد، بالأحجار الكبيرة القوية وخصوصاً الجدران السفلية التي يقع عليها العبء الأكبر في صد تدفق المياه الهابطة من المصادر المختلفة والأماكن المتعددة في الجبل.

ـ سوق (قصر) كتامة: مدينة سوق كتامة هي عند (البكري) قاعدة إدريسية كبيرة شريفة لإدريس بن القاسم بن إبراهيم، والقاعدة بتعبير العصور الوسطى، نعرف- كمتخصصين بهذه الفترة- أنها توازي تعبير عاصمة الإقليم أو الولاية بالمفهوم الحديث والمعاصر. يتعلق وصف البكري هذا بالعهد الإدريسي (3-4هـ/9-10م)، حيث كانت مدينة القصر الكبير مزدهرة، شأنها في ذلك شأن جميع المدن الإدريسية في الشمال الغربي المغربي خلال تلك الفترة. وكان للمدينة سوق عامرة وجامع، وفيها كان ينزل ملوك المغرب أثناء توجههم نحو مدن الشمال، لا سيما طنجة وسبتة وقصر مصمودة .[1]

وشهدت المدن والحصون بشمال المغرب تدهوراً واضحاً بعد ذلك، دليلنا هو ما وصلنا من وصف لهذه المدن في المصادر التالية لعهد الأدارسة بنحو قرنين من الزمن. فنجد أن مدينة القصر تتحول إلى مدينة

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص109–110.

صغيرة، وبها أسواق على قدرها يباع فيها ويشرى، والأرزاق بها كثيرة والرخاء شامل. [1] وفي نفس الفترة تقريباً نجد وصفاً يتضمن أن شيخ كتامة (عبد الكريم)، بنى في موضع كانت فيه آثار قديمة، داراً فسميت قصراً، لعدم وجود القصور بتلك الجهات، ثم أحدث الملك الموحدي يعقوب المنصور بموضعه في هذه المدة فندقين عجيبين، وتمدن هذا الموضع وقصده التجار واستوطنوه[2].

مما سبق، نستنتج أن المدينة ظهرت لأول مرة كسوق بسيط، ثم سوق دائم، وكان من نتيجة نمو هذا السوق تطوره إلى مركز حضري، يختلف في الأساس عن أصول تأسيس المدينة المغربية وتصميمها، يتضح هذا الأمر في تلك المسافة الفاصلة بين موضع السوق والجامع الكبير، إذ أن موضع السوق هنا متمركز في وسط المدينة المسورة، بينما يحتل الجامع موضعاً متطرفاً قريباً من السور[3]. وهذا التصميم يجعل المدينة مختلفة عن النمط السائد في المدن الإسلامية، من جهة، وعن المدن المغربية في تلك الفترة، فالمعلوم هو أن الجامع في التصميم العام للمدن يحتل موضعاً في وسط المدينة ومركزها، بينما نجده هنا يحتل موضعاً متطرفاً قريباً من السور وكان السوق في وسطها[4].

ومنذ بداية القرن (3هـ/9م)، أي بعد توزيع الأمير محمد بن إدريس المغرب إلى أقاليم يبدو أنها ظهرت نهضة عمرانية، أدت إلى تمصير كثير من المواقع، ومنها قصر كتامة الذي أضحى قاعدة إدريسية كبيرة شريفة.

---

[1] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص530.

[2] – المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص189.

[3] – المصطفى البوعناني، **مساهمة في دراسة تاريخ منطقة الغرب**، م. س، ص204.

[4] – راجع المصطفى البوعناني، **القصر الكبير**، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2004، ج19، ص6643.

ـ مدينة الأقلام: بالرغم من جهلنا لموقع الأقلام إلا أننا نستطيع – من خلال المصادر ـ أن نشير إلى أنها تعد ضمن المدن الإدريسية ذات التحصين الطبيعي، ذلك لكونها تقع بين جبال عالية وشعار متصلة، والمدخل إليها من موضع وحيد، فقد كانت المدينة تتوفر على سور.

ومن خلال معرفتنا ببعض أسوار المدن الجبلية الوسيطية في بعض بلدان المشرق الإسلامي ومغربه، فإن هذه الأسوار هي أسوار جزئية، أي أنها كانت تقام في الأماكن ضعيفة التحصين الطبيعي، وأمثلة هذا النوع من الأسوار كثيرة، وترجع إلى العصر القديم، وهنا في الشمال الغربي المغربي، لدينا دليل لازال قائماً في قلعة حجر النسر. كما أن هذا التحصين الطبيعي إلى جانب البناء الإنشائي يقودنا إلى افتراض مؤداه: أن مدينة الأقلام كانت ضمن المدن الدفاعية، حيث أنيط بها دور حربي، خلال الفترة التي شهد فيها شمال المغرب تنافساً سياسياً واقتصادياً بين القوتين الكبيرتين في المنطقة آنذاك، (الفاطميون والأمويون)، ق4هـ/10م، وما ترتب عليه من نتائج وخيمة على المنطقة وحكامها الأدارسة، وهو ما سنتحقق منه في الفقرة المتعلقة بالدور السياسي.

وكان من المفروض تبعاً للمنهج الذي سطرناه البحث عن المستوى المعماري الذي كانت عليه الحصون والقلاع التي مر بنا التعرض لمواقعها وفترات تأسيسها وأدوارها الحربية. ولكننا عاجزون الآن كل العجز عن تلبية طلبات البحث في الجانب المعماري نظراً لغياب النصوص التي توضح لنا الكيفية التي كانت عليها، ونضيف إلى ذلك ما نكرره من عدم استفادتها بالبحث الآركيولوجي، الشيء الذي يؤهلها لأن تكون محل تحري وبحث في المستقبل.

الفصل الثاني
التطور السياسي والاقتصادي

أولاً

الوضع السياسي والعسكري

كل بحث في هذا الجانب يقتضي النظر في التطورات التي تعرضت لها منطقة الشمال الغربي المغربي قبل منطلق الفترة المدروسة، وهذا موضوع فضلنا عدم اقتحامه ليتسنى لنا الإشارة إلى التحولات التي عرفتها ابتداءً من القرن الثالث الهجري إلى بداية الخامس.

وسنبدأ بما شهدته المنطقة من أحداث سياسية وصراعات بين الأدراسة حكام المنطقة، والأمويين حكام قرطبة والفاطميين، الذين كانت تحركهم أطماعهم السياسية والاقتصادية في السيطرة على المنطقة. وقد أثرت تلك الأحداث بشكل مباشر على المدن والحصون بطريقتين إما التشييد والتحصين وإما الهدم والتخريب، وسنوضح ذلك تفصيلاً في الخطوات التالية.

a. المدن:

بما أن الموضوع يتعلق ببيان الخطوط العريضة للتنافس بين الأمويين والعُبيديين، ووقوع أدارسة الشمال الغربي بين التيارين المتصارعين فقد كان من المستحيل لمدن المنطقة أن تسلم من عواقب هذا الصراع. فمع بداية القرن الثالث الهجري/ 9م بدأ شمال المغرب يشهد تطوراً سياسياً جديداً، تمثل بمرحلة مد النفوذ الأندلسي، لخلفاء بني أمية في قرطبة، ابتداءً من عهد الناصر عبد الرحمن الثالث بن محمد (300-350هـ)، تحت ذريعة محاربة المد الشيعي، واستخدمت الخلافة في قرطبة وسائل عديدة لبسط سيطرتها على الثغور الشمالية المغربية، كمليلة، وتيكَساس، وتطوان، وسبتة وطنجة، وأصيلا، وغيرها. ومن تلك الوسائل، محاولات كسب ولاء أصحاب النفوذ من حكام إقليمين وقادة اجتماعيين. ففي الوقت الذي كانت الخلافة الفاطمية في المهدية قد تمكنت من بسط سيطرتها على بعض المناطق المغربية استناداً إلى حليفها موسى

بن أبي العافية. وبعد التقلص المشهود للنفوذ الفاطمي بالمغرب غير ابن أبي العافية ولاءه للشيعة ليعلن ولاءه للناصر.

وفي ظل هذا التطور السياسي كان الأدارسة في عهدهم الثاني في الريف- بعد أن أخرجهم موسى بن أبي العافية من عاصمتهم التاريخية فاس، حينما كان حليفاً للشيعة العبيديين (الفاطميون)- قد ضعفت شوكتهم، وزادت شوكة عدوهم المكناسي قوة، وتجددت بتحالفه الجديد، بالإضافة إلى تزايد قوة ونفوذ ابن خزر زعيم زناتة المتحالف مع الناصر ضد العبيديين، بعد انحسار المد العُبيدي غرباً. وفي هذه الأثناء كان الأدارسة، من بني محمد وبني عمر، يحاولون جاهدين مهادنة الناصر الأموي، غير أنه كان لحلفائه دوراً في تغذية الصراع وإيغار صدر الناصر ضد الأدارسة، من خلال التقارير التي كانوا يتسابقون في إرسالها إلى قرطبة، والمتضمنة بصورة رئيسية مراقبة نشاط الأمراء الأدارسة اليومي، ومدى رغبتهم بالاستقلال عن قرطبة، أو ولاءهم للعبيديين في المهدية، وفي كلا الحالتين كانت تلك التقارير تحث الناصر على مداهمة الأدارسة والقضاء على ما تبقى لديهم من نفوذ، ولاقت تلك الدعوات استجابة لدى الناصر نظراً لتطلعه الدائم نحو العدوة المغربية مترقباً الفرصة المناسبة ليخضعها ويلحقها تحت سيادته، أو على الأقل الثغور الشمالية منها ذات الأهمية الإستراتيجية سياسياً واقتصادياً، وهذا الأمر قاومه الأدارسة بمختلف الأساليب وبحسب إمكانياتهم، وقراءتهم للتركيبة السياسية المحيطة بهم، ومجريات الصراع. كان هذا الأسلوب الأول الذي أسهم في حسم مجريات الصراع السياسي ضد الأدارسة ولصالح الخلافة الأموية.

وتمثل العامل الثاني بوجود جاليات أندلسية في مدن الثغور المغربية منذ القرون الماضية، حيث كان يجوبون بها تجاراً، ثم استقروا مع عائلاتهم بها تدريجياً، وتحت ذريعة محاربة المذهب الشيعي، وهو الشعار الذي رفعه حكام قرطبة، وظلت تلك الجاليات الأندلسية وفية لأموي قرطبة، الذين هم في نظرهم على الأقل حماة المذهب السني في

بلاد المغرب والأندلس، وقد كان لتلك الجاليات دوراً مهماً أسهم في ترسيخ الاحتلال الأموي لأهم المدن المغربية.

لاستكمال هذه النظرة وفحص عواقبها على مدن الشمال الغربي المغربي في نطاق الحدود المعلن عنها في ما سبق فضلنا توجيه الإشارة إلى العواقب الخاصة لكل مدينة. وهذا في نظرنا أفضل مما لو قدمنا تلك النتائج في صورتها العامة.

ونبدأ الحديث عن التطور السياسي للمدن والحصون بمدينة **بادس** التي تعد من المدن المهمة في منطقة غُمارة، وبداية لمدن الشمال الغربي المغربي من الناحية الشرقية، وشهدت أحداثاً سياسية بدأت بتأسيس الإمارة، ثم دخلت في علاقات مودة ومصاهرة وحسن جوار مع الأدارسة في تمسمان، وكانت على علاقات مع الأمويين في قرطبة مع الاحتفاظ بالاستقلال السياسي، وكانت العلاقة مع الفاطميين عدائية لأسباب مذهبية وسياسية واقتصادية.

وسبق أن ذكرنا أن مدينة **تيكَساس** كانت عاصمة إقليم غُمارة على عهد الأمير الإدريسي عمر بن إدريس في بداية القرن الثالث الهجري/9م. وتمدنت في عهده، ومنها قاوم الأدارسة المد الشيعي والأموي. وفي القرن الرابع الهجري كانت حاضرة لصاحب السلطة الأموية-الأندلسية في شمال المغرب. كما كانت الحامية الأندلسية تتخذ من مدينة تيكَساس مقراً لها لمقاومة ميولات بني محمد الأدارسة نحو العبيديين ومعاداتهم للتدخلات الأموية في الشمال الغربي من قبل الخليفة الناصر، وبهذا الصدد، وجدت قوتان الأولى بقيادة أحمد بن يعلي، والثانية بقيادة حميد بن يصل المكناسي قائدي الناصر في المنطقة، وقد قامت بتنفيذ العديد من المهام الحربية منها إبلاغ بني محمد بضرورة هدم مدينة تطوان، ومنعهم في وقت لاحق من محاولة إعادة بنائها، وسنأتي على ذكر هذين الحدثين في تناولنا لموضوع هدم تيطوان في الفقرة الموالية[1].

---

[1] – ابن عذاري، **البيان**، ج1، م. س، ص215–216.

وبدأ الظهور السياسي **لمدينة تطوان**، في العصور الوسطى خلال العهد الإدريسي، وتحديداً من بداية القرن الثالث الهجري/9م، إذ أصبحت ضمن ولاية القاسم بن إدريس، عندما وزع أمير فاس (محمد بن إدريس) المغرب إلى ولايات وأقام عليها أخوته القادرين عمالاً له عليها. ثم تداول حكمها الأدارسة من بني محمد، وإلى جوارهم شرقاً، ولاية عمر بن إدريس، ومركزها تيكَساس، ثم تداول حكمها الأدارسة من بني عمر.

وفيما يتصل بمدينة تطوان الإدريسية في هذا الإطار من التطور السياسي، والذي برز بوجه خاص عندما قرر الناصر ضرورة قيام الأدارسة من بني محمد بهدم تطوان، سنة 338هـ، انتقاماً منهم، لانتفاضاتهم المتكررة عليه، ابتداءً من سنة (332هـ/949م)، ويحددها البكري بسنة 341هـ[1]. **فمنهم بنو محمد؟** هم أسرة إدريسية تنسب إلى محمد بن القاسم بن إدريس الثاني التي حكمت منطقة شمال المغرب بعد سقوط فاس بيد بني العافية اعتباراً من 315هـ، وكان بنو عمومتهم يعرفوا ببني عمر، وهي أسرة إدريسية تنسب إلى عمر بن إدريس، حكام غمارة. وقد برز دور الأسرتين كثيراً في عهد السيطرة الأموية على الثغور المغربية، وعلى الأخص من بعد سقوط مدينة سبتة سنة 319هـ.

ولتنفيذ قراره هذا أمر الناصر قائديه المرابطين في مدينة تيكَساس: أحمد بن يعلى وحميد بن يصل المكناسي بالتوجه إلى بني محمد، فقصدا بمن أنضم إليهما من الجيش إلى الخضراء، حينها تنبه بنو محمد لخطورة الوضع فأرسلوا على الفور وفداً إلى قرطبة يذكر الناصر بطاعتهم إليه وانقيادهم لأمره في هدم مدينة تطاون التي أنكر عليهم بنائها. وذكر بعضهم أنه في عام 343هـ، أراد أحد الأدارسة تجديد بناء تطوان الخربة، فأرسل الناصر الأموي لعامليه من سبتة وتيكَساس أن يمنعاه من ذلك[2]، فاعتقد الناصر أن قرار الأدارسة بإعادة بناء تطوان سيعزز من مكانتهم

---

[1]- البكري، **المُغرب**، م. س، ص130-131.

[2] - ابن عذاري، **البيان**، ج1، م. س، ص215-216.

وقدرتهم السياسية والاقتصادية والدفاعية، خاصة إذا ما عرفنا أن تطوان مجاورة لقواعد الناصر في كل من سبتة وتيكَساس، ولكي يمنعهم الناصر من بناء المدينة، لابد أن يجد مبرراً مقبولاً غير مبررات الهيمنة والسطو على الأراضي والحواضر الإدريسية، فاهتدى إلى استخدام ورقة الجاليات الأندلسية القاطنة بمدن الثغور المغربية، باعتبار أنهم من رعاياه ولابد أن يحافظ على مصالحهم، فأعلن أن رفضه لقرار الأدارسة، من بني محمد، المتضمن إعادة بناء تطوان، يرجع إلى تضرر سكان سبتة المجاورة (من الجالية الأندلسية) من أن تطوان ستنافسهم تجارياً وتقضي على أسواقهم، الشيء الذي سيؤدي إلى خسارتهم اقتصادياً، وأن الجاليات بسبتة قد عرفت بقرار الأدارسة مسبقاً، فتقدموا بشكواهم إلى الناصر.

وعلى عهد الخليفة الأموي الثاني، الحكم المستنصر بالله بن الناصر، ظهرت تطوان على مسرح الأحداث من جديد، بالرغم من اندثارها، سنة (338هـ/949 م). ففي خضم الصراع السياسي والعسكري الإدريسي/الأموي حرص قادة الجيوش الأندلسية أن تبقى مدينة تطوان مندثرة. ففي يوم السبت، 19 شوال، سنة 361هـ، وصل جيش قرطبة، بقيادة الوزير محمد بن قاسم بن طملس، وجيش صاحب الشرطة قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس، بالأسطول إلى مدينة سبتة لحرب الأمير الإدريسي الحسن بن كنون، فتوجهت الجيوش مجتمعة إلى مدينة تطوان في عقب شوال فوجدتها خالية[1].

[1] – ابن حيان، **المقتبس في أخبار بلد الأندلس،** ج5، م. س، ص80–81.

وفيما يتصل **بمدينة سبتة** فقد فتحت من قبل العرب سلماً، وكانت حينذاك لغمارة من المصامدة، حاكمها الأمير يوليان[1] من قبل ملك القوط صاحب الجزيرة الإيبيرية[2]. ولما زحف إليه موسى بن نصير وقائده طارق بن زياد، وتبادلوا الهدايا، فأذعن يوليان لأداء الجزية، وقدم ابنه وأبناء قومه لموسى رهائن، وأبقاه أميراً عليها[3].

وبعد أن توفي يوليان، استولى العرب على سبتة بواسطة الصلح مع أهلها، فعمروها، إلى أن كانت ثورة الخوارج الصفرية بزعامة ميسرة المطغري خلال عصر الولاة، حيث تعرضت المدينة للخراب على أيديهم وأتباعهم من بربر غمارة وغيرهم في ظروف غامضة بالنسبة إلينا، فزحف البربر من طنجة على سبتة وأخرجوا العرب منها. بقيت سبتة خالية لمدة نقدرها بما يقارب العقد من الزمن[4]، ونحدده ما بين سنوات 123, 131هـ، وهي الفترة المتعلقة بالثورة البربرية. ونميز هذه الفترة بظهور قبيلة مجكسة الغمارية، حيث كان زعيمها مجكس، على دين المسيحية، يقال إنه بعد أن أعاد بناء سبتة واستقر بها أسلم، ثم صحب أهل العلم، وأعاد الناس إليها، واستمر حاكماً عليها إلى أن توفي.

ثم دخلتها جالية من قلسانة، بين سني (131-136هـ)، حيث كانت الأندلس آنذاك تمر بأزمة جفاف، وكانت مدينة قلسانة أكثر تعرضاً له، فاشتروا فيها أرضاً من البربر وبنوا فيها دوراً، وأصلحوا ما تهدم من سورها (المعروف في القرن 6هـ/12م، باسم الستارة)[5].

1- كان ينتمي لقبيلة غمارة، عين حاكماً لسبتة من قبل الملك القوطي. للمزيد حول يوليان يمكن العودة لـ: لحسن الغرايب، **الأقلية المسيحية في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط من القرن الأول الهجري/7م إلى أواخر القرن السابع الهجري،13م**، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، مكناس، 2007- 2008، ص 178- 179.

2 - يوليان، هو عامل لذريق على سبتة، حيث تأمر على لذريق وساعد موسى بن نصير بفتح الأندلس.

3- ابن عبد الحكم، **فتوح افريقية والأندلس**، م، س، ص 71-73.

4- البكري، **المُغرب**، م. س، ص104. ابن عذاري، **البيان**، ج1، م. س، ص203.

5- البكري، **المُغرب**، م. س، ص104. ابن عذاري، **البيان**، ج1، م. س، ص203.

وتميز الوجود الأندلسيي ببروز الدور التجاري الذي لعبته سبتة، وتنقل التجار منها وإليها، واستقرار عدد من التجار الأندلسيين في المدينة، وغيرها من المدن الساحلية، فلا تكاد تخلو مدينة مغربية من وجودهم. حيث كان البحريون يشكلون قوة بحرية غير نظامية، تنتشر في السواحل الشرقية للأندلس، ولهم فيها مراسي ورباطات ودور صناعة، كما انتشروا في بعض جهات الساحل الشمالي لإفريقية على شكل جاليات متفرقة[1].

كان ذلك قبل مجيء إدريس الأول إلى المغرب، سنة 172هـ، أو ربما كانت الدولة الإدريسية في طور التأسيس، وفي كل الأحوال، كانت قبيلة مجكسة معاصرة لمرحلة دخول إدريس المغرب، وتأسيس الدولة المغربية. ثم بايعت إمارة سبتة، ممثلة بزعيمها المجكسي، مؤسس الدولة المغربية (إدريس الأول).

وارتبطت سبتة بالأدارسة بعلاقة البيعة والجباية، بعد نزول إدريس بوليلي. والسؤال هنا هو متى بدأت المصادر تهتم بمدينة سبتة الإدريسية؟

الواقع أن أول إشارة في النصوص العربية عن مدينة سبتة في عهد الأدارسة ترجع إلى سنة (213هـ/828م)، وذلك في الحديث عن تقسيم مملكة المغرب الذي قام به الأمير محمد بن إدريس، بين أخوانه برأي جدته "كنزة"، أم أبيه إدريس، فجاءت مدينة سبتة ضمن ولاية القاسم بن إدريس، إلى جانب مدينة طنجة وبلاد غمارة[2].

غير أنه مالبثت أن أعلنت حالة الحرب على عيسى وأخيه المتقاعس القاسم صاحب سبتة وطنجة وما إليها. تلك الحرب التي قامت بين الأخوة الأدارسة كان لها ارتباطاً بالأحداث السياسية لمدينة سبتة، مما استدعى منا الخوض في هذا الموضوع، كيف كان ذلك؟.

---

[1] – عبد الواحد ذنون طه، **نصوص مغربية من تاريخ الوراق**، مجلة البحث العلمي، ع 38، السنة23، الرباط، 1988، ص92.

[2] – ابن أبي زرع، **القرطاس**، م. س، ص62. ابن الخطيب، **أعمال الأعلام، ق3**، م. س، ص202. ابن خلدون، **تاريخه**، ج6، م. س، ص216.

عند استعراضنا للمصادر، نجد أن تقسيم الأمير محمد بن إدريس المغرب إلى ولايات، وتوزيعها بين أخوته، وكان استقرار محمد بن إدريس في عاصمة أبيه (فاس)، بمثابة رئيس مجلس الولايات، هو وضع سياسي لم يدم، إذ سرعان ما حدثت تطورات سياسية مفاجئة كادت تعصف بالدولة الإدريسية، حيث نشب خلاف سياسي بين الأمير محمد بفاس، وأخيه عيسى، صاحب سلا وبلاد تامسنا، وكان سبب هذا الخلاف- ربما- رغبة عيسى بالاستقلال عن الدولة المركزية في فاس، ونبذ طاعة أخيه محمد، فكتب الأمير محمد إلى أخيه القاسم صاحب سبتة وطنجة، يأمره بمحاربة أخيهما الأمير المتمرد (عيسى)، للأسباب الآتية: التمرد على المركز، ونبذ طاعة صاحب القرار في توليه الولاية، والرغبة في الاستقلال.

ومهما تكن الأسباب والدوافع التي أدت إلى إعلان الحرب، بين كل من الأمير محمد وأخيه عيسى. فالسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو، لماذا كلف الأمير محمد أخاه القاسم صاحب سبتة تحديداً دون غيره، بتنفيذ قرار الحرب على أخيهما عيسى؟

تقول المصادر إن السبب يرجع إلى كون الإقليم التابع لنفوذ القاسم متاخم لمجال نفوذ أخيه عيسى[1] . ويبدو أن هناك سبب أخر يكمن في اختبار مقدار طاعة القاسم، أو ربما يكون للأمير عمر بن إدريس صاحب غمارة- المحاذية بدورها لأعمال القاسم، وأبرزها مدينة سبتة - دوراً في هذا الاختيار، وربما يكون لعمر دافع في الاستيلاء على بعض مناطق نفوذ القاسم، وخاصة سبتة وطنجة، وما إليها، والتي تعتبر تاريخياً وجغرافياً واستراتيجياً امتداداً طبيعياً لمنطقة غمارة.

وعلى كل حال كانت مدينة سبتة خاضعة للأدارسة بفاس طوال حكم أبناء مجكس الغماري، ونخص منهم عصام، وولده مجبر بن عصام، وكان مجبر هذا عاملاً على سبتة عند انتقال الأدارسة إلى الريف،

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص124.

وتأسيس إمارتهم الثانية بعد سقوط فاس، بزعامة إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس (317–323هـ) سقنا تاريخ ولاية إبراهيم لإثبات المدة الزمنية التي كان بها مجبر بن عصام على رأس مدينة سبتة. ويعد هذا في نظرنا بداية فعلية للنفوذ الإدريسي على سبتة.

وبعد موت مجبر تولى زمام سبتة أخوه الرضي بن عصام المجكسي، وفي خضم الصراع السياسي، المتمثل بالضعف الواضح للأدارسة، والتهديد المباشر للشيعة العبيديين، اتخذ خليفة قرطبة (الناصر) قراره بالتدخل العسكري المباشر في العدوة المغربية للسيطرة على سبتة، بقيادة قائده فرج بن عفير يوم الجمعة في بداية شهر ربيع الأول سنة 319.

نحن لا نعرف مصير الأسرة المجكسية المعاصرة للاحتلال الأندلسي لمدينة سبتة. كل ما في علمنا أن الناصر أقر الرضي بن عصام عليها والياً بعد موت أخيه مجبر[1]. ويمكن أن نستنتج مما أتى بعد ذلك أن الرضي كان مجرد الحاكم المدني إلى جانب الحاكم العسكري الأندلسي فرج بن عُفير 319هـ لمدة بضع سنوات، والذي يهمنا أن بداية الحكم الأندلسي كان بمثابة الإعلان عن انتهاء حكم الأسرة الغمارية المجكسية الوراثي لسبتة ممثلة بشخص الرضي[2].

وهنا نتساءل: ما أهمية إمارة سبتة في تاريخ مدن الشمال الغربي المغربي في العصر الوسيط؟

برز الاهتمام الأندلسي بسبتة مع مطلع القرن الرابع الهجري/10م، هذا الاهتمام كان نابعاً من كونها تحتل موقعاً استراتيجياً بالنسبة للأندلس، فهي تعد بمثابة قاعدة خلفية للأمويين تمدهم بالعدة والعدد لمواصلة

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص104.

[2]– ظلت سبتة في قبضة الأمويين في الوقت الذي كان الصراع بين جناحي زناتة (مغراوة وبني يفرن) في أوجه على حكم المغرب، والذي ساهم الأمويون في الإيقاع بقادة مغراوة الذين انقرض حكمهم بظهور الدولة المرابطية، وكانت سبتة خلال فترة حكم زناتة (مائة سنة) إحدى قواعدهم، وكان على رأسها الحاجب سكوت البرغواطي. أنظر: عبد العزيز بن عبد الله، **سبتة ومليلية**، م، س، ص8.

أعمالهم التوسعية، وتعد الملجأ في حالة الاضطرار، وبسقوطها أصبحت حركة التنقل بالنسبة للأشخاص والأشياء حرة ما بين العدوتين، نظراً لقرب المسافة بين سبتة وبلاد الأندلس[1]. فقد كان لموقع مدينة سبتة تأثير على تطورها، حيث جعل منها مرسى مشهوراً، وأمناً، ترسو به مختلف السفن، فارتبط سكانها بالتجارة عبر البحر وبالصيد البحري، بسبب فقر المنطقة المجاورة للمدينة، وعدم صلاحية ظهيرها للزراعة[2].

عموماً لقد كان سقوط سبتة بيد أمويي قرطبة، نكسة كبيرة لأدارسه الريف، وبداية لسلسلة من الأحداث والمتاعب التي واجهها الأدارسة. وتبين لنا النصوص التاريخية محاولات الأدارسة المتتالية لاستعادة سبتة إلى السيادة المغربية دون جدوى[3].

سبتة والمحاولات الفاطمية: وفي حملة يوسف بن بلكين بن زيري الأخيرة والطويلة على المغرب، وذلك يعني أن تلك الحملة كانت في نهاية الصراع الأندلسي العُبيدي، واستمرت نحو العامين بين سني (371-373هـ) تمكن خلالها من السيطرة على كل المغرب، باستثناء سبتة، حيث أخفقت الحملة عن انتزاع المدينة، نظراً لقوة تحصيناتها حسب ما يؤخذ من قول القائد الفاطمي أثناء الحصار، موقناً أن سقوطها مستحيل، وأن أي حصار ناجح لمدينة سبتة لابد أن يكون حصاراً بحرياً وبرياً شاملين[4]. وفي ما يلي جدول يوضح حكام سبتة من قبل الناصر الأموي، حسب ابن عذاري[5].

---

[1] – نقلاً عن: زاهر بن محمد بن عامر الحجري، **الاباضية في الغرب الإسلامي**، دبلوم دراسات عليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ط1، 2004، ص205، نقلاً عن: عبد العزيز الفيلالي، **العلاقات السياسية**، ص7.

[2] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص103. الإدريسي، **النزهة**، ج3، م. س، ص258. المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص137.

[3] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، [تحقيق كورنيطي وصبح]، 1979، ص255. + تنفيذ أول حملة، م. س، ص256، ص288–290. ص262–263.

[4] – عن حصار سبتة ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، المجلد 3، دار صادر، بيروت، 1965، ص665–666.

5– ابن عذاري، **البيان**، ج1، م. س، ص235.

م	اسم الوالي	تاريخ الولاية/هـ
1	فرج بن عُفير	319
2	أحمد بن عبد الصمد الأغرناطي	_
3	محمد بن حزب الله	323
4	محمد بن مسلمة	326
5	محمد بن مسلمة (ثانية)	إلى سنة 330
6	ابن مقاتل	إلى أن أسره بنو محمد الأدارسة في شوال سنة 332

- سبتة في مطلع القرن الخامس الهجري/11م: ما مصير إمارة سبتة بمجرد انتهاء السيطرة المروانية الأندلسية؟

بالرجوع إلى دراسة هذا الموضوع أوضح لنا عودة النفوذ الإدريسي إلى متابعة السيطرة على المدينة. والأمر الجديد هو ظهور الأسرة الحُمودية بدل بني محمد. والحموديون ينحدرون من بني عمر بن إدريس السابقين إلى بسط نفوذهم على الشمال الغربي لا سيما على المدن الساحلية المتوسطية.

ففي بداية القرن الخامس الهجري/11م، سيطر الحموديون على سبتة انطلاقاً من مالقة حيث كانوا حكامها في عصر الطوائف بالأندلس، ونعلم أن علي وأخاه القاسم أبناء حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس جازا إلى الأندلس ضمن المجموعة الإدريسية التي غربها المستنصر من المغرب، وبقيا الأخوان هناك حتى عهد المستعين سليمان بن الحكم الذي تولى الحكم في قرطبة سنة 304هـ إلى سنة 407هـ.

ومنطلق الطموح السياسي للأسرة الحمودية يبدأ من وقت عقد المستعين لعلي بن حمود على طنجة وأعمال غمارة ومن ضمنها مدينة سبتة. واللحظة الحاسمة تبدأ من انتفاضته على المستعين ودعوته لنفسه. وهناك حدث آخر يدل على قوة سياسة الحموديين إذ أننا نجد أن عميد الأسرة الحُمودية وهو علي بن حمود قد أصبح خليفة على إمارة قرطبة

بعد مقتله لخليفتها الأموي المستعين بالله بن الحكم المستنصر في شهر محرم سنة 407هـ. وبعد أن خلف على عمله بسبتة وطنجة ابنه يحيى بن علي، وما لبث أن أغتاله فتيان من الصقالبة في حمام قرطبة سنة 418هـ، وترك من الولد يحيى وإدريس، فولي عهده يحيى استقل بولاية سبتة وطنجة وسائر أعمال أبيه من غمارة وغيرها، وجعل إدريس بمدينة مالقة. فكيف سارت الأحداث بعد ذلك عقب مقتل عميد الأسرة الحمودية؟.

الواقع أنه عند اغتيال علي بن حمود كان ولداه غائبين، فاستدعى البربر أخاه القاسم بن حمود، وأدخلوه القصر بقرطبة، وبايعه الناس وخطب له بالخلافة سنة 418هـ. ولم يتوقف الأمر عند ذلك فقد تطورت الأحداث لتصل إلى حد نشوب الخلاف بين القاسم وولد أخيه، ويرجع السبب إلى استياء يحيى صاحب فاس الذي كان يرى أن الخلافة من حقه بعد أبيه أو من حق أخيه إدريس صاحب مالقة، فكتب إلى أخيه إدريس وجاز إليه، ثم استخلفه على أعماله بالمغرب، فلما قرب من قرطبة هرب عمه القاسم، وبويع ليحيى بقرطبة وتلقب بالمعتلي، ثم ثار عليه البربر، فهرب إلى مالقة، وعاد عمه إلى قرطبة وتلقب بالمأمون، غير أن يحيى تمكن من أخراج عمه من قرطبة مرة ثانية، فاتجه نحو أشبيلية، واستقر بها إلى أن أخرجه منها المعتمد (محمد بن عباد) إلى شريش، وهناك حاصره يحيى وتمكن من اعتقاله مع أبنائه، واستوثق الأمر ليحيى بن علي بن حمود حتى قتل سنة (427هـ/1036م).

وفي المغرب قامت زناتة على أخيه إدريس، وملكت فاس وغيرها، فانتقل إدريس إلى مدينة سبتة، فلما وصله خبر موت أخيه بقرطبة، جاز إلى الأندلس بعد أن عقد للحسن ابن أخيه يحيى على عملهم بسبتة وطنجة، وأرسل معه نجا الخادم لتدبير دولته، وخطب ليحيى بالخلافة، وتلقب بالعزيز بالله، ثم عبر إلى مالقة، وخطب له بالخلافة فيها. ثم استخلف حسن بن يحيى على عمله ببلاد غمارة الخادم نجا، وجاز إلى الأندلس. وبعد أن هلك حسن بالأندلس جاز نجا إلى هناك بعد أن استخلف على

العمل من وثق به من الموالي الصقالبة، واستمرت سبتة وغمارة في موالي بني حمود حتى انتزعها منهم الحاجب سكوت البرغواطي، الذي استقل بسبتة وطنجة وأطاعته قبائل غمارة، واتصلت أيامه إلى ظهور دولة المرابطين سنة 450هـ[1]. كما انتهت سلطة الحموديين في الأندلس سنة 484هـ.

ولم ينج **قصر مصمودة** من انعكاسات الصراع الإدريسي الأندلسي. في خضم الصراع كانت المدينة من أهم المحطات الحربية التي حرص الطرفان على السيطرة عليها، لأنها أقرب نقطة للأندلس، فبعد أن تمكن الأمير الإدريسي الحسن بن كنون من قتل القائد الأموي الوزير محمد قاسم بن طملس، في ربيع الأول من سنة 362هـ، استدعى الحكم المستنصر القائد الوزير غالب بن عبد الرحمن لقتال الحسن، فخرج غالب من قرطبة، في أواخر شوال، من نفس السنة (362هـ)، حيث جاز البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة، فتلقاه الحسن هنالك بجيوشه وقاتله أياماً، وكانت نتيجة المعركة لصالح القائد الأندلسي، ويرجع السبب في استخدام النفوذ المادي، الذي مكنه من التغلغل إلى أوساط قادة الجيش الإدريسي وحسم المعركة[2].

التطور السياسي لمدينة طنجة الحديثة خلال العصر الوسيط الأول:

من المعلوم أن إطار الدراسة التاريخي يمتد من القرن الثالث إلى بداية القرن الخامس، وهذا يحتم علينا الالتزام بهذا الإطار الزمني إلا أن أهمية مدينة طنجة تستدعي الإحاطة بالدور السياسي لها منذ الفتح نظراً لما تمثله المدينة من أهمية في تاريخ منطقة الشمال الغربي المغربي.

1- نرى من المناسب قبل الدخول في الموضوع الإشارة إلى أهم الأحداث التي همت طنجة ومنطقتها قبل استقبال الأدارسة. حيث

---

[1] – تمت مبايعة أبي بكر بن عمر اللمتوني كأول زعيم للمرابطين سنة 450هـ. أنظر: المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص196-197. القلقشندي، **صبح الأعشى**،ج5، م.س، ص154-155.

[2] – ابن أبي زرع، **القرطاس**، م. س، ص112-113.

استقبلت طنجة عقبة بن نافع في الفتح الثاني سنة بعد سنة 62هـ[1]، ومن بعده موسى بن نصير، الذي استولى عليها، وبعد أن تمكن من إخضاع معظم بلاد المغرب اتخذ من مدينة طنجة قاعدة أولى لتحركاته العسكرية، بعد أن ولى عليها طارق بن زياد، حيث وضع فيها رهائن المصامدة تحت الحراسة، سنة88هـ. كما اتخذ من طنجة أول مركز لتعليم مبادئ الإسلام[2].

2- وفي طنجة دبر موسى بن نصير فتح الأندلس بعد الاتفاق مع يوليان، على أن يكون انطلاق الأسطول الحامل للفاتحين من سبتة. وهكذا قدر لمدينة طنجة أن تلعب دوراً تاريخياً كبيراً في السنوات الأولى من الفتح العربي الإسلامي[3].

3- كانت طنجة المركز الذي انطلقت منه ثورة الخوارج على ولاة بني أمية، فبالرغم من إسلام بربر المنطقة وحسن إسلامهم، إلا أن الوالي الأموي (عبد الله بن الحبحاب سنة116- 123هـ)[4] وأميره على طنجة عمر بن عبد الله المرادي. لم يعاملهم معاملة المسلمين، وعانى البربر من تعسف الولاة المتعاقبين على طنجة، فكان من نتائج ذلك اندلاع الثورة التي قام بها البربر، بزعامة ميسرة المطغري، سنة 122هـ[5]، وتمكنت من قتل عمر المرادي والي طنجة[6]، وعين ميسرة على المدينة أميراً من قبله هو عبد الأعلى بن جريج الإفريقي[7].

---

[1]- المالكي، (أبو بكر عبد الله بن محمد)، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية،** [تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي]، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج1، ص40. ابن عذاري، **البيان،** ج1، ص25-26. الرقيق القيرواني، م.س، ص14.

[2]- الرقيق القيرواني، م.س، ص39-40. ابن عذاري، **البيان،** ج1، ص42.

[3] – مجموعة مقالات مترجمة أصدرت في كتاب بعنوان: **طنجة في التاريخ المعاصر،1800–1956**، من إصدارات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ومدرسة الملك فهد العليا للترجمة،جامعة عبد الملك السعدي، طنجة،1991،ص48.

[4]- الرقيق القيرواني، م.س، ص71- 72.

[5]– ابن عذاري، ج1، ص52. البكري، ص 135. ابن خلدون، ج6، ص207+ 210.

[6]– ابن عبد الحكم، م.س، ص246.

[7]– ابن عبد الحكم، م.س، ص246.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت طنجة مركزاً رئيسياً للحركة الخارجية الصفرية، وتعاقب عليها بعض القادة أبرزهم خالد بن حميد الزناتي[1]، لتستمر معقلاً للصفرية يلوذون إليها كل ما طاردهم الولاة العرب من الأمويين والعباسيين من بعدهم[2]. الشيء الذي جعل من طنجة والمنطقة الشمالية الغربية معزولة نسبياً عن النفوذ العباسي حتى قدوم إدريس الأكبر وقيام الدولة الإدريسية[3].

طنجة الإدريسية: سبقت الإشارة إلى أن طنجة كانت خاضعة للأدارسة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ 9, 10م، وتحديداً منذ تقسيم المغرب بين أبناء إدريس الثاني وحتى سقوط المدينة بيد الأندلسيين سنة 339هـ، وقبل ذلك نعلم أنها كانت من نصيب القاسم بن إدريس، ثم ما تلى بعد ذلك حسب المذكور سلفاً في ما سبق.

ومثل ما حدث من سيطرة الأمويين على مدينة سبتة سنة 319هـ، مس أيضاً مدينة طنجة، بعد عشرين عام أي في سنة 339هـ. واستمرت المحاولات الإدريسية لاستعادة طنجة وخاصة على عهد الأمير الحسن بن كنون خلال، وشهدت المدينة في سبيل ذلك العديد من الحروب مع الحملات الأندلسية سنتي 361, 362هـ ، واستمر هذا الوضع بعد سقوط الأدارسة سنة 375هـ، حتى ظهور الأسرة الحمودية التي حكمت طنجة وسبتة مع مطلع القرن الخامس الهجري، وسبق الحديث وجودهم بالمنطقة. والظاهر أنه لم يطول أمر الحموديين بالمنطقة نتيجة استئثارهم بالخلافة في قرطبة ابتداءً من سنة 407هـ. ولا نجد مناص من القول إن السيطرة كانت من نصيب البرغواطيين. ونتذكر أن بداية الدعوة

---

[1]- ابن خياط، (خليفة بن خياط)، **تاريخ ابن خياط**، [تحقيق أكرم ضياء العمري]، دار الطيبة، ط3، 1985، ص353-355.

[2]- من القادة الصفريين الذين كانوا يلجئون إلى طنجة أبو قرة المغيلي. النويري، (شهاب الدين)، **نهاية الإرب في فنون الأدب**، [تحقيق علي محمد البجاوي]، وزارة الثقافة، القاهرة، ج24، 1976، ص393.

[3]- من الأمور التي ساعدت على ذلك قيام إمارة بني رستم بتاهرت، وتمركز الصفرية بعامة مع أبي قرة المغيلي بتلمسان حتى سنة 171هـ. أنظر: عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ج2، ط2، 2000، ص26.

البرغواطية كانت قد بدأت على يد صالح بن طريف في الشمال، وعنه ورث أحد أقاربه سكوت البرغواطي السيطرة والحكم على مدينة طنجة، والذي كان أحد موالي الحموديين، وتلقب بالمنصور المعان، وظل يحكم المدينة حتى تمكن يوسف بن تاشفين من قتله سنة 471هـ[1]. وقد جعلوا من طنجة ومن ثغر سبتة قواعد بحرية لأعمال القرصنة ضد السفن التجارية المارة بالمضيق. حتى ظهور المرابطين سنة 450هـ، حيث استطاع زعيم الدولة المرابطية (يوسف بن تاشفين) أن يقضي بعد ذلك على الدولة البرغواطية براً وبحراً، ويحتل سبتة وطنجة، وقد شارك في هذه العمليات الحربية بعض وحدات الأسطول الأندلسي، التي بعث بها المعتمد بن عباد ملك أشبيلية. وظلت طنجة بعد ذلك خاضعة للدولة المغربية التي تعاقبت على حكم المغرب[2].

- الحملات الأندلسية ومصير مدينة زلول

هناك إشارات مقتضبة تناقلتها المصادر عن تأثر زلول بالأحداث الحربية، حيث كانت تدور في فلك كل من سبتة وطنجة، خلال الصراع الإدريسي الأندلسي، ولذلك لا يمكن تصنيفها ضمن المدن التي أنيط بها دور سياسي، مثل المدينتين القطبيتين الساحليتين سبتة وطنجة، ومدينة البصرة في الداخل.

ونسجل هنا ما ذكر عن مدينة زلول من قبل ابن حيان، ونقل عنه ابن عذاري ضمن أخبار حملة الحكم المستنصر العسكرية على المغرب لقتال الحسن بن كنون، سنة 361هـ، بقيادة الوزير محمد بن قاسم طملس. فقد كانت المعركة يوم الأحد، الموافق 11 ذي القعدة، سنة 361هـ، وأول حضور إدريسي نعرفه بمدينة زلول هو الذي أشار إلى التجاء الحسن بن كنون إلى المدينة إثر تراجعه أما الحملة منطلقاً من طنجة إلى جبل الريح الواقع شمال مدينة زلول مثل ما تمت الإشارة إليه سلفاً. لم يكن دخول

1- البيضاوية بلكامل، **سبتة**، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2001، ج14، ص 4844.

2 – هامش محققي **أعمال الأعلام** لابن الخطيب، ق3، م. س، ص203.

الحسن بن كنون إلى المدينة للتحصن بل اتخذها محطة للانتقال إلى الحصون الجبلية الأخرى لا سيما قلعة حجر النسر. ذلك أن زلول كانت بمثابة قاعدة عسكرية للقوات الإدريسية لا تقل أهمية عن قلعة حجر النسر، حيث كان مخزوناً بها كمية كبيرة من العتاد والمؤن، وكانت عامرة بالدور الحصينة.

تحرك الجيش الأندلسي إلى زلول ولحق بهم الوزير القائد ابن طملس إلى المدينة[1]. وكان أول عمل قام به الجيش الأموي هو هدم سور المدينة، وحسب ابن حيان أن الدمار الشامل عم المدينة برمتها[2]. وبذلك تكون زلول قد شهدت فصلا من الصراع الإدريسي/ الأموي، وكان نصيبها أن تعرضت للاندثار نهائياً سنة 362هـ.

- ايجاجن والصراع بين قبائل رهونة والحملات الأندلسية

لسنا متأكدين أن الحملات الأندلسية حلت بمدينة ايجاجن، فالمصادر لا تبين لنا ذلك، ولكن معلوماتنا تبين أن مدينة ايجاجن هي مندرجة في قبيلة رهونة، علاوة على أنها كانت حصناً هاماً للأدارسة. وبما أن الحملات الأندلسية استهدفت القبيلة فلم يسنا سوى ترجيح توجه الجيش الأموي نحو المجال العمراني الذي تمثله مدينة ايجاجن، ونحو المركز العسكري الذي تمثله قلعة المدينة.

وإذا صح هذا الاقتراح فسيكون اقتحام قبيلة رهونة قد تم حسب الأحداث المستخرجة من المصادر[3]. إذ كانت الحملات العسكرية التي كان يوجهها الأمويون من قرطبة إلى المغرب، تضع في مقدمة أهدافها العسكرية إخضاع قبيلة رهونة، قبل شن الهجوم على العاصمة الإدريسية الريفية (البصرة). نعرف ذلك من تفاصيل الحملة العسكرية التي جهزها الحكم المستنصر، تلبية لاستغاثة ما تبقى من جنوده المحاصرين بسبتة

---

[1] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص90. ابن عذاري، **البيان**، ج2، م. س، ص246.

[2]- ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص90. ابن عذاري، **البيان**، ج2، م. س، ص246.

[3] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص114.

بعد أن تمكن الحسن بن قنون من إلحاق الهزيمة بحملة الحكم ومقتل قائدها الوزير ابن طملس، سنة 361هـ.

فاستدعى الحكم قائده على البر والبحر الوزير غالب بن عبد الرحمن، سنة 362هـ، ووضعه على رأس الحملة العسكرية الضخمة، وسخر له جميع الإمكانات المادية والبشرية، ودعمه بالقوات من الثغور الشمالية والجنوبية للأندلس، فضلاً عن ما توفره له الحاميات العسكرية الأندلسية المرابطة ببعض الثغور الشمالية المغربية من المدد المادي والتقني الكفيل بقيام الحملة بتحقيق أهدافها، المتمثلة بالقضاء على كل القوى المعارضة للسياسة الأموية التوسعية بالمغرب.

فبعد حصار الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن للحسن بن قنون بقلعة حجر النسر، سنة 363هـ، كان المقر العسكري للقائد الأموي، محلة المصارة، ومنها وافى كتاب الوزير القائد الأعلى غالب إلى الحكم، يوم الأحد 26 من المحرم من محلته، يخبره عن تحرك الجيش لإخضاع قبيلة رهونة.[1]

ـ دور قصر كتامة

يبدو أن مدينة قصر كتامة كان لها دور سياسي ثانوي، طيلة الفترة الممتدة إلى نهاية القرن الرابع الهجري/10م، نظراً لقربها من مدينة البصرة، التي كانت تعد مركز الثقل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري الهام في عهد الأدارسة، الأمر الذي أسهم في إعاقة تطور مدينة قصر كتامة، إلى جانب الإضرار الكبيرة التي تعرضت لها من جراء المواجهات العسكرية التي واكبت الصراع الفاطمي/ الأموي، حول الهيمنة على المغرب الأقصى، وما صاحب ذلك من مشكلات واجهت الأدارسة. ففي سنة 363هـ، تمكن أهل البصرة من قتل خليفة محمد بن جنون زوج ابنة الحسن بن جنون (محمد بن عبد السلام)، واستدعاء القائد الأموي غالب بن عبد الرحمن، الذي توجه نحو البصرة آمنا في حركته،

---

[1] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص144.

فاحتل بسوق كتامة، وتلقاه أهل البصرة بكتابهم يدعونه إليهم، وانفذوا إليه برأس محمد بن عبد السلام، فتسلمه غالب منهم لوقته وخاطب الخليفة (الحكم) بخبر البصرة[1].

- **الأقلام مركز انتفاضة**

تأتي أهمية مدينة الأقلام من الأدوار الثلاثة التي كشفت عنها المصادر عن مقاومة موسى بن أبي العافية خلال مرحلتين، ثم التصدي للزحف الأموي، وأخيراً أصبحت المدينة محط أمل الحسن بن كنون لاسترجاع عرشه المسلوب من الأمويين. فقد كانت أقدم إشارة تاريخية للمدينة ودورها ترجع إلى بداية القرن الرابع الهجري، تصف أن لها سور تحصن داخله الأدارسة عند مطاردتهم من قبل موسى بن أبي العافية عندما كان موالياً للعبيديين. كما لجاؤا إليها، أيضاً، عند محاصرة موسى لهم مرة أخرى، ولكن لحساب بني أمية. ولم يتمكن من ولوج المدينة، لذلك اتبع سياسة الحصار الطويل حتى تمكن الأمويون من إخضاع المدينة بالجوع وطول الحصار[2].

يتضح من ما سبق أن مدينة الأقلام كان لها دور مهم خلال مطاردة الأمراء الأدارسة، من قبل زعيم مكناسة، وحليف العبيديين ثم الأمويين، وعدو الأدارسة اللدود (موسى بن أبي العافية)، فبعد أن أخرجهم من فاس، سنة 315هـ، طاردهم بجبال الريف، فتحصنوا بقلعة حجر النسر (315-317 هـ). وكانت مدينة الأقلام كذلك من ضمن الحصون الإدريسية المنيعة التي لجئوا إليها، خلال ذلك الحصار، واستعصت عليه، ولم تسقط بيده .

وكان من نتائج هذا الصراع على مدينة الأقلام بصورة خاصة، سقوطها بيد جيوش بني أمية، وهذا السقوط الذي سجله لنا ابن حوقل، لم يتم إلا بعد الحصار الشديد والمستمر، إلى الحد الذي انعدمت معه الأقوات

---

[1] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص140.

[2] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص81.

والمؤن." ورضوخ أميرها الإدريسي حنون بن إدريس بالطاعة لخليفة قرطبة الأموي الثاني الحكم المستنصر، يحدثنا بذلك المؤرخ الخاص بالحكم ابن حيان الأندلسي قائلاً: " في أخر جمادي الآخرة، سنة 362هـ قدم إلى قرطبة رسول حنون بن إدريس صاحب الأقلام بالعدوة، ورسول عبد الكريم صاحب القرويين من مدينة فاس يرغبان بالدخول في طاعة أمير المؤمنين والقيام بدعوته، فكرم رسولهما وأجمل موعودهما"[1]. ولعل السبب في ذلك الرضوخ، يرجع إلى تلك الحملات المتتالية على الأدارسة من بني محمد، وزعيمها المتمرد على المروانيين (الحسن بن قنون)، ولم يحل رضوخ صاحب الأقلام دون اعتقاله.

وسندع ابن عذاري يحدثنا عن هذه اللحظة الحاسمة في مجرى الصراع السياسي والعسكري بالشمال الغربي المغربي، يقول: "... وفي سنة (364هـ) قدم على المستنصر قائده غالب بن عبد الرحمن قافلا من عدوة المغرب، ومعه حسن بن قنون وشيعته بنو إدريس الحسنيون ملوك الغرب، المستنزلون من معاقلهم، إلى الأندلس، حافين بشيخهم المشتهر بحنون، واسمه أحمد بن عيسى صاحب مدينة الأقلام وما والاها، ومعه أخوته وبنو عمه وبنوهم وأهلوهم، فأمر باحتمال هؤلاء الأشراف من المحلة في ظلام ليلة الخميس لأربع خلون من المحرم، إلى الدور التي أخليت لهم بقرطبة..."[2]. لم يكن ذلك هو نهاية المطاف بالنسبة للصراع الإدريسي الأموي، بل كان بداية النهاية

أما فيما يتعلق بالأسرة الإدريسية وزعيمها الحسن بن كنون، فبعد حوالي العامين ضاق الحكم من النفقات التي خصصها للأدارسة، فافتعل خلافاً مع الحسن، غادر الحسن على إثره قرطبة مع خاصة رجاله متوجهاً عبر البحر المتوسط إلى مصر، ونزل على الخليفة الفاطمي (نزار) بالقاهرة، وهناك بدأ يفكر بالعودة إلى بلده المغرب، وبمساعدة

---

[1] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص102.

[2] – ابن عذاري، **البيان**، ج2، م. س، ص248.

الخليفة الفاطمي، الذي أمر عامله على إفريقية (بلكين) بمد الأمير الإدريسي بقوة عسكرية تمكنه من استعادة ملكه، بلغ قوامها ثلاثة آلاف من الفرسان. "فاقتحم الحسن ومن جاء معه ديار المغرب، فوجد الناس على خلاف العادة، وعمال صاحب الأندلس لا تخرق لهم هيبة، إلى أن التف له جمع اسند إلى ظهره، وشرع في إظهار دعوته... وصعد إلى الأقلام ودعا لنفسه... "[1]. من هذا النص نجد أن الحسن تمكن من العودة إلى المغرب، بعد فراق دام قرابة عشر سنوات، قضى معظمها في مصر. الأمر المهم هنا هو أن الحسن بدأ دعوته من مدينة الأقلام للمغاربة ليلتفوا حوله من أجل استعادة ملكه. فلماذا من الأقلام تحديداً؟ الجواب هو لسبب بسيط هو أن الأقلام من الحصون المنيعة التي يركن إليها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ما تمثله مدينة الأقلام من أهمية لدى المجتمع، فهي معقل كبراء الأدارسة، ولها مكانة خاصة. فما الذي حدث بعد ذلك؟

كانت عودة الحسن إلى المغرب، والدعوة من مدينة الأقلام قد تمت بعد وفاة الخليفة الأموي الحكم المستنصر، وتولية ابنه هشام المؤيد، وتولي حاجبه القوي (محمد بن أبي عامر) الشهير بالمنصور شؤون الخلافة، والذي قام بدوره بتجهيز حملة كبيرة ضد الحسن، بقيادة ابن عمه (عمرو بن عبد الله)، الشهير بعسكلاجة، ورافق المنصور هذه الحملة العسكرية من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء، كان ذلك في ربيع الأول من سنة375هـ. وقد تمكنت الحملة العامرية من هزيمة الحسن، الذي أعلن استسلامه ونزل من معقله بقلعة حجر النسر، معتقداً هذه المرة أنه سيرسل أسيراً إلى قرطبة كما حدث معه في المرة السابقة، عندما اقتاده غالب بن عبد الرحمن، وسلمه للحكم المستنصر الذي تعامل معه كأسير حرب. غير أن الأمر مع المنصور كان مختلفاً، فبمجرد أن أعلن الحسن

---

[1] – مجهول، **مفاخر البربر**، [دراسة وتحقيق، عبد القادر بوباية]، دار أبي رقراق، ط1، 2005، ص108.

استسلامه وقبل القائد عسكلاجة تأمينه واصطحابه إلى قرطبة، عند ذلك أرسل المنصور بعض المقربين، وكلفهم بمهمة استقبال الحسن وقتله[1].

ـ الحصون والقلاع

كان الغرض الرئيسي من تأسيس الحصون والقلاع هو أن تكون مواقع حربية ودفاعية مرتبطة بالمدن والطرق الحربية، لذلك كانت الأحداث العسكرية هي الطابع المهيمن على تاريخها السياسي خلال الفترة المدروسة، وقامت بدور واضح في هذا الاتجاه. وفي هذا السياق سنتناول أبرز المحطات الحربية للحصون والقلاع اعتماداً على ما توفر من المصادر المتعلقة بهذه الفترة.

ـ قلعتا ابن خروب والدمنة ودورهما في الصراع الإدريسي الأندلسي

سبق أن تناولنا موضوعي موقع وتأسيس كل من دمنة عشيرة وقلعة ابن خروب، ولكننا لم نتمكن من إتباع نفس المنهج عند محاولة البحث عن ما نزود به موضوع الصراع السياسي والحربي في القلاعتين. والسبب يرجع إلى كونهما قد شهدتا مرور الجيش الأندلسي عبرهما، حيث كانتا معقلين من المعاقل الإدريسية أثناء جواز الحملتين.

وبالنظر إلى التطور الحربي **لقلعتي ابن خروب والدمنة،** المجاورتين لمدينة زلول، فقد تأثرتا بشكل مباشر بالأحداث السياسية والعسكرية، خلال الصراع الإدريسي/الأندلسي، حيث إن دمنة عشيرة تقع ضمن المحور الطرقي لقلعة حجر النسر، وكذلك الشيء ذاته بالنسبة لقلعة ابن خروب. دليلنا في ذلك وصف البكري للطريق من سبتة إلى فاس عبر دمنة عشيرة إلى قلعة حجر النسر[2]. وهو الطريق نفسه الذي سلكته جيوش الحملة المروانية خلال تتبعها للحسن بن كنون، وبذلك فإن تاريخ المراكز العمرانية في هذه المنطقة، قد غلب عليها الطابع الحربي

---

[1] – المجهول، مفاخر البربر، م. س، ص110.

[2] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص113–114.

والدفاعي، حيث شهدت فصول الأحداث السياسية والعسكرية، التي دارت رحاها في الشمال الغربي المغربي خلال القرن الرابع الهجري/10م.

وفي بداية العهد المرابطي، تعرضت الدمنة لحملة عسكرية شنها عليها يوسف بن تاشفين سنة 465هـ، فدخلها عنوة. وكانت هذه الحملة بسبب امتناع أهلها من مبايعة ومناصرة زعيم الملثمين[1].

- حصن جبل الريح معقل الحسن بن كنون

أشار ابن حيان الأندلسي إلى هذا الحصن عند ذكره لأحداث المعركة التي خاضها الحسن بن كنون ضد حملة ابن طملس، قائد الخليفة الأموي الحكم المستنصر، سنة 361هـ، والتعزيزات الأخرى، فبعد سقوط طنجة بيد القائد الأندلسي صاحب الشرطة قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس، فر الحسن بن كنون إلى جبل الريح، نظراً لمناعته فتحصن فيه، وتمكن جيش قرطبة من هزيمة الحسن واحتلال الجبل. وقد نقل ابن عذاري عن ابن حيان هذه الرواية، غير أنه لم يشر صراحة إلى جبل الريح، وإنما اكتفى بالقول إن الحسن فر فيمن معه إلى جبل حصين[2].

نستخلص من ما سبق أن حصن جبل الريح، هو حصن إدريسي، ينسب إلى الحسن بن كنون، وقد ارتبط تاريخه بالصراع الإدريسي الأموي في الشمال الغربي المغربي، خلال القرن الرابع الهجري/10م، فقد كان من الحصون المنيعة خلال فترة تعقب الخلافة الأموية للأدارسة ومن بعدها العامريون، حجاب هشام المؤيد، حتى قتل ابن كنون غدراً من قبل الحاجب محمد بن أبي عامر، سنة 375هـ.

- حصن الكرم شاهد على الحصار الأندلسي

نذكر أننا كنا قد ربطنا بين موقعي دمنة عشيرة وحصن الكرم الإدريسي، وأكدنا أنهما مسميان لموقع واحد. وقد ورد ذكر هذا الحصن في الرسالة التي بعثها القائد غالب إلى الحكم، يوم الاثنين 21 ذي القعدة،

---

[1] – ابن أبي زرع، **القرطاس**، م. س، ص180.

[2] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص90 ، ص96. ابن عذاري، **البيان**، ج2، م. س، ص245–246. مؤلف مجهول، **مفاخر البربر**، م. س، ص98.

سنة 362هـ، يشرح له فيها حربه مع الحسن، وكيفية تغلبه عليه. ونستفيد منها أن الحرب غير ممكنة في جبل وحصن الكرم، نظراً لصعوبة الوصول إليه لكونه محكم التحصين والمنعة، فلجأ القائد الأموي إلى إتباع حيلة حربية تمثلت باستمالة قبيلة حليمة القاطنة حول الكرم، وهي من كتامة المصمودية، ونجح في ضمها إلى قواته، ونتيجة لذلك أضطر الحسن ومن معه الانسحاب من حصن الكرم إلى قلعة حجر النسر، وبذلك تمكن القائد الأموي من دخول الحصن دون مقاومة، كان ذلك في يوم الخميس 19 ذي القعدة سنة 362هـ[1].

وقد خضع حصن الكرم لإعادة بناء من قبل الجيش الأموي، بغرض تمركز حامية من قواته لمراقبة تحركات الأدارسة، وخاصة الحسن بن كنون وصهره صاحب البصرة (محمد بن عبد السلام)، وأشرف على هذا التحصين الجديد القائد يحيى بن محمد هاشم التجيبي، بتوجيه من الوزير القائد غالب. وكان البناء قد شارف على التمام[2]، في يوم السبت الرابع من محرم، سنة 363هـ.

[1] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص134. ابن عذاري، **البيان**، ج2، م. س، ص247

[2] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص139–140.

جدول خاص بالأمراء الأدارسة في فاس (192-315هـ)

اسم الأمير	الفترة (هـ)	أبرز الأحداث	ملاحظات
إدريس الثاني	192-213		
محمد بن إدريس	213-221	تقسيم المغرب	
علي محمد(حيدرة)	221-234		
يحيى بن محمد بن إدريس	234-249	بناء جامعي القرويين والأندلس	
يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس	249-259	مات أثناء محاولته الفرار من أهل فاس، على إثر دخوله على فتاة يهودية في الحمام	تم خلعه واستدعت زوجته والدها علي بن عمر إلى فاس
علي بن عمر بن إدريس	259-269	هرب من فاس بعد دخول الخارجي الصفري(عبد الرزاق الفهري) فاس	
يحيى بن القاسم بن إدريس(المقدم، أو العدام)	269 - 292	قتله الربيع بن سليمان	قتل وضعفت الدولة من بعده
يحي بن إدريس بن عمر بن إدريس	292-310	قدوم الحملة العُبيدية الأولى بقيادة مصالة بن حبوس المكناسي، سنة305، وأخرجه مصالة من فاس في حملته الثانية، سنة307، ومات بالقرب من المهدية، سنة334، أيام حصار أبو يزيد مخلد لها	قام مصالة بتعين ريحان المكناسي على فاس، مدة ثلاث سنوات (307-311)، بعد القبض على الأمير يحيى من قبل مصالة، وتحريض موسى.
الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس(الحجام)	312-315	غدر به عامله على فاس(حامد بن حمدان الهمداني)واستدعى موسى، ثم عدل عن قراره بتسليمه له. وأثناء هروبه من فاس سقط من سور الأندلس، ومات على إثرها بعد ثلاثة أيام.	كان أخر الأمراء الأدارسة بفاس، وبوفاته سقطت الدولة الإدريسية بفاس، وقامت الأمارة الإدريسية بالريف

جدول خاص بالأمراء الأدارسة في الريف

اسم الأمير	مدة الحكم(هـ)	أهم الأحداث	ملاحظات
إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس	317-323	باني قلعة حجر النسر، الذي احتضن الأدارسة خلال فترات الحصار التي مرواً بها منذ عهد ابن أبي العافية	سيطر الناصر الأموي على الثغور الشمالية المغربية
القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس (كنون)	324/3-337	كان موالياً للعبيديين	
أحمد بن القاسم (أبو العيش بن كنون)	337-343	كان موالياً لبني أمية بالأندلس	ذهب إلى الأندلس للجهاد، وتوفى هناك
الحسن بن كنون	341-365 373-375	واجه الحملات الأندلسية، واستسلم للقائد الأموي غالب بن عبد الرحمن نزل من الحجر، ونفي إلى قرطبة. وهناك ضاق الحكم به وسمح له بالخروج، فذهب إلى مصر، وسانده المعز الفاطمي، وعاد إلى المغرب، وفي هذه المرة تمكن جيش المنصور العامري من اعتقاله، واصطحابه إلى قرطبة، وقتله المنصور وهو في طريقه إليه	بمقتل الحسن بن كنون من قبل المنصور بن أبي عامر انتهت الإمارة الإدريسية الثانية بالريف، وانتهى الحكم الإدريسي في المغرب، وتنازع أمر المغرب، كل من العبيديين والأمويين والعامريين من بعدهم، ثم قبائل زناتة من مغراوة وبني يفرن، حتى توحيد المغرب والأندلس على يد المرابطين.

الحملات العسكرية والتدخل الأموي في المغرب

الحملة	الحاكم الذي وجهها	قائد الحملة	تاريخها	أسبابها	نتائجها	ملاحظات
الأولى	الخليفة الناصر(300-350هـ/912-961م)		314هـ/927م	الاستيلاء على مليلة	سقوط مليلة وتحصينها وجعلها قاعدة لحليفه ابن أبي العافية	الرغبة في السيطرة على الثغور المغربية
الثانية	الخليفة الناصر	فرج بن عمير	319هـ/931م	الاستيلاء على سبتة	سقوط مليلة وتحصينها وجعلها قاعدة للأسطول	كان بها جالية أندلسية كبيرة
الثالثة	الخليفة الناصر		339هـ/951م	الاستيلاء على طنجة	استقالة أبي العيش	تولي الحسن بن قنون
الرابعة	الخليفة الناصر	غالب بن عبد الرحمن	343هـ/954م	مطاردة الشيعة بالثغور الشمالية	إحراق مرسى الخزر،	وسلب موانئ سوسة وطبرقة وشرشال بالجزائر
الخامسة	الخليفة الحكم المستنصر	محمد بن قاسم طملس+عبد الرحمن بن رماحس	361هـ/972م	ضرب الحسن بن قنون	مقتل قائد الحملة	تعزيز الحملة
السادسة	الخليفة الحكم المستنصر	غالب بن عبد الرحمن+ يحيى التجيبي	362هـ/973م	ضرب الحسن بن قنون	سقوط شمال المغرب	اعتقال الحسن وسجنه بقرطبة سنة 363هـ/973م
السابعة	المنصور بن أبي عامر	عسكلاجة	370هـ/980م	الاستيلاء على المغرب	سقوط شمال المغرب حتى سجلماسة	
الثامنة	المنصور بن أبي عامر	عسكلاجة	375هـ/985م	ضرب الحسن بن قنون	سقوط شمال المغرب واعتقال الحسن	قتله قي الطريق قتله قي الطريق إلى قرطبة
التاسعة	المنصور بن أبي عامر		381هـ/991م	الاستيلاء على المغرب من مغراوة وبني يفرن	مد النفوذ إلى تلمسان وتاهرت	
العاشرة	المنصور بن	واضح	387هـ/	ضرب زيري	هزيمة الحملة	تعزيز الحملة

	أبي عامر	الصقلي	997م	بن عطية المغراوي	والعودة إلى طنجة	
الحادية عشر	المنصور بن أبي عامر	المظفر عبد الملك بن المنصور	387هـ/ 997م	ضرب زيري بن عطية المغراوي	هزيمة زيري وسقوط فاس	السيطرة على شمال المغرب

الحملات العُبيدية على المغرب الأقصى

الحملة	الخليفة الذي أمر بها	قائدها	تاريخها	الغرض منها	نتائجها
الاولى	عبيد الله المهدي(297-322هـ/909-934م)	مصالة بن حبوس المكناسي، عامل العبيديين على تاهرت	305هـ/919م	ضرب أمارة نكور، حلفاء أمويي قرطبة	الاستيلاء على نكور، واخذ البيعة للعبيديين من الأمير الإدريسي يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس، أمير فاس، وسلم المغرب لموسى بن أبي العافية
الثانية	عبيد الله المهدي(297-322هـ/909-934م)	مصالة بن حبوس المكناسي، عامل العبيديين على تاهرت	307هـ/921م	الاستيلاء على فاس، واخذ البيعة للعبيديين	أزاح الأمير يحيى، وولى على فاس ريحان الكتامي
الثالثة	عبيد الله المهدي(297-322هـ/909-934م)	حميد بن يصل الكتامي، العامل الجديد للمهدي على تاهرت	320هـ932م	مبايعة موسى بن أبي العافية للناصر الأموي	هزم موسى بن أبي العافية بفحص ميسون، وفراره إلى تسول
الرابعة	القائم أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي(322-334هـ/934-945م)	ميسور الفتى	323هـ/935م	مبايعة موسى بن أبي العافية للناصر الأموي	أجلى موسى إلى الصحراء، بالتعاون مع الأدارسة
الخامسة	المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم(341-365هـ/952-975م)	جوهر الصقلي	347-348هـ /958-959م	تغلب الناصر على المغرب، والقضاء على الدعوة الفاطمية	إعادة الأمير الإدريسي الحسن بن كنون لطاعة الفاطميين، وقبض على عامل الناصر بفاس
السادسة	العزيز نزار بن معد365-386هـ/975-996م)	بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، ملك الدولة الزيرية في المغربين الأدنى والأوسط	369هـ/979م	اخذ البيعة لنزار من الحسن وأهل المغرب، وإخضاع زناتة	اعد له المنصور بن أبي عامر جيشا كبيرا من المغاربة والأندلسيين
الأخيرة	العزيز نزار بن معد365-386هـ/975-996م)	بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، عامل الفاطميين على إفريقية	371-373هـ	إخضاع زناتة	الاستيلاء على المغرب، وطرد عمال بني أمية، باستثناء سبتة

ثــالثـــــاً

التطـــور الاقتصـــــادي

سنتعرض في هذا العنصر لمجمل الأوضاع الاقتصادية التي عاشتها مدن الشمال الغربي خلال الفترة المدروسة، ذلك أن معظم المراكز الحضرية اعتمدت في اقتصادياتها على الفلاحة المحيطة بها، وبعض الحرف، فنشطت فيها الأسواق، وظهرت بها حركة دؤوبة متبادلة بين ساكنتها والقبائل المتمركزة في محيطها، الشيء الذي أثر على السلوك السكاني وميز علاقاته المتداخلة الناجمة عن تلك العلاقات الاقتصادية.

فقد اشتهرت المنطقة خلال العصر الوسيط بتنوع المحاصيل الفلاحية، وتنامي الثروة الحيوانية، وتعدد السلع الصناعية التي أدت إلى تطور واضح في الأعمال التجارية، فأنشئت الأسواق داخل المدن وخارجها، وتعددت المسالك التجارية بين رئيسية وفرعية. ففي الجانب الفلاحي نجد إيضاحات حول الكثير من أصناف المنتجات الزراعية[1].

كان لساكنة المدن والمراكز القريبة من الطرق التجارية نصيب من القوافل التي تمر عبر مناطقهم، إذ كانوا يؤمنون لها الراحة والتزود بالطعام والشراب والمبيت وراحة رواحلهم وتأمين الطريق والاستراحات.

وفي ما يلي سنخصص الحديث عن ما توصلنا إليه من معلومات عن الوضع الاقتصادي لبعض من مدن الشمال الغربي المغربي، لتقصي التميز والتنوع الذي يؤدي إلى العلاقات القائمة بين المدن وبعضها، وفي بعض الأحيان نستطيع تقديم إشارات عابرة عن التبادل التجاري بين المدن والبوادي، وذلك على نحو ما يلي:

---

[1]– أهمها: الحبوب، والفواكه، والحمضيات، وسائر أنواع البقول. قصب السكر. والنباتات العطريةالمتنوعة. وفي جانب الثروة الحيوانية، أهمها المواشي، باستثناء الجاموس فأنه غير موجود، والطيور المتنوعة. العمري: (أحمد بن يحيى بن فضل الله)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، [تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد]، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1988،ص126°129.

التواصل التجاري بين مدن الواجهة الساحلية الشمالية والشرقية

أفردنا للمدن الواقعة على البحر المتوسط (بحر الروم) وتاليه ساحل المضيق عنصراً خاصاً، نظراً لاشتراكها في خصائص جغرافية وموارد طبيعية صبغتها بنشاط اقتصادي متشابه. وأهم هذه الخصائص تتمثل في أن جميع هذه المدن التي تبدأ من مدينة بادس وحتى طنجة تجمعها واجهة بحرية واحدة، تقابل مثيلاتها في الضفة الشمالية، الشيء الذي هيأ لها نشاطاً تجارياً متبادلاً. والخاصية الثانية هي توفر بعض من هذه المدن على غابات تنمو فيها الأخشاب النفيسة الصالحة لصناعة السفن والمراكب البحرية المختلفة، ولأجل ذلك أنشئت الدور الصناعية، الشيء الذي وفر لها رافداً اقتصادياً متميزاً. كما أن وعورة التضاريس حول المدن الساحلية، والمتمثل بذلك الحاجز الطبيعي الذي يمثله جبال غمارة المبتدئ من بادس إلى تطوان أسهم في توجيه النشاط الاقتصادي نحو استغلال المجال البحري. كما أن التضاريس الساحلية صالحة لإنشاء المراسي في هذه المدن.

وهذه المراسي لعبت دوراً في عملية التبادل التجاري مع الموانئ المجاورة، وكان لها أدوار متعددة بعد استيلاء أمويي الأندلس على سبتة، فكانت الأنشطة الغالبة هي القرصنة والتبادل التجاري كما سنرى في تناولنا لهذه الفقرة، وسنحاول البدء من بادس شرقاً وحتى طنجة غرباً على نحو ما يلي:

على أنه ينبغي قبل ذلك الملاحظة أن المدن الساحلية الصغرى كانت مضطرة للسير في فلك المدن الساحلية الكبرى فهي تقدم لها المواد الأولية الرئيسية وتستورد منها ما يتم صنعه في دور الصناعة المحولة عن تلك المواد. على أن المدن الصغرى كان بعضها ورشاً لصناعة السفن مثل مدينة بادس التي كانت متزعمة تلك الصناعة، ولبعضها مميزات أخرى سنقف عندها. وسيبدو لنا كل هذا والوضع الاقتصادي العام حينما نبحث

عن مساهمات كل مدينة من المدن الكبرى الداخلة في التحديد المعلن عنه سابقاً.

كان معظم سكان مدينة بادس يزاولون مهنة الصيد والقرصنة والتبادل التجاري. حيث يعد السردين من الأغذية الرئيسية، نظراً لكثرته في الساحل البادسي، فيصطادون منه كميات وافرة، ويملحون بعضه ويتاجرون به مع المناطق الجبلية المجاورة والمدن الساحلية. كما كان هناك أيضاً نشاط قرصني حيث كان البعض يغير على السواحل الأندلسية المقابلة[1]. ويتوفرون على دار صغيرة بجوار البحر لصناعة تلك المراكب، وذلك بفضل نمو الخشب النفيس في الجبال حول بادس، وهو خشب جيد صالح لبناء المراكب البحرية المختلفة كالزوارق والسفن الشراعية والحربية. ولا يعيش الجبليون إلا من هذا الخشب، يحملونه إلى مختلف الجهات. ولا ينبت في بلادهم سوى القليل من القمح، ولذلك يأكل أهل مدينة بادس خبز الشعير، ويقتاتون على الخصوص بالسردين وغيره من السمك[2]. ويصفها (ابن الخطيب) وصفاً أدبياً نستشف منه أن أهل بادس يقتاتون الحوت والحبوب والفواكه، ويصنعون من الأخشاب مختلف المنحوتات[3].

كما كان سكان مدينة ترغة يشتغلون بصفة عامة في صيد السمك والفلاحة ، ونساؤها يشتغلن بالحياكة وبعض الصناعات اليدوية البسيطة. وصيد السمك في ترغة كان كثيراً، إلى درجة أنه قيل أنها تستطيع أن تزود بالسمك نصف مملكة فاس[4]. أما السكان القاطنون حول نهر ترغة فكانوا نشطين فلاحياً، حيث إن الشواهد الأثرية المنتشرة على الوادي تبين وجود مخلفات لآبار وقنوات ري توحي بالاستغلال الزراعي المكثف

1- الوزان، **وصف إفريقيا**، م، س، ص326.

2 - الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص532-533. الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ص325-326.

3 - ابن الخطيب، **معيار الأخبار في ذكر المعاهد والديار**، م. س، 1977، ص71.

4 - مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م. س ، ص229. هامش محقق **القرطاس**، م. س، ص64، [مقتبس بتصرف من قبل الباحث].

الذي كان يعرفه وادي ترغة. كما شهدت ترغة نشاط صناعي دلت عليه الحفرية الأثرية التي أسفرت عن اكتشاف فرنين لصناعة الخزف في عمق نصف متر تحت سطح الأرض، واحد منها متكامل المرافق[1].

وبالرغم من المخلفات الأثرية التي تؤكد أن المنطقة حول ترغة شهدت نشاطاً فلاحياً، إلا أن الوزان يشير إلى استهلاك أهل ترغة من جميع أنواع القمح كان يأتي إليها من خارجها. ويرجع السبب في ذلك إلى وعورة وبرودة الجبال المجاورة لترغة، وهذا كان سبباً في ربط العلاقة التجارية مع منطقة الغرب، حيث كان السكان الجبليون يحملون القمح من منطقة الغرب، كما كان سكان الغرب الذين يأتون لشراء السمك يقايضون به بالقمح[2]. كما كان لترغة مجال بحري شهد نوعين من الأنشطة أولها التبادل التجاري مع الموانئ الأندلسية، والمدن المغربية الساحلية المجاورة.

وكان لموقع مدينة تطوان - على مصب واديها في ساحل البحر المتوسط، وقربها من مناطق زراعة الأخشاب (الأرز والصنوبر) الصالحة لصناعة السفن- دور في التطور الاقتصادي، وخاصة صناعة السفن.

كما قامت المدينة - من خلال الأسواق، والفنادق، والميناء- بدور في عملية التبادل التجاري الداخلي والخارجي، حيث يتم تصدير المنتجات الفلاحية والصناعية من المنطقة عبر المتوسط إلى الموانئ الأندلسية المقابلة وبعض الجزر المتوسطية، وتستقبل السلع والمنتجات القادمة من تلك المناطق، فكان ميناء مارتيل بمثابة نافذة على عالم شمال المتوسط.

وقد تزايدت أهمية مرسى تطوان (البحري/النهري)، الذي يقع بجوار قرية بني معدن على بعد حوالي كيلومترين من المصب، بعد سقوط مدينتي مليلة وسبتة بيد المروانيين حكام قرطبة، في بداية القرن

---

[1]- عبد العزيز توري، **ترغة**، معلمة المغرب، ج7، مطابع سلا، 1995، ص2328.

[2]- الوزان، **وصف إفريقيا**، م، س، ص326.. ابن الخطيب، **معيار الأخبار في ذكر المعاهد والديار**، م. س، 1977، ص71.

الرابع الهجري/10م - بالتضافر مع ميناء المزمة وبادس وطنجة وأصيلا- في لعب دور تجاري وحربي، ونذكر هنا أهمية تطوان المتزايدة بعد سقوط مدينة سبتة، الشيء الذي استدعى من الناصر الأموي الأمر بهدم المدينة الإدريسية تطوان وكل حجته في ذلك أنها تقطع على سبتة مرافقها وأنشطتها الاقتصادية، وتحديداً التجارية منها.

كما توفرت تطوان على الموارد الأساسية اللازمة لقيام تجمعات مدنية، فتشكل بها مجتمعا ناتج عن تمازج بين القبائل المحلية (مجكسة، وبني سكين، وقبائل أنجرة، الشرفاء الأدارسة، وبعض القبائل العربية، والقادمين من الأندلس وبعض البلدان الأوربية) نتج عن كل ذلك تجمع سكاني لعب دوراً في تاريخ تطوان الوسيط.

وعند الحديث عن الوضع الاقتصادي لمدينة سبتة نجد أن موضع المدينة لم يكن مهيئاً للفلاحة، وكذلك موضع بليونيش المجاور نظراً لكونه مرسى جبلي. فكانت تستورد احتياجاتها المتزايدة من بعض الجهات المنتجة البعيدة عنها. وحدث أن استجلبت المادة الفلاحية من إقليم دكالة، وخاصة أمازيجان (الجديدة حالياً)، مثل ما قال ابن سعيد " وهي فرضة مشهورة تحمل منها مراكب القمح إلى سبتة وغيرها"[1].

وتوفرت لمدينة سبتة مصايد للحوت لنحو مائة نوع، ويصاد بها السمك المسمى التن الكبير. ويصف لنا الإدريسي الطريقة التي يصطاد بها أهل سبتة " زرقاً بالرماح وهذه الرماح لها في أسنتها أجنحة بارزة تنشب في الحوت ولا تخرج وفي أطراف عصيها شرائط من القنب الطوال ولهم في ذلك دراية وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك"[2].

وتشتهر سواحل مدينة سبتة بالمرجان، حيث كان يتم استخراجه، وكانت تتوفر على سوق خاصة بتفصيله وحكه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه، ثم يصدر كمية مهمة منه إلى غانة وجميع بلاد السودان، لأنه

---

[1] – ابن سعيد، **الجغرافيا**، م. س، ص137.
[2] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص 528.

في تلك البلاد يستعمل كثيراً[1]. ويقال إن المرجان إذا كان في قعر البحر يكون رطباً ليناً، فإذا مسه الهواء اشتد، ويخرج منه في ذلك البحر كل سنة قناطير، وهو أنفس مرجان الدنيا، ويشتد عليه الطلب في الهند والصين، ويكون في بحر الزقاق بساحل قرية بليونيش من قرى سبتة، وهو مثل ذلك في الطيب أو أجل[2]. ومنها نوع من المرجان يعرف بمعدن المرجان الصالح يصنع منه قوبريات لطاف[3].

وكان لسبتة باع طويل في الميدان التجاري العالمي عبر خطوط التجارة البحرية إلى الهند والصين، شأنها في ذلك شأن مدينة الإسكندرية، ولهذا نجد ابن سعيد قد شبه مدينة سبتة في كثرة السفن الذاهبة والآيبة بمدينة الإسكندرية آنذاك، والإشارة إلى التجار الأغنياء الذين كانوا يبتاعون المراكب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة ولا يحوجون صاحبها إلى تقاضي[4]. وشملت الصادرات السبتية الذهب والخيول[5] وجلود الغنم والصوف والشمع والسكر[6]. كما شكلت سبتة نقطة استقطاب للتجار الأوربيين من جنويين ومرسيليين وقطلنيين وغيرهم حيث وجدوا سوقاً دولية للاستثمار فيها[7].

ذلك ما يتعلق بالتصدير، أما الاستيراد فكان يحمل إلى سبتة القُطن (الكتان) من الشام وتحديداً من مدينة عزاز شمالي حلب، التي كان يزرع

---

[1]-- الإدريسي، **النزهة**، ج2، م. س، ص 529.

[2] – المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص126.

[3] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م. س، ص79.

[4] – ابن سعيد، **الجغرافيا**، م. س، ص139.

[5]– اشتهر حاكم سبتة الكونت (يوليان) كمصدر للخيول. البيضاوية بلكامل، **سبتيم (Septem)**، معلمة المغرب، ج14، مطابع سلا، 2001، ص4856.

[6]– محمد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط، الدولة، المدينة، الاقتصاد**، [تنسيق محمد المغراوي]، ط 1999، ص378.

[7]– البيضاوية بلكامل، **سبتة**، المعلمة، م، س، ص4845.

فيها القطن الذي يحمل في المراكب إلى سبتة، ومنها يعم بلاد المغرب، فضلاً عن الجوخ وثوب الحرير وغير ذلك[1].

أما ما يتصل بالصناعة فقد كانت سبتة تتوفر على العديد من الصناع والعمال المهرة في المصنوعات المختلفة، وعلى الأخص الصناعات النحاسية، ومنها:

1- الشمعدانات: وهي التي تعرف بالمسارج التي تضيء بالزيت.
2- الجفان: وهي السفن والمراكب البحرية.
3- المحابر وغيرها وكانت هذه الأشياء تباع كما لو كانت من فضة[2].

ويشار إلى أن سبتة عقب تسليمها من قبل حاكمها القوطي يوليان إلى العرب ازدادت شهرتها نظراً لقيام نبلائها مع عدد من التجار بتطويرها اقتصادياً من خلال استعمالهم للذهب والفضة والنحاس والصفر، وغيرها من المعادن في صناعة متقنة، حتى أن مصنوعاتهم كانت تفوق مصنوعات دمشق من حيث التقنية والمواد الأولية. كما كانت تصنع في سبتة الزرابي الفاخرة، وجميع أنواع المنسوجات من الصوف والكتان، فكانت من أجود منسوجات ذلك العهد، وتصدر إلى كل أقاليم إفريقية وشمال المتوسط بواسطة تجار كانوا يأتون إليها من كل جهة، وظلت سبتة مدينة مزدهرة طوال العصر الوسيط[3].

كما كان لموقع قصر مصمودة مميزات إستراتيجية جعلت منه مجازاً إلى الأندلس، ومحطة تجارية على الطرق التجارية الكبرى، التي كانت تربط ما بين المغرب والأندلس والصحراء. ولم يكن غريباً أن تشهد هذه

---

[1] – ابن سعيد، **الجغرافيا**، م. س، ص154. محمد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط**، م، س، ص378.
[2] – الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م. س، ص317.
[3] – مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، م.س، ص216.

المدينة نشاطاً اقتصادياً متميزاً منذ القرن الثالث الهجري/9م[1]، وخاصة في مجال صناعة السفن، لأسباب كثيرة، منها:

1- وجود مواد أولية بالنواحي المجاورة، وأهمها الأخشاب الصالحة لصناعة السفن، بجبل أنجرة المجاور للقصر، والذي كان استغلالها الكثيف والمستمر سبباً لاستئصالها.

2- وجود نشاط بحري قديم عرفته منطقة المضيق.

3- ظهور مبادلات تجارية كثيرة ومتواصلة ما بين ضفتي المضيق.

4- بروز الحرص الشديد من قبل الأمويين، الذي ترافق مع مجهود كبير قاموا به قصد تعزيز تواجدهم في المنطقة لتقوية أسطولهم العسكري.

5- وأخيراً، ازدياد نشاط القرصنة البحرية ابتداءً من القرن (4هـ/10م).

وكان القسم الساحلي يشكل ممراً تستعمله الخطوط التي تنبعث من الشرق والجنوب، وتنتهي إلى الرأس الشرقي من شبه الجزيرة الطنجية. وأما الأنشطة الجهوية، فكانت في أغلبيتها ذات صبغة فلاحية: زراعات مختلفة بمنحدرات الأودية الساحلية، مع تربية المواشي بالمروج الواقعة بالمرتفعات المشرفة على الساحل، ومن غير شك أنه كان يتم استغلال الموارد الغابوية[2].

أما مدينة طنجة فقد استفادت من موقعها المجاور لشبه الجزيرة الأيبيرية كثيراً، حيث لعبت دوراً اقتصادياً كمحطة نهائية للخطوط التجارية البرية والبحرية، حيث كانت الطريق التجارية البرية الرئيسية القادمة من بلاد السودان عبر سجلماسة شمالاً نحو سبتة وطنجة، ثم تتجه بحراً نحو الشمال، وتتجه القوافل البرية المحملة بالسلع والمنتجات القادمة

---

[1]– كان للقصر الصغير دور ملاحي منذ العصور القديمة، حيث وجدت بأحوازه عدة مصانع لتمليح الأسماك، وربما شكل موضعه أو ضاحيته مدينة ليسا **(Lissa)** أو إكسيليسا **(Exilissa)**. أحمد صالح الطاهري، **القصر الصغير**، معلمة المغرب، م، س، ص6641.

[2]– الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م، س، ص322.

من شمال المتوسط إلى فاس، ومن هناك تتجه قوافل الشرق نحو تلمسان، وقوافل الجنوب نحو سجلماسة.

وعلى إثر ذلك غدت طنجة مستودعا كبيراً للبضائع، نظراً لتعدد المراسي المحيطة بها، كما لعبت الرياح دوراً في إجبار السفن القادمة من ناحية الغرب عبر ساحل المحيط على التوقف والحط في مراسي طنجة، لذلك ليس غريباً أن توصف بالسوق العامرة[1]. غير أن الأرض المحيطة بطنجة رملية ولا تصلح لزراعة الحبوب، باستثناء شعب (أرض محدودة تقع بين تليين) أو هو ما انفرج بين جبلين، أو مسيل الماء له جرفان[2]. تكثر فيها الحدائق التي تنتج بعض الفواكه[3].

المدن الداخلية

تميزت المدن الداخلية بتنوع مواقعها والتضاريس المحيطة بها بين المرتفعات والسهول، الشيء الذي ترتب عنه تنوع في المحاصيل الزراعية: الغذائية منها والصناعية. وكان لوقوعها على الطرق التجارية المتفرعة عن المحورين الرئيسيين: سبتة فاس- طنجة فاس، أن استفادت من عملية التبادل التجاري مع مختلف الجهات المجاورة لها. ولابد من إيجاد الفروق بين مستويات المدن الداخلية في الإنتاج والتبادل التجاري. وهنا نطرح التمييز بين المدن الصغرى التي كانت روافد المدن الكبرى. وفي ما يلي سنتوقف عند أبرز المحطات التجارية للمدن الداخلية.

من المعروف أن الأنشطة التجارية في مدن العصر الوسيط بشمال المغرب، كانت تقوم بشكل أساسي على المنتجات الفلاحية المتنوعة، ومدينة أزاجن (إيجاجين) التي نحن بصددها من المدن التي كانت تتوفر على عدد من هذه المنتجات، والتي كانت تشكل سلعاً بحد ذاتها، أو توفر المواد الخام والأساسية للصناعات المتنوعة.

---

[1]- البكري، **المُغرب**، م، س، ص108.

[2]- ابن منظور، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة، م1، حرف (ب)، [بدون تاريخ]، ص 292.

[3]- الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م، س، ص314.

ويتميز الجبل الذي يحتضن مدينة **اجاجن**، بخصب تربته. ويبعد هذا الجبل عن نهر اللُوكس بنحو عشرة أميال[1]، وهذه الأميال العشرة في سهل توجد به الحقول المحروثة وبساتين هذه البلدة، بما أن معظم الأراضي الفلاحية واقعة في الجبل، فهو غني بالأشجار والفواكه. ويرجع السبب في ذلك لى أن الجبل غني بالعيون والمنابع المائية الغزيرة. وهذه المعلومات سنقف على تفصيلها بناء على ما تمت معاينته من قبلنا[2]، فضلاً عن المستخلص من المصادر التي بين أيدينا، من ذلك:

1- **الأعناب والكروم**: وهي التي كانت تزرع في الجبل الأشهب، وبأصناف وأنواع متعددة، إذا كان من الصعب التأكد باستمرار إنتاج نفس الأصناف الفلاحية في نفس المكان فإننا نستطيع تصور متابعة الفلاحين نفس أساليب الإنتاج في تربة إزاجن على الرغم من توالي الحقب والفترات. هذا ما دفعنا إلى الاعتماد على ما جاء به محمد بن الحسن الوزان البعيد عن الفترة المدروسة بستة قرون تقريباً، ومبررنا أن الكاتب يستعرض المعلومات التي سبقته بمراحل.

وقد وصف الوزان تربة إزاجن بجودتها وشهرتها، ومنها الأعناب والكروم التي مثلت مصدراً لصناعة النبيذ بأصناف عدة، إلى الحد الذي سمح الملك (الوطاسي) لأهل أزاجن بصناعتها، وسبب هذا السماح هو ذلك العائد الوفير من هذه المنتجات الصناعية ذات الجودة[3].

2- **نبات الكتان:** ويعد من المحاصيل الهامة، وأهم مصدر لصناعة المنسوجات، التي تنافس إنتاج البصرة.

3- **القمح والقطاني:** وهي من المحاصيل الضرورية والأساسية للإنسان، وكان إنتاجها غزيراً في الظهير الفلاحي لمدينة أزجن، وعلى الخصوص في ذلك السهل الفسيح، الذي يبلغ طوله حوالي عشرة أميال.

---

[1]- الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م، س، ص307.
[2]- الزيارة الميدانية التي قام بها فريق من طلبة وحدة التكوين والبحث في التاريخ المونوغرافي في سنة 2005.
[3]- الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ص307.

وهذا الإنتاج الفلاحي يفسر لنا سبب حرص أمراء الريف من بني محمد الأدارسة، على اتخاذ مدينة أزجن والمنطقة المجاورة لها مركزاً عمرانياً للإقامة، واستقرار الحكم، فقد كان لأبي العيش أحمد بن القاسم جنون، ومن قبله أبيه، من البلد ما بين إجاجن إلى فاس جنوباً، ومنها إلى سبتة شمالاً.

ولعل القصة التي أوردها صاحب الاستبصار لأصدق دليل على الخصوبة التي تتمتع بها منطقة أزجن التي كان يسميها (بلد جنيارة)، ويقول عنها ضمن رواية كانت تردد في هذا المنوال "عليك ببلد جنيارة، فأنها مثل الدجاجة إن أصابها ديك أتت بالديك، وإن لم يصبها ديك أتت بالبيض، تحتك بالغبار وتلد"[1]، وهناك سهل جميل يقع بين المدينة والنهر (لُوكس)، حيث البساتين الكثيرة، وحيث يحصد القمح بوفرة هناك.

وتجدر الإشارة إلى أن سكان مدينة أزاجن استفادوا كثيراً من منتجات بلدهم، فلاحياً وصناعياً وتجارياً، الشيء الذي انعكس ايجابياً على مجتمع المدينة بالاستقرار. فضلاً عن العديد من المنتجات الفلاحية التي شكلت أساساً لقيام تجارة في المنطقة، أقيمت لها الأسواق داخل المدينة وخارجها، حيث كان يقام في اجاجن سوقاً أسبوعياً كل يوم ثلاثاء، يقصده أهل المنطقة بسلع البلاد وبالمؤن.

وكان في وسعنا الانتقال إلى مدينة الحُمر الواقعة مثل ما نعلم على مقربة من مدينة أصيلا جنوباً، غير أن المعلومات التي توصلنا إليها هي طفيفة لا تغني في شيء ما نبحث عنه البحث لدواع مجهولة لدينا استمرت متوارية طوال الفترة المدروسة، أضف إلى هذا ما سبق أن ذكرنا عن ظهور مدينة أصيلا في القرن الثالث الهجري/9م. وكيف ما كان الأمر فإن المساحة التي تموضعت بها مدينة الحُمر هي ذات أهمية محدودة من الوجهة الفلاحية وبالتالي من الناحية التجارية والصناعية. فمدينة **الحُمر** تتموضع فوق تل صخري، ومحاطة بسهل يتوفر على

---

[1] – المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص188.

أراضـي صـالحة لزراعـة القمـح والمراعـي، وتوجـد فـي الضـواحي عـدة أشجار مثمرة وبعض الكروم. ويجنى في البادية الكتان، نظراً لتوفر الميـاه التي يغدق بهـا واديهـا. لـذلك ترجـع أهميـة المدينـة إلـى خصـوبة الأراضـي المجاورة لها[1].

وتصف المصادر الثروات الفلاحية التي تتمتع بها مدينة تشُمس، من خلال ظهيرها الفلاحي، وكذلك غزارة المياه في نهرها، وأهمية هذا النهـر فـي عمليـة النقـل النهـري بالمراكـب للمنتجـات التـي يـتم تصـديرها عبـر الموانئ المغربية الأطلسية كأصيلا، أو المضيقية كطنجة وسبتة، وغيرهـا. فهي "آهلة كثيرة المياه والثمار، كثيرة الخصب والـزرع والضـرع، ومنهـا تشحن المراكب بالزرع، وعند انحسار البحر عنها تظهر فيها جزائـر فيهـا غدران يتصيدون فيها السمك"[2].

كمـا يتضـح الوضـع الاقتصـادي لسـوق كتامـة مـن خـلال التسـمية "سوق" حسب المصادر، والإشارات المصدرية إلى أنها تقع علـى مفتـرق الطـرق التجاريـة، فالمدينـة السوق تقع علـى محـوري طـريقين مهمـين مـن الطـرق التجاريـة الرئيسية، أحـدهما يبـدأ مـن طنجـة عبـر أصـيلا، والآخـر يأتي من سبتة إلـى فـاس، وكلاهمـا يمـران بسـوق كتامـة، وبـذلك يمكننـا أن نسـتدل علـى دورهـا التجـاري[3]. والأمـر يتعلـق هنـا بوجـود موضـع لسـوق أسبوعي يخصص للتبـادلات التجاريـة بـين سـكان المدينـة والقبـائل القاطنـة على مشارفها أو بالقرب منها.

كما نجد إشـارة أخـرى إلـى الـدور الاقتصـادي لسـوق كتـامي، الـذي كانت تدخله المراكب عبر نهر اللوكس، وترسي فيـه[4]. وهـذه الإشـارة تـدل على استفادة قصر كتامة من الميناء المجاور في نشاطه التجاري، ونقصـد

---

[1] – الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م. س، ص311. كربخال، **إفريقيا**، م. س، ص197. الفكيكي، **مقاومة الوجود الأيبيري**، م. س، ص355.

[2] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص114. المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص140، 189.

[3] – البكري، **المُغرب**، م. س، ص109–110، 111، 114.

[4] – المجهول، **الاستبصار**، م. س، ص189.

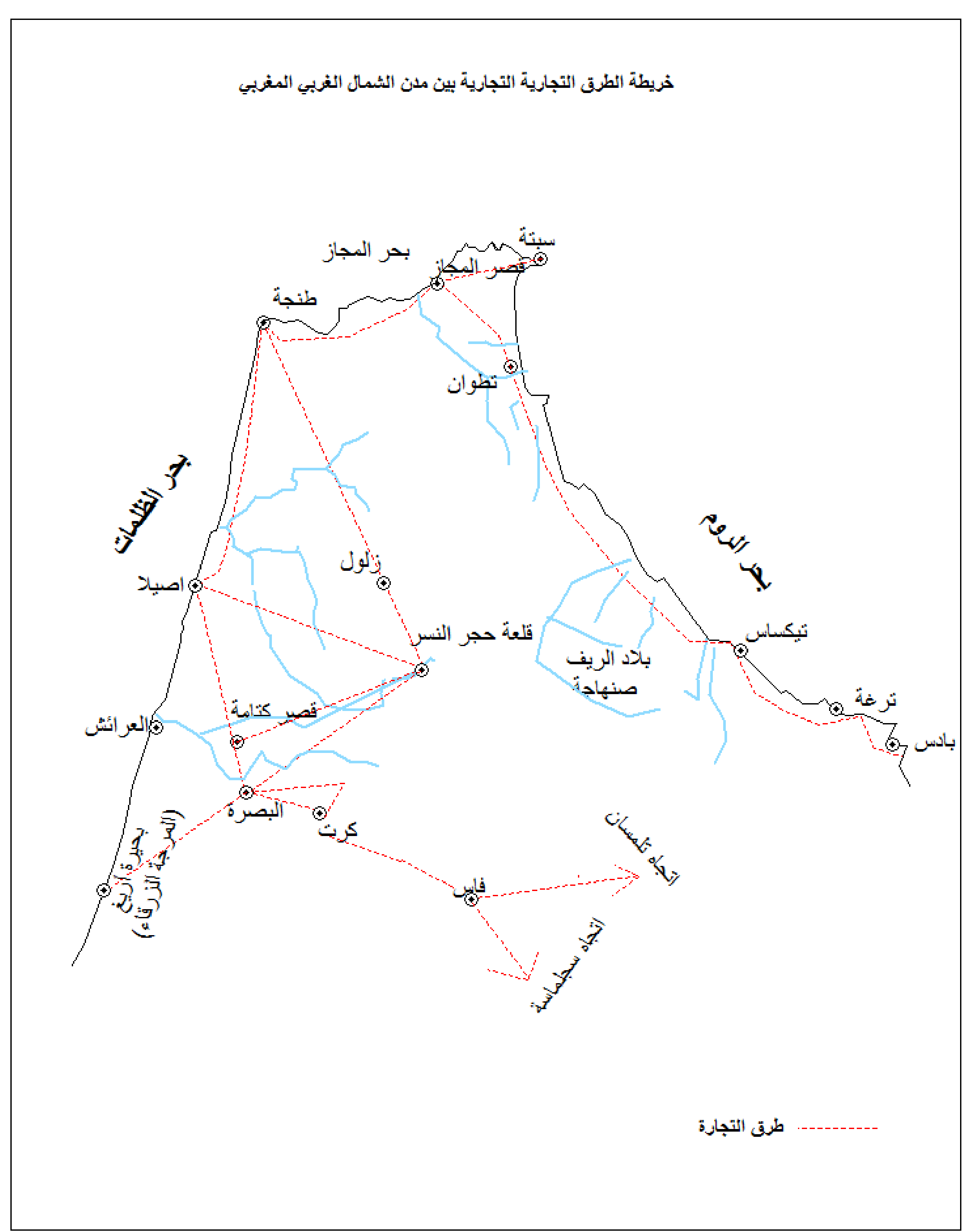
بـه مينــاء تشُـمس. كمـا كـان سـوق كتامـة يسـتفيد كـذلك مـن مينــاء مدينــة العـرائش، حيـث كـان هنـاك ميناء للسـفن الصـغيرة، ولكـن مـدخل النهـر خطير جداً على السفن. وأهم ما تجود به العرائش – كما هو الأمر بالنسبة لمنطقة الغرب- الملح، حيث تنتشر الملاحات في عدة جهات محصورة بـين ضـواحي العـرائش وجبـل كـرت، مـرورا بضـواحي القصـر الكبيـر، ووادي مضى وجبال البيبان[1].

وأخيراً تطل المعمورة على مجال غابوي، ولكن هنـاك مجـال زراعـي يقع على ضفتي سبو قبل مصبه في المحيط، ينتج محاصيل متنوعة أهمها القمـح، كمـا كـان لموقعهـا المشـرف علـى مصـب نهـر سـبو فـي المحـيط الأطلسي دور في تحكمها في جزء من الأنشطة التجارية البحرية والبريـة. كما اضطلعت المعمورة بنصيب فـي صـناعة المراكب البحريـة منذ عهد الأدارسة، نتيجة لإقبال سكان المنطقة على ركوب مياه البحر والنهر، وقد تحولت الظروف لصالح هذه الصناعة على العهد المرابطي[2].

---

[1] – الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م. س، ص302. مارمول، **إفريقيا**، ج2، م. س، ص188.
.

2– أحمد قدور، **المعمورة والبصرة**، م. س، ص37– 53.



المصدر: الباحث اعتماداً على البكري

ونعتقد أن ما استعرضناه غير كاف لما يأمله كل باحث ولكن نرجو مما قدمناه أن يكون نواة لبحوث متخصصة أخرى. وحسبنا في ما يلي استعراض نماذج المدن والحصون في الشمال الغربي المغربي وهي: البصرة نموذج للمدن الداخلية عاصمة الإقليم، وأصيلا نموذج للمدن الساحلية المتوسطية، كُرت نموذج للمدينة الحصن، وقلعة حجر النسر نموذج للقلاع.

الباب الثالث

النماذج

سبقت الإشارة في المقدمة إلى أنه تم اختيار أربعة نماذج للمدن والحصون، هي: مدينة البصرة، ومدينة أصيلا، وحصن كُرت، وقلعة حجر النسر. وأشرنا إلى دواعي الاختيار لكل منها على حدة، والواقع أن هذا التحديد بني على عدة دواعي منها: أن البصرة مثلت العاصمة السياسية والإدارية لأدارسة الريف بعد خروجهم من فاس، وبذلك كان لها نصيب في رسم أحداث منطقة الشمال الغربي المغربي خلال الفترة من القرن الثالث إلى بداية القرن الخامس الهجري. فضلاً عن كون البصرة من المدن التي استحدثت في المنطقة على عهد الأدارسة ولم تكن امتداداً لموقع حضري سابق. ويأتي دافع اختيار مدينة أصيلا من أهمية موقعها على المحيط الأطلسي، وتزامنها في التأسيس مع مدينة البصرة، وتضافر المدينتين معاً في احتضان الدولة الإدريسية في مرحلتها الثانية، وما قدمته أصيلا من دور على الصعيد الاقتصادي. أما دواعي اختيار حصن كُرت فتأتي من كونه مثل نقطة لتجميع احتياجات الأدارسة من الغذاء. وتمثل قلعة حجر النسر المعقل الذي احتمى فيه الأدارسة من أعدائهم، ومنطلق لعملياتهم الحربية طوال الفترة التي اهتمت بها الدراسة.

الفصل الأول

البصرة وأصيلا نموذجا المدن الداخلية والساحلية

أولاً

البصرة نموذج المدن الداخلية

الملاحظ أن معايير اختيار الموقع الجغرافي للمدينة والمتمثلة بضرورة توفر الموارد المائية ومواد البناء، والشروط الصحية المرتبطة بالمناخ والشروط الفلاحية نجدها متوفرة في مدينة البصرة. وهذا ما يجب مناقشته في الموضع المخصص لذلك. وما ينبغي علينا طرحه الآن هو تساؤلات أخرى متصلة بالسياق التاريخي لمدينة البصرة، وسنحاول في ما يلي الإجابة على تلك التساؤلات من خلال النصوص والتقارير الأثرية والزيارة الميدانية.

1- إشكالية الموقع والتسمية والتأسيس

سنتعرض في هاته التناولة إلى مناقشة إشكالية الموقع والموضع، كمحاولة للإجابة عن سؤال هو لماذا اختار الأدارسة ذلك المكان لبناء المدينة؟. ثم سنتعرض لموضوع التسمية المتميزة بين تسميات المدن الأخرى، وأخيراً سنتطرق للتأسيس، وفقاً لما يلي.

- **الموقع:** قبل أن نتعرف على تسمية البصرة بهذا الاسم، يبرز لنا السؤال التالي: أين تقع البصرة؟

نلاحظ منذ البداية أن المصادر العربية لم تتفق على وضع تحديد دقيق لموقع مدينة البصرة، لاعتبارات كثيرة يأتي في مقدمتها عدم زيارتهم للموقع، أو جل مادونوه منقولاً عن تجار ورحالة وإخباريين مغاربة ومشارقة وغيرهم، فنحت تحديداتهم مناح شتى.

حيث نجد الأصطخري[1] في تحديده غير موافق لما نعرفه عن موقع مدينة البصرة، ويمكن أن نقبل منه كونها كانت ضمن إقليم طنجة، وإلى

---

[1] – الأصطخري، **مسالك الممالك**، مصدر سابق، ص38 ، 39 ، 46.

حد ما ما ذكره من المسافة الفاصلة بين مدينة فاس والبصرة، ومن فاس إلى البصرة تسع مراحل[1] ".

وهي عند البكري[2] "بين شرفين"[3]. وما نقبله منه هو وصف الطريق المؤدي إليها، وهو مخالف لما نعرفه اليوم، وحتى لما سبق أن زودنا به عن المسلك الرابط بين مدينة الأقلام وجرماية، فمدينة البصرة بعيدة كل البعد عن المدينتين المذكورتين. وما نحتفظ به مما ذكره البكري للمناقشة هو تقديم المسافة بين تشُمس[4] والبصرة بأقل من مرحلة. ونبعد من المناقشة ما قدمه البكري عن العلاقة الجغرافية بين البصرة ومنطقة سوس، لكونه مخالف للواقع.

وأورد ياقوت قولاً على لسان أحد مصادره واسمه البشاري أن "البصرة مدينة بالمغرب كبيرة كانت عامرة... وكان قول البشاري هذا في سنة 378هـ".

أما ابن سعيد المغربي فتحديده للبصرة غير دقيق، لكونه اكتفى بالإشارة إلى أن المدينة واقعة في الشمال الغربي من مدينة مكناس.

ويقدر الحميري أن المسافة الفاصلة بين البصرة وفاس تصل إلى مرحلتين أو ثلاث.[5]

إذا ما قارنا ما بين المذكور من قبل الوزان وما ذكره مارمول كربخال نجد أن تحديدهما لموقع البصرة متركز على عين المسافة الفاصل بينها وبين مدينة فاس، من جهة، ومدينة القصر الكبير، من جهة ثانية. وهنا نجد الاختلاف في تقدير المسافة. ففي الوقت الذي يجعل

---

[1] – المرحلة هي مسيرة يوم واحد تقريباً، وتقدر بأربعة وستين كيلو متراً تقريباً.

[2] – البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص 110.

[3] – أي هضبتين أو نجدين. ورد تعرفين النجد بأنه فياف الأرض وصلابها وما غلظ منها وأشرف من الأرض في ارتفاع من الجبل معترضاً بين يديك، يرد طرفك عما سواه، ولكنه ليس بالشديد الارتفاع. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، م5، م. س، ص261– 262.

[4] – البكري، **المُغرب**، ص114. الإدريسي، **النزهة**، ص 530. **الاستبصار** لمؤلف مجهول، ص 189)، ويمكن العودة إلى الفصول السابقة من هذا البحث.

[5] – الحميري، **الروض المعطار**، م. س، ص 108 و109.

الحسن الوزان المسافة بين فاس والبصرة نحو ثمانين ميلاً[1]، يذكر مارمول كربخال أنها لا تتجاوز أربعة وعشرين فرسخاً. والأمر مماثل بالنسبة لقياس المسافة التي تبعد بين البصرة والقصر الكبير، فالفرق يصل بالنسبة إلى الأول عشرين ميلاً، بينما يصل بالنسبة للثاني إلى سبعة فراسخ[2].

أما ابن عذارى فقد قربنا من ضبط الموقع، وإن كان ذلك على بعد. والفائدة الأولى هي أن مدينة البصرة قريبة من جبل صرصر المعروف في الجغرافيا المعاصرة، أضف إلى ذلك أنه جعل المسافة بينها وبين جبل صرصر تصل إلى ثمانية أميال[3].

والسؤال هنا هو هل يمكن لنا تحديد موقع البصرة اعتماداً على مجرى المياه الذي يخترقها أو يمر بجوارها؟ الحقيقة لدينا معلومات مستقاة من المقدسي وابن حوقل والإدريسي، ومارمول كربخال، مضمونها أنه كان يخرج من أحد جبلي البصرة ماء يمر حتى يصب في نهر لوكس. فماذا يمكن استنتاجه مقارنة من الخريطة؟

واللافت للنظر أن من أقدم المصادر التي تحدثت عن البصرة هي وصف المقدسي أن أحد جبال البصرة كان يتوفر على المياه، يقول: "... وهذا الواد أصله من مائين يخرج أحدهما من جبلي البصرة [فيركب أهل البصرة] في مراكبهم بأمتعتهم حتى يصلوا البحر..."[4]. ويعرف هذا الواد بـ "امضى" والذي يجري خارج سورها الغربي[5].

---

1 – الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، مصدر سابق، ص 310.

2 – الفرسخ الواحد يعادل ستة كيلو مترات. وطول المرحلة حوالي 7 أو 8 فراسخ، وبالتالي فإن المرحلة تساوي حوالي 64 كيلو متراً. أحمد الطاهري وأخرون، **مدينة البصرة من خلال المصادر التاريخية والمخلفات الأثرية**، م.س، ص75. مارمول كربخال، **إفريقيا**، مصدر سابق، ص134.

3 – ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص103.

4 – المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، دار صابر، بيروت، طبع ليدن، 1909، ص 230.

5– أحمد قدور، **المعمورة والبصرة**، م.س، ص 38.

ويأتي مؤرخ من العصر الحديث هو مارمول كربخال ليقول عن مدينة البصرة: " وشيدت هذه المدينة على نهر لكوس في سهل واقع بين جبلين"[1].

وربما نتساءل عن أسباب إدراج أراء المؤرخين والجغرافيين عن موقع مدينة معروفة اليوم معرفة جيدة بفضل الأبحاث الآركيولوجية والتحري الميداني، لا سيما وأن هناك بقايا أثرية من المدينة لازالت إلى اليوم شاهدة على بعض سمات الموقع والمراحل التاريخية التي مرت بها المدينة. والجواب الذي نقدمه أنه لم يكن هناك أي غرض لتقديم أراء القدامى سوى تقديم نظرة تبين مدى اختلاف الإخباريين، وجغرافيين ومؤرخين.

نتائج البحث الميداني: ننتقل من غموض المصادر واضطرابها إلى التعريف بموقع البصرة. فبعد التدقيق في تلك الروايات، ومن خلال الزيارة الميدانية للموقع، تتضح لنا الحقائق الآتية:

1- تبعد البصرة عن الساحل المتوسطي من جهة تطوان بحوالي 40 كلم، وبحوالي 20 كلم جنوب مدينة القصر الكبير، وتبعد عن مدينة سوق الأربعاء بحوالي (22 كلم)، وعن مدينة وزان بحدود (33 كلم). وتقع بعد جماعة سيدي عمر الحاضي التي تبعد عن البصرة بحوالي 2 كلم، دائرة احد كورت، إقليم سيدي قاسم. و33 كلم من سوق الإربعاء.

2- وموضعها يقع على هضبة تشرف على وادي مضى **(Meda)**، من ناحية الغرب، وعلى طريق سوق أربعاء الغرب باتجاه وزان، من ناحية الشرق، وعلى نهر لُوكس، من ناحية الشمال الشرقي.

3- كان موضعها على مجرى مائي، قد وفر لها الكثير من المياه اللازمة للفلاحة. حيث كانت تقع على أحد روافد نهر سفدد "لكوس"، ثم جف هذا الرافد في فترة من الفترات لا نعرفها على وجه الدقة. ذلك المجرى المائي كان مصدره أحد الجبلين اللذين يتوسطهما موضع مدينة

---

[1] – مارمول كربخال، **إفريقيا**، مصدر سابق، ص134.

البصرة، وهو الجبل الغربي.هذا الجبل هو "صرصر"، ويرجع ترجيحنا له استناداً إلى نص ابن عذاري "كثير المياه"[1]. مشاهدتنا له غير بعيد عن الموقع.

4- موضع المدينة بين ربوتين، في أرض فلاحية، ويغطي جزءاً من الموقع قرية تعرف بدوار (جعاونة البصرة). ويظهر أن اختيار الموضع كان موفقاً، فهو عبارة عن فضاء يقع بين مرتفعين، يجمع بين المكان الصالح للسكنى، والفلاحة والمرعى.

3- والزائر اليوم لموقع مدينة البصرة يشاهد بقاياها على الطريق الرئيسي الرابط بين مدينة سوق الأربعاء الغرب ووزان، بعد الممر الطرقي على خط السكة الحديدية بالجماعة القروية سيدي اعمر الحاضي. ويتموضع الموقع الأثري للبصرة بالقسم الشمالي من قرية جعاونة البصرة. وما تبقى من المدينة هو جزء من سورها الشمالي، المبني بالحجارة، والذي يمتد من الغرب إلى الشرق.

ويبدو من خلال البقايا المتناثرة على السطح أن الموقع كان مأهولاً في ما قبل، حيث وجدت فيه بقايا كثيرة من قطع الخزف المسمى "بربر" مكونة من قدور، كؤوس، جرات، قناديل، قُلات، أباريق، قوارير، الخ[2]. لذلك يذهب تسوت **(Tissot)**، إلى أن المدينة كانت تقوم في موقع المدينة الرومانية تريمولا **(Tremulae)**[3]، وهو قول لم تدعمه الدلائل العلمية الكافية. وبعد أن تعرفنا على الموقع ماذا بشأن تسمية البصرة بهذا الاسم؟ ذلك ما سنناقشه في الفقرة اللاحقة.

- التسمية: لا يوجد في المصادر المعاصرة للفترة المدروسة ما يؤكد علاقة التسمية (البصرة) بالمشرق، باستثناء المطابقة الحرفية للكلمة، مما يدعو إلى التأمل في الأمر. فالمعروف أن التسمية عربية، وربما عمد الأدارسة إلى تسمية مدينتهم بـ (البصرة) تيمناً وتذكيراً ببصرة

---

[1]- ابن عذاري، **البيان**، م.س، ج1،ص103.

[2] – **تاريخ الغرب عبر مواقعه**، مؤسسة مشيش العلمي، دوجنبر، 1996، ص16.

[3] – نقلاً عن: ج. يفر، **دائرة المعارف الإسلامية، مادة بصرة**، م3، ص.668

المشـرق. والواقـع أن الحسـن الـوزان هـو الوحيـد الـذي أشـار إلـى أن الأدارسة سموها بالبصرة تذكيراً ببصرة بلاد العرب.[1]

ولـيس هنـاك فائدة كبيـرة يمكـن الخـروج بهـا مـن مناقشـة معنـى لفظ البصـرة لغويـاً، نظـراً لكـون التعريـف اللغـوي لا ينطبـق علـى بصـرة المغرب[1]. ويورد ياقوت الحموي قول بعض المغاربة إن البصرة تعني لديهم الطين العلك، وقيل الأرض الطيبة الحمراء. ويؤكد ابن منظور هذا القول: إن " البصرة تعني الطين العلك الجيد"[2] ، وهناك رأي لابن منظور في التعريف بالبصرة[3].

ـ حول التأسيس

بعـد أن تعرفنـا علـى موقـع المدينـة الإدريسـية فـي الشـمال الغربـي المغربـي، نجد أنفسنا ملزمين بالإجابـة عن السؤال التـالي: متـى تأسست مدينة البصرة؟

لـم تكـن البصـرة مـن المـدن القديمـة التـي تـم تطويرهـا أو أنهـا قامت على أنقاض مدينة قديمة أو بنيت فوق موقع سابق، دليلنا في ذلك ما أشار إليـه البكـري مـن أن البصـرة مدينـة محدثـة، أي مدينـة بنيـت فـي الفتـرة الإدريسية.

يشير البكري إلى أن البصرة «مدينـة... محدثـة... أسست فـي الوقت الذي أسست فيه أصيلا[4]، أو قريباً منه"[5]، وهو ما أشار إليه ابن عذاري،

---

[1]– الوزان، (الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف بليون الإفريقي)، **وصف إفريقيا**، ج1، [ترجمه عم الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر]، ط2، دار الغرب الإسـلامي، بيـروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، 1983، ص310.

[1]– ياقوت الحموي، (شهاب الدين أبي عبد الله)، **معجم البلـدان**، دار الرشـاد الحديثـة/ دار صادر ، بيروت، [بدون]، المجلد الثاني، مادة بصرة.

[2]– ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، المجلد الرابع، [بدون]، ص67.

[3]– والتعريف الذي ينطبق على موقع المدينة هو ما ورد في لسان العرب مـن أنـه يطلق اسم البصرة على الأرض إذا كانت حمراء طيبة. ابـن منظـور، **لسـان العـرب**، دار المعارف، القاهرة، مجلد 1، [بدون]، حرف الباء، ص 292.

[4] – مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج2، ص 198، ويمكن العودة إلى الفصول السابقة مـن هـذا البحث.

[5]– البكري، **المُغرب**، م.س، ص110–111.

ولـم تتعـرض المصـادر الأخـرى لتـاريخ التأسيس، علـى اعتبـار أن مدينـة أصيلا تأسست سنة 229هـ /844م[1].

ومـا يمكـن لنـا قراءتـه فـي مصـادر أخـرى يبعـد فـي نظرنـا عـن الصواب، وذلك بالإشـارة إلـى إدريس الثـاني وابنـه محمـد، وأخيـه يحيـى. والمعروف أن البصرة كانت منذ بداية التقسيم مـن نصيب القاسـم، ولـيس أخيه يحيى كما أشار البعض لذلك. والسؤال هنا هل القاسم هو الذي أحدث البصرة؟ الواقع أن المصادر لم تسعفنا بإجابة واضحة عن المؤسس، فهل يمكن لنا أن نقترح اسم القاسم بـن إدريـس؟ الاحتمـال علـى إحداث المدينـة كـان بإشـارته وتـدبيره وربمـا بإشـرافه، والشـاهد علـى ذلـك أن كـلاً مـن: البكري وابن خلدون قد وضعاها من نصيب القاسم بن إدريس[2]. فلا يسـعنا سوى أن نميل إلى ترجيح الرأي الثاني القائل إن البصرة كانت من نصيب القاسم، حيث إن المصادر تجمع على أنـه كـان حاكمـاً علـى منطقـة الشـمال الغربي، طنجة وما إليها.

ولا يقف ضد هذا الاحتمـال سوى مـا علمنـاه مـن انتقالـه إلـى نـاحيتي أصيلا وطنجة، وتغلب أخاه عمر عليه، والاستمرار في الجواب يستدعي منا معرفة تاريخ الانقلاب الذي تعرض لـه القاسم من قبل أخيه عمر. وهذا لغز تاريخي ما يزال غامضاً. وكل ما يمكننا الإدلاء به هو أن القاسم حكم البصرة، ثم أخـوه عمـر، ثـم علـي ب عمـر، ثـم القاسـم مـرة أخـرى، حسـب البكري[3]. ويضيف ابن عذاري أن المدينة قد حكمت مـن قبـل ولـده إبـراهيم بـن القاسـم (317- 323هـ) مـن بعـد أبيـه، ثـم عـدد مـن الأمـراء الأدارسـة منهم أبو العيش عيسى وأحمد بن القاسم[4].

---

[1] – ابن عذاري، **البيان**، ج1،م س، ص103.

[2] – البكري، **المُغرب**، ط باريس، ص124. ابن خلدون، العبر ، القسم الثاني من المجلد 6، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1959، ص447.

[3] – البكري، **المُغرب** م.س، ص124.

[4] – ابن عذاري، البيان، م.س، ص235– 237. إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط3، 1993، ص 125.

وبناء على ما سبق، يمكن القول إن البصرة تأسست في العقد الثالث من القرن الثالث الهجري.

وكان للقبائل المحلية (كتامة ومصمودة) دور في تنمية المدينة، بل ربما كانت تشكل تجمعاً سكانياً في الموقع قبل الفترة الإدريسية، ثم طوره الأدارسة إلى مرتبة مدينة، ويميل إلى هذا الرأي الأستاذ دانيل أوسطاش[1]، وعبد العزيز توري[2]. ومع كل ذلك، فلا يزال هناك الكثير من الغموض الذي يكتنف موضوع فترة التأسيس والتطور والاندثار، نتيجة قصور المعلومات المصدرية، من ناحية، وعدم استكمال الحفريات الآركيولوجية، من ناحية أخرى. وسوف نتعرض لموضوع التنقيبات الأثرية، وأهم نتائجها، في موضع آخر.

وتفيد نتائج البحث الآركيولوجي الجزئي أن:

1- مرحلة التأسيس الأولى: قبائل كتامة، القرن الخامس الميلاًدي ومطلع السادس، حيث شكلت تجمعاً سكنياً، مما دفع بالأدارسة لتنميته وتطويره في القرن 3هـ/9م.

2- مرحلة النشأة الأصلية (القرن الثالث هـ/ التاسع الميلاًدي) تأسست أصيلا في 229هـ وهو هذا تاريخ البصرة أو قريباً منه. ففي تقسيم محمد بن إدريس للمملكة، جاءت البصرة من نصيب القاسم، ثم إبراهيم ابنه من بعده، ثم أبو العيش أحمد بن القاسم المشهور بكنون (أو جنون).

3- مرحلة الاحتلال الخارجي، العبيدي/الأموي، (ق 4هـ/10م)، وفي هذه المرحلة، كان يتم تعين ولاة على البصرة من قبل العبيديين والأمويين.

---

1 -Eustache (D), **Corpus des dirhams Idrissites et Contemporains, collection de la Banque du Maroc et autres collection**, Rabat, 1970, P.119. .

2- عيد العزيز توري، معلمة المغرب، ج4،مطابع سلا، 1991، ص1253- 1255.

وفي ما يلي جدول يوضح موقع مدينة البصرة ضمن التقسيم الذي أجراه محمد بن إدريس للمغرب، وتوزيعه إلى ولايات بين أخوته القادرين، وذلك حسب النصوص المتوفرة:

اسم الأمير	الولاية عند البكري	عند ابن أبي زرع	عند ابن عذاري	عند ابن الخطيب	عند ابن خلدون	عند السلاوي
يحيى بن إدريس	داي وما والاها	البصرة وأصيلا	...	البصرة وأصيلا	مكناسة وغياثة وأصيلة والعرائش وورغة	البصرة وأصيلة والعرائش وورغة
القاسم بن إدريس	البصرة وطنجة وما والاها	طنجة وسبتة وحجر النسر، الخ	طنجة وما يليها	طنجة وسبتة وحجر النسر، الخ	طنجة وسبتة وحجر النسر، الخ	طنجة وسبتة والحجر

لكن يظل السؤال كيف كانت مدينة البصرة، أو بمعنى أخر **هل يمكن لنا من خلال المعطيات والبقايا أن نقدم وصفاً للمدينة؟.**

قبل التعرض للأوصاف التي كتبها الرحالة والجغرافيين عن مدينة البصرة، نتوقف عند المشهد العام للموقع. ولا يوجد غير محمد الحسن الوزان ممن يمكن التعلق به لتقديم رسم محيط المدينة الأثرية. ففي عهده كانت أسوار البصرة ما تزال قائمة وسط حدائق مهجورة منذ أن تعرضت للتخريب المشار إليه سالفاً. وهناك عدد من المصادر التي سنناقش المعطيات على ضوئها. ولعل الحفريات التي أجريت بعين المكان من شأنها أن تقدم توضيحات جزئية، إذ أن مجالها لم يحظ بالتنقيبات الشاملة.

المعلوم أن البعثة الأمريكية/المغربية قامت بعدد من التنقيبات في موقع البصرة خلال عامي 1980(11دراسة)، و1981(7 دراسات). توصلت إلى ما يلي:[1] أن البصرة عرفت ثلاث مراحل هي التي ذكرناها سابقاً حين التحدث عن التأسيس.

[1] – موقع مدينة البصرة، مقتبسات من الورقة العلمية التي قدمها معهد الآثار بالرباط، في الندوة الدولية التي أقيمت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، تحت عنوان: "**المواقع**

1- أبرز المعالم العمرانية لمدينة البصرة

تعددت أوصاف المصادر لمدينة البصرة، وهي بتعددها ترسم لنا لوحة تاريخية واضحة للمدينة خلال المراحل التي مرت بها، والسؤال هو ماذا يمكن أن نقول على مساحة المدينة؟.

من خلال النصوص نجد أن كل من الأصطخري، (ت 346هـ) والمقدسي، والبكري، يصفون البصرة بقولهم إنها كانت " مدينة كبيرة واسعة"[1]. بينما يذكر كل من ابن حوقل، والشريف الإدريسي أن "البصرة كانت مدينة مقتصدة"[2].

وبالمقارنة مع الفترات التاريخية التي ينتمي إليها هؤلاء نجد أن هنالك اختلافاً بينها، وبالتالي لابد أن تختلف النظرة إلى المدينة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك من زار المدينة وهناك من كتب عنها عن ما سمعه أو تناقلته المصادر الأخرى. وبالاستناد إلى نتائج الأبحاث الأثرية نجد أن البصرة بمقاييس عصرها ومقارنة بالمدن المجاورة والمعاصرة يجوز أن نقول إنها كانت من كبريات مدن المنطقة في بداية القرن الرابع الهجري/10م ، والتفاوت في المساحة هو بمقياس نسبي فقط.

الأثرية في منطقة الغرب بين البحث العلمي والبعد التنموي"، بالتعاون مع جامعة الغرب البرتغالية، ومؤسسة سيدي مشيش العلمي، خلال يومي(23، 24) نونبر، 2005.

[1] – الأصطخري، **مسالك الممالك**، مصدر سابق، ص 38. المقدسي، **أحسن التقاسيم**، م.س، ص230. البكري، المغرب، مصدر سابق، ص 110.

[2] – ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، مصدر سابق، ص 81. الإدريسي، **النزهة**، ج2، م.س، ص531-532.

صورة (1) توضح جزء من سور مدينة البصرة، ويلاحظ عليه أثار التخريب.



ونجد عند الوزان أن البصرة "تحتوي على **ألفي كانون** (دار)[1].

وبصفة عامة، يمكن القول إن المدينة بدأت بسيطة، ثم تطورت وبلغت أوج تطورها كمدينة متوسطة الحجم، بحكم موقعها، ودورها كمصيف، وكمحطة تجارية، وكموضع لزراعة المنتجات الفلاحية والعديد من الصناعات وتصديرها محلياً وخارجياً، وأخيراً كعاصمة لإمارة صغيرة (أدارسة الريف). كما كانت البصرة تتوفر على دور ومعامل لصك العملة الإدريسية[2]. وبدأت تتضاءل أهميتها وبالتالي حجمها بعد القضاء على الأدارسة، وتحول طريق التجارة البري إلى البحري.

هنا نعتقد أن المقاييس لدى المؤرخين تختلف باختلاف الزمان، فما كان كبيراً في عهد الإنشاء لم يكن كذلك في عهد (الوزان) فإذا سلمنا بصحة الوصف فإن وصف الأصطخري والمقدسي والبكري يرجع إلى عهد ازدهار البصرة خلال القرون من الثالث إلى الخامس الهجري/9-11م، أما وصف الوزان فيرجع إلى مطلع العصر الحديث حينها قد

---

[1] - الوزان، **وصف إفريقيا**، مصدر سابق، ص 310-311.

[2] - دانيل أوسطاش، **الجامع في الدراهم الإدريسية**، منشور ضمن مجلة جمعية تاريخ المغرب، عدد2، سنة1996.

كان أفل نجم المدينة بقرون، حيث اندثرت كلية في القرن السادس الهجري/12م، ومع ذلك فقد أمدنا بما سبق أن اختزلته ذاكرته من قراءة المصادر العائدة إلى فترة البصرة.

2- المحيط الخارجي: مما سبق، يتضح بجلاء أن المدينة تعرضت لتجديد بناء السور، وتطور في البناء الداخلي لمرافق المدينة، وبالتالي تطور في المساحة. وهذا ما نلمسه من المصادر حيث ورد عند كل من ابن حوقل والإدريسي أن السور كان غير منيع، مما يدل على أن المدينة لم تكن ذات طابع عسكري، غير أن الواقع يشير إلى أن السور كان دفاعياً، إذ بني من حجارة متوسطة الحجم.

وإذا صدقنا ما قاله بعض الباحثين فإن ارتفاع السور يصل إلى ما يقرب من (7م)، وبعرض أكثر (1.5 م)، ويحيط بالتجمع السكاني الأصلي داخل المدينة الذي يبلغ محيطه (2.5 كلم)، وبالتالي تكون مساحة المدينة داخل السور ثلاثين هكتاراً تقريباً، تكون شكلاً بيضاوياً قريباً من المستطيل، يصل طوله إلى 6.25 م)، وعرضه إلى حوالي (5.00 م)[1]. وهذا يستدعي منا توضيح الأمر، فالواقع أن السور ليس دفاعياً، والدليل على ذلك توجه سكانها نحو قلعة حجر النسر كلما تعرضت مدينتهم للحصار[2]. ويضيف ابن عذارى على هذا الوصف بأن **سورها** كان مبنياً بالحجارة والطوب[3]. وكان الطوب الذي بني به **السور** يبدو محمراً من بعيد"[4].

أما مادة البناء التي استعملت في بناء السور فقد كانت من حجارة متوسطة الأحجام، وهي الأحجام المستعملة عادة في بناء الأسوار. ولم يبق صامداً من السور إلا الجزء الشمالي الغربي، الذي كان يضم ثمانية

---

[1]- راجع:أحمد الطاهري، وإبراهيم بدوي، **مدينة البصرة من خلال المصادر التاريخية والمخلفات الأثرية**، ندوة المواقع الأثرية في منطقة الغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 2007، ص73-93.

[2]- محمد أمليد، **المدن الإدريسية**، م. س، ص145.

[3] - ابن عذاري، **البيان**، م.س، ص103.

[4] -الإدريسي، **النزهة**، ج2، م.س، ص531-532.

أبراج، لم يبق منها إلا واحداً، يأخذ الشكل نصف الدائري، قطره أربعة أمتار تقريباً.

وهذا السور مبني من الحجارة المجلوبة من جبل صرصر المجاور، بالإضافة إلى المونة، وهي عبارة عن خليط من الطين والقطع الحجرية الصغيرة. وهناك اختلاف في نوع مواد البناء، حيث يشير البكري ومن نقل عنه، إلى الحجارة والطوب، بينما المتبقي من أجزاء السور مبنية بالحجارة، وهذا يتفق مع ما مرت به مدينة البصرة من هجومات وتخريبات متعددة تلتها تجديدات، كان آخرها ما وصفه الوزان بالأسوار الجميلة العالية[1].

والجدير بالقول إن هناك من يربط بين نوع وطريقة البناء في كل من سور مدينة البصرة وحصن يقع في جنوب المغرب اسمه تازاكورت بالقرب من تافيلالت، حيث ورد أن هناك تشابهاً كبيراً بين بقايا أطلال الموقعين، والواقع أن هناك ترابطاً بينهما إذ أن كلا الموقعين يعودا إلى عهد الأدارسة، على عهد الأمير علي بن أحمد بن إدريس، القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلاّدي[2].

وكانت الأبراج مبنية من الأحجار الضخمة وتبدو بارزة عن سُمك السور، ولا تزال أثارها باقية وظاهرة للعيان، وكان عدد هذه الأبراج ثمانية تأخذ أشكال نصف دائرية، قطر كل برج أربعة أمتار، تبعد عن بعضها البعض بمسافة (26 م) تقريباً.

ويتخلل امتداد السور عشرة أبواب حسب البكري[3]. غير أن هذا الرقم لا شك مبالغ فيه[4].

---

1 – الوزان، **وصف إفريقيا**، مصدر سابق، ص 310–311.

2– أحمد البوزيدي، معلمة المغرب، مطابع سلا، 1989.

3– البكري، **المغْرب**، م.س، ص110.

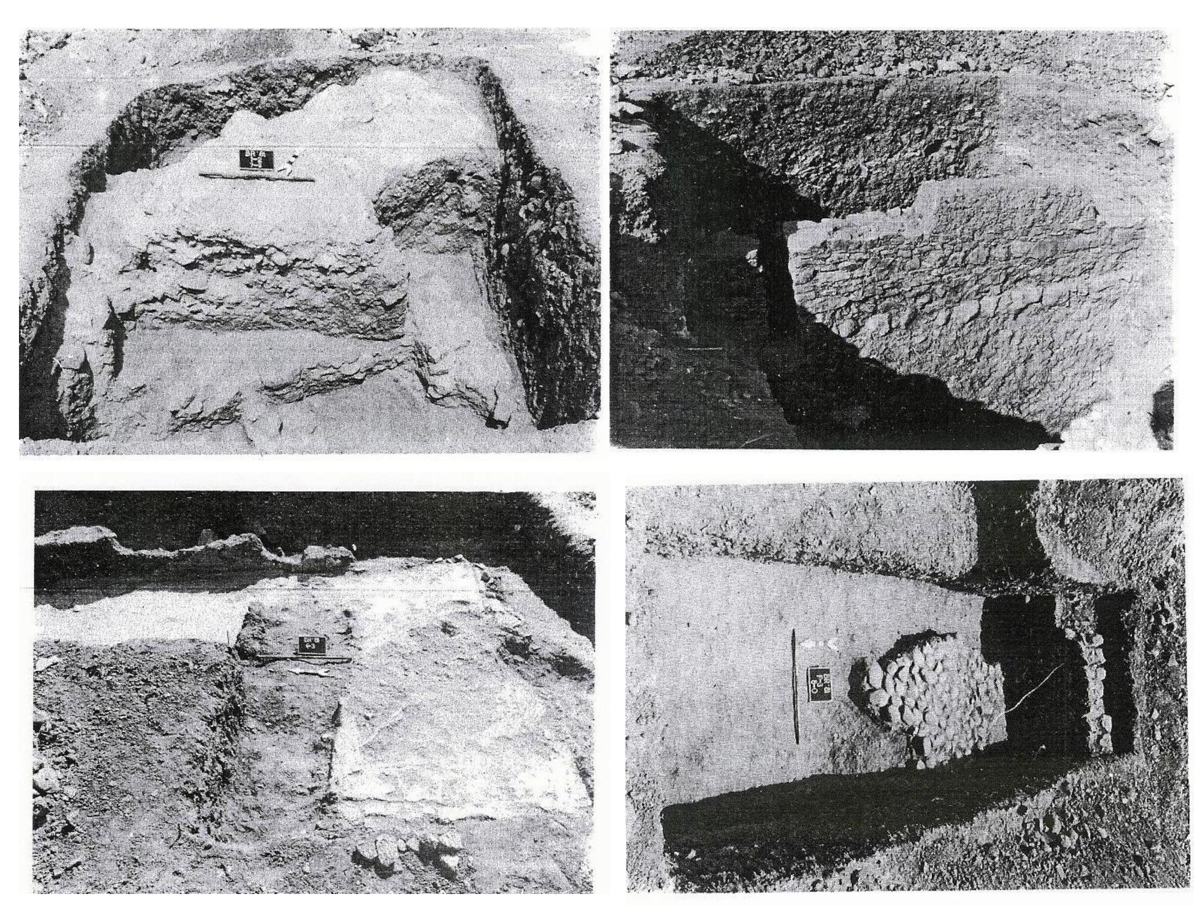
4- Patrice Cressier et Larbi Erbati. **Le pouvoir dans ses murs Villes et fortification dans le Maroc du haut Moyen Age Page (283- 294).dans le chateau et la ville Espaces et reseux (VI-XIII siècle) Etude rèunies par Patrice Cressier Prèsentation par Pierre Toubert**.Casa de Veàzquez ècole Francais de Rome,p286.

ومـن ناحيــة أخـرى، كشـفت الحفريـات عـن وجـود أفـران كثيـرة لصناعة الطوب والجير. لكن هل كانت مصـانع الطـوب مرتبطـة بحاجـة بناء السور؟. الواقع يؤكد أن المصانع كانت داخل السور.

الصور (2، 3) توضح موضع الحفريات التي أجريت في البصرة.







Ch. L. REDMAN

3- مرافق المدينة

ويُذكر أن ابن حوقل زار المنطقة ثم وصف **سورها** بأنه ليس بالمنيع، وتحدث عن أن لها **مياه** تنبع من عيون تأتي من خارجها، ثم يصف بساتينها الواقعة إلى وبالعودة إلى ما ذكرته المصادر عن وصف مدينة البصرة نجد أنها أشارت إلى أنها حسنة الأسواق والعمارة، طيبة الهواء صحيحة التربة[1]. ولعل أهم المعمار فيها كان هو الجامع، فماذا بقى لنا منه؟ هل ما أوردته المصادر كافياً للتعرف على معالمه؟ وماذا أضاف البحث آركيولوجي؟

جامع البصرة: أشارت المصادر[2] إلى أنه كان لمدينة البصرة جامع كبير نسبياً إذ كان يتكون **من** سبع بلاطات[3]. غير أن الحفريات لم تتوصل إلى موقع المسجد، وموقع دار صك العملة، لأن تلك الحفريات كانت محدودة[4]، إذ أن مساحتها كانت محصورة في نطاق لم يتمكن من التوصل إلى اكتشاف موضع المسجد. وما يمكن إضافته هو أن جامع البصرة كان أكبر حجماً من جامع أصيلا الذي كان مؤلفاً من خمسة بلاطات فقط.

الحمامات: لم تعطينا المصادر وصفاً لحمامات البصرة، وكل ما نستطيع تقديمه هو أنه كان بالمدينة حمامان[5]، غير أننا لا نعرف حجم ومكان كل منهما، ولا نعرف المرافق التي تكونت منها. وإذا كان من الجائز إضافة معلومات عنها فلا بد من مقارنتها بما يعرف في التخطيط التقليدي الذي درج المعمار على تكوينه من ثلاث غرف معروفه هي: غرفة خلع الملابس والغرفة الدافئة والغرفة الساخنة.

---

[1] – ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، مصدر سابق، ص 81.

2– البكري، **المُغرب**، م.س، ص 110.

[3] – البلاطة هي المساحة المحصورة بين الأعمدة، وتكون متعامدة مع جدار القبلة.

[4]-Mark Pollock, Water Maker, **Progress Report on The Animal Borres, from Badis, Al Basra, Jebila Mouley Bou-Selham, Nakur, and Gsar Saghir** (B.A.M), 15-1983-1984. p357. وما بعدها.

5– البكري، **المُغرب**، م.س، ص110.

المقابر[1]**:** معلوماتنا عن المقابر الكائنة بمدينة البصرة مقتصرة على ما تعرف عليه أبو عبيد الله البكري، ومنه علمنا أن لمدينة البصرة مقبرتان خارج السور، أحدهما كبيرة، والأخرى أصغر حجماً، وموقعهما الكبرى في شرقيها في جبل، ومقبرتها الغربية تعرف بمقبرة قضاعة[2]. ومرة أخرى نشير إلى أن عدم خضوعها للحفريات لم يمكننا من إضافة معلومات جديدة.

مصادر المياه: يبدو أن تزويد المدينة بالماء كان شحيحاً وعسيراً في نفس الوقت مما اضطر السكان إلى جلب الماء غير الصالح للشرب لاستخدامه في أغراض أخرى لم يحتاج إلى تعدادها، هذا ما استقيناه من البكري حين أخبرنا من أن ماء المدينة قسمان: ماء زعاق وأخر شروب مستمد من بئر عذبة تعرف ببئر ابن ذلفاء[3]. إلا أننا لا نستطيع أن نجازف بتحديد موقعها للأسباب التي سبق ذكرها. وفي الوقت الذي نقل فيه الحميري هذا الوصف[4] نجد ابن بطوطة يقول في رحلته على أن **ماء** مدينة البصرة كان غير جيد[5].

البصرة والبحث الأثري: تساءلنا في ما سبق عن النطاق الذي حظي بعمليات الحفر والتنقيب على يد الآركيولوجيين، وتبين لنا ضعف المساحة الخاضعة للمسح الحثيث المقتصر على بعض المواقع وبقي

1- البكري، **المُغرب**، م.س، ص110.

2 – قضاعة قبيلة يمنية قديمة، كان منهم ملوك سبأ وحمير. وتفرع عن قضاعة عدد من القبائل، منهم: قبائل نواح ونهد وكندة ومذحج، وبلى، التي ينتمي لها (زهير بن قيس البلوي)، الذي قاد الفتح العربي في المغرب بعد أبي المهاجر دينار، وقتل قاتل عقبة (كسيلة)، سنة69هـ، ووصل إلى ملوية. وقبائل بهراء، ومنهم المقداد بن الأسود الكندي. وعذرة، ومخلاف شهاب، وحيدان، وبنو منبه وجماعة.أنظر: الهمداني، **الإكليل**، ج2، ج8. نورية مجاني، **أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، نشر ملخص الرسالة في مجلة **الإكليل**، ع3، 1989، ص36-39.

3 – البكري، **المغرب**، مصدر سابق، ص 110.

4 – الحميري، **الروض المعطار**، مصدر سابق، ص 108.

5– عبد الهادي التازي، **المغرب في الدراسات الإستشراقية**، ابن بطوطة نموذجاً، ضمن أعمال ندوة المغرب في الدراسات الإستشراقية المنعقدة في مراكش، أبريل 1993، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ص121.

أغلبها في علم الغيب. فخلال الحفريات التي أجريت في موقع البصرة تم اكتشاف مباني من جهة الداخل بعيدة عن السور. وكذلك كشفت التنقيبات عن منشآت صناعية متعددة، سيأتي استعراضها بعد حين. وكان من أبرز نتائج **البحث الأثري**، حسب **(Readman)**[1] ما يلي :

- العثور على حي الصناعة الحرفية في الجنوب الشرقي لموقع المدينة، وهو عبارة عن مجموعة من الأفران المتباينة الأحجام، بنيت حسب رأي (ريد مان) في الفترة التالية لدخول الحملة العُبيدية البصرة بقيادة جوهر الصقلي سنة 347- 348هـ، التي قامت باسترجاع المدن التي كان قد احتلها أمويي قرطبة إلى الحسن بن كنون الذي كان موالياً للعبيديين.

- وجود بقايا لحي صناعي يشير إلى أن البصرة كانت مركزاً صناعياً، ويحتل موضعاً إلى الغرب من الموقع الأثري للبصرة. وقد تم تصنيف هذه الأفران إلى المنشآت الآتية: أفران لصناعة الأواني الفخارية والخزفية، وفرن لصناعة القرميد، وفرن لصهر الأحجار الكلسية بهدف صنع الجير والكلس. كما كشفت الحفريات بالمنطقة الغربية الوسطى للموقع عن وجود عدد من الأفران المتخصصة في إنتاج الأواني الخزفية والجبس[2]. ويوجد فرن مبني بالطوب والحجارة خصص لصناعة القرميد. وهذه الأفران - حسب نفس التقرير الأثري- تشبه، إلى حد كبير، فرنين عثرا عليهما في الأندلس، أحدهما في طليطلة، والآخر في قرسطلة، ويرجعا إلى نفس الفترة الزمنية. عهد الخلافة الأموية ق (4هـ/10م).

- العثور على أرضية مبنى لازال في حالة جيدة، وبقايا لأجزاء ثلاث غرف في وسط موقع المدينة مما يدل على أن المبنى كان وسط ساحة، ولا يستبعد – حسب نفس التقرير- أن يكون دار الإمارة.

---

[1]- Redman(ch), **survey&test excavation of six medieval Islamic sities in norther Marocco** (B.A.M)1983-84.

[2]– عبد العزيز توري، **البصرة**، م. س، ص 1254.

- اكتشاف صهريج كبير، بمثابة خزان للمياه، كان يستعمل لتزويد السكان بالماء في المباني المرتفعة للساكنة، أو يستخدم للمصانع، أو لخزن المياه أثناء الحصارات التي قد تتعرض لها المدينة، باعتبار أن ماء المدينة زعاق (كما أشار البكري). هذا الخزان يقع إلى جوار السور الغربي للمدينة، ومازالت بجدرانه آثار الأقواس التي كانت تحمل السقف، ويوازي طول الجزء الذي كشف عنه ستة أمتار وعرضه (4.25 م)[1].

المنطقة السكنية، حددها الباحثون داخل الأسوار وسط المدينة، وبالتالي – حسب التقرير المعتمد- لم يكن السكان يستغلون المساحة القريبة من الأسوار لبناء المساكن2، لأسباب أمنية، ولإتاحة الفرصة لحرية الحركة بالقرب من الأسوار سواء للجنود أو للتجارة، وغير ذلك.

- توجد بقايا **منشآت عمرانية**، مستطيلة الشكل، ومبنية بالحجارة، متخصصة بصناعة الحديد، حيث يوجد فرن فيها مما يستدعي هذه الصناعة، وبالقرب منها حوض ماء كبير، فيه كمية كبيرة من الحديد المصهور، ومما يدل على ذلك، أيضاً، وجود أثار عملية الطرق لمعدن الحديد[3].

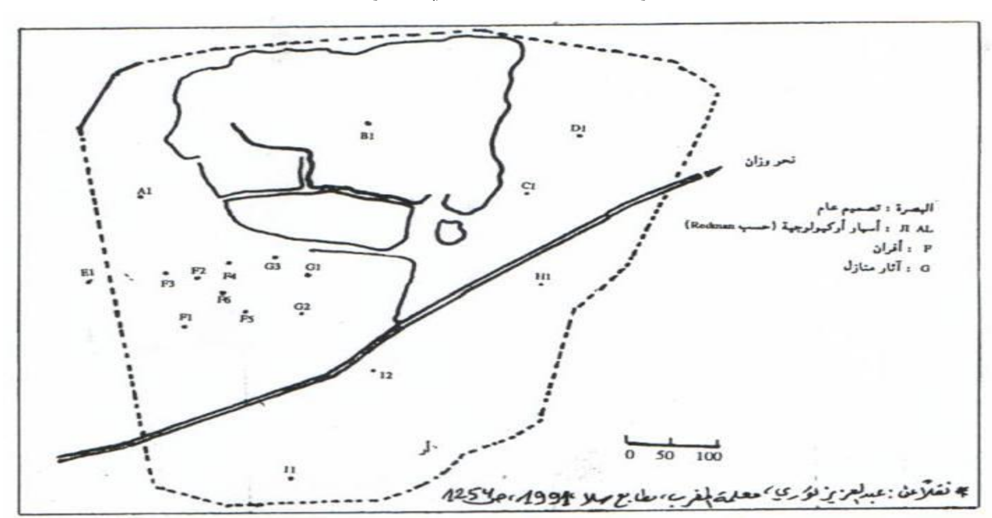
---

[1]– حيث تنتشر بقايا بنايات مختلفة الأحجام والمساحات على مسافة كبيرة تغطيها معظم النباتات البرية والمحروثة. وفي أيام الصيف، بعد الحصاد، تظهر مساحات هامة تكسوها قطع صغيرة من الفخار ومواد البناء كا لآجر والجير وغيرهما. عبد العزيز توري، **البصرة،** المعلمة، م. س، ص1254. وهو ما تؤيده الزيارة الميدانية لموقع البصرة.

[2] –. Redman.(ch) (B.A.M)1983-1984

3– أحمد الطاهري وأخرون، م.س، ص 81–82.

خريطة لمواضع التنقيبات الأثرية في موقع مدينة البصرة



ويخطر ببالنا الآن سؤال آخر يتصل بمدى مساهمة البصرة في النشاط الاقتصادي للمدينة، من جهة ، والمغرب، والبلدان المجاورة، من جهة آخري؟.

3- الدور الاقتصادي

يشير ابن حوقل إلى اقتصاد البصرة بشكل يمكننا من تصنيفه على أساس منتوجات فلاحية صناعية، ومنتوجات فلاحية غذائية، وجانب تجاري. والكلام الذي يهمنا من الوجهة التاريخية والذي أدلت به جماعة من الكتاب في التاريخ والجغرافيا بالمغرب، نستنتج منه أن البصرة كانت مشهورة بالفلاحة ولا سيما بمواشيها التي منها الأغنام المدرة لألبانها، ولذلك أطلق عليها أنها بلد الدبان. والمشهور أن المدينة كانت أيضاً مهتمة بزراعة الكتان، فاستحقت المدينة أن تعرف ببصرة الكتان، لأن أهل البصرة كانوا يتبايعون في بدء أمرها في جميع تجارا تهم بالكتان. وتعرف بالحمراء لأن تربتها جيدة من النوع المعروف بالمغرب بتربة التيرس المشبعة بأكسيد الحديد، ولذلك كانت حمراء اللون.[1]

---

[1]- البكري، **المُغرب**، ط باريس، 1965، ص110. ابن عذاري، **البيان**، ج1، ص103. مجهول، **الاستبصار**، [تحقيق، سعد زغلول عبد الحميد]، الدار البيضاء، ط1985، ص189.

ونستفيد من ذلك أن أرض البصرة خصبة، ذلك ما أجمع عليه المؤرخين في المصادر العربية المشرقية منها والمغربية، فنجد هنا الأصطخري المتوفي عام 346 هـ، والذي يعد صاحب أقدم المعلومات المتوفرة عن مدينة البصرة يقول: إن "البصرة مدينة كبيرة واسعة خصبة"[1]. والمقصود من اقتران لفظ الخصوبة هو الإشارة إلى الأراضي الفلاحية التي كانت بجوار المدينة أو في محيطها الفلاحي.

وما يؤكد خصوبة التربة ما ذكره ابن حوقل وهو وصف نابع من منظور آخر، يهم الجانب الفلاحي والتجاري قائلاً: " ولها غلات كثيرة من القطن المحمول إلى إفريقية وغيرها"[2].

وهذا دليل قوي على أن البصرة لم تكن أرض خصبة فقط، بل بلغ بها الثراء إلى درجة القيام بدور تجاري تجاوز الطابع المحلي إلى الخارجي. حيث توفرت على أسواق لتبادل المنتجات الفلاحية والصناعية وفي مقدمتها الكتان بالإضافة إلى الحبوب بأصنافها المختلفة[3].

وهذا هو ما يوافق عليه البكري[4]، الذي يصف البصرة باتساع عمرانها، ويشير إلى أنها أوسع تلك النواحي مرعى وأكثرها ضرعاً. فهذا الوصف يؤكد تماماً ما قالته المصادر الأخرى، وما ذهبنا إليه من أن البصرة هي الأرض الخصبة الغنية بالخيرات، وبالتالي هي الأوسع والأطيب مرعى، والأكثر إنتاجاً.

على نحو ما يلي :

1- **منتوجات فلاحية تحويلية**: ولها غلات كثيرة من القطن المحمول إلى أفريقية وغيرها، وتعرف أيضاً ببصرة الكتان .

---

[1]- الأصطخري، **مسالك الممالك**، مصدر سابق، ص38 .

[2] – ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، من منشورات دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، [بدون تاريخ]، ص 81.

[3]– ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، م.س، ص 81.

[4] – البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، مصدر سابق، ص 110.

2. **منتوجات فلاحية غذائية**: ومن غلاتهم القمح، والشعير، والقطاني، وسهمهم في ذلك وافر[1]، ويضيف الإدريسي، قائلاً: " وأكثر غلاتها القطن والقمح وسائر الحبوب بها كثيرة"[2]. والوزان بدرره يشير إلى أنه " كان بها قديماً حدائق كثيرة وحقول ممتازة لزراعة القمح قريبة من المدينة، ويخترق نهر لكوس هذه السهول"[3]. ويشير البكري إلى أنه " لكثرة ألبانها كانت تعرف نظراً لكثرة مراعيها.

4- **مجال تجاري**: كانوا يتبايعون في بدء أمرها في جميع تجارا تهم بالكتان، الذي لا تخفي أهميته كمادة مطلوبة في صناعات العصر[4].

ونجد في معلمة المغرب أن البصرة كانت مدينة رافهة لأنها وجدت بأرض كثيرة الريع والخصوبة، وكان حواليها العديد من الحدائق والمزارع، ووراء ذلك المراعي التي كان أهلها يسيمون فيها المروج، كما كانت أرجاؤها مسترداً للقنص والاصطياد لوفرة ما هنالك من الحيوان الداب والطائر.

نستنتج مما سبق:

- أن البصرة كانت غنية في الاقتصاد الفلاحي والصناعي، وأصبح نبات الكتان عملة يتم التقايض بواسطته بالنسبة للسلع الأخرى[5].
- لم تكن البصرة ذات مكانة اقتصادية بالنسبة للمغرب فقط، بل لعبت دوراً في التجارة الخارجية مع الأندلس وأفريقية وبلاد السودان. ومن جانب آخر يشير ذلك إلى التداخل بين المجالين الحضري والفلاحي.

---

[1] – ابن حوقل، **وصف الأرض**، مصدر سابق، ص 81.

[2] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، مصدر سابق، ص531–532.

[3]– الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، م، س، ص 310.

[4] – البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص 110. وفي هذا الخصوص نجد أن مدينة مكناس كانت تصدر هذا المنتوج (الكتان) إلى سلا وفاس. الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ص 214. أنظر أيضاً: جمال حيمر، **مدينة مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث، دراسة في التاريخ السياسي والعمراني**، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، 2003 – 2004، ص38،

[5]– البكري، **المُغرب**، م، س، ص 110. ابن عذاري، **البيان**، ج1، ص103. مجهول، **الاستبصار**، [تحقيق، سعد زغلول عبد الحميد]، الدار البيضاء، ط1985، ص189.

- تتفق المصادر على كثرة خيرات البصرة، وخصوبة تربتها، وسعة مراعيها، وضخامة ثرواتها الحيوانية، وتوفر الموارد المائية وغزارة الإنتاج الزراعي والحيواني الأمر الذي أهلها لأن تلعب دوراً اقتصادياً متميزاً ومهماً في فترة تاريخية محددة.

- كان أهل البصرة يستخدمون نهر "سفدد" أو لُكوس لنقل منتجاتهم وتنقلاتهم إلى المحيط الأطلسي ومنه إلى البحر المتوسط، ثم ينتقلون إلى الأندلس وبلدان أخرى، وكانوا يتوقفون عند المرجة الزرقاء بمولاي بوسلهام التي كانت تعرف قديماً باسم (بحيرة أريغ) وكانت المراكب ترسو فيها ويستريح فيها التجار[1]. غير أننا ينبغي أن نتعامل مع هذا النص بحذر ذلك أن نهر لُوكس بعيد نسبياً عن البصرة، وربما لا يعني سوى نقل البضائع عن طريق البر لا النهر، وإن وجد شيئاً من ذلك فربما كان هناك استخدام جزئي ومحدود بعد قطع مسافة طويلة نسبياً في البر، غير أن المتمعن في النصوص يكتشف أن البصرة بالأساس كانت تقع على أحد روافد نهر سفدد "لكوس" الذي كان مصدره أحد جبلي البصرة، والذي رجحنا أنه جبل صرصر.حيث كان " يركب أهل البصرة في مراكبهم وأمتعتهم حتى يصلوا البحر فيسيروا فيه حيث شاءوا"[2]، ويبدو أن سوقهم كانت رائجة لكونهم "يتبايعون بالكتان"[3]. كما يبدو أيضاً أن بحيرة أريغ، أوالمرجة الزرقاء حالياً، كانت أحد المرافئ التي استفادت منها مدينة البصرة في تصريف منتجاتها، ورواجها التجاري، وازدهارها الاقتصادي. وبالعودة إلى النصوص المصدرية، نجد أن (ابن حوقل) يصفها بقوله: "...أصلها من البحر المحيط، صغيرة، ترسي فيها المراكب الأندلسية التي تحمل غلات [تلك] الناحية، وفيها يركب أهل البصرة ويشحنون من نواحيهم وناحية بلد بياتة [كورت وأزجن]..."[4]. وقد جاء

---

[1] – المقدسي، **أحسن التقاسيم**، مصدر سابق، ص350.
[2] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، مصدر سابق، ص530.
[3] – المجهول، **الاستبصار**، مصدر سابق، ص189.
[4] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س، ص82.

ذكر بحيرة أريغ في بحث ميداني لـ(دانيل أوسطاش) كميناء أو مرفأ على المرجة الزرقاء، وتوصل البحث إلى وجود حصن فيها، طوله (100م)، وعرضه(60م)، مبني فوق نتوء صخري، يرتفع عن الضفة الشمالية للمرجة الزرقاء ببضعة أمتار، بداخله مخزن مستطيل الشكل، أبعاده (11.60م×3.60م)، وفي جداره الغربي فتحة لتثبيت حلقات حديدية على السور الخارجي. ويتميز موقع بحيرة أريغ، بقربه من القناة النهرية، ويساعد في الحماية من الرياح الغربية، ومرتع عن المياه، مما يسمح للمراكب أن ترسو في هذا المجال، وأخيراً، انعدام الترمل الذي يؤدي إلى التوحل[1].

⌖ ويعتقد أن مدينة البصرة، وهي المدينة النشطة اقتصادياً وتجارياً، استطاعت خلال القرن الرابع الهجري/10م، أن تهيئ المرجة الزرقاء لأهداف تجارية بحرية، كمرفأ، للقيام بدور اقتصادي، وربما ساعدها في ذلك أحد فروع نهر سفدد (الدردار)، الذي يربط بين البصرة والمرجة، كما أشار إلى ذلك (ابن حوقل)، فكانت غلات ناحية البصرة توجه إلى مرفأ المرجة الزرقاء، ليتم من خلاله تصدير منتجات القطن إلى بلاد إفريقية، والغلات الفلاحية الأخرى إلى الأندلس.

⌖ وكان موقع البصرة على الطريق التجاري الرئيسي (فاس - سبتة) قد أهلها لتقوم بهذا الدور الاقتصادي، حيث كانت هناك طريق برية " تأخذ من فاس إلى البصرة ستة مراحل[2]، ومن فاس إلى أزيلة ثمانية مراحل[3]. ويرجح ريد مان **(Redman)** أن سبب نشأة المدن الداخلية، ومن ضمنها البصرة، يرجع لتسهيل وحماية التجارة الطويلة بين السودان

---

[1] - نقلاً عن المصطفى البوعناني، **مساهمة في دراسة تاريخ منطقة الغرب من القرن6هـ/12مإلى11هـ/17م**، رسالة دكتوراه، ق1، الرباط، 2001-2002، ص234-255.

2- المرحلة تتراوح من 30- 35 كلم تقريباً. بينما يرى البعض أنها ربما تصل إلى64 كلم.

[3] - المقدسي، **أحسن التقاسيم**، مصدر سابق، ص247.

والمغرب ودول البحر المتوسط، بينما المدن الساحلية يكمن دورها في تصريف هذه التجارة إلى الخارج[1].

- ويمكن استنباط المعلومات المتعلقة بالجانب الاقتصادي من نتائج البحث الآركيولوجي على النحو التالي:

ـ استفادت البصرة من المؤهلات الطبيعية لنواحيها، فقد دلت الدراسة على عينات من المخلفات النباتية التي عثر عليها في الموقع، على تنوع المنتجات الفلاحية، كما يؤكد ذلك ما جاء في المصادر. ويلاحظ أن هذه المنتجات تكونت من القمح والشعير، وعدد من المنتجات القطنية، وغيرها.

ـ كما دلت القطع الكثيرة لعظام الحيوانات، على تربية المواشي، لاستعمالها كمصادر لاستهلاك اللحوم، والألبان ومشتقاتها، حيث عثر على عدد (8465) قطعة عظمية لأبقار وماعز وأغنام ودجاج.

ـ موقع البصرة الاستراتيجي جعل منها محطة تجارية رئيسية، ومركزاً للتبادل التجاري، وتنوع الحبوب والقطاني، والكتان، ولكن لم تتوصل الحفريات إلى بقايا القطن والكتان، ربما بسبب أنه يتحلل بصورة أكثر من غيره.

ـ تبين من خلال المختبر، والتحريات الأثرية، أن ما يزيد عن (80%) من القطع الخزفية في البصرة، تغطي مساحات واسعة ومهمة من المناطق المجاورة، تمتد إلى عشرات الكيلومترات، من البصرة إلى القصر الكبير، إلى أريكا، أو المرجة الزرقاء. وهذه الكميات الكثيرة المنتشرة على المساحات الواسعة، تدل على أن الخزف كان من السلع الصناعية المصدرة، ومنه أنواع مستوردة، كنوع صنع في عهد الخلافة الأموية بالأندلس، خلال القرن الرابع الهجري/10م.

ـ استفادت البصرة من عدد من المسالك البرية والنهرية، عن طريق بحيرة أريك (أريكا)، أو المرجة الزرقاء حالياً، ونهر لوكس، (

---

[1] –Redman.(ch)(B.A.M)1983-1984

وادي تشمس)، فعبر هذا المجرى النهري كان سكان البصرة ينقلون منتجاتهم إلى المحيط، ومنه إلى طنجة وسبتة، ثم إلى الخارج[1].

- عثر على درهم يرجع إلى عهد إدريس الثاني، وتحديداً إلى سنة 180هـ[2].

- في سنة 1999، عثر على نقود أموية- مغربية، ترجع إلى القرن الرابع الهجري/10م.

- عثر على عدد من القطع الزجاجية والمعدنية، وعشر قطع نقدية أموية، تحمل أحدثها سنة 368هـ، مما يدل على أهمية التجارة[3].

4- إشارات فيما يتعلق بالدور السياسي

بعد أن تعرفنا على الدور الاقتصادي للبصرة، كيف كان المشهد السياسي للمدينة وارتباطه بالأحداث السياسية التي شهدتها مدن الشمال الغربي المغربي؟

لقد ظلت هذه المدينة طيلة فترة ازدهارها على حسن حالها وتنامي خيراتها وإبداع أهلها حتى ظهور الخطر العُبيدي حيث استولى جوهر الصقلي قائد حملة العبيديين سنة، 348هـ/958م على البصرة معلناً نهاية حكم أميرها الإدريسي (أبو العيش) الذي كان شديد الولاء لبني أمية أصحاب قرطبة، فتأسست بها ومن حولها إمارة إدريسية صغيرة موالية للفاطميين تمتد إلى الريف وغمارة، بزعامة الحسن بن قنون أخي أبا العيش، واختيرت البصرة عاصمة لها [4]. وبقي الأدارسة يتولون أمورها

---

[1]– المقدسي، **أحسن التقاسيم**، م، س، ص230.

[2] - Eustach (D), **Corpus des Dirhams Idrissites et Contemporains, collection de la Banque du Maroc et autres**, collection; Rqbqt; 1970;p:119:

[3]– أحمد الطاهري وأخرون، م.س، ص 81.

[4] – إسماعيل العربي، **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة**، ص175. حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، ج3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، سنة1984، ص167.

حتى سنة 347هـ[1]. وفي خضم الصراع الذي كان قائماً حول المغرب بين الأمويين في الأندلس والفاطميين في أفريقية انبرى لها الأمويون حين قرر الخليفة الأموي الثاني، الحكم المستنصر(350-366هـ) إلحاق المغرب بملكه، فأخضعت جيوشه البصرة، سنة 363هـ/ 973م، بقيادة الوزير غالب بن عبد الرحمن. ولم تكد تسترد أنفاسها حتى غزاها أبو الفتوح يوسف بن زيري سنة 369هـ/979م عامل إفريقية بأمر الخليفة الشيعي القائم على مصر، فهدم جزءاً من أسوارها ونهب أموالها، بعد أن كان قد أمر الحكم بعمارتها، لينتهي دورها كعاصمة إقليمية، دون أن ينقطع نشاطها التجاري الذي استمر إلى نهاية القرن الخامس الهجري (11م). وفي ما يلي **جدول يبين ولاة مدينة البصرة من الأدارسة[2]:**

م	اسم الأمير
1	إبراهيم بن القاسم بن إدريس لمدة تقرب من أربعين سنة
2	عيسى بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس
3	أحمد بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس
4	برهون بن عيسى بن إبرهيم بن القاسم بن إدريس
5	أحمد بن القاسم بن إدريس
6	برهون بن عيسى بن إبرهيم بن القاسم بن إدريس (ثانية)
7	سعيد (غلام المظفر من قبل مصالة بن حبوس)
8	الحسن بن محمد الحجام
9	محمد بن يحيى بن القاسم (ولد الجوطي)
10	عيسى بن أحمد المعروف بأبي العيش
11	أحمد بن القاسم (ثانية)
12	وال من قبل موسى بن أبي العافية
13	أبو العيش بن أحمد (ثانية)
14	أحمد بن أبي العيش إلى سنة 347هـ

[1] – سعدون نصر الله، **دولة الأدارسة في المغرب والأندلس**، ق2، دار النهضة، بيروت، ط1، 1996، ص51.

[2] – ابن عذاري، **البيان**، ج1، ص235.

5- مصير البصرة

إذا أردنا بيان مصير مدينة البصرة، فأول ما يتبادر إلى ذهننا أن المدينة قد نجت من الغزو العُبيدي الذي قاده جوهر الصقلي، سنة (348هـ/958م)، وما نعرفه هو أنه أعاد الحسن بن كنون الإدريسي إلى الطاعة، وربما طمأنه بالاستيلاء على فاس. والنتيجة أن المدينة عرفت نوعاً من التطور. غير أن هذا ضاعف من مخاوف المروانيين بالأندلس مما أدى إلى تجريد جيشهم لتغيير الوضع لصالحهم.

وسر خطر البصرة على المروانيين هو صعود مكانتها الحربية في ظل الحماية الفاطمية. وما كان ليستمر الوضع على هذا الشكل من عدم التوازن الحربي بين القوتين المتصارعين. إذ سقطت البصرة في يد جيش قرطبة في إطار الحملة التي قادها الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن، سنة 363هـ/973م، وبذلك دخلت البصرة تحت السيطرة الأندلسية المباشرة، فبعد أن تمكن جيش الحكم من هزيمة الحسن بن كنون، ولى على البصرة عاملاً من قبله هو يحيى، أخي وزيره (جعفر بن حمدون).

وظل الوضع على هذا الحال إلى أن ظهر الحسن بن كنون مجدداً قادماً من المشرق سنة 374هـ، فقامت برد فعل قوي بقرار هدم مدينة البصرة على يد القائد الأندلسي الشهير بعسكلاجة، سنة 375هـ. بعد أن كانت قد بلغت البصرة حظاً من الرفاهية، في القرنين الرابع والخامس الهجريين/ 10، 11م[1].

وتساءلنا في بداية هذا الموضوع عن شروط تأسيس المدينة، وذكرنا أن مدينة البصرة كانت تتوفر على مثل هذه الشروط، فلماذا اندثرت إذاً؟. وكيف نفسر أن مدينة مثل البصرة توفرت على مؤهلات

---

[1]– إسماعيل العربي، **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة**، ص175. حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، ج3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، سنة1984، ص167. سعدون نصر الله، **دولة الأدارسة في المغرب والأندلس**، ق2، دار النهضة، بيروت، ط1، 1996، ص51.

الاستمرار والازدهار، سواء بحكم موقعها على الطريق التجارية القادمة من الشمال، أو بحكم قربها من المدن الساحلية (الموانئ)؟.

إذا قلنا إن ذلك يرجع إلى العامل السياسي المتمثل بالتخريب المستمر من قبل العبيديين تارة، والأمويين تارة أخرى. فإن هذا مبرر غير كاف، لأن هناك مدناً خربت بل وهجرت ثم عادت للحياة من جديد. فالسؤال إذن، لماذا لم تسترجع مدينة البصرة حياتها بعد زوال العوائق السياسية ؟

من ناحية أخرى، إذا اعتبرنا أن البصرة كانت عبارة عن مصيف، يقضي فيه الأمراء أوقاتاً للنزهة والراحة، نظراً لما تتوفر عليه من مواصفات المصايف، فهل من المنطقي القول إنه بانتهاء دولة الأدارسة وأمرائها ينتفي المبرر لاستمرارها كمصيف؟.

فالشاهد إذاً، أن الموقع كان مأهولاً قبل ظهور الأدارسة، وتطور في العهد الإدريسي لتظهر مدينة متكاملة المرافق، وباسم جديد (البصرة)[1]، ثم تناقصت أهميتها بعد انهيار الدولة الإدريسية، وسيكون أهم أسباب ذلك الانهيار هو تدهور خطوط التجارة، كما سيتضح ذلك لاحقاَ، إلى جانب العوامل الأخرى.

وهنا نرجع لذاك التساؤل المهم والمرتبط بالموقع والعامل الاقتصادي، فلماذا اندثرت ولم تستمر؟ وفي إطار محاولة العودة لمناقشة هذا الموضوع قصد البحث عن الإجابة على هذا التساؤل نجد أن (الوزان) حاول أن يرشدنا إلى بعض مفاتيح الإجابة، يقول: إن البصرة " كانت متحضرة جداً طوال حكم الأدارسة، فكانوا يتخذونها مقاما لهم في الصيف، لشدة جمال ضواحيها سواء في السهل أو الجبل". ما أورده الوزان يؤكد ما أشارت إليه المصادر السابقة، ولهذا اتخذها الأدارسة مصيفاً، ومركزاً تجارياً. ولكن من العيوب التي تسببت في اضمحلال المدينة، هو موقعها البعيد من البحر والنهر والجبل، لذلك بمجرد أن

[1] – **تاريخ الغرب عبر مواقعه وأثاره**، م .س، ص17.

تغيرت خطوط التجارة البرية إلى البحر والمحيط بدأت بالاضمحلال. والواقع أن العوامل تضافرت مجتمعة وأدت في نهاية المطاف إلى خراب المدينة، ففي سنة 363هـ/973م، سقطت البصرة كباقي مدن المغرب في يد حاجب خلفاء الأندلس من أمويي قرطبة (المنصور بن أبي عامر)، حيث خرب جيشه بقيادة ابن عمه (عسكلاجة) جزء كبير من المدينة، في إطار استئصالهم لحكم الأدارسة المناوئ للسياسة التوسعية لقرطبة، ولم تعد بعد ذلك عاصمة، ولكنها تابعت القيام بدورها كمدينة تجارية صغيرة خلال العصور الوسطى حتى اندثرت بتحول طرق التجارة إلى البحر، إلى أن هجرت وخربت تماماً، سنة378هـ[1].

[1] – ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، م8، دار صادر، بيروت، 1995، ص666. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، مصدر سابق، ص440–441. الطاهري، **إمارة بني صالح**، مرجع سابق، ص146.

خلاصة واستنتاجات

من خلال استعراضنا للنصوص في المصادر العربية حول مدينة البصرة، يمكن الخروج بالخلاصة الآتية:

1- سميت البصرة بهذا الاسم، لأنها تعني الطين العلك الجيد، وقيل الأرض الطيبة الحمراء.

2- اختلف المؤرخون حول تأسيسها، فمنهم من جعله على يد محمد بن إدريس، ومنهم من نسب إنشائها إدريس الثاني المتوفى سنة 213هـ. والثابت أنها كانت قائمة قبل وفاة المولى إدريس الثاني، وأول من حكمها هو إبراهيم بن القاسم. وكانت البصرة عاصمة دولة أدارسة الريف، بعد خروجهم من فاس، على يد زعيم مكناسة موسى بن أبي العافية، اعتباراً من سنة 317هـ.

3- لم تتفق المصادر على موقعها، فهي تارة على نهر سبو، أو على نهر لكوس، لا تفصلها إلا مرحلة عن مدينة فاس، قرب السوس، وتارة غير بعيدة عن كتامة، أو عن مدينة تشمس "لكوس".

4- وأمام هذا الاختلاف فأنه من حسن الحظ أننا قد زرنا موقعها في أكثر من مناسبة، ووقفنا على أطلالها، والصور التوضيحية الملحقة تبين الآثار المتبقية من بعض أطلال المدينة، في قرية تدعى بـ (جعاونة البصرة)، ووهي قرية تسكنها عائلات من المزارعين، وتحتل القسم الشمالي الأوسط من الموقع[1].

5- لا زالت هناك الكثير من الأسئلة، لا نستطيع أن نجزم بالإجابة عنها، وربما ستسعفنا نتائج التنقيبات الآركيولوجية لوضع حداً للاختلافات والاجتهادات، وربما إعادة النظر بكل أو بعض ما ذهبنا إليه.

[1]– عبد العزيز توري، **البصرة**، معلمة المغرب، مطابع سلا، 1991، م 4، ص 1253.

ثانياً

أصيلا نموذج المدن الساحلية

تعد مدينة أصيلا من أبرز المدن الإدريسية في الشمال الغربي بعد مدينة البصرة، حيث لعبت دوراً سياسياً خلال العصر الوسيط، باعتبار أنها من المدن التي شهدت ميلاد الدولة الإدريسية الثانية، إلى جانب البصرة وحجر النسر، بعد سقوط مدينة فاس على يد موسى بن أبي العافية سنة 315هـ. كما أن أصيلا كانت مجاورة لأحد المواقع القديمة، ومرت بعدة أطوار منذ تأسيسها، الأمر الذي يستدعي البحث عن المدينة للتعرف عليها من خلال النصوص خلال الفترة الوسيطية، وقبل البحث عن الأوضاع المختلفة للمدينة، يبرز لنا السؤال التالي: **أين تقع مدينة أصيلا؟ ولماذا سُميت بهذا الاسم؟.**

1- الموقع والتسمية والتأسيس

سنشير في هذه الفقرة إلى موقع أصيلا بين المدن الساحلية المتوسطية في الشمال الغربي المغربي، وهو موقع معروف، غير أننا سنتعرض لما جادت به المصادر عن موقع المدينة الوسيطية، والتذكير بالتباينات المتعلقة بالتسمية والتأسيس، وسنحاول توضيح ذلك وفقاً لمقتضيات البحث العلمي. تقع مدينة أصيلا في الشمال الغربي المغربي على ساحل المحيط الأطلسي شمال العرائش وجنوب طنجة، ويرتبط بذلك مجموعة من المدن الشمالية التي تعد من أقدم الشبكات الحضرية المغربية ضمن إقليم الهبط[1].

وهناك وصف للطريق من أصيلا باتجاه طنجة، فأول ما يلقي الخارج من مدينة أصيلة واديها (وادي الحلو)، ثم مسجد يمين الطريق، ثم وادي نبراش[2]. وبين أصيلا ومصب نهر القصر[3] عشرون ميلاً، حيث

---

[1] – عبد القادر العافية، **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها**، الرباط، 1982، ص17-18.

[2] – البكري، **المغرب**، م.س، ص113.

[3] – نهر القصر هو احد روافد واد المخازن.

الطول ثمان درجات غير عشرين دقيقة، والعرض أربعة وثلاثون درجة وعشرون دقيقة[1].

وهناك بعض من مؤلفي المصادر تنم معلوماتهم عن عدم معرفتهم الحقيقية لموقع مدينة أصيلا، إذ أنهم ربطوها - على بعدها - بالساحل الأندلسي، ومثال هؤلاء الأصطخري، وتارة يشار إليها على أنها أقصى المعابر إلى الأندلس[2]. ولا نستثني من أولئك حتى البكري وابن حوقل. فالبكري يشير هنا إلى أنها أول مدن العدوة[3] من جانب الغرب[4]. كما أن ابن حوقل يربط بين مدينة أصيلا وأرض الأندلس من جهة البحر[5]. فالرأي لذي يستحق الاهتمام هو موقع المدينة في محيطها الجغرافي.

أما من جهة البر فيذكر ابن حوقل مدينة زلول[6] وجرمانة[7]. وتاورات[8]، والأقلام[9]، ويشير إلى أن بحيرة ريغة تقع إلى يسارها[10]. هذا التحديد غير دقيق ذلك أن بحيرة أريغ أو ما يعرف بالمرجة الزرقاء، هي في الواقع، بعيدة عن أصيلا، حيث تقع إلى الجنوب على ساحل المحيط مما يقابل موقع البصرة. ويصف البكري موضع أصيلا في أرض سهلية

---

[1] – ابن سعيد المغربي، **بسط الأرض**، م.س، ص72.

[2] – الأصطخري، المسالك، م.س، ص39.

[3] – من خلال المصادر الوسيطية للمغرب والأندلس، نجد أن أهل الأندلس يشيرون إلى المغرب الأقصى باسم العدوة. **المقتبس**، ج5، ص347.

[4] – البكري، **المُغرب**، م.س، ص111 .

[5] – ابن حوقل، **وصف الأرض**، م.س، ص65.

[6] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س، ص80 . **المقتبس**، ج5، م.س، ص90. ابن عذاري، **البيان**، ج2، م.س، ص 246، ويمكن العودة إلى الفصول السابقة من هذا البحث.

[7] – جرمانة: وردت عند البكري باسم (جرماط) معقل أبي منقذ بن موسى بن أبي العافية، وكان بها جامع وسوق وحمام، وفي الجوف منها على بعد 10أميال مدينة تسول قاعدة موسى بن أبي العافية.وتبعد قلعة جرماط عن مدينة فاس مرحلتان. **المغرب**، م.س، ص142. ويبدو أن المقصود هو مدينة جرماية الإدريسية في منطقة شمال المغرب، والتي تنسب إلى الأمير الإدريسي الحسن بن كنون، وشهدت الصراع الإدريسي الأموي في القرن الرابع الهجري/10م.

[8] – تاورات: قرية تنسب الجزيرة والمرسى إليها. وهي جزيرة في البحر على هيئة جبل منقطعة من البر، يقابلها في البر على شاطئ البحر أجراف عالية يليها مرسى بليونش، ثم موضع يعرف بالقصر الصغير. البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص106 ، 105 .

[9] – أحمد المكناسي، **خريطة المغرب**، تطوان، 1961، ص11 -16، ويمكن العودة إلى الفصول السابقة من هذا البحث.

[10] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س، ص65.

تحيط بها مجموعة من الهضاب المنخفضة، وأن البحر يحيط بها من جهتي الشمال والغرب[1]. ويتميز موقع مدينة أصيلا بسهول وتلال خصبة تبدو على شكل هلال يبتدئ طرفه من جنوب مدينة طنجة، وينتهي طرفه الآخر بشمال مدينة القصر الكبير مروراً بسهول وتلال واد تهدارت[2] والخلوة (أحد الغربية) والحُمر. وترتفع المدينة عن سطح البحر بمتر ونصف، كما تتوفر على شاطئ منخفض. وعلى مقربة من أصيلا يوجد نهر ثالث يسمى في السهول المجاورة الحلو(مرغوبة) القريبة من الواد إلى جوار مداشر الحُمر.[3]

ويسجل الشريف الإدريسي تحديداً لموقع أصيلا أكثر مصداقية عن من سبقوه بقوله: " ومن مدينة طنجة إلى مدينة أزيلا مرحلة خفيفة جداً"[4]، ويتفق معه الحميري، بقوله: " أصيلة بلد قرب طنجة"[5].

ويشير ابن عذاري إلى القبائل المحيطة بمدينة أصيلا، بقوله: وحولها من القبائل لواتة[6] وهوارة الساحل[7]، وهو بذلك يتحدث عن القبائل

---

[1]- البكري، **المُغرب**، م.س، ص113.

[2]- واد تهدارت هو نهر جنوب طنجة، طوله (65 كلم)، تنحدر مياهه أصلاً من جبل واد راس، يخترق أراضي مزقة البكارة الوادراسية. ويتكون من نهرين هما: نهر المهرهر الذي يعرف عند منبعه بفندق العين الجديدة (قبيلة واد راس) بالوادي الكبير، والنهر الثاني يعرف عند منبعه بجبل الريح (بني يدر) بوادي الخروب، ثم يتخذ اسم وادي الحشف عند لقائه بوادي المهرهر ليمر بفحص عمرو من بني مصور، حيث يشكل مجراه منعطفات نهرية غير ثابتة المجرى، ثم تتجه مياهه نحو الجنوب الغربي إلى أن يصب في المحيط بالمرسى التي تحمل اسمه ماراً بقرية المرس بين بريش الشمالية وأختها الجنوبية. راجع حسن الفكيكي، **تهدارت**، معلمة المغرب، مطابع سلا، 1984، م7، ص2231.

[3]- عبد الرحيم جباري، **أصيلا**، م. س، ص8-11.

[4] – المرحلة هي نحو 46 كلم تقريباً، والإشارة إلى أنها خفيفة جداً تدل على أقل من المسافة التقريبية للمرحلة. الإدريسي، **النزهة**، ج2، مصدر سابق، ص530.

[5] – الحميري، **الروض المعطار**، مصدر سابق، ص42.

[6] – لواتة: جذم كبير من البربر البتر، كانوا يسكنون في الحدود الشرقية لبلاد المغرب، وهم أول من أسلم من البربر ثم دخلت جموعهم مع العرب على المغارب أثناء الفتح وانتشرت فيها، كانت إحدى قبائلهم تسكن قرب مدينة صفرو، ولا تزال مواطنهم القديمة هناك تسمى لواتة حتى الآن، ومن أشهر قبائل لواتة سدراتة، ومزيتة، وجدانة، ومغاغة، وعزوزة، وإلى قبيلة لواتة ينتسب الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة اللواتي الطنجي، وتوجد في فاس حارة اسمها حارة لواتة. أنظر عن لواتة قبائل المغرب، عبد الوهاب بن منصور، ومراجعته لكتاب **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، لابن أبي زرع، ط2، 1999، هامش ص56..

[7] – ابن عذري، **البيان**، مصدر سابق، ج1، ص335.

التي كانت مستوطنة حوز أصيلا في عهده أي في أواخر القرن السابع الهجري/13م، واللافت للنظر أن قبيلة لواتة التي ذكرت المصادر أنها استوطنت المنطقة في الفترة السابقة للتأسيس، نجدها هنا مستمرة في تعمير المنطقة، وهو ما سنتناوله في الموضع المحدد للتأسيس. وأخيراً يضع **الوزان** موقع مدينة أصيلا على شاطئ المحيط بعيدة عن أعمدة هرقل[1]، بنحو 70ميلاً، وعن فاس بنحو 140ميلاً[2].

وترتبط أصيلة بظهيرها الذي يمتاز بوجود قطاع فلاحي بطابعه التقليدي، أما المدينة العتيقة فتتجمع داخل الأسوار، محاذية للساحل. وقد عرفت عدة عمليات تخريب وإعادة بناء على ضوء الأحداث التاريخية التي عاشتها غير أن الأصيليين توصلوا إلى صيانة معمارها التقليدي[3]. وتبعاً لذلك فإن أصيلا أو أزيلا الفترة الوسيطية هي موقع جديد يعتبر انتقال إلى الساحل مما يلي الغرب.

ذلك ما جادت به المصادر المختلفة عن موقع أصيلا، وهذا يقودنا إلى السؤال عن تسمية أصيلا بهذا الاسم؟ تبرز أهمية هذا التساؤل من كون المدينة تقع في موضع غير بعيد عن مدينة قديمة تتشابه معها في التسمية، الشيء الذي أدى إلى خلط عند البعض في التفريق بينهما، وتلك المدينة القديمة هي المعروفة باسم **(Zilil)** المدمرة سنة 40 ق. م، وقامت على أنقاضها مدينة إسلامية وسيطية عُرفت بزلول، وهو ما سنتحدث عنه في الفقرة الموالية.

ويبدو أن اسم أصيلا مشتق من اسم قديم لموقع مجاور، فقد ورد الاسم في المصادر الإغريقية واللاتينية كذلك تحت صيغ متقاربة: **(Zilis Zilia Ziliz)**. وينطبق هذا الاسم على مدينة زلول بأحد الغريبة الواقعة شمال شرق أصيلا، وهي المدينة القديمة المعروفة على عهد الاحتلال

---

[1] – بقايا تشبه الأقواس جزء منها بطنجة، والأخرى بالواجهة المقابلة من الساحل الإسباني.
[2] – الوزان، **وصف إفريقيا**، م.س، ص311.
[3] – معلمة المغرب، مطابع سلا، 1989، ص485، 486.

الروماني، والتي أقيم على أنقاضها المدينة الإسلامية كما مر معنا. ويذكر أنه اكتشفت في الموقع عملة محلية تحمل اسم **(Aslith)** وربما لذلك علاقة بالتسمية أصيلا.

مما أدى إلى ظهور خلط واضح نجده لدى المصادر العربية، وسنحاول أن نستعرض التسمية الواردة في تلك المصادر. يطلق على المدينة أسماء متقاربة جداً، منها: أزيلة[1] وأصيلا[2]، وأزيلي[3]، وأصيلة بالتاء المربوطة، وأزيلا بالألف[4]. ويفسر البكري أن اسمها يعني [جيدة][5]، والواقع أن الاسم (أزيلا) يعني بالأمازيغية الجميلة لاشتقاقها من لفظة أزلي البربرية التي تعني الجمال[6]. ولهذه التسميات ارتباط بالموقع والتأسيس. ولهذا نحن أكثر اطمئنانا لما ذكره البكري، لأن المعنى الأمازيغي الحالي يمدنا بهذا الإطمئنان. وما ردده الشريف الإدريسي لم يختلف عن ما ذكره البكري. **فمتى كان تأسيس المدينة؟**

ويظهر أننا سنأخذ بما ذكره البكري عن تأسيس أصيلا حوالي سنة 229هـ، وربطه بهجمة نورماندية على موقع المدينة، ويدعم قوله بالإشارة إلى أن مدينة أصيلا محدثة[7]. وينبغي الإنتباه إلى أنها ليست

---

[1] – الأصطخري، **المسالك والممالك**، مصدر سابق، ص39.

[2] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م.س، ص90.

[3] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س، ص65، ص100.

[4] – الإدريسي، **النزهة**، ج2، م.س، ص530. ابن سعيد المغربي، كتابي: **الجغرافيا**، ط1، 1970، ص138. **وبسط الأرض بالطول والعرض**، مطبعة كريماديس، تطوان، معهد مولاي الحسن، 1958، ص72. الوزان، **وصف إفريقيا**، ط2، 1983، ص311، 313. وهي عند مارمول كربخال ، زيلي، **إفريقيا**، ج1، ط88–1989، ص197. وقد ورد الاسم (أصيلا) عند كل من: ابن عذاري، **البيان**، ج1، ط3، 1983، ص232–235. المجهول، **الاستبصار**، ط 1985، ص139. ابن الخطيب، **معيار الأخبار في ذكر المعاهد والديار**، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 177، ص74. ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، م4، ص114.

[5] – البكري، **المُغرب**، م.س، ص111. ابن أبي زرع، **القرطاس**، م.س، ص63، 66، 67، 101، 117،107، 396، 514، 518، 532. الحميري، **الروض المعطار**، م.س، 1984 ص 424.

[6]– عبد الرحيم الجباري، **أصيلا تاريخ وأعلام**، مصلحة الطباعة، طنجة، الطبعة الأولى، 1999، ص12.

[7] – محدثة هنا عكس أزلية أو أولية، أي أنها لم تكن امتداداً لمدينة قديمة، بل مجاورة لها .

أزيلي المعروفة في التاريخ القديم، بل هي مجاورة لموقعها مثل ما سبق تحديده. بينما نجد الخلط الذي وقع فيه ابن عذاري نقلاً عن الوراق في ذكره أن مدينة أصيلا كانت مدينة للأول[1]، ثم تغلب عليها البحر، ثم بنيت بعد ذلك، أي أنها- حسب ابن عذاري- قامت على أنقاض مدينة قديمة، والواقع أن الوراق (ق4هـ) قصد مدينة زلول وليس مدينتنا أصيلا، وقد نقل عنه ابن عذاري(ق7هـ) هذه الرواية دون تحقيق، وعلى العكس كان البكري محقاً بقوله إن أصيلا محدثة، أي أنها أنشئت في القرن الثالث الهجري، ولم تقم على أنقاض مدينة قديمة. وقد مرت أصيلا بعدة مراحل حتى أصبحت مدينة متكاملة المرافق[2].

وذكر البكري سبب بناء مدينة أصيلا على شكل رواية تم نقلها عن محمد بن يوسف الوراق[3]، مضمونها أن المجوس[4] خرجوا إلى مرسى أصيلا مرتين، ففي الأولى ادعوا أن لهم بها كنوزاً وحفروا موضعاً، فاستخرجوا دخناً[5]. وأما خروجهم الثاني إلى هناك فأن الريح قذفتهم في

---

[1]- ابن عذاري، **البيان**، ج1، مصدر سابق، ص232ص233.

[2]- Patrice Cressier et Larbi Erbati. **Le pouvoir dans ses murs Villes et fortification dans le Maroc du haut Moyen Age Page (283- 294).dans le chateau et la ville Espaces et reseux (VI-XIII siècle) Etude rèunies par Patrice Cressier Prèsentation par Pierre Toubert**.Casa de Veàzquez ècole Francais de Rom,p288.

[3] – أشار ابن عذاري صراحة إلى نقله لهذه الرواية، ويسميه محمد بن يوسف القيرواني، نسبة إلى موطنه القيروان.

[4]- من هم هؤلاء المجوس أو النورماند؟ وما الذي كان يميزهم؟ ولماذا كانوا يغيرون على مناطق الثغور الساحلية في الشمال الغربي المغربي؟. كانوا يهاجمون فقط السواحل المكشوفة التي لا تعترض عمليات سلبهم ونهبهم. ويذكر ابن القوطية رواية عن النورماند المعرفين في المصادر العربية بالمجوس القادمين من بلاد اسكندنافيا خلال هجومهم الأول سنة 230هـ/844م على العدوة المغربية مشيراً إلى أنهم توجهوا من أشبيلية إلى نكور. بالرغم من إشارة البكري إلى أنهم ظهروا بالمغرب في ساحل أصيلا وخرجوا في مرساها مرتين، مضيفاً أنهم قد دخلوا في المرة الأولى سنة229 قبل انصرافهم إلى الأندلس وهجومهم على أشبيلية. وعاد خطر النورمانديين على المغرب والأندلس في عصر دويلات الطوائف الأولى (238–300هـ/852–912م.. أحمد الطاهري، **إمارة بني صالح في بلاد نكور**، مكتبة عالم الفكر، الدار البيضاء، ط 1، 1998، ص59. أحمد العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، م.س، ص148–149، 214–215. عبد الواحد ذنون طه، **نصوص مغربية من تاريخ محمد بن يوسف الوراق**، مجلة البحث العلمي، ع38، السنة23، الرباط، 1988، ص94.

[5] – الدخن، حبات قمح صغيرة يميل لونها للاصفرار، تعرف باللهجة المحلية باسم إيلان.

ذلك المرسى من الأندلس وعطبت لهم على باب المرسى من ناحية الغرب مراكب كثيرة ويعرف ذلك الموضع بباب المجوس إلى اليوم، فأتخذ الناس موضع أصيلة رباطاً، فانتابوه من جميع الأمصار"[1]. وهذه الرواية أوردها ابن عذاري أيضاً[2].

إشارة البكري إلى الهجوم النورماندي على المدينة سنة 229هـ دليل على سابق تأسيسها. والمهم في الموضوع زيادة في التوضيح أن المدينة سابقة في نشأتها على قدوم الأدارسة، قام ببنائها الساكنة المحلية[3]. ومن خلال مقابلة الروايات[4] يتضح أن قوماً من كتامة اشتروا من لواتة سكان الموقع أرضاً ووضعوا اللبنة الأولى للمدينة كسوق يتوفر على رباط، وبدأت تنمو المدينة بسبب إقبال التجار على المكان، وكانت المدينة على عهد لواتة بدون أسوار، ثم نمت وتطورت بشكل بطيء، وفي إطار سياسة الأدارسة العمرانية قام القاسم بن إدريس بالإضافة إليها وبناء سورها وقصرها، واتخذها مستقراً له إلى أن توفي ودفن بها[5].

يذكر أن أول من قدم على أصيلا من الأمراء القاسم بن إدريس أصغر أبناء إدريس الثاني والذي كانت المدينة تقع ضمن نصيبه في التقسيم[6]، كما اتخذ منها مستقراً بعد رفضه محاربة أخيه عيسى. لكننا ومن خلال النصوص نجد أن أصيلا كانت ضمن نصيب يحي بن إدريس

---

[1] – البكري، المغرب، م.س، ص111، 112.

[2]– مدينة للأول، يقصد بها مدينة قبل الإسلام، من بناء أهل البلاد القدامى أو الفينيقيون.

[3]– البكري، **المغـرب**، م.س، ص112. ابن زيدان، إتحاف أعلام النـاس، ج2، ط2، 1990، ص36.

4– يصف لنا البكري، **المُغرب**، م، س، ص112.

[5] – ابن أبي زرع، **القرطاس**، ط2، مصدر سابق، ص63. ابن خلدون، العبر، ج4، مصدر سابق، ص14.

[5]– البكري، المغرب، مصدر سابق، ص112. ابن زيدان، إتحاف أعـلام النـاس، ج2، ط2، 1990، ص36.

[6] – Patrice Cressier et Larbi Erbati. **Le pouvoir dans ses murs Villes et fortification dans le Maroc du haut Moyen Age Page (283- 294).dans le chateau et la ville Espaces et reseux (VI-XIII siècle) Etude rèunies par Patrice Cressier Prèsentation par Pierre Toubert**.Casa de Veàzquez ècole Francais de Rom,p288.

في التقسيم الذي أجراه الأمير محمد بن إدريس بين إخوته بعد سنة 213هـ[1]. وهذا خلط وقع فيه كل من ابن أبي زرع وابن خلدون، وقد سبق لنا تبيانه فيما مر معنا من المدن، ومنها البصرة، وبناء على ذلك فإننا نميل إلى أنها كانت من ضمن ممتلكات القاسم.

وقد أستمر بها الأدارسة من بعده مدة طويلة[2]. أي أن أصيلا تمدنت على العهد الإدريسي كما كان الأمر بالنسبة لغيرها من مدن الشمال الغربي. هذا الحديث عن موقع أصيلا وتأسيسها يقودنا إلى التعرف على ملامح وسمات المدينة الوسيطية، فهل يمكننا أن نصف المدينة خلال الفترة المدروسة؟

2- المرافق العمرانية

تناول عدد من الجغرافيين ومن المؤرخين مدينة أصيلا بالوصف، من حيث موقعها على ساحل البحر المحيط، وكذلك مكونات المدينة ومراحل تطورها، هذا الاهتمام يعكس أهمية المدينة. ولكننا سنقف عند ما ذكره البكري الذي وصفها متناولاً العديد من العناصر، منها طبوغرافية المكان، والوصف الداخلي بما يتضمنه من الأسوار والأبواب، والجامع، والسوق، ومواعيد عقد السوق، والقصر، وآبار المياه، ومرسى السفن، والمقابر، الخ[3]. ومن خلال ذلك يمكن رصد المعلومات المتعلقة بوصف المدينة، منها:

1- **السور**: كان للمدينة سور يحيط بها من مختلف الجهات، ويشكل جدار مسجد أصيلا جزء من هذا السور. "إذا ارتج البحر بلغ الموج إلى حايط الجامع"[4]. ونتوقف هنا قليلاً لنتساءل **هل كان حائط الجامع جزء من سور المدينة أم كان هذا الوصف قبل بناء السور؟**.

---

[1] – ابن أبي زرع، **القرطاس**، ط2، مصدر سابق، ص63. ابن خلدون، العبر، ج4، مصدر سابق، ص14.

[2] – إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط3، 1993، ص126.

[3] – البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص، 112، 111.

[4] – البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص111.

الواقع أننا نرجح أن الحائط كان جزء من مكونات سور المدينة، ذلك أن وصف البكري جاء متأخراً من القرن الخامس، أو على الأقل فإن معلوماته التي استمد بعضها من الوراق تنتمي إلى القرن الرابع الهجري/10م، في الوقت الذي يعزى بناء هذا السور للأمير القاسم بن إدريس بعد سنة 213هـ، أي أنه كان موجوداً على الأقل في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/9م. وأعيد بنائه في بداية القرن الرابع الهجري كما سيأتي معنا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان السور غير حصين، عرفنا بذلك ابن الخطيب عند زيارته للمدينة في بداية القرن الثامن الهجري[1].

2- الأبواب: كان يتخلل سور المدينة خمسة أبواب، غير أن المصادر لم تسعفنا على التعرف عن أسمائها أو الجهات التي تفتح عليها، ومع ذلك يمكننا القول إنها تفتح على الجهات الثلاث الشمالية والجنوبية والشرقية، باستثناء الجهة الغربية التي تطل على المحيط. وإذا علمنا أن مدينة البصرة كانت تتوفر على عشرة أبواب، فإننا في أصيلا أمام خمسة أبواب، وهذا يعني - إذا سلمنا بصحة الوصف، وهو بالمناسبة للبكري- أن مدينتنا أصغر حجماً نسبياً من البصرة.

3- مسجد المدينة: نذكر أننا إذا اعتمدنا على ما أشار إليه البكري فإن المسجد كان بالجانب الشمالي ملاصقاً مع السور المشرف على البحر. وبناءً على رواية نفس المصدر[2] فإنه ساحته تكونت من خمس بلاطات، فضلاً عن مكونات المسجد الأخرى، كالصحن، والمحراب، والصومعة، وأماكن الوضوء، وغير ذلك. وهذا يقودنا إلى تعزيز ما ذهبنا إليه من أن مسجد أصيلا أصغر حجماً من جامع البصرة.

---

[1]- ابن الخطيب، **معيار الأخبار في ذكر المعاهد والديار**، 1977، م.س، ص74.

[2]- البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص، 112، 111.

4- القصر: كان لمدينة أصيلا قصر ينسب للقاسم بن إدريس[1]. لكننا لم نجد في المصادر أية إشارة تدل على معرفة موقعه أو مكوناته المعمارية.

5- السوق: كل ما نعرف عن سوق مدينة أصيلا أنه كان سوقاً أسبوعياً، يقام كل يوم جمعة[2]، كان له دور اقتصادي سنبحثه لاحقاً، ولهذا الدور علاقة بنشاط المرسى.

6- المرسى: كان مرسى أصيلا مهيأً لاستقبال المراكب من كل نوع، إذ توفر له الشروط اللازمة لقيامه بهذا الدور، من ذلك وجود بوابة لدخول المراكب تقع في الجهة الشرقية منه، ويحيط بالمرسى من جهته الشمالية حائطان أو جسران مبنيان من الحجارة، مهمتهما حماية المراكب الراسية من هيجان البحر[3]. فهذا ابن الخطيب يصف مرساها من حيث كثرة المراكب المترددة عليه[4]. وأهم عنصر توفر لمرسى مدينة أصيلا هو أنه كان مأموناً من ناحية سهولة دخول السفن، وهذا كان خلال فصل الصيف فقط. "ومرساها مأمون"[5]، الشيء الذي يعكس الجانب الاقتصادي النشط للمدينة.

7- مصادر المياه: الماء الذي كان متوفراً داخل المدينة غير صالح للشرب، لذلك استعاضت الساكنة عنه بمصدر آخر هو الآبار العذبة، وهي التي كانت موجودة خارج سور المدينة، وكان عددها كبيراً. كما ذكر البكري أسماء أثنين منها، هما: بير عدل، وبير السانية[6]. لكننا لم نتعرف على موقعهما خارج السور أو مقدار المسافة التي كانت تربط بينهما وبين المدينة، فضلاً عن غياب أية معلومات تتعلق بمصادر المياه

---

[1]-- البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص، 112، 111.
[2]- البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص، 112، 111.
[3]- البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص، 112، 111.
[4] - ابن الخطيب، **معيار الأخبار في ذكر المعاهد والديار**، 1977، م.س، ص74.
[5] - البكري، **المُغرب**، المصدر السابق، ص111.
[6]- البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص، 112، 111.

غير الصالحة للشرب، ولكنها بالضرورة تستفيد منها الساكنة في استعمالات أخرى.

8- **المقبرة**: وتوجد في شرق المدينة خارج الأسوار[1]. ويمكن لنا تحديد موقع المقابر دون تعين مواضعها بالضبط، وبصفة عامة نرجح أنها كانت تشغل المساحة الواقعة على الضفة اليسرى من واد لحلو.

ما سبق هو ما استفدناه من المصادر المعلومات العامة عن بعض مرافق المدينة، فما هي التطورات التي شهدتها أصيلا؟

للإجابة نجد أن البكري لم يصف لنا حجم المدينة، وهو ما وجدناه عند الأصطخري الذي قال إنها كبيرة[2]. وهو قول لا يعني شيئاً يفيد متسع المدينة، غير أنها لم تتوسع خلال العصور التالية - كما هو متوقع - إذ اضمحلت كثيراً وعلى وجه الخصوص في العهد الموحدي، لأسباب كثيرة، أهمها انصراف الاهتمام إلى الجهاد في الأندلس، فتحولت أصيلا إلى مجرد نقطة عبور للمجاهدين. دليلنا في ذلك قول الشريف الإدريسي [من القرن السادس الهجري] إن المدينة "ما بقي منها إلا نزر يسير"[3].

والواقع أن النصوص المصدرية تصور لنا مراحل التوسع والانكماش التي مرت بها المدينة، منذ تأسيسها وحتى العهد المريني. فإذا كانت الإشارات دالة على وصف المدينة، **فهل كان لأصيلا دور سياسي وعسكري؟ وما حجمه؟** ذلك ما سنناقشه في الفقرة الموالية.

1- البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص، 112، 111.

2 - الأصطخري، **مسالك الممالك**، مصدر سابق، ص39.

3 - الإدريسي، **النزهة**، ج2، مصدر سابق، ص530.

3- الدور السياسي

سبق القول أن أغلب المصادر القريبة من الفترة المدروسة تتفق على أن أول من قدم على أصيلا هو "القاسم بن إدريس"[1]. غير أن بعض المصادر تشير إلى أن أصيلا كانت من نصيب يحيى بن إدريس، عند تعيين الأمير محمد بن إدريس الثاني، إخوته على أقاليم المغرب الأقصى بعد وفاة أبيه إدريس سنة 213هـ[2]. فما هو سر ارتباط أصيلا بالقاسم؟ الواقع أن القاسم كان حاكماً للمدينة ضمن منطقة الشمال الغربي الممتدة من طنجة شمالاً إلى البصرة جنوباً خلال الفترة من (213- 216هـ ومن 234- 254هـ)[3]، وهذا التحديد يقودنا لمعرفة حقيقتين تاريخيتين هما:

1- أن القاسم أسند إليه حكم المنطقة منذ التقسيم 213هـ وحتى سنة هزيمته من قبل أخيه عمر سنة 216هـ، حيث استقل عمر بحكم المنطقة بعد أن ضمها إلى أعماله التي كانت متركزة في الريف. ومن بعده ابنه علي بن عمر.

وكان القاسم خلال حكمه المنطقة غير مستقر بأصيلا بصورة مباشرة، ولكنه لجأ إليها بعد أن هُزم على يد أخيه عمر بأمر من الأمير محمد بن إدريس، نظراً لرفض القاسم الاشتراك في محاربة أخيه عيسى الذي خرج على أخيه محمد بأزمور. وقد هزم القاسم بمدينة طنجة.

ثم عاد الوضع إلى القاسم مرة أخرى، ويضيف ابن عذاري أن المنطقة قد ولي حكمها من بعده ابنه إبراهيم[4]. ونسجل هنا أن عودة الوضع للقاسم ليس كحاكم وإنما كزاهد في أمور الحكم.

---

[1] – رواية الوراق التي نقلها عنه ابن عذاري، في **البيان**، ج1، ص233. أنظر كذلك، طـه، عبد الواحد ذنون، **نصوص مغربية من تاريخ محمد بن يوسف الوراق**، م.س، ص39 ومابعدها. البكري، **المغرب**، مصدر سابق، ص112.

[2] – ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ط2،1999، ص63. ابن خلدون، **العبر**، م4، ص14. ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، القسم الثالث، [تحقيق احمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني]، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص204.

[3] – أحمد الطاهري وأخرون، **مدينة البصرة من خلال المصادر التاريخية والمخلفات الأثرية**، م. س، ص77.

[4] – ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص235– 237.

حيث إلى ساحل البحر مما يلي مدينة أصيلة، فبنى هناك مسجداً على ضفة النهر بموضع يعرف بتاهدارت فأقام يتعبد فيه وزهد في الدنيا إلى أن توفي[1]. وموضع القبر اليوم على ساحل البحر بين كزناية وطنجة.

وبالتحقق من موضع المسجد فإنه يقع شمال أصيلة وجنوب طنجة، فالقاسم زهد في الدنيا، وهذا يعني أنه لم يكن له أي دور سياسي أو عمراني، خاصة ونحن نعرف أن القاسم كان معترضاً من حيث المبدأ على الصراع السياسي بين إخوته من أجل الحُكم.

تشير المصادر إلى أن مدينة أصيلا لعبت دوراً سياسياً، حيث كانت ملجأ الشخصيات السياسية التي لم تربح الوقائع الحربية. فكما اتخذ القاسم مدينة أصيلا منفى اختيارياً، كانت كذلك بالنسبة للأمير يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس من بعده، بعد هزيمته بفاس على يد قائد الحملة العُبيدية (مصالة بن حبوس) سنة 309هـ (الأصح سنة307هـ) بتأليب من موسى بن أبي العافية[2] فاعتقله وعزله ونفاه فذهب إلى أصيلا [3]. واستقر بها مدة قصيرة[4].

ويأتي الحدث التالي بالنسبة لأصيلا، بعد موت الحسن الحجام، على إثر محاولة الفرار من بطش موسى بن أبي العافية، بعد معركة دامية قتل فيها أحد أبناء موسى بن أبي العافية، وكانت هناك محاولة، من قبل عامله على فاس (حامد بن حمدان الهمداني) ترمي إلى تسليمه لموسى، بعد ما

---

[1] – ابن أبي زرع، **القرطاس**، مصدر سابق، ص25. ابن خلدون، **العبر**، م4، ص 14. ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، القسم الثالث، م.س، ص206.

[2] – موسى بن أبي العافية زعيم قبيلة مكناسة، وصاحب تازا والتسول، ويمت بصلة القرابة لقائد الفاطميين مصالة، وشارك معه في كل حروبه تقريباً، وكان ابن أبي العافية من ألد أعداء الأدارسة، استطاع تقليص نفوذهم، عندما كان عاملا للفاطميين، ثم للأمويين، إلى أن تم القضاء عليه على يد الفاطميين أثناء حملة ميسور الفتى قائد الخليفة الفاطمي أبا القاسم سنة328هـ، واشترك الأدارسة في قتال ابن أبي العافية إلى جانب الحملة الفاطمية، فانهزم أمامهم ولجأ إلى الصحراء، وبقي مشرداً حتى قتل ببلاد ملوية سنة328هـ.

[3] – ابن خلدون، **العبر**، م6، ص134. ابن أبي زرع، **القرطاس**، م.س، ص101.

[4] – ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص213. ابن خلدون، **العبر**، م6، م.س، ص136. غير أن البكري، روى عن أحد مصادره، وهو القاضي محمد بن عمر الصدقي، أن يحيى بن إدريس أعتقل أولا من قبل ابن أبي العافية، دهراً طويلاً ثم أتجه إلى أصيلا، ولكننا نرجح الرواية الأولى.

عاد الحجام إلى فاس لضرورات أمنية، وتركه لقواته خارج الأسوار. غير أن حامداً ندم بعد ذلك، ورفض تسليم الحجام لموسى، وحاول مساعدته على الفرار من أعلى السور فسقط الحجام وانكسرت رجله، فانسحب إلى عدوة الأندلسيين وتوفي بعد الحادثة بثلاثة أيام، سنة 313هـ.وعلى إثر ذلك فر حامد إلى المهدية[1]، خوفاً من انتقام موسى بن أبي العافية من تصرفه ذاك .

وبموت الحجام انتهت الدولة الإدريسية الأولى بفاس، حيث أجلى موسى بن أبي العافية آل إدريس عن مواضعهم، واستولى على ما تبقى من مدن بأيديهم مثل شالة وأصيلا، فساروا إلى البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس، أخ الحجام وولوه عليهم ثم رحلوا إلى قلعة حجر النسر وتحصنوا بها[2].

وبعد أن استقرت الأمور في المغرب الأقصى لموسى بن أبي العافية، فكر بالاستقلال عن الدولة الفاطمية، ورأى من مصلحته الاتصال بالخلافة الأموية في الأندلس، ومبايعة عبد الرحمن الناصر[3] في قرطبة، ففي سنة 320هـ خلع موسى طاعة الفاطميين وأعلن الولاء للأمويين[4]. وبذلك اتخذ الصراع مجرى آخر، وفي كل الأحوال كان الأدارسة وحواضرهم الضحية الأولى، حيث نجد الحكم الإدريسي انتقل إلى القاسم

---

[1] – ابن خلدون، **العبر**، م4، م.س، ص16. ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص213، 214. ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، م.س، ص212، ويضيف بالنسبة لموت الحجام، أنه ربما قتله ابن أبي العافية.

[2] – البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص127. ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، المصدر السابق، ص213.

[3] – هو عبد الرحمن أبا المطرف، بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (الربضي) بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، ولد في سنة 277هـ–890م، وبويع في سنة300هـ، وكان أول من تلقب بالخلافة من أمراء بني أمية في الأندلس، وتلقب بالناصر لدين الله، اشتهر بحبه للعمران والتشييد فبنى مدرسة الزهراء، وانشأ بها قصر الزهراء المشهور، وامتد حكمه على خمسين سنة وستة أشهر، توفى عام 350هـ، وله باع طويل جداً في العلاقات مع الأدارسة وحروبه في المغرب الأقصى. أنظر: ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س، ص100. ابن الآبار، **الحلة السيراء**، ج1، م.س، ص200، 197. إسماعيل العربي، **دولة الأدارسة**، م.س، هامش ص142.

[4] – ابن خلدون، **العبر**، ج2، م.س، ص40.

كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس، فبايعه الأدارسة إماماً ورئيساً، سنة 337هـ[1]، إلى أن توفى ثم خلفه ابنه أبو العيش أحمد، الذي كان أعلى بني محمد كلهم، وكان له من البلد ما بين اجاجن إلى مدينة فاس[2].

واعتباراً من عهد حكم الأمير القاسم جنون، سيبدأ الصراع الإدريسي بشكل أكثر حدة. وسوف نركز هنا على الأحداث التي تتصل بأصيلا، حيث يعد ابنه أبو العيش أول أمير إدريسي يبايع الأمويين في الأندلس، غير أن الناصر لم يقبل البيعة إلا بشرط أن يتنازل له أبو العيش عن طنجة ليضمها إلى سبتة، وأمام رفض أبا العيش أرسل الناصر جيشاً لقتاله[3]، فأضطر إلى التنازل عن سبتة وطنجة، وأقام متنقلاً بعد ذلك مع أخوته وأبناء عمه بين مدينتي أصيلا والبصرة تحت السيادة الأموية[4]. ولكننا وجدن أبا العيش قد انصرف إلى الجهاد في الأندلس[5] . وهناك اختلاف بين المؤرخين حول زمن ذهاب أبي العيش إلى الجهاد في الأندلس، وزمن استشهاده، فأبن الخطيب يحدد دخول أبي العيش إلى الأندلس مجاهداً في أخريات سنة ستة وأربعين وثلاثمائة، بينما يحدد ابن أبي زرع سنة استشهاده بسنة 343هـ، ويجعلها كل من: ابن خلدون والسلاوي الناصري في سنة 348هـ، بينما يذكر البكري أن أبا العيش استأذن الناصر في الدخول إلى الأندلس سنة 332هـ[6].

---

[1] – ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، م.س، ص218.

[2] – البكري، **المُغرب**، م.س، ص130.

[3] – ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، م.س، ص219.

[4] – ابن أبي زرع، **القرطاس**، مصدر سابق، ص107.

[5] – ابن أبي زرع، **القرطاس**، م.س، ص117. إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، م.س، ج1، ص102. سعدون نصر الله، **دولة الأدارسة في المغرب والأندلس**، القسم الثاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1996، ص37، 38. إسماعيل العربي، **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص177-179.

[6] – ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ق3، ص219. ابن أبي زرع، **القرطاس**، م.س، ص116. الناصري، **الاستقصا**، ج1، م.س، ص197.
البكري، **المُغرب**، م.س، ص130.

كما كان لساكنة أصيلا دور في الأحداث السياسية التي شهدتها، إذ من المعروف أنها لعبت دوراً في الأنشطة المختلفة التي شهدتها المدينة، وأرتبط هذا الدور بظهور الأدارسة في عهدهم الثاني، فقد تعاقب الأمراء على حكم أصيلا بدءً بالقاسم بن إدريس، ثم ابنه إبراهيم، ثم ابنه حسين بن إبراهيم بن القاسم، وكانت مدة حكمه على لواتة 25 سنة. وكان أخوه أحمد متوليا لأمر كتامة، وهما القبيلتان اللتان كانتا تشكلان أساس المجتمع الأصيلي. وكان أخوهما عيسى بن إبراهيم بن القاسم أميراً على البصرة وقبائلها من كتامة، ثم صار أمر كتامة والبصرة لأمير إدريسي أخر يسمى يحيى بن القاسم، والمعروف بابن برهوية، هذا الأمير أختلف مع قبيلة كتامة، والمعروف أن كتامة قبيلة كبيرة وواسعة تمتد مابين البصرة وأصيلا- ذلك الاختلاف ظل المحرك الأساسي للعلاقات بين الأدارسة والقبائل خلال الصراع بين الأدارسة وابن أبي العافية. فقد كان لقبيلة كتامة دوراً في التعاون مع جيش ابن أبي العافية، وقائده أبي قمح في الحصار الذي فرض على الأدارسة، بقلعة حجر النسر، سنة 317 هـ (929م)، وقبل ذلك إخراجهم من عاصمتهم الثانية البصرة، وأصيلا، وانحصارهم بقلعة حجر النسر، فكانت بداية النهاية للدولة الإدريسية الثانية في الريف.

كما أن قبيلة كتامة استدعت ابن أبي العافية، على إثر ذلك الخلاف وطلبت منه أن يعين والياً من قبله على أصيلا أثناء فترة الحصار المضروب على الأدارسة. ذلك ما استفدناه من ابن عذاري[1]. وأثناء قدوم الحملة العُبيدية إلى المغرب بقيادة حميد الكتامي، سنة (320هـ/932م)، وانهزام أبي الفتح، قائد ابن أبي العافية. وعززها المهدي بحملة جديدة بقيادة ميسور الفتى سنة (322هـ / 935م)، شعر أهل أصيلا بالخوف من الأدارسة وحلفائهم القادمين من إفريقية (العبيديون)، وأمام ذلك طلب منهم ابن أبي العافية التحصن بالمدينة، وكتب إلى قبائل :كتامة، لواتة، هوارة،

---

[1] – ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص232.

وصنهاجة الشمال أن يعاونوا أهل أصيلا في تحصين المدينة، فبنوا سورها في ستة أشهر، وتحصنوا بها، ودام الحصار الإدريسي على أصيلا حوالي أربع سنوات، حتى استسلمت المدينة في النهاية وعادت للأدارسة من بني محمد. إذاً، كانت هناك محاولة تمرد على السلطة الإدريسية، بعد أن ضعفت من جراء الضربات المتلاحقة لابن أبي العافية[1]، وحلفاؤه السابقين (العبيديون)، واللاحقين (الأمويون). ولم تسلم مدينة أصيلا من الهجومات التي كانت تشنها القبائل الجبلية، ودور الساكنة المحلية في حماية المدينة بالرغم من ضعف سورها[2].

وفي ما يلي سنحاول الإجابة عن السؤال المتضمن: إلى أي حد أسهمت مدينة أصيلا اقتصادياً واجتماعياً بالنسبة لمدن الشمال الغربي؟.

4- إشارات متعلقة بالدور الاقتصادي والاجتماعي لمدينة أصيلا

من خلال مقابلة النصوص المصدرية يتضح أن مدينة أصيلا، كانت عبارة عن سوق جامعة للقبائل المحيطة بها. ويبدو أن موقع أصيلا تحدد في الأصل لاعتبارات اقتصادية بدرجة رئيسية، فهو أولاً يطل على المحيط، وبالقرب من طنجة، وبالتالي قريب من الأندلس، لذلك كان عبارة عن مرسى لسفن الأجانب حيث كان هناك خط تجاري بحري ينطلق من ميناء المزمة نحو سبتة، ومنها إلى أصيلا ثم إلى السوس الأقصى[3]، وهو من جهة ثانية، يتوسط موقع المدينة عدداً من القبائل التي وجدت في هذا الموقع مكاناً مناسباً للتبادل التجاري الداخلي والخارجي فأصبح مركزاً تجارياً، حيث كانت هناك طريق برية تأخذ من فاس إلى البصرة ست مراحل، ومن فاس إلى أصيلا ثمان مراحل[4] .

---

[1] – اعتمدنا في ذكر هذه الأحداث على ما استفدناه من ابن عذاري، **البيان**، ج1، ص232.

[2] – ابن الخطيب، **المعيار**، م.س، ص74.

[3] – الأصطخري، **المسالك**، م.س، ص33. ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص61. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص272.

[4] – المرحلة تساوي 46 كلم. المقدسي، **أحسن التقاسيم**، م.س، ص247.

وسوف نوضح هذا الأمر اعتماداً على النصوص المستمدة من نص لمحمد بن يوسف الوراق[1] الذي اعتمد عليه كل من: البكري وابن عذاري، ومن نقل عنهم، حيث نستفيد منها أن موضع أصيلا – في القرن الرابع الهجري/10م – كان يعرف باسم باب المجوس[2]. ولكن هذا الاسم لم يعد موجوداً، أيام ابن عذاري (ق6هـ). والواقع أن هذا الباب، هو الذي تأسست في موضعه مدينة أصيلا كسوق تجاري، بادئ الأمر، وكان هو المرسى أيضاً[3]. فعملت القبائل المحيطة به على البناء شيئاً فشيئاً، وتم البدء ببناء رباط على باب المرسى (المعروف آنذاك بباب المجوس أو باب البحر)، وكانت تقام فيه سوق موسمية جامعة ثلاث مرات في السنة، وذلك في شهر رمضان، وفي يوم عيد الأضحى، وفي يوم عاشورا[4].

وشاع أمر سوق أصيلا بين الناس فقصدها التجار من كل الأمصار بضروب السلع في تلك الأوقات المعلومة[5]، واكتملت المدينة بمجيء القاسم بن إدريس وبناء السور[6]. هذه كانت مساهمة القاسم، ولكنه ليس باني المدينة، لأنه كان لاجئاً، وترك أصيلا بعد فترة من قدومه عليها، ليستقر في شمالها.

---

[1] – محمد بن يوسف الوراق، تعلم بالقيروان حيث نشأ بها ورحل إلى الأندلس، واستوطن قرطبة، وألف بالأندلس للحكم كتابا ضخما في مسالك أفريقية وممالكها، كما ألف في تاريخ ملوك افريقية وتاهرت وسجلماسة ونكور والبصرة وغيرها من المدن المغربية. ولعل كتابه "تاريخ إفريقية "هو الذي استقى منه البكري وابن عذاري الكثير من النصوص. راجع: سامية مصطفى سعد، **العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2000، ص178. عبد الواحد ذنون طه، **نصوص مغربية من تاريخ محمد بن يوسف الوراق**، م.س، ص84–104.

[2] – البكري، **المُغرب**، م.س، ص111–112. ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص 232. المجهول، **الاستبصار**، م.س، ص139– 140. الحميري، **الروض المعطار**، م.س، ط2، 1984، ص42.

[3] – المجهول، **الاستبصار**، م.س، ص139.الحميري، **الروض المعطار**، م.س، ص42.

[4] – البكري، **المُغرب**، م.س ، ص112. ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص232.

[5] – البكري، **المُغرب**، م.س، ص112. ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، 232.

[6] – البكري، **المُغرب**، م.س، ص112.

أما القبائل التي أسست المدينة، وساهمت في الازدهار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي شهدته مدينة أصيلا، فهي لواتة وكتامة وبنو زياد من هوارة زلول، وبغربيها هوارة الساحل[1].

والواقع أن مدينة أصيلا محاطة بأرض خصبة، ومجتمعها يميل إلى الحياة المدنية، أكثر من ميله إلى حياة البداوة. وبهذا الخصوص يصور لنا ابن حوقل ذلك الرفاه الاقتصادي الذي كانت تتمتع به مدينة أصيلا بقوله: إنها كانت "في غاية من الخصب ورخص الأسعار واللذيذ من الأغذية الحسنة [ويشير إلى ملاحظته التي دونها أثناء زيارته للمنطقة، أن وضعهم أصبح أفضل من السابق]، وفي وقتنا هذا [أي سنة 336هـ] فقد تدانت أحوالهم وصلحت أمورهم وعمر طريقهم"[2].

نستفيد من هذا النص أن مدينة أصيلا بظهيرها كانت مؤهلة للاضطلاع بدور اقتصادي، حيث يتوفر الساحل والميناء، والأرض الخصبة، فاستفاد أهل أصيلا من هذه المؤهلات الطبيعية، وانعكس ذلك في الرخاء الاقتصادي والحالة المعيشية للساكنة، فأصبحت مدينتهم قبلة التجار من مختلف الأصقاع، فضلاً عن توفر الثروة الحيوانية والمنتجات الفلاحية، يصف لنا ابن حوقل هذا المشهد من الضفة المقابلة، أي من أرض الأندلس، بقوله: " وبينهم وبين أصل الخليج الخارج إلى بلد الروم[3] عن قرب مسافة ما بين العدوتين، حتى أنهم ليرى بعضهم ماشية بعض وصور أشجارهم وزروعهم، ويتبينون الأرض المفلوحة من أرض البور، وعرض الماء يكون أثنى عشر ميلاً"[4]. ومعنى هذا أن أصيلا كانت قريبة من أرض الأندلس وبالتالي لعبت دور اقتصادي، لذلك كانت محل أطماع القرطبيين من أمويين وعامريين.

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م.س، ص112.

[2] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س، ص101.

[3] – يقصد هنا بلد الأندلس، أو ما كانت تعرف بشبه الجزيرة الأيبيرية. والخليج، هو المضيق الفاصل ما بين العدوتين.

[4] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س، ص101.

ومما يدل أيضاً على أن أصيلا كانت مركزاً تجارياً ما ذكره ابن الخطيب عند وصفه المدينة، والأنشطة اليومية فيها[1]. هذا الوصف يرسم لنا لوحة متكاملة عن الأوضاع الاقتصادية وإن كان متأخر نسبياً، ولكنه يشكل- إلى جانب وصف ابن حوقل وغيره- تواصلاً لازدهار مدينة تعد بحق من المراكز الاقتصادية الساحلية في الشمال الغربي المغربي. ولا ننسى الشريف الإدريسي الذي أشار إلى الأسواق القريبة من أصيلا[2]. فضلاً عن المنتجات الفلاحية، فناحية أصيلا تنتج كثيراً من الحبوب والثمار لتزود بها الأسواق للاستهلاك المحلي والتصدير، وكانت تستورد الفحم بكثرة من العرائش، لأن المدينة كانت تفتقر للحطب بسبب بعدها عن الجبل بعشرة أميال[3].

ونظراً لتميز أصيلا بعدة صفات فقد أهتم بها العرب كثيراً وجملوها وأصبحت من أشهر المدن، سواء من حيث البضائع أو الصناعات الأخرى.

هذه الشهرة التي تميزت بها أصيلا اقتصادياً وتجارياً استدعت من البكري أن يصف لنا حتى المكاييل المستخدمة في التجارة ويحدد أنواعها - وهي سابقة نحاها البكري على غير عادة في وصفه للمدن الشمالية الغربية المغربية- يقول البكري عن مكاييل أهل أصيلا: " وكيلهم يسمى مداً، وهو عشرون مداً بمد النبي صلى الله عليه وسلم مثل الفنقة القرطبية[4] وكيل الزيت يسمونه قليلة، وهي مائة واثني عشرة أوقية، ففي القنطار عشرون قليلة"[5]. والمد المنسوب للرسول يساوي رطل ونصف الرطل[6].

---

[1] – يقول ابن الخطب: إن أصيلا كانت " كثيرة المرافق، رافعة في الخصب اللواء الخافق... والسفن المترددة، وفيها الملف والأبازير". **معيار الأخبار في ذكر المعاهد والديار**، م.س، ص74.

[2] –الإدريسي، **النزهة**، ج2، م.س، ص530.

[3] – الوزان، **وصف إفريقيا**، م.س، ص313.

[4] – نوع من المكاييل في قرطبة على عهد الأمويين.

[5] – البكري، **المُغرب**، م.س، ص112، 113.

[6]– الثمرامداني، **في تقريب المعاني**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2004، ص25.

مما سبق يتضح أن القبائل وفرت للمدينة الاحتياجات الفلاحية الضرورية، وما تحتاجه من قوة بشرية، لذلك فقد أتحدت المدينة مع البوادي المغربية اقتصادياً، وكانت الأنشطة الإنتاجية فيهما متكاملة، عندما كانت المدينة منتجة، ومسيطرة عمرانياً على محيطها الريفي، ولكن العلاقة بين المدينة والبادية - بشكل عام- تدهورت حالما فقدت المدينة ديناميتها الاقتصادية، وتحولت إلى مجرد نقطة عبور في العصور اللاحقة، نستفيد ذلك بالعودة إلى وصف الشريف الإدريسي، الذي يرجع إلى القرن السادس الهجري، يقول أن أصيلا " مدينة صغيرة وما بقي منها الآن إلا نزر يسير"[1]. هذا الوصف يوحي بتراجع مكانة أصيلا خلال القرن 6هـ/13م، ويعزى سبب هذا التراجع إلى بروز مدن ساحلية أخرى في الجانب الاقتصادي سواء في المغرب أو الأندلس على العهد الموحدي. ولكن ابتداءاً من القرن التالي سوف تشهد تطوراً ملحوظاً في هذا المضمار[2]، نتيجة لظهور الاتفاقيات التجارية مع مدن جنوة وصقلية وغيرهما على عهد بني مرين.

من كل ذلك يتضح أنه لا يمكن فهم أهمية دور المدن التجارية إلا في حقل النظرة الشاملة لتطور هذه المدن، وليس في نطاق النظرة إلى المدينة كوحدة مستقلة.

---

[1] - الإدريسي، **النزهة**، ج1، م.س، ص530. راجع، الحبيب الجنحاني، **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**، بيروت ، الطبعة الثانية، 1986، ص 210-214.

[2] - حيث بدأت سفن تجار جنوة وميورقة تقدم على أصيلا، ففي سنة (706-707هـ/1307م)، أوفدت خمس شركات من برشلونة ممثلين لها بإصيلا، بينما كان للجنويين خانات، أو فنادق بالمدينة، وكان هؤلاء التجار يقتنون التبر [الذهب] والحبوب والصوف، ويعرضون بها سلعاً كانت التوابل والعقاقير الشرقية أهمها، وبقيت التجارة الجنيوية مزدهرة بأصيلا حتى بعد احتلالها من قبل البرتغالين. (مجهول)، كاتب مادة **أصيلا** في معلمة المغرب، ج2، مطابع سلا، سنة1989، ص487.

خلاصة واستنتاجات

1- ورد ذكر اسم أصيلا في المصادر العربية بوصف "جميلة" المشتق من أزلي الأمازيغي، وهي غير أزيلي، وتطلق على موقع قديم بالقرب من أصيلا يعرف بـ"الدشر الجديد" بأحد الغربية.

2- تأسست المدينة سنة 229هـ، وارتبط تأسيسها بالقبائل المغربية المحلية (لواتة، وكتامة)، كما تزامن تأسيسها مع تأسيس مدينة البصرة. وبدأت كمركز تجاري يتوفر على أسواق موسمية، وميناء نشط تجارياً.

3- بدأ نشاط أصيلا الاقتصادي كسوق في بداية أمرها.

4- عند تقسيم الأمير محمد بن إدريس للمغرب بين أخوته كانت أصيلا من نصيب القاسم بن إدريس، وعاد إليها لاجئاً بعد هزيمته على يد أخيه عمر بأمر من أخيهما محمد، وإليه ينسب سور المدينة، والقصر، والمسجد. والواقع أن القاسم استقر إلى الشمال من أصيلا، على ضفة نهر تهدارت، وبنى مسجده، ولا يزال قبره موجوداً هناك .

5- شهدت أصيلا تطوراً ملحوظاً عند قدوم الأدارسة إليها، وفي سنة 322هـ، تم تسوير المدينة بأمر من موسى بن أبي العافية، للتصدي للحملة الفاطمية بقيادة ميسور الفتى، وقامت القبائل المحلية المجاورة ببناء السور (كتامة ولواتة وهوارة وصنهاجه).

6- توفرت أصيلا على العناصر المعمارية، التي تتميز بها المدن الإسلامية في العصر الوسيط (السور والأبواب والقصر والمباني السكنية والمقابر والآبار والجامع والأسواق والميناء، الخ.)

7- كان لأصيلا دور اقتصادي، حيث أهلها موقعها على ساحل المحيط أن ترتبط بالخطوط التجارية البرية والبحرية، فلعبت دوراً تجارياً على المستويين الداخلي والخارجي.

8- على الصعيد السياسي، كانت أصيلا عبارة عن منفى لبعض الأمراء الأدارسة، كما شهدت المدينة أبرز مراحل الصراع السياسي الذي جرى بين الأمراء الأدارسة وموسى بن أبي العافية، وخاصة خلال ولاءه

للأمويين بقرطبة، ثم الصراع الفاطمي / الأموي، الذي كان مرتبطاً بأهداف اقتصادية، على الأراضي الواقعة ضمن السيادة الإدريسية، وكان الأمويون يولون اهتماماً خاصاً بمدينة أصيلا إلى جانب سبتة وطنجة، نظراً لقربها من الأندلس.

لائحة مقارنة بين مدينتي البصرة و أصيلا

البيان	مدينة البصرة	مدينة أصيلا
الموقع	**تقع إلى الجنوب من مدينة القصر الكبير، في سهل الغرب ضمن إقليم سيدي قاسم، على بعد 2كلم عن مركز قيادة أعمر الحاضي، دائرة حد كورت، إلى اليمين من الطريق الرئيسي الرابط بين سوق الأربعاء ووازن.**	**تقع إلى الجنوب من طنجة، وهي أول المدن الساحلية الشمالية الغربية، على ساحل الأطلسي، إلى الشمال من مدينة العرائش، وتحتل موضعاً على هيئة شبه جزيرة، يتخلله عدد من المرتفعات الجبلية.**
التسمية	**عرفت بعدة أسماء منها: الحمراء لأن تربتها حمراء، وبصرة الكتان لأن أهلها كانوا يتبايعون بالكتان، وبصرة الألبان لأنها كانت كثيرة الألبان.**	**عرفت باسم أزيلا، وأصيلة، وتعني "الأرض الجيدة". وهي ليست زيلي المعروفة بالمصادر الرومانية. فهي تقع إلى الجوار منها .**
التأسيس والدور السياسي	**بناها محمد بن إدريس في منتصف القرن 3هـ/9م، لتكن مدنية إستجمامية. ثم تحولت إلى عاصمة بعد سقوط فاس بيد العبيديين وحلفائهم (315هـ). وهناك من يرى أنها أصبحت عاصمة لدولة الأدارسة الثانية في الريف وغمارة منذ زعامة الأمير الإدريسي (الحسن بن كنون سنة 347هـ). ساهمت القبائل المحلية في تأسيس المدينة وأشهرها "كتامة" وبلغت أوج ازدهارها في عهد الأدارسة، مما يدل على وجود ارتباط بين تأسيس الدولة، وتحول القرى إلى مدن خلال العهد الإدريسي، وكانت ضمن أعمال القاسم بن إدريس في التقسيم الذي أجراه الأمير محمد بعد وفاة أبية إدريس الثاني، سنة 213هـ. والبعض يضعها ضمن أعمال يحيى بن إدريس .**	**كان الموضع ملكاً لقبيلة لواتة، وتعرض لهجوم "النورمانديون" مرتين، وأسست بعد ذلك سنة 229هـ. كانت ضمن إعمال الأمير يحيى بن إدريس. اشتركت قبيلتا لواتة وكتامة في تأسيس المدينة ، ثم ازدهرت في عهد الأدارسة .لعبت أصيلا دور المنفى لبعض الأمراء الأدارسة، وأسهمت إلى جانب البصرة وحجر النسر في احتضان الدولة الإدريسية الثانية، كما شهدت سقوط الدولة، وتعرضت للعديد من الحملات خلال الصراع الفاطمي الأموي، وكانت من أبرز حواضر الأمير الإدريسي الحسن بن كنون .**

وصف المدينة	وصفت البصرة بأنها كانت كبيرة وواسعة ومتحضرة جداً، جميلة الضواحي في السهل والجبل، بنيت بين مرتفعين جبليين، ضمن المدن الداخلية السهلية التي أقيمت لتسهيل وحماية التجارة البرية، كثيرة الخير خصبة حسنة العمارة والأسواق، طيبة الهواء، كثيرة السكان (2000كانون) والمساجد. أسوارها كانت مبنية بالحجارة والطوب، يتخللها الأبراج، وعشرة أبواب. وجامعها يتكون من سبع بلاطات. والسوق والمتاجر والمنازل والحمامات الكبيرة داخل السور (بعيداً عنه إلى الداخل)، وخارج المدينة العيون الكثيرة والآبار العذبة، ومواد البناء من الأحجار المجلوبة من جبل صرصر المجاور.	بدأت كسوق تجاري ومرفأ، وازدهرت خلال القرن 3هـ كمركز تجاري نشط، وكان لها دوراً مهماً في تصريف التجارة الداخلية عبر البحر إلى الخارج، كما كانت مدينة مسورة، وقد تعرض السور لتجديدات على أثر الصراع الذي جرى في المنطقة، واشتركت القبائل المحلية في تجديد السور الذي كان يضم خمسة أبواب. وكان جامعها يتضمن خمس بلاطات. وللمدينة أسواق أسبوعية وموسمية، وشرب أهلها من عدد من الآبار. والمنطقة المحيطة بها صالحة جداً للحبوب وجميع أنواع الفاكهة وكمراعي للمواشي.
الدور الاقتصادي	اشتهرت بالغلات الوفيرة" الكتان، القطن، القمح وسائر الحبوب". وأنشئت فيها معامل صك النقود. وأقيم بها حياً صناعياً لصناعة الجير والفخار والطوب، واهتمت الساكنة بتربية الأبقار والأغنام والطيور الداجنة، ولعبت دوراً في التجارة الداخلية والخارجية .	اشتهرت بدورها التجاري كميناء يطل على عالم شمال المتوسط، بالإضافة إلى الثروة السمكية والحيوانية، وكان ريعها كبيراً من الحبوب والثمار والفواكه. وكانت تستورد الفحم من العرائش، ولعبت دوراً مهماً في التجارة الخارجية، وهي من أشهر المدن من حيث البضائع والأسلحة، ولذلك استمرت شهرتها ودورها التجاري مزدهراً في العصور اللاحقة .
الدور الاجتماعي	اشتهرت البصرة بكرم أهلها، وميلهم إلى السلام والعلم، وجمال السكان نساءً ورجالاً، وكان أغلبهم تجاراً.	ساهمت القبائل المحلية " لواتة، كتامة، هوارة، صنهاجة، وغيرها" في صنع التاريخ السياسي والاقتصادي لمدينة أصيلا خلال العصر الوسيط.
اندثار المدينة	عندما زال حكم الأدارسة نهب أعدائهم المدينة وخربوها. والواقع أنها تأثرت كثيراً بالصراع الفاطمي الأموي خلال القرن 4هـ/10م، وتضائل دورها السياسي بعد سقوطها بيد المنصور بن أبي عامر (حاجب هشام المؤيد) صاحب قرطبة، ثم تلاشى دورها الاقتصادي الناجم عن تحول طرق التجارة البرية إلى البحر، بالإضافة إلى عدم اهتمام العرب المقيمين حولها بتعميرها.	

الفصل الثاني

كُرت وحجر النسر نموذجا الحصون والقلاع

أولاً

كُرت نموذج الحصون

لمحت العديد من المصادر العربية إلى منطقة كُرت بإشارات عابرة لم تمكنا من الوقوف على بعض التفاصيل المتصلة بالموقع الإدريسي، ومن هذا المنطلق قمنا بزيارة للموقع بناءً على ما جاء في تلك المصادر القريبة من الفترة المدروسة. هذه الزيارة الميدانية انطلقت من أهداف ثلاثة رئيسية هي:

1- توطين المدينة من خلال التعرف على الموقع والموضع، ووصفهما.

2- فحص ومقارنة النصوص الوارد ذكرها في المصادر العربية، مع التحري الميداني.

3- استكمال البيانات التي لم ترد إشارات عنها في المصادر العربية.

1-الموقع بين المعطيات والتحريات

لتحقيق الأهداف المشار إليها قمنا بحصر النصوص الواردة في المصادر العربية التي تناولت الموضوع، وعددها خمسة[1]، وعملنا على تصنيفها كرنولوجياً، وتناولناها بالدراسة المقترنة بالتحري الميداني. كما

---

[1] – ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، [بدون تاريخ]، ص80–81.
البكري، **المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، طبعة باريس 1965، ص 111.
الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، الجزء الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994، ص531. المجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص 189. ابن عذاري، (أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، الجزء الأول، [تحقيق ومراجعة، س كولان و إ. ليفي بروفنسال]، الدار العربية للكتاب، ط 3، 1983، ص 336.

استبعدنا الاعتماد على استعمال تقنية الرواية الشفهية نظراً لبعد الفترة المدروسة.

ومضمون هذه النصوص التي توفرت لدينا تظهر أن كُرت حصن إدريسي. ولمزيد من التوضيح سوف نسترشد بها في بحثنا عن الموضوعات المختلفة للحصن، ومحاولة الإجابة عن التساؤلات المتعلقة به، ومنها: هل نستطيع ضبط الموقع الجغرافي اعتماداً على تلك النصوص الخمسة فقط؟ أم سنكون مضطرين لاستخدام وسائل منهجية أخرى كالتحري الميداني؟

في البداية، ينبغي الإشارة إلى أن مدينة كُرت تقع ضمن منطقة الغرب، وقد كانت هذه المنطقة من نصيب القاسم بن إدريس الذي ولي "البصرة وطنجة وما ولاها" حسب تعبير البكري، أو نواحي طنجة وما والاها من القبائل الهبطية. ويقول الشريف الإدريسي[1] عن هذه الجهة " كانت هذه البلاد منسوبة إلى بلاد طنجة ومحسوبة منها" ويقصد " سبتة وقصر مصمودة وطنجة وتشُمس وأصيلا وقصر كتامة (القصر الكبير) والبصرة والأقلام وكُرت". وكما سنرى فإن " القصر الكبير والبصرة والأقلام وكُرت" هبطية ومعدودة ضمن منطقة الغرب[2].

وعند قيامنا بعملية تصنيف للنصوص الواردة في المصادر العربية عن مدينة كُرت، فيما يتعلق بالموقع، وجدنا أنها تتضمن اتجاهين رئيسين هما:

الاتجاه الأول: ويمثله كل من أبي عبيد الله البكري وابن عذاري والمجهول صاحب الاستبصار، والذين ذهبوا إلى القول إن كُرت تقع أعلى الجبل الذي يحمل اسمها، أو هي حملت اسمه[3].

---

[1] – الإدريسي، (منتصف القرن6هـ/12م)، **النزهة**، ج1، م.س، ص531.

[2] – البوعناني المصطفى، **مساهمة في دراسة تاريخ منطقة الغرب**، م.س، ص71.

[3]– البكري، **المُغرب**، م.س، ص111. الشريف الإدريسي، **النزهة**، ج 2، ص 531. المجهول، **الاستبصار**، م.س، ص 189.

والاتجاه الثاني: يمثله كل من ابن حوقل والشريف الإدريسي، وهو القائل بأن كُرت تقع في سفح الجبل[1].

أمام هذين الاتجاهين نتساءل: هل إذا اعتبرنا ما قاله ابن حوقل صحيحاً، ووافقه الشريف الإدريسي الذي جاء متأخراً، فماذا يمكننا القول بالنسبة للآخرين القريبين من الفترة المدروسة، مثل البكري، وكذلك ابن عذاري الذي يسلم الكثير من الباحثين بصحة ودقة وصفه، وكذلك صاحب الاستبصار؟

بالرغم من أن البكري لم يزر المنطقة[2]، إلا أنه قد تأكد لنا ـ من خلال كتاباته عن مواقع أخرى ومنها كُرت- صحة وصفه، ويأتي معززاً لذلك الوصف، ما تمت معاينته في الزيارة الميدانية، حيث اتضح أن هناك أثاراً منتشرة على الجبل (متعددة الطبقات)، وهو ما سنتطرق إليه في الموضع المخصص للوصف.

- ومن خلال ما سبق، يتضح أن هناك غموض يكتنف الموقع الأثري للمدينة وهو الذي نبحث عنه ويهمنا، ومن هذا المنطلق فإننا نرجح ما ذهب إليه البكري وابن عذاري وصاحب الاستبصار، من أن مدينة كُرت تقع في أعلى جبل كُرت، وهو ما تؤكده الزيارة الميدانية. وربما كان هناك موقع آخر في أسفل الجبل، غير أنه أثناء تجوالنا في المكان لم نلاحظ بقايا تشير إلى أن موضع المدينة بسفح الجبل، وهذا الموضوع رهين بما ستكشف عنه التنقيبات الآركيولوجية في المستقبل. مع الأخذ بعين الاعتبار أن هناك موضعين أساسين يحتفظان بتسمية المدينة هما: حد كُرت وهو موضع السوق الأسبوعي، وجبل كُرت الذي تم التحري الميداني فيه.

---

[1]- ابن حوقل، **وصف الأرض**، م. س، ص 80- 81. ابن عذاري، **البيان**، ج1, م. س، ص336.

[2]- عندما نلقي نظرة في مؤلف البكري حول وصف الطرق نجده يقدم لنا بعض المعلومات المفيدة وإن كانت موجزة، عن طريقين تربطان بين سبتة وفاس، ويورد البكري خلالها أسماء عدد من المدن اندثر معظمها اليوم، وينوه بغناها وخصبها وتجارتها ومنها كُرت. محمد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط**، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط الأولى، 1999، ص 380.

وتكمن أهمية موقع كُرت الإستراتيجي في الجبل الذي يسمح علوه بمراقبة فعالة لمجال شاسع يمتد من جبل بوهلال قرب وزان، وسهل إساول قرب زومي، وهضبة ورغة. ذلك ما يتعلق بالمعطيات، فماذا أضافت التحريات الميدانية بخصوص الموقع؟

سنحاول هنا استكمال ما لم تشر إليه النصوص بالنسبة لموقع كُرت، حيث نجد - من خلال الزيارة الميدانية- أن مدينة كُرت كانت تقع في مقدمة جبال الريف التي تدخل ضمن منطقة الغرب[1] إلى الجنوب الشرقي من موقع البصرة (وفقاً للتقسيم الجهوي الحالي) فهي واقعة إلى الشرق من مشرع بلقصيري، ضمن نطاق قيادة سيدي اعمر الحاضي. وتبعد عن مدينة القنيطرة بحوالي 90 كلم، ومجالها يسمى المرتفعات أو الغرب الأعلى، وملحقة إدارياً بإقليم سيدي قاسم، وتضم خمس قيادات هي: مولاي عبد القادر، سيدي اعمر الحاضي، الخنيشات، عين الدفالي، والمرابيح.

وتحد دائرة حد كُرت حالياً شمالاً: وزان، وجنوباً واد سبو وسيدي قاسم، وغرباً مشرع بلقصيري وسوق الأربعاء الغرب، وشرقاً وزان وقرية بامحمد[2].

كما تعد مدينة كُرت ضمن البلاد الداخلية من بادية الغرب، وهي بادية مستوية تضم ضفاف سبو ابتدءاً من حد أولاد جلول، وما بين نهر ورغة وسبو ووادي ردات وبلاد كُرت، والأرض المحيطة بجبل كُرت من بلاد عوف شرق منطقة الغرب هي من أخصب بلاد المغرب[3].

---

[1] – تعد ضمن منطقة المرتفعات أو الغرب الأعلى، وهي تلال من مقدمة الريف المعدودة ضمن منطقة الغرب، توجد في الهوامش الشمالية الشرقية والوسطى والجنوبية الشرقية، نجد أعلى ارتفاعاتها في جبل كورت(443 م)، وجبل سلفات في الجنوب الشرقي (800 م) . انظر المصطفى البوعناني، **مساهمة في دراسة تاريخ منطقة الغرب من القرن 6 هـ/ 12 م، إلى 11هـ / 17م**، م، س، ص 81.

[2] – تقرير خاص ببلدية أحد كورت، صدر بمناسبة مهرجان حد كورت، لسنة 2004.

[3] – Michaux Bellaire, P91.

1- تتبع جغرافياً جهة الغرب الشراردة بني احسن، وتتقاطعها عدة طرق تؤدي إلى المدن الآتية: مشرع بلقصيري، سوق الأربعاء الغرب، سيدي قاسم، وزان، ومجموع الجماعات التابعة لدائرة حد كُرت.

2- - كما تقع جبال مصمودة في الجهة الشمالية الغربية لحد كُرت، وهي بموازاة الطريق الرابطة بين أحد كورت وسوق الأربعاء الغرب.

3- توجد منطقة تدعى بـ (كُرت الحمراء)، تقع في المنطقة الجنوبية الغربية لمركز مدينة كُرت على بعد حوالي (700م)، من مركز المدينة. ويفصل بين كُرت الحمراء والمركز، قرية (دوار) تسمى يكوشة، ويبلغ ارتفاع منطقة كُرت الحمراء حوالي (191م). ومن المركز إلى السوق الأسبوعي (الأحد)، 1000م. انظر الصور "1و2".

منظر عام لمنطقة حد كورت يشاهد فيه المركز الحضري (السوق)، ومن وراءه الجبل.





صورة (1) جزء من موقع كرت الحمراء



صورة(2) منظر جزئي لكرت الحمراء

وصف الموقع الأعلى

يحتل حصن كُرت – حسب معطيات الزيارة الميدانية- موضعاً في أعلى الجبل الذي يبعد عن سوق أحد كورت بحوالي (9 كلم) إلى بداية الجبل في اتجاه شمالي شرقي بمحاذاة الطريق إلى وزان، ويبلغ ارتفاعه حوالي (443م). ويتم الصعود إلى أعلاه عبر طريق شديد الانحدار، (أنظر الصورة رقم 3). يبدو جبل كرت ماثلا للعيان قبل الوصول إلى مدينة أحد كورت، ويزداد وضوحا للمشاهد من مركز المدينة. وبعد 9 كلم يتم الوصول إلى الجبل الواقع باتجاه شمالي شرقي، ويتم الصعود للجبل مشيا على الأقدام، لمدة تزيد عن 45 دقيقة، ابتداء من عين وزيف التي تقع على يمين الصاعد، وتبدأ شدة الانحدار شيئا فشيئا، حتى نصل إلى الكرادة، وبعدها يبدأ التسلق راسيا إلى القمة، وما أن تكاد تلفظ أنفاسك حتى ترى الدلائل المتمثلة في قطع الفخار المتناثرة حول المكان، والتي تنبئ أن هذا الموقع مهم فتسترد أنفاسك. كما تشتهر المنطقة بسوق أسبوعي (الأحد) ويقع في بلاد سفيان رواكة، إلى الغرب من جبل كُرت، وعلى الطريق الصيفي (فاس- القصر الكبير).

وتحيط بالجبل عيون تنبع من جوانب الجبل، وأبرزها على الترتيب: عين وزيف، تقع في السفح الشرقي لجبل كُرت، وتتميز بوجود عين للمياه غزيرة. وعين ستامي، وتقع في وسط الطريق بين عين وزيف، والكرادة من الجبل. ويحيط بهذه العيون تجمعات سكانية (دواوير)، حيث تواجه الصاعد إلى قمة الجبل، قرية تسمى (الكرادة)، في وسط الجبل من الناحية الجنوبية الغربية قبل الصعود إلى القمة في (منتصف المسافة ما بين السفح والقمة). تليها قرية (العوالكة)، في الناحية الغربية للجبل. ويشاهد من أعلى الجبل تجمعان سكانيان أخريان، هما: الفلالقة، في الناحية الشمالية الغربية للجبل. وسيدي يسف، في الناحية الشمالية له.



صورة (3) الصعود إلى الجبل



وعند الوصول إلى قمة الجبل وجدنا **موقعاً أثرياً مستطيل الشكل تقريباً**، مساحته حوالي (750م²) مميزاً بحقل واسع من خطوط أساسات لمباني واضحة المعالم على الرغم من الغطاء النباتي الذي يكسو المساحة، والمكان محصن طبيعياً بالحواف الحادة من جميع الاتجاهات، ولا توجد أثار واضحة للسور.

وعلى السطح نجد العديد من الآثار المعمارية، والتي تعرف عند الساكنة المحلية باسم عريسات مولاي عبد القادر الجيلاني، ودار أحد المجاذيب[1]. وندخل بعض المشاهدات التي لا نعرف ما إذا كانت منتمية إلى الفترة أم لا، أهمها:

- خلوة مولاي عبد القادر الجيلاني، وتشبه إلى حد كبير المقابر الصخرية في اليمن، ارتفاع المدخل حوالي (2.20سم)، وعرضه حوالي (1.50سم)، منحوت في الصخر. لم نتمكن من الدخول إليه لضيق الممر بعد المدخل، ولشدة الظلام، صورة (4).

- وبالجوار مغارة منقورة في الصخر على نفس مستوى الموقع يسميه الأهالي (للى عيشة)، صورة (5).

---

[1]- المجذوب: أنظر: محمد العمراني، **دراسة وتحقيق تحفة الإخوان**، القسم الثاني، م. س، ص 332.

- وتوجد آثار لمبنى مهدم الجدران مبني من الحجارة والطين، أشار بعض الرواة المحليين إلى أنه كان عبارة عن مسجد وتهدم قبل فترة قصيرة، وأشار آخرون إلى أنه كان داراً لأحد المجاذيب، صورة (6).

- وهناك زاوية جبل كُرت، كما لاحظنا من خلال الزيارة الميدانية وجود أثار لكهوف وأنفاق، يطلق عليها تسميات ترتبط بأصحاب الكرامات.

وقد جاء في ترجمة عقدها (محمد القادري) للشيخ الحسن بن يوسف الزياني (ت 1023هـ)، أنه خرج من فاس سنة 1022هـ إلى جبل كُرت من جبل عوف، حيث كان له أصحاب وسيب من حرث وماشية، وبقي هناك حتى توفي ودفن في الموضع المعروف بزاوية الهبط من جبل كُرت.

- كما تنتشر بكثافة الكثير من بقايا القطع الفخارية المختلفة الأشكال والأحجام. صور (7،8).

- هناك حفريات عشوائية قام بها بعض الأجانب- وفقاً لرواية أحد الأهالي- هدفوا منها البحث عن كنوز حسب اعتقادهم، أنظر الصور(9،10).

وفي هذا الصدد شاهدنا عدداً كبيراً من هذه الحفر، تكشف عن ما يشبه وجود أساس بناء من الحجر لا نستطيع أن نجزم بصفة مؤكدة أنها متعلقة بقطعة من سور أو جدار حجرة، مع احتمال صحة ذلك. فضلاً عن وجود مخلفات أثرية متناثرة على السطح أكثرها من القطع الفخارية. مما يدل على أهمية المنطقة أثرياً. كما قيل لنا أن مختصين كانوا يقومون بإجراء بعض الحفريات على السطح (ربما أركيولوجيون أو هواة). والواقع أن لم يتم القيام باستبارات للموقع من قبل المعهد الأثري، حسب ما تأكد لنا من بعض المختصين.

- وهناك بعض المشاهد من الآثار التي وقفنا بإزاءها، لكن يصعب أن نقول إنها تعني شيئاً ما بالنسبة إلينا، وقد تختلف هذه النظرة بالنسبة للمتخصص.

ولذلك نقتصر على مجرد سرد ما شاهدناه من أكوام بعضها متقارب والبعض الآخر متباعد، وهي عبارة عن حجارة ظاهرة على السطح، والبعض منها غائر في التربة أو تغطيه النباتات الطبيعية، نظر الصور (7،8).

صورة (4) خلوة عبد القادر الجيلاني



صورة (5) للا عيشة



صورة (6) بقايا لأساس مبنى أحد المجاذيب



صورة (7) منظر جزئي لموقع كرت في قمة الجبل



صورة (8) منظر جزئي لموقع كرت في قمة الجبل، ويظهر فيه بقايا الأساسات



صورة (9) منظر جزئي لموقع كرت في قمة الجبل، ويلاحظ فيه أثار النبش غير العلمي



صورة (10) منظر جزئي لموقع كرت في قمة الجبل، ويبين أثار التنقيبات العشوائية



- كما رصدنا خلال الزيارة بعض الروايات الشفهية التي تنسجها الذاكرة المحلية، ولا تفيدنا في بحثنا خلال الفترة المدروسة. أنظر الصورة (11)[1].



تحصين المدينــة

ينبغي حل الإشكال الذي أوقعنا فيه تضارب المصادر حول حصانة المدينة، وما توصلنا إليه في هذا الجانب أن هناك من المصادر التي أشارت إلى أن مدينة كُرت واقعة في أعلى الجبل متوفرة على الأسوار التي تضمن لها التحصين، في الوقت الذي نجد أن هناك تناقضاً في

1- ما تزال الساكنة التي أتصلنا بها قصد استطلاع أحوال المدينة والمنطقة محتفظة ببعض الذكريات المتوارثة شبيهة بالأساطير، متعلقة قدم المدينة ورجالها المرابطين، والإنتاج الفلاحي المتوارث.

- أفادتنا الرواية الشفهية، كذلك، في التعرف على المسافات الفاصلة بين أحد كورت وأقرب المراكز الحضرية المجاورة والمحيطة بها، على النحو التالي: بين حد كُرت وكل من: وزان (64 كلم)، عين الديفالي (24 كلم)، بلقصيري (32 كلم)، سوق الأربعاء الغرب (40 كلم)، الخنيشات (22 كلم).

- وبالنسبة للقبائل القاطنة بمنطقة جبل كُرت حسب الرواية الشفهية هي: قبيلة سفيان، وتقطن حول الجبل: أي من حد كُرت في اتجاه عين الدفالي. وقبيلة بني مالك: وتقطن في ما وراء حد كُرت غرباً في اتجاه بلقصيري. وتساءلنا حول وجود ساكنة أمازيغية في المنطقة، فكانت الإجابات بالنفي. حيث عمرت المنطقة منذ القرن السادس الهجري/12م بالقبائل العربية التي استقدمها الموحدون إلى منطقة الغرب، والواقع أن المنطقة عمرت منذ القدم بقبائل أمازيغية من (بياتة)، قبل قدوم الأدارسة.

معلومات المصادر التي أشارت إلى أن مدينة كُرت في سفح الجبل، فهي تقول أنها مدينة حصينة، وليس لها سور. وتأكيداً يقول ابن حوقل، وهو كما نعلم من الشهادات المعتمدة بالنسبة لهذا العمل، وقال بالضبط إنها "في سفح جبل منيعة وبغير سور"، وربما نعارضه في ما يخص المناعة التي وصف بها المدينة. وكذلك الشريف الإدريسي الذي استفاد من رواية ابن حوقل. وهنا يبرز السؤال الاحتمالي التالي: كيف يمكن أن تكون المدينة في أعلى الجبل محصنة بسور في الوقت الذي يوجد القسم الأسفل غير محصن بدون سور؟

ألا يتعلق الأمر بمدينة واحدة، يوجد في أعلاها قصبة محصنة، وفي أسفلها ملحقة خاصة بالمرافق المدنية؟ والجواب الصحيح متوقف على نتائج الحفريات.

وهناك خطأ في نظرنا ينبغي تصحيحه، يتعلق الأمر بما أوردته المصادر من ارتباط واد ردات بجبل كُرت، وهذا الوادي هو المعروف محلياً بواد "الرضات"[1]. وينبع من باب برد - وهو جزء من منطقة كتامة، في جبل لقرع، ويمر أمام وزان ثم في شرق وجنوب مدينة كرت، ثم عبر عين الدفالي من الجهة الشرقية، اتجاه جنوب احد كرت، حوالي (7 كلم)، ويلتقي بوادي سبو في منطقة تسمى المقرن جنوب بلقصيري، ويعد وادي الطين من روافد واد ردات، والذي يمر بين حد كُرت وبلقصيري .

أي أن هذا النهر ليس في أصله نابع من جبل كُرت كما ذهب البكري و صاحب الاستبصار، في تعريفهما لنهر ردات "وهو في أصله جبل وفي أعلى الجبل مدينة كُرت". "وهو نهر كبير في أصل جبل وفي أعلاه مدينة كُرت".

ونحن هنا لا نشكك بروايتي البكري وصاحب الاستبصار، خاصة أن بقية المصادر لم تشر إلى النهر لا من قريب ولا من بعيد، وإنما يمكن

---

[1] – ورد في المصادر العربية باسم "الردات".

القول إنه ربما كان رافداً من روافد واد ردات ينبع من الجبل. نستند في ترجيحنا لهذا الرأي ما وجدناه في جبل كُرت من عيون مياه غزيرة، وما أشار إليه جون لكوز ما مضمونه أن الري في بعض مناطق الغرب قليل نسبياً، حيث يتم الاعتماد في سقي بعض الحدائق بتوصيل المياه انطلاقاً من منابع المياه المنبعثة من جبل كُرت، أو من مياه واد ردات[1].

2- التسمية والتأسيس

ورد اسم المدينة في المصادر المعاصرة لازدهارها في القرن الرابع الهجري/10م، باسم كُرت[2]. كما ذكرت بهذا الاسم في القرن التالي (5هـ/11م)، بعد اندثارها[3]. وفي القرن الذي يليه (6هـ/12م). ورد ذكرها باسم قُرت[4]. ثم جاء ذكرها في القرنين التاليين باسمها السابق (كُرت)، وأنها الآن مندثرة[5]. كما أن هذه التسمية (كُرت) ربما هي كلمة أمازيغية يعتقد بأنها تعني المكان المرتفع، حسب بعض الباحثين المعاصرين[6].

أما ما يتعلق بالتأسيس فلم تشر المصادر المختلفة صراحة أو ضمناً إلى تاريخ تأسيس المدينة، ولكننا نعرف أن مدينة كُرت كانت موجودة عند زيارة ابن حوقل للمغرب، خلال رحلة القدوم من المشرق، مابين سني (331، 333هـ/947،942م). وخلال رحلة العودة من الأندلس،

---

1 – Jean Lecoz, **Le Rharb, Fellahs et colons, Etude de Géographie Régionance,** Paris,1964, time II.P.340

2 – تطلق كُرت باللغة التركية على الذئب. "وأصلها قُورت، وتعني الذئب". وفي تقديرنا أنها ربما كناية عن وكر الذئب نظراً لموضعها المرتفع والحصين. إسماعيل الأكوع، **كلمات تركية مستعملة في اليمن**، مجلة الإكليل، وزارة الثقافة، صنعاء، ع1، السنة3، خريف 1985، ص54-58.ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س، ص80-81.

3 – البكري، **المُغرب**، م.س، ص111.

4 – الإدريسي، **النزهة**، ج2، م.س، ص531.

5 – المجهول، **الاستبصار**، م.س، ص189. ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص336.

6 – المصطفى البوعناني، **مساهمة في دراسة تاريخ منطقة الغرب من القرن 6هـ -12م إلى 11هـ -17م**، م. س، القسم الأول، ص93.

حيث مر على المغرب ثانية، سنة (350هـ/961م)[1]. وبالتالي، نستطيع أن نحدد فترة تأسيسها في ما قبل بداية القرن الرابع الهجري (10م).

ثم استمرت كقاعدة للأمراء الأدارسة في الفترات اللاحقة وتحديداً بعد سنة 337هـ، وهي السنة التي تولى فيها أبو العيش حكم الأدارسة، استناداً إلى نص ابن عذاري حيث يقول: " وهي كانت قاعدة أحمد بن القاسم"[2]. وأحمد بن القاسم هذا، هو أحد أمراء أدارسة الريف، تولى الحكم بعد وفاة أبيه القاسم الملقب بكنون، وكان داعية للفاطميين ونشر الدعوة الشيعية فلما تولى أبو العيش قطع دعوة الفاطميين ودعا للأمويين بالأندلس[3]، وكان أبو العيش معروفاً بين بني إدريس بأحمد الفاضل[4]. وفي عهده ازدادت أطماع قرطبة في المغرب. فلما رأى أبو العيش (رئيس بني محمد) أنه لا طاقة لإمارته الصغيرة بمواجهة إمبراطورية الأمويين، سارع بالذهاب إلى الجهاد في الأندلس، وترك أخاه الحسن بن كنون آخر الأمراء الأدارسة على أعماله، وفي هذه الفترة كان الصراع العسكري جارياً في شمال المغرب.

مما سبق يتضح أن المدينة (كُرت) هي ضمن المدن الإدريسية التي كانت قائمة على أحد الطرق التجارية المهمة (فاس–سبتة). ولكن، هل يعني ذلك أن الأدارسة هم الذين عمروها أم كانت موجودة من قبل؟

للإجابة عن هذا التساؤل يتضح أن المدينة- شأنها في ذلك شأن معظم المدن الإدريسية- كانت عبارة عن مراكز سكنية قبل ظهور الأدارسة، ثم تطورت إلى مرتبة المدن في العهد الإدريسي. وبالرغم من كل المعطيات الأثرية، وتعدد الإشارات الوصفية التي تحدثت عن

---

[1] – حسن الفكيكي، **المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلة**، م.س، هامش ص36. صباح الشيخلي، **النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال القرن 4هـ/10م من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل**، مجلة التاريخ العربي، ع6، الرباط، ربيع 1988، ص23–62.

[2] – ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص336.

[3] – الناصري، (أحمد بن خالد السلاوي) **الاستقصا**، ج1، ص 195–197.ويحدد سنة وفاته بـ348هـ، ويتفق معه ابن خلدون. ويحددها ابن أبي زرع بسنة 343هـ.

[4] – إسماعيل العربي، **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة**، م.س، ص 176.

التأسيس الوسيط للمدينة، نحا أحمد سراج نحو سابقيه، ورجح انتماء الموقع إلى العهود القديمة دون تقديم دلائل كافية[1].

ولتجاوز هذا الغموض، وتأريخ مدينة كُرت الوسيطية، يبقى من الضروري القيام بمسح أثري للمنطقة والموقعين اللذان يحملان نفس الاسم، وعدم إغفال أساسات البنايات المعمارية الموجودة في قمة الجبل والمعروفة عند العامة بعريسات مولاي عبد القادر الجيلاني[2]. حيث إن هناك من يرى أن كُرت كانت عبارة عن مراكز رومانية قديمة في موريطانيا الطنجية. فقد حاول بعض الباحثين أن يؤرخ الجبل موضعاً رومانياً[3]، ومن أبرزهم: شارل تيسو، ومونيس في بحثيهما: أبحاث جغرافية مقارنة في موريطانيا الطنجية، وملاحظات، واللذان رأيا في البقايا التي وقفا عليها قرب قرية احد كورت الحالية، بالواجهة الجنوبية للجبل آثاراً تعود إلى موقع فوبيسياناي الذي ورد عند انطونان على الطريق الرابط بين طنجة وتوكولسيدا قرب وليلي.

والرأي المرجح لدينا أن تأسيس كُرت تم من قبل القبائل المحلية الأمازيغية، وهي التي أعطتها الاسم المحلي، وهذه القبائل هي قبائل بياتة، دليلنا في ذلك ما ذكره صاحب الاستبصار بقوله: "يعمرها قبائل من البربر يقال لهم بياته"[4]. وبياتة هي من القبائل الأمازيغية التي اندمجت في ما بعد مع القبائل العربية التي وفدت على منطقة الغرب (في بداية الدولة الموحدية). ويذكر لنا (ابن خلدون) أن بياتة هي فرع من قلدن بن هوار بن أوريغ بن برنس بن بربر... تفرقوا في بلاد المغرب واندمجوا مع

---

[1]- أحمد الطاهري، **كُرت**، معلمة المغرب، 2005، ج19، ص6783-6784

[2]- أحمد الطاهري، **كُرت**، معلمة المغرب، 2005، ج19، ص6783-6784.

[3]- Ch. Tissot, **Resechers sus la Ge'ographie Compare'e de la Maure'tanie Tingitave**, Paris,1978. Mounes, Notes sus Quelques Villes Disparues du Maroc Septentrional, B.E.P.M, 1957, p.10-29.

[4]- المجهول، **الاستبصار**، م.س، ص 189.

عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب، إلخ"[1].

ونزداد تأكيداً على أن (كُرت) مدينة طورها الأدارسة، وكانت إحدى أهم قواعدهم الاقتصادية، عند قراءتنا في نص ابن حوقل، فهو يصف أهل كُرت بقوله :" وأهلها تجار، والغالب عليهم البربر، وجميعهم وجميع أهل هذا الصقع المذكور، وهو إقليم طنجة، لآل إدريس تصل إليهم جبايته ويجتبون خراجه"[2]. أي أن أهل كُرت كانوا تجاراً وأوضاعهم الاقتصادية مزدهرة. فإلى أي حد أسهمت كُرت في النشاط الاقتصادي للمنطقة؟

3- إشارات فيما يتعلق بالدور الاقتصادي والاجتماعي لمدينة كُرت

نظراً للموقع الذي تتمتع به منطقة كُرت، ضمن منطقة الغرب حيث السهول التي تتخللها الأودية، والعيون، والتربة الغنية بالخصوبة ذات الألوان المتعددة السوداء القاتمة، البنية، البيضاء، الحمراء- كما شاهدناها عند زيارتنا الميدانية للمنطقة- والمزروعات المتنوعة، فقد كانت ولا زالت المنطقة غنية بالمنتجات الفلاحية المتنوعة، والتي ذكرتها المصادر، وهي لا تختلف كثيراً عن ما هو موجود اليوم، باستثناء زراعة القطن وهي التي أشار إليها ابن حوقل ويصفها "بالكثيرة" يقول: "ولها مياه كثير وأجنة واسعة ومزارع عظيمة، وغلاتهم من القمح والشعير والقطن كثيرة"[3]. كما أشار كذلك إلى خراج المنطقة وجباية آل إدريس له، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، جاء ترتيب الساكنة، في روايتهم الشفهية حول المنتجات الغذائية التي تجود بها كُرت مماثلاً من حيث الأهمية لما جاء عند ابن حوقل.

[1] – ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، المجلد السادس، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، 1979، م.س، ص 140-142.

[2] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س، ص 81.

[3] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س، ص 81.

وإلـى جانـب الخيـرات الفلاحيـة تمتعـت كُـرت بموقـع علـى الطـرق التجارية الداخلية، إلى حد أن المنطقة أصبحت تعرف باسم سوقها، وهو سوق أسبوعي (الأحد)[1]، وسبباً في تسمية أهلها بالتجار[2]. وهو الدور الذي استمر بعد ذلك[3].

مـا سبق يوضـح الطـابع التجـاري الـداخلي لمدينـة كُـرت، وهـذا لا يمانع من قيامها بدور تجاري خارجي، وعلـى الأخص مع بـلاد الأنـدلس، أسهم في إزهاره مرور الطرق التجاريـة عبرهـا، وقربهـا مـن بحيـرة أريـغ التي كانت تعد من أهم مـوانئ منطقـة الغـرب آنـذاك. وهنـا نجـد ـ مـن بـاب المزيد من التأكيد- أن ابن حوقل يشير ضـمن حديثـه عن بحيـرة أريـغ، أنـه كانـت ترسـى فيهـا المراكـب الأندلسية التـي تحمـل غـلات الناحيـة، وفيهـا يركب أهل البصرة، ويشحنون من نواحيهم وناحية بلد بياتة [كُرت][4].

4- اندثار المدينة

كمعظم المـدن الإدريسية التـي أنشئت لهدف تجـاري (كمحطـة علـى الطريق التجاري) لم تستمر كُرت كمدينة مزدهرة، بسبب تحـول الطريـق التجاري، حيث فقدت المدينـة أهميتهـا شيئاً فشيئاً. ومـن المؤكد أن المدينـة

---

[1]– المعروف أن الأسواق الأسبوعية في المدينة المغربية كانت تحتل مواضعها خارج أسوار المدينة.

[2]– ابن حوقل، **صورة الأرض**، مصدر سابق، ص 81

[3]– حيث نجد الكتابات الفرنسية تركز على هذه الناحية، وخاصة في المجال الاقتصادي، نظراً لأهميتها التاريخية في هذا الجانب، حيث يذكر لنا المستشرق الفرنسي (**Jean lecoz**) في كتابه: (الغرب فلاحون ومعمرون **Le Rharb, Fellahs et colons**) وصفاً للوضع الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة، بما مضمونه أن صاحب الأموال يشتري كثير من الأبقار من السوق ويتركها عند شريكه الذي يحميها ويصونها ويبيعها، وبعد ثلاث سنوات يقومون بعملية حسابية، يتم خلالها اقتسام المبلغ المحصل بالنصف بين الشريكين، وهي طريقة لم تطبق إلا في منطقة حد كُرت، ولا تطبق خارجها، ذلك أنها تترك خطراً كبيراً على صاحب الأموال في حالة موت الماشية.

وحول صناعة المنتجات الصوفية، يشير (لوكوز) إلى أن الصوف في منطقة الغرب، له شهرة جيدة ومنفعة. وكان سوق مدينة كُرت الأسبوعي ضمن الأسواق الكبيرة في منطقة العرب، يؤكد هذا تصنيف (لوكوز) سوق حد كُرت ضمن الأسواق الكبرى في منطقة بني مالك – سفيان– مناصرة.

[3]– Jean Lecoz, **le Rharb, Fellahs et colons, Etude de Géographie Régionance**, time II.P.31 .5

[4] – ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س، ص82.

بدأت تضعف وتفقد أهميتها خلال القرن(5هـ/11م)، حيث وصفها البكري، المعاصر لهذا القرن، بأنها كانت مندثرة، ولكنها استعادت بعض أهميتها في القرن الموالي(6هـ/12م)، بشهادة أحد المعاصرين لهذا القرن وهو صاحب الاستبصار، الذي وصف كًرت بأنها" قرية عامرة"، وأنها كانت من قبل مدينة كبيرة. ويبدو أن العامل السياسي كان حاضراً في عملية تحول المدينة إلى قرية، إذ تشير المصادر إلى قيام بني محمد الأدارسة بهدم مدينتهم كُرت وتخريبها (ق4هـ/10م).

الواقع أنه حدث أن قام بنو محمد بهدم كُرت وتخريبها، كما أشار ابن عذاري إلى ذلك[1]. فلماذا لجأ بنو محمد إلى تخريب مدينتهم الحصينة؟.

وبالعودة إلى نص (ابن عذاري) المتضمن أن الذي خربها هم "بنو محمد" الأدارسة. فلماذا خرب بنو محمد مدينتهم؟

يبدو أن هذا العمل الذي قاموا به كان اضطرارياً، فقد سبق لهم أن هدموا مدينة تطوان، خلال الاجتياح الأموي لشمال المغرب، وكانت قرارات الهدم في الأساس تأتي عندما يشعر بنو محمد أن لا قدرة لهم بالدفاع عن مدينتهم أو حصنهم أمام الجيوش الأموية القادمة من الأندلس، والمتفوقة عدداً وعدة مقارنة بإمكانيات الأدارسة المتواضعة. وكان ذلك الهدم والتخريب قد شمل التحصينات حتى لا تتحصن فيها جيوش الأمويين المغتصبة بلادهم. وفي ضوء ذلك يمكن لنا تعليل سبب قرار بني محمد هدم مدينتهم كُرت الحصينة. فالواقع أن النصوص المصدرية لا تسعفنا كثيراً في الإشارة إلى السبب الذي دفع ببني محمد للقيام بهذا العمل. غير أننا نعرف أن الصراع الإدريسي الأموي شهد مواقف مماثلة، حيث خرب بنو محمد مدينة تطوان، بناءاً على أمر من الخليفة الناصر الأموي، تحت ذريعة أنها تضر بالمصالح الاقتصادية لسكان سبتة من الجاليات الأندلسية الذين تقدموا بشكوى للناصر بهذا الخصوص. فهل كان

---

[1] – ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص336.

لقرارهم هدم مدينة كُرت علاقة بهذا الأمر وبذلك الصراع؟. الحقيقة أنه من خلال بحثنا في المصادر لم نتمكن من تحديد السبب الرئيسي للهدم وتاريخه على وجه الدقة.

ما نود التأكيد عليه هنا مجدداً هو: أن المدينة كانت قد خربت في عهد البكري (القرن 5هـ/11م) حيث يقول: "وهي اليوم خربة"[1]. ولكنها استعادت جزء من دورها، ومع كل ذلك نجد كُرت قد نهضت من جديد، ربما بعد استتباب الأوضاع السياسية في شمال المغرب، على إثر سقوط الخلافة الأموية وحجابها العامريين بقرطبة، وسقط معها مشروع السيطرة والاستحواذ على شمال المغرب، وخاصة بعد استقلال زناتة من مغراوة وبني يفرن بحكم المغرب، منذ نهاية القرن 4هـ/10م، ومن جاء بعدهم كالمرابطين، والموحدين، حيث عادت لكُرت الحياة من جديد في القرن(6هـ/12م)، فكانت "قرية عامرة"[2]. أي أنها لم تستعد دورها كمدينة مزدهرة كما كان عليه الحال أيام الأدارسة. ثم اندثرت نهائياً بعد ذلك. دليلنا في ذلك هو أننا لم نجد ذكراً للمدينة عند المؤرخين الذين ينتمون إلى العصر الحديث، مثل الحسن الوزان في كتابه "وصف إفريقيا" حوالي سنة (1526م)، أومارمول كربخال في الوصف العام لإفريقيا (1571م). وهو ما يؤكد عدم استمرار المنطقة كمركز حضري أو عسكري أو ديني، في نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث.

---

[1]- البكري، **المُغرب**، م، س، ص111.
[2]- الإدريسي، **النزهة**، ج1، م، س، ص531.

خلاصة واستنتاجات

توصلنا خلال هذا العرض - بمراحله المختلفة وأقسامه النظرية والميدانية – إلى:

1- أن مدينة كُرت من أقدم المراكز الحضرية بمنطقة الغرب، تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة البصرة.

2- ارتبطت كُرت بموقعين سهلي وجبلي، والشواهد الموجودة على السطح منحصرة في أعلى الجبل، ولا يوجد ما يشير إلى موقع آخر، ونميل إلى أنها كانت حصناً يتربع أعلى قمة الجبل الذي يحمل اسمها أو هي تحمل اسمه، ويقع هذا الجبل إلى الشمال الشرقي من سوق كُرت، على بعد تسعة كيلومترات تقريباً. وهي بذلك تحتل موقعاً استراتيجياً يتيح لها المراقبة الفعالة لمجال شاسع يمتد حتى جبال بوهلال قرب وزان، وسهل إساول قرب زومي وهضبة ورغة.

3- نشأت أعلى جبل كُرت في القرن الثالث الهجري/9م، ثم أصبحت بعد ذلك قاعدة للأمير أحمد بن القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس الثاني، (337-343هـ)، عندما آل الحكم الإدريسي إلى أسرة بني محمد بعد خروج الأدارسة من فاس وسقوط دولتهم الأولى على يد موسى بن أبي العافية سنة 315هـ، واستبدالها بالبصرة وحجر النسر، وإليه تنسب.

4- تأسست كُرت، في بداية الأمر، من قبل القبائل الأمازيغية المحلية (لواتة)، ثم أتخذها الأدارسة مركزاً اقتصادياً، وتأثرت بالصراع السياسي.

5- لم تكن كُرت من ضمن المدن التي أنشئت بأمر من الحاكم أو بإرادة منه.

6- ازدهرت هذه المدينة لوقوعها على الطريق التجاري الرابط بين سبتة وفاس، ولتميز موضعها بالعيون الغزيرة للمياه، وروافد نهر ردات (رضات) وتوفرها على أراضي زراعية خصبة، وتميز أهلها

بالتجارة، وتعاقب على سكناها الأمازيغ والعرب، مكونين فئات اجتماعية متميزة بالمنطقة.

7- تتوفر المنطقة على سوق أسبوعي (سوق الأحد) شمال مركز الدائرة. وتعتبر مدينة حد كُرت – حالياً- من المدن الثانوية بمنطقة الغرب شمال شرق بلقصيري، وجنوب وزان.

8- أقدم الإشارات التي وردت عن مدينة كورت كانت لابن حوقل (4هـ/10م)، وقد وصفها بأنها منيعة بغير سور ولها مياه كثيرة، ووطنها بالمناطق الداخلية المتواجدة شرق الساحل الأطلسي من عمل طنجة، وجعلها من الحواضر الخاضعة لبني إدريس مباشرة بعد مدينة الأقلام والبصرة.

9- يظهر – من خلال النصوص- أن المدينة فقدت مكانتها كمركز حضري خلال القرن (5هـ /11م)، وبدأت تستعيد جزء من أهميتها في القرن الموالي.

10- الموقع الحالي في قمة الجبل يستدعي الاهتمام من قبل الآركيولوجيين، نظراً لأن هناك حفر عشوائي، والموقع عرضة للنبش والتخريب. ونحن بدورنا نوجه دعوة صارخة لعلماء الأركيولوجيا والجهات ذات العلاقة من أجل حماية موقع المدينة القديمة من العبث، والبدء بتنظيم حفريات علمية لدراسة البنيات المعمارية المتواجدة بجبل كُرت والتي تعرف عند ساكنة المنطقة (عريسات عبد القادر الجيلاني). ونتوقع أن يثمر أي مسح أثري بنتائج تسهم في تعميق المعرفة بتاريخ الشمال الغربي المغربي في المراحل المختلفة وتفتح آفاقاً للبحث المونوغرافي.

ثانياً

حجر النسر نموذج للقلع

تشير المصادر العربية إلى أن المنطقة التي توجد بها قلعة حجر النسر كانت ضمن ولاية القاسم، في التقسيم الذي أجراه الأمير محمد بن إدريس للمغرب بين إخوته بعد سنة 213هـ، وسبق الحديث عنه في مواضع أخرى.

أما الحديث عن القلاعة كموقع دفاعي فإن المصادر تذكر أنها أنشئت سنة317هـ. وسيتركز حديثنا هنا على حجر النسر القلاعة الإدريسية التي لعبت دوراً مهماً في التاريخ المغربي الوسيط، وبالتحديد في منطقة الشمال الغربي المغربي خلال عهد الدولة الإدريسية الثانية التي اتخذت من منطقة الريف نطاقاً لها. وشهدت هذه القلاعة بموقعها الاستراتيجي أهم الأحداث والتحولات السياسية والعسكرية، خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمن (317-375هـ)، كما شهدت كذلك نهاية الدولة الإدريسية على يد المنصور بن أبي عامر حاجب هشام المؤيد بقرطبة.

وسنقوم بدراسة تاريخ هذه القلاعة المهمة من خلال عدة عناصر، أهمها: الموقع والتسمية والتأسيس والتطور السياسي والعمراني، مع التركيز على أبرز الأحداث التي شهدتها هذه القلاعة، والتي أصبحت جزءاً مهماً من تاريخ الدولة المغربية في العصر الوسيط. **فأين تقع قلعة حجر النسر؟**

1- الموقع

كان الغموض إلى وقت قريب يكتنف موقع القلاعة الإدريسية، عندما كنا نحاول تحديده استناداً إلى النصوص العربية. فابن حوقل يصفها ولا يحددها، والمقدسي يرتبها ضمن المدن من الجنوب إلى الشمال، كما يلي:" البصرة، زلول، الجاحد، سوق كتامي"[1]. وبالتالي فأنه

[1] – انظر القلقشندي، **صبح الأعشى،** ج5، م.س، ص165. ويمكن العودة إلى الفصول السابقة من هذا البحث.

يوطن القلاعة في جبال الريف الغربي. بينما نجد البكري يحددها، مروراً من الشمال إلى الجنوب، ابتداءاً من سبتة إلى دمنة عشيرة[1] ثم إلى حجر النسر قاعدة بني محمد في الغرب[2]، وتفترق الطريق من الحجر فمن اتجه يميناً ينحو صوب افتس.[3]

من خلال وصف البكري يشير إلى أن القلاعة الإدريسية تقع إلى الشمال من القصر الكبير، في نهاية سلسلة جبال غمارة من ناحية الغرب، وهو تحديد ليس دقيقاً مثل ما سنراه. وكذلك ما قاله الإدريسي، الذي يضعها في مكان آخر، حيث يوطنها إلى الجنوب من مدينة البصرة[4]، بالقرب من ماسنة[5]. وهو تحديد قليلاً من الواقع.

وقد سار على هذا التوطين غير واحد من الباحثين. حيث نحا البعض مناح شتى في تحديد هذه القلاعة الإدريسية. فهناك من يضعها بالقرب من تطوان[6]، بينما يضعها أحدهم في الطريق بين تطوان وشفشاون بالقرب من زاوية المولى عبد السلام بن مشيش في قبيلة سوماتة[7]. وهو توطين يقربنا قليلاً من الموقع الصحيح، ذلك أن مواطن

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م.س، ، ص110. ويمكن العودة إلى الفصول السابقة من هذا البحث.

[2] – بلد رهونة هي منطقة إزجن أو إزاجن، ورهونة هو الجبل المطل عليها، بالقرب من مدينة وزان، تبعد عنها ب9كلم.

[3] – افتس، مدينة إدريسية إلى الغرب من حجر النسر، على واد لكوس، شمال القصر الكبير، لم تعد قائمة حاليا، أنظر البكري، **المُغرب**، ص114

[4] –الإدريسي، **النزهة**، ج2، م.س، ص531. ويمكن العودة إلى الفصول السابقة من هذا البحث.

[5] – ماسنة: مدينة إدريسية، في جنوب مدينة البصرة، على أحد روافد واد سبو، وهي الآن خراب. أنظر، ابن حوقل، **وصف الأرض**، ص81. البكري، **المُغرب**، ص111.الإدريسي، **النزهة**، ج2، م.س، ص531. ويمكن العودة إلى الفصول السابقة من هذا البحث.

[6] – سعدون نصر الله، **دولة الأدارسة في المغرب والأندلس، (القسم الثاني)**، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1996، ص54.نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية، ص322.

[7] – مصطفى أبو ضيف، **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية**، ج1، ص342.

هذه القبيلة تقع إلى جوار الدوار المسمى دوار الحجر، قرب ضريح سيدي مزوار على بعد 30كلم، إلى الشرق من مدينة العرائش[1].

وهناك من يقول إنها في منطقة الريف بصفة عامة، وأنه لا يمكن التعرف على هذا الحصن المندثر على وجه الدقة[2]. وهي أقوال تفتقر إلى الدقة ولا يعتمد عليها.

غير أنه من حسن الحظ أن هناك فريقاً علمياً (مغربي- فرنسي) كان له فضل سبق الوصول إلى موقع القلاعة الإدريسية، وتمكن من تحديد الموقع والموضع بشكل دقيق، حيث أشار إلى أن القلاعة تقع ضمن إطار قبيلة سوماتة الغمارية، إحدى القبائل الهبطية بالشمال المغربي، وأنه يتم الوصول إلى القلاعة بعد قطع 30 كيلومتر،عبر طريق وعر جداً منحرف نحو قرية تولا السوماتية، بعد الدخول في طريق مؤدي إلى ضريح المولى عبد السلام بن مشيش، جنوب جبل حبيب، وبذلك أصبح موقع القلاعة مؤكداً ومعروفاً اليوم.

والقلاعة راسية على كتلة صخرية مرتفعة من نوع الكويستا، يحتل موضعها الجنوبي من جبل الخلوة على ارتفاع (782م) إلى القسم الذي تعلو فيه قبة سيدي مزوار بارتفاع (614م)[3].

2- التسمية والتعريف

سمي الموضع بعدة تسميات أوردها الجغرافيون والمؤرخون منها: حجر النسر، وحجرة النسر، وحجرة الشرفاء، وحجرة سيدي مزوار - حسب المتعارف عليه محلياً في الوقت الراهن- ونسبت إلى النسر بسبب كثرة النسور المعششة بالحافة الجنوبية من جبل الخلوة[4]. فكأنها وكر

---

[1] – ابن أبي زرع، **القرطاس**، م، س، هامش صفحة62. وسيدي مزوار هو موضع لضريح في حجر النسر لأحد الشخصيات الأسطورية التي تعرف باسم (أحمد مزوار)، وأصله من فاس، ويقدس ضريحه الأهالي، وحملت المنطقة اسمه فيما بعد.

[2] – إسماعيل العربي، **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1983، ص155.

[3] – حسن الفكيكي، **قلعة حجر النسر**، معلمة المغرب، ج10، 1998، ص3329–3331.

[4] - حسن الفكيكي، **قلعة حجر النسر**، معلمة المغرب، ج10، م.س، ص3329–3331.

النسر الذي يبيت في أعالي القمم، فدعيت بحجر النسر[1]. وقد أشار إليها ابن خلدون بصياغات عدة منها: قلعة حجر النسر، وحجر النسر معقلهم، وحصنهم حجر النسر، والحجر بقلعة جبل النسر[2]. وكانت قلعة حجر النسر حصناً منيعاً شامخاً[3].

ويصفها كل من: ابن حوقل والإدريسي بأنها كانت مدينة عظيمة محدثة على جبل عظيم شامخ لآل إدريس، وهي حصن منيع فيه أملاكهم، وهي أعظم مدنهم منزلة، وأكبرها خطراً، وماؤها فيها، ولها بساتين وثمار وافرة، وليس عليها طريق إلا من جهة واحدة يسلكه الراجل بعد الراجل[4].

هذا الوصف يستدعي المناقشة، ذلك أن أغلب المصادر أشارت أن حجر النسر عبارة عن قلعة كان يلجأ إليها الأمراء الأدارسة عندما تلم بهم الخطوب للتحصن بها، فلماذا انفرد ابن حوقل بهذا الوصف؟ بينما جاء وصف الإدريسي بعد وصف ابن حوقل بحوالي قرنين من الزمن؟، وخاصة إذا ما علمنا أن كتابه من أقدم المصادر، كما أنه زار مدن المغرب، فضلاً عن كونه عاصر الأدارسة بعدما انتقلوا إلى الريف هروباً من ضربات ابن أبي العافية المتلاحقة.

لمناقشة ذلك هناك احتمالان، الأول: إما أن تكون القلاعة قد اكتسبت صفة مدينة بوجود المناطق المجاورة لها[5]، ذلك إن الإشارة إلى الأراضي الخصبة لا يمكن أن تكون على العادة وأغلب الحالات إلا في المناطق السهلية والمنبسطة، وليس في قمة الجبل. كما أن الفلاحة وحدها ليست كافية للرفاهية التي أشار إليها ابن حوقل، إذ لابد من أن تكون المنطقة

---

[1] – سعدون نصر الله، دولة الأدارسة في المغرب والأندلس، نقلا عن: **دائرة المعارف الإسلامية**، ص322.

[2] – ابن خلدون، **العبر**، ج6، م.س، ص216، 218.

[3] - السلاوي، **الاستقصا**، ج1، م.س، ص186.

[4] –ابن حوقل، صورة الأرض، م.س، ص81، 82.الإدريسي، **النزهة**، الجزء الثاني، م.س، ص531.

[5] – يميل إلى هذا الرأي حسن الفكيكي، **قلعة حجر النسر**، المعلمة، م.س، ص3331.

واقعة على إحدى الطرق التجارية الفرعية، وبالتالي استفادت منه، هذا إن كان ابن حوقل قد زار المنطقة فعلاً.

والاحتمال الثاني، أن ابن حوقل لم يزر هذه المنطقة على وجه الخصوص، واعتمد في وصفه على أحد مصادره، فلم يكن هذا الوصف دقيقاً. وهنا يمكننا الإشارة، اعتماداً على البكري، إلى أن قلعة حجر النسر كانت من أهم القلاع الإدريسية، حيث تمر بالقرب منها إحدى الطرق التجارية المتفرعة عن الطريق الرئيسية(سبتة- فاس)، ففي أحد الطريقين يتم المرور عبر قلعة عشيرة، ثم تصل الطريق بعد ذلك إلى وادي مقار، ويستمر في وادي تهدارت، ثم ترتفع الطريق نحو البلد المسمى حجر النسر، الذي كان ملجأً للأدارسة عندما كان يطاردهم أعداؤهم. وتمر الطريق بعد ذلك على افتس على واد لكوس، وهو الطريق التجاري إلى فاس، ويضيف أن الزمن المستغرق للوصول من سبتة إلى فاس ستة أيام تتوسطها قلعة حجر النسر، وكان السكان القاطنون على مقربة من هذا الطريق يستفيدون اقتصادياً من مرور القوافل، وهنا نجد التفسير لقيام المدن والقرى الحافلة بالنشاط والتي اندثرت اليوم، فالسر في وضعها المتميز يكمن في أنها كانت واقعة على إحدى الطرق التجارية الداخلية (الفرعية)[1].

مما سبق يتضح أن:

1- قلعة حجر النسر تعد ضمن المدن المحاذية لطرق القوافل التجارية.
2- تتميز القلاعة عن غيرها بموقعها الحصين الذي أهلها لأن تلعب دور مهم في تاريخ الأدارسة، بعد خروجهم من فاس واستقرارهم في منطقة الريف، واتخاذهم مدينة البصرة عاصمة لهم، كما شهدت هذه القلاعة سقوط الدولة الإدريسية سنة 375هـ.

---

[1]- محمد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط، الدولة، المدينة، الاقتصاد**، م.س، ص381، 383.

3- القلاعة تقع بين سبتة وفاس، وبما أن المدة الزمنية اللازمة بين المدينتين ستة أيام، فإن حجر النسر تبعد عن المدينتين من سبتة أو من فاس مدة ثلاث أيام.

3- **التأسيس**

ذهب بعض الإخباريين إلى أن مؤسس قلعة حجر النسر هو "إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس"[1]. بينما أنفرد ابن أبي زرع، بالقول: إن مؤسس القلاعة هو"محمد بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس"[2]. والراجح لدينا بما قدمه البكري وآخرون أن (إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس) هو مؤسس القلاعة الإدريسية حجر النسر، سنة 317هـ/929م.

ويشير ابن خلدون إلى أن السبب الرئيسي لتأسيس القلاعة الإدريسية يرجع إلى فقدان الأدارسة لحكمهم بفاس بعد أن استولى ابن أبي العافية على جميع المغرب وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن[3] إلى الريف، فكانت مدينة البصرة هي محطتهم التالية، وفيها اجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم، وولوه عليهم، واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك، وهو حجر النسر، سنة سبع عشر وثلاثمائة[4]. وقدموا عليهم كنون[5] [القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس].

---

[1] – البكري، **المُغرب**، مصدر سابق، ص127. ابن عذاري، البيان، ج1، مصدر سابق، ص314. ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، ج4، م.س، ص16. ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، القسم الثالث، م.س، ص213.

[2] –ابن أبي زرع، **القرطاس**، مصدر سابق، ص101. وأخذ عنه الناصري في الاستقصا، ج1، طبعة1954، ص186.

[3] – هو الحسن بن محمد بن القاسم، المعروف بالحجام، انتزع فاس من أيدي العبيديين الذين استولوا عليها من يحيى بن إدريس بن عمر، وبايعه السكان ومد نفوذه حتى البصرة، واستمر في فاس من311-313هـ، ويعد أخر الأمراء الأدارسة، في العهد الإدريسي الأول بفاس، وبموته الغريب بعد سقوطه من سور المدينة هروبا من ابن أبي العافية، زالت دولة الأدارسة الأولى التي أسسها جدهم إدريس الأول، إذ لم يعودوا إليها نهائياً، بعد أن دام حكمهم لها مدة 120سنة تقريباً. أنظر: ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، القسم الثالث، ص212.ابن خلدون، **تاريخه**، ج4، م.س، ص16.

[4] – ابن خلدون، **تاريخه**، ج4، م.س، ص16، 17.

[5] – ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، م.س، ص218.

وأصبحت مدينة البصرة هي عاصمة الأدارسة، ونتيجة لافتقارها إلى التحصين الكافي كانوا يتحصنون بقلعة حجر النسر، وخاصة أثناء مطاردة موسى ابن أبي العافية لهم، والذي صمم على استئصالهم، وشدد الحصار عليهم بقوة بلغت ألف فارس، كان على رأسها قائده أبا الفتح التسولي، وعاد إلى فاس سنة 319 هـ، تم ذلك خلال موالاة ابن أبي العافية للفاطميين[1].

وقاوم الأدارسة الحصار، وتمكنوا من التخلص منه، والشيء الذي ساعدهم على فك الحصار المضروب عليهم هو قدوم الحملة العُبيدية على فاس بقيادة حميد بن يصل سنة 321هـ، وفرار مدين بن موسى بن أبي العافية. ذلك الأمر شجع الأدارسة على كسر الحصار المضروب على قلعة حجر النسر[2]. ولم يشر البكري إلى عدد القوة التي كانت تحاصر القلاعة.

ما يلفت الانتباه، هو أن ابن عذاري يؤرخ لفك الحصار عن القلاعة بسنة 317هـ، بينما يؤرخ البكري لهذا الحدث بسنة 321هـ[3]. كيف نناقش ذلك؟ إذا كان سقوط فاس سنة 315هـ، وبالتالي انحياش الأدارسة إلى مدينة البصرة، ونظراً لإحساسهم بعدم زوال الخطر حيث من الممكن أن يداهمهم موسى بن أبي العافية في البصرة ويقضي عليهم بسبب افتقارها للتحصين المانع، قرروا الاعتصام بقلعة حجر النسر. والمعروف أن بناء القلاعة كان قد تم سنة 317هـ، وبالتالي استغرق لملمة شتات الأدارسة إلى البصرة عام كامل هو سنة 316هـ، وفي العام التالي (317هـ) وهو تاريخ بناء القلاعة وتحصنهم بها، فمن المنطقي أن يكون الحصار وقع بعد ذلك، أي في سنة (317هـ). ولهذا فالمرجح أن

---

[1] – ابن أبي زرع، **القرطاس،** م.س، ص 101. ابن الخطيب، **أعمال الأعلام،** م.س، ص 213. البكري، **المُغرب،** م.س، ص 127، 128. ابن عذاري، **البيان،** ج1، مصدر سابق، ص214.

[2] – البكري، **المُغرب،** م.س، ص 128. ابن أبي زرع، **القرطاس،** م.س، ص 103.

[3] – البكري، **المُغرب،** م.س، ص128. ابن عذاري، **البيان،** ج1، م.س، ص214.

الحصـار استمر أربـع سنوات، أي خـلال الفتـرة الواقعـة مـا بـين (317-321هـ)، وبذلك يكون التـاريخ الـذي حدده ابـن عذاري هو تـاريخ بدايـة القلاعـة، والتـاريخ الـذي أشـار إليـه البكـري هـو النهايـة للحصـار الأول[1]. ويطل علينا السؤال التـالي: مـاذا تبقـى مـن معـالم هـذه القلاعـة الإدريسية، وهل يمكن لنا التعرف على بعض منها؟ ذلك مـا سنحاول بحثـه فـي الفقـرة الموالية.

4- الوصف المعماري للقلعة

تبـين نتـائج الدراسـة الآركيولوجيـة - التـي أجراهـا فريـق التنقيبـات الفرنسـي بمشـاركة فريق مغربـي[2] أن بقايـا القلاعـة الإدريسية تتـألف مـن ثلاثة أقسام، يمكن وصفها - حسب الفكيكـي- مـن الشـرق نحـو الغـرب كمـا يلـي:

القسم الشـرقي مـن القلاعـة: يتكـون مـن السـاحة الشـرقية، ويوجـد بزاويتهـا الجنوبيـة الشـرقية بـاب الحصـن الوحيـد، وهـو عبـارة عـن مـدخل منحوت في الصخر، يرقى إلـى السـاحة، بعد التـدرج فـي الصـعود بخمسـة أمتـار. ويحيـط بالسـاحة الكبـرى سـور حجـري منحـوت، هـو بـدوره علـى صـخر أصـلي فـي المكان، ولا تزال أسس السـور الجنـوبي الغربـي ظـاهرة، وتشكل الساحة مقدمة القصبة.

[1] – خصوصاً وأننا نعرف من خلال سياق الأحداث التاريخية أن المغرب قبيل ذلك، في الفترة (305–309هـ) كان قد شهد تحولاً سياسياً مهماً غير مجـرى الأحـداث، وعصـف بدولـة الأدارسة، والذي تمثل باجتياح جيوش العبيديين وحصار فاس، ثم تقديم الأمير الإدريسي يحيى بن إدريس بن عمر البيعة لهم. ولكن موسى بن أبي العافية لم يرتح لهذا الأمر لكونه طمع في امتلاك المغرب، والإمارة الإدريسية ذات نفوذ روحي قوي، فأوغر صدر قائد الحملة العبيدية (مصالة بن حبوس المكناسي، وهو بالمناسبة كان قد دخل مع ابن أبي العافية بعلاقة مصـاهرة، وشهد معه أكثر حملاته وحروبه) ضده، وتم القبض عليه ونفيه إلى مدينة أصـيلا، غيـر أن الحجام (الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس) استطاع أن يستعيد فاس من يد عامـل القائـد الشيعي (ريحان الكتامي) واستمر حتى عام 315هـ، حيث تمكن موسى بن أبي العافيـة مـن السيطرة على فاس. وقتل (الحسن الحجام) بطريقة غريبة، عنـدها قـرر موسـى استئصـال الأدارسة من المغرب فتحصنوا بقلعة حجر النسر. أنظر: البكري، **المُغرب**، م.س، ص 127 و 128. ابن عذاري، **البيان**، ج1، م.س، ص 214. ابن أبي زرع، القرطاس، م.س، ص 105. ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، م.س، ص127.

[2] – حسن الفكيكي، **قلعة حجر النسر**، معلمة المغرب، م.س، ج10، ص3330.

القصبة: اختير لبنائها تل صغير يحتل المرحلة الوسطى، ويشرف على الساحة من الجهة الغربية، وهي مقر إقامة صاحب القلاعة، زاد في حصانتها ارتفاعها بنحو (780متراً). يظهر رسمها على شكل مستطيل باتجاه غربي شرقي، تحمل أثار سور وخرائب بالوسط، لا تظهر علاماتها بسبب نمو الأشجار والأحراش. وللقصبة مدخل يوجد بالزاوية الجنوبية الشرقية، وهو وعر وضع بين الصخر المنحوت لا يسمح بالدخول سوى لشخص واحد. وهذا ما يؤكد وصف البكري، وغيره من مصادر العصر الوسيط.

الساحة الغربية: وهي أوسع وأكثر ارتفاعاً، والغاية من وجودها حماية القلاعة من الناحية الغربية المقابلة لحصن تاوينت ببني كرفط، مركز المراقبة خلال أي حصار. وتبدو حصانة الساحة طبيعية، فلا أثر في الوقت الراهن لعلامات امتداد الأسوار، وربما أكتفي بما كانت توفره الحافات والخوانق المميزة لشكلها من الحصانة والحماية، سيما الخانق الذي يجري فيه منبع واد صاف الحمام، أحد روافد واد المخازن عند عين بيطا (847متراً).

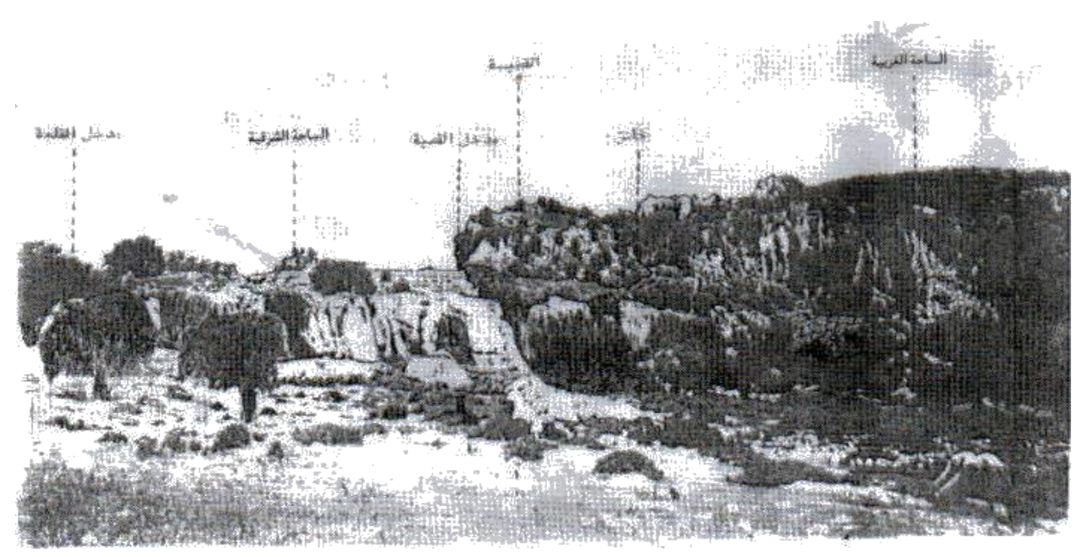
وتشير الروايات التاريخية أنه كان للقلعة مسجد جامع، تقام فيه صلاة الجمعة، وفي هذا المسجد الجامع أقيمت صلاة الجمعة عند سقوطها بيد القائد الأندلسي الوزير غالب بن عبد الرحمن، والذي دعا فيها للخليفة الحكم المستنصر، في أواخر جمادي الأخر سنة 363هـ[1].

وبجوار قلعة حجر النسر مياه عيون غزيرة مثل: عين القرمود التي تجري عند الحافة الشمالية من القلاعة، وهي مصدر تزويد أهل القلاعة بالمياه، إلى جانب عين الطلبة وعين دار الغشام المتدفقتين بالشمال الغربي من القلاعة. كما أن هناك أربعة منابع أخرى موزعة على المنحدر المؤدي إلى دار عين الراطي.

---

[1] –ابن أبي زرع، **القرطاس**، م.س، ص139.

ومن المؤكد - حسب الفكيكي- أن أول اتصال للأدارسة بالمكان خص دوار الحجر المجاور لموضع القلاعة قبل بنائها بنحو القرن، ونعرف ذلك من وجود قبة المجاهد المزوار أحمد بن علي بن إدريس الثاني الملتجئ الأول إلى المكان قبل وفاة والده سنة234هـ، مفضلاً التنسك بالجبل المسمى بجبل الخلوة، وربما كانت وفاة المزوار أحمد هي سنة 250هـ، وتوجد قبته بالقرب من مدخل القلاعة مما يلي الشرق وبجوارها مقبرة قديمة. وتشير الرواية الشفهية المحلية إلى امتداد السكن على التلال الواقعة بالشمال الغربي، حيث تقيم اليوم جماعة الشناتفة، بين مجرى واد مرحلة وجبل الخلوة، أما دوار دار الراطي - حسب النطق الجبلي- نسبة إلى شخص يدعى الرضي، وهو الذي ظهر بعد القرن الرابع الهجري (10م) بدون تحديد[1].



منظر عام لموقع قلعة حجر النسر الإدريسية
نقلاً عن حسن الفكيكى، معلمة المغرب، سلا، 1984، ج10، ص 3330

[1] – الرواية الشفوية مأخوذة عن المرحوم الشيخ عبد الله الجميلي، شيخ دار الراطـي، نقلها فريق التنقيبات الأثري، ونشرها حسن الفكيكي، **قلعة حجر النسر**، المعلمة، م.س، ص3331.

قلعة حجر النسر

رسم محفوظ من وضع الدكتور حسن الفكيكي أثناء زيارته لقلعة حجر النسر سنة 1993



نخلص إلى القول: إن الغرض من بناء القلاعة كان غرضاً دفاعياً، وكان قد تم تهيئتها لتكون حصناً يلجأ إليه الأدارسة إذا داهمتهم المخاطر، وهذا ما حدث، إذ كانت ملاذهم الحصين عندما هاجمهم موسى بن أبي العافية وحاصرهم فيها، وكذلك عندما هاجمهم الأمويون، وهذا الأمر يقتضي منا الولوج إلى تفهم الوضع العسكري الذي أنيط بالقلاعة وبالأدارسة في أواخر حكمهم للشمال الغربي المغربي، فكيف كان المشهد السياسي والعسكري الذي خاضه الأدارسة من قلعتهم الحصينة؟ ذلك ما سنناقشه في الفقرة الموالية .

5- المشهد الحربي والسياسي

بقراءة المشاهد التي عرفتها ساحة قلعة حجر النسر يتبين أنها مرت بخمس مراحل. تبدأ المرحلة الأولى بالحصار المفروض من قبل موسى بن أبي العافية، وقائده أبو الفتح التسولي، على الأدارسة منذ سنة 317هـ،

حتـى سـنة 321هــ. حيـث تمكـن الأدارسـة مـن فـك الحصـار الطويـل، والانتشار في المنطقة.

وكانـت المرحلـة التاليـة تميـزت باسـتعادة القلاعـة لحريتهـا، وذلـك بفضل قدوم حملة العبيديين بقيادة ميسور الفتـى إلـى المغرب سنة323هـ (921م)، إذ تمكنت هذه الحملـة من فرض الحصـار علـى موسـى بـن أبـي العافيـة المـوالي للناصـر الأمـوي، والعـدو الأول للأدارسـة، فأصـبحت الفرصـة سـانحة أمـام الأدارسـة للاضـطلاع بمعظـم تلـك الحـروب، حيـث تمكنوا من هزيمة موسى بن أبي العافيـة وإجبـاره علـى الفرار أمـامهم إلـى الصحراء، وصار ما كان متحكماً بـه إلـى أل إدريس بزعامـة رئيسـهم مـن بني محمد بن القاسم بن إدريس[1] .

وهنـا سيصـبح ولاء الأدارسـة للعبيـديين، وهـو الأمـر الـذي التـزم بـه الأمير الإدريسي القاسم الملقب بكنون أو قنون، الذي بقي فـي الإمـارة إلـى أن تـوفي، سنـة337هـ، وخلفه أبنـه أحمد بـن القاسم، المكنـى بـأبي العيش والملقب بـالفاضل، الـذي وصـفه البكـري بـالعلم والحلـم والتـدين والشـجاعة والكـرم. ونعتقـد علـى أن قلعـة حجـر النسـر احتفظـت بمكانتهـا السـابقة المعروفة بكونها معقل الأدارسة أثناء الأزمات السياسية.

ومع ظهور الأمير الإدريسي أحمد بن كنون فـي قيـادة الأدارسـة تبـدأ المرحلـة الثالثـة وهـي التـي سـتكون شـاهدة علـى تغيـر الأحـداث بشـكل متسارع ومتناقض، فقد حاول بكل جهده أن يعيد مجد الأدارسـة بـالمغرب "فكان لـه من البلد مابين إجاجن[2] وهو بقبلي حجر النسر إلـى مدينـة فـاس، ومنه إلى مدينة سبتة"[3].

---

[1] – البكري، **المُغرب**، م.س، ص129.

[2] – إجاجن مدينة إدريسية على بعد 9كلم من وزان وهي مدينة مفيدة على نهر عذب بها جامع وأسواق وحمام ويعرف الجبل المطل عليها بالجبل الأشهب ...وهي من بلد جنيارة وفيها عيون وهي لجنون بن محمد سكانها بنو مسارة من مصـمودة . أنظـر البكـري، **المُغـرب**، م.س، ص114. ويمكن العودة إلى الفصول السابقة من هذا البحث.

[3] – البكري، **المُغرب**، م.س، ص129، 130.

غير أن قيام الخليفة الأموي الناصر بالسيطرة على سبتة سنة 319هـ[1]، ورغبته في الاستيلاء على عدد من المناطق المغربية ذات الأهمية الإستراتيجية، قد غير مجرى الصراع والأحداث، حيث انحصرت الإمارة الإدريسية في مثلث البصرة، أصيلا، وحجر النسر. حينها اضطر أبو العيش إلى طلب الأذن من الناصر للذهاب إلى الجهاد في الأندلس، بعد أن استخلف أخاه الحسن بن كنون على أعماله، والذي يعد أخر الأمراء الأدارسة في المغرب، فاعتبر الناصر أن ما قام به أبو العيش هو بمثابة إعلان للاستسلام، وفتح الباب أمام المزيد من الانقضاض على منطقة الشمال الغربي المغربي.

وبظهور الحسن بن كنون على مسرح الأحداث السياسية ستبدأ معالم المرحلة الرابعة، والتي تجلت بظهور دور قلعة حجر النسر من جديد، إذ سيتركز الصراع بشكل مباشر بين الأمير الإدريسي الحسن وبين الحكم المستنصر الأموي الذي خلف والده الناصر، سنة 350هـ، ومن بعده المنصور بن أبي عامر، حاجب هشام المؤيد بن الحكم المستنصر، وكان ميدان هذا الصراع السياسي والعسكري قلعة حجر النسر، كما سنرى.

سبق القول إن الحسن بن كنون كان أخر الأمراء الأدارسة والذي ظل موالياً للأمويين حتى قدوم جوهر الرومي (الصقلي) قائد العبيديين، على رأس حملة قوامها (20.000) فارس، سنة (347هـ/935م)، وأمام هذا الخطر المحدق أضطر الحسن بن كنون إلى مبايعة العبيديين، وهو قرار اتخذه للمحافظة على إمارته من بطش العبيديين. وبمجرد عودة جوهر إلى إفريقية سارع الحسن بالإعلان عن خلع ولائه للخلافة العُبيدية وعاد إلى الأمويين موالياً. أمام ذلك زحف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، عامل الخلافة العُبيدية على إفريقية باتجاه المغرب لاستعادتها والقضاء على النفوذ الأموي فيها، فأسرع الحسن إلى إعلان عودة الولاء لهم وقطع دعوة الأمويين، ولم يكتف بذلك بل قاتل إلى جانب بلكين، تحت

[1] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م.س، ص288.

دافع الخشية منهم وإثبات حُسن الولاء، والرغبة منه في استئصال النفوذ الأموي من بلاده.

وعن أسباب تحول الحسن بن كنون من طاعة الأمويين إلى طاعة العبيديين، إلى جانب الضغط عليه من قبل الحملات العسكرية العُبيدية، يذكر ابن أبي زرع: "أن ميول ابن كنون إلى صاحب قرطبة لم تكن عن حب صادق له، وإنما كانت خوفاً منه لقرب المسافة بين أعماله في الريف المغربي وبلاد غمارة، وبين الأندلس"[1]. ولهذا وجدناه عندما أتيحت له الفرصة قام بثورة تمكن خلالها من استعادة مدينة طنجة وأصيلة وسائر المنطقة الجبلية الممتدة شمال واد الُلكوس، وتحصن بقلعة حجر النسر. عندها قرر الخليفة الأموي الحكم المستنصر[2] وضع حد لدولة الأدارسة الثانية في الريف وإسقاط أميرها الحسن بن كنون. وفي هذا الصدد يقول الإخباري ابن حيان الأندلسي: "لم يزل الخليفة الحكم سالكاً سبيل والده الخليفة الناصر السامي إلى ملك فرضة بلاد العدوة، ولتحقيق هذا الغرض وجد في تحالف الحسن مع العبيديين فرصة للقضاء على إمارته، خاصة بعد عودة الحملات العبيدية إلى المهدية[3].

ففي سنة 361هـ، كانت الفرصة سانحة أمام الحكم المستنصر والذي سارع بإرسال أول حملة عسكرية لقتال الحسن بن قنون، بقيادة وزيره محمد بن القاسم بن طملس، الذي وصل إلى العدوة المغربية في ربيع الأول سنة 362هـ (دوجنبر 972م)، معززاً بجيش صاحب الشرطة قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس، والتقى الجيشان الأمويان في مدينة سبتة[4]. وتمكن الحسن - بعد معارك عدة - من استدراج قائد الحملة الأموية وقتله في الوقعة المعروفة بحصن مهران[5]، وقتل معه عدد من

[1] –ابن أبي زرع، **القرطاس**، م.س، ص108. السلاوي الناصري، **الاستقصا**، م.س، ص195.
[2] – الحكم المستنصر هو ابن عبد الرحمن الناصر، حكم الأندلس من350–366هـ.
[3] –المهدية هي عاصمة الخلافة الفاطمية بتونس قبل الانتقال إلى القاهرة.
[4] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م.س، ص79.
[5] – يورد ابن عذاري نفس الاسم، ولكن ابن أبي زرع يقول إنه فحص بني مصرخ، **البيان**، م.س، ص91. والبكري يقول: إنه حصن الكرم، **المُغرب**، م.س، ص128

الجنـد الأندلسـيين[1]. فلجـأ البقيـة إلـى سـبتة مهـزومين وتحصـنوا بهـا، واستغاثوا بالحكم. والمعروف أنه كان بسبتة جالية أندلسية كبيرة أجارت بقية فلول الجيش الأندلسي المهزوم.

أمـام هـذا الحـدث الخطيـر قـرر الحكـم المستنصـر إرسـال حملـة عسكرية كبيرة، يكون على رأسها قائد عسكري وسياسـي محنك، علـى أن تكـون مهمتـه لـيس فقـط القتـال، وإنمـا كـذلك كسـب ولاء زعمـاء القبائـل المحليـة، وتجنيـدهم لخدمـة أهـداف الحملـة المتمثلـة بالقضـاء علـى الأميـر الإدريسي الحسن بـن كنـون، وإعـادة الاعتبـار للجيش الأندلسـي المهـزوم، والثـأر لمقتـل قائد الجيش والـوزير المقـرب محمـد بـن قاسـم بـن طملـس، ولتأكيد الحسم العسكري، وترسيخ النفوذ الأموي بالمغرب.

وفـي سبيل تحقيق ذلك استدعى الحكم، الوزير الأول غالـب بـن عبد الـرحمن، بمـن معـه مـن رجـال الثغـر، وحمـل معـه أمـوالاً وعـدة حربيـة وعززه بالحاميات الأندلسية المرابطـة فـي الثغور الشـمالية المغربيـة، ومـا تبقـى مـن جيش ابـن طملـس، فتقدمت الجيوش الأندلسية نحـو طنجـة التـي كان الحسن ومن معه مرابطين فيها. وحـدثت أولـى المواقـع العسكرية بين الطـرفين فـي طنجـة وأحوازهـا، انتهـت بـتمكن القائـد غالـب مـن هزيمـة الحسن، وعلى إثر ذلك فر الحسن إلـى الجبـال المتصـلة بجبـل الكـرم، فـي شوال سنة 362هـ، وتعقبتـه الحملـة فـي الحصـون فلجـأ إلـى قلعتـه المنيعـة حجر النسر[2]. فكيف كان سير المعارك في قلعة حجر النسر وما حولها؟

الواقع أن الحملـة لـم تـتمكن مـن إسـقاط الحسـن فـي المواقـع الأولـى، غير أنها أحكمت الحصار عليه هذه المرة في القلاعة مستخدماً كل وسـائل التعبئة الحربية[3]، في الوقت الذي كان الحسن قد فقد فيـه جـزءاً كبيـراً مـن رجالـه ولـم يبـق معـه غيـر المقربين فقـط، وعلـى رأسـهم صـهره صـاحب

---

[1] – مؤلف مجهول، **مفاخر البربر**، م.س، طبعة 2005، ص98.
[2] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص124.
[3] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م. س، ص134.

البصرة[1]، حاصرت الحملة الحسن بقلعة حجر النسر، وهو على هذه الوضعية، فقطعت عنه المواد، وهزم أصحابه في المواقع المختلفة[2].

والمعلوم أن غالباً أحكم الحصار بعد استيلائه على مدينة البصرة التي كانت تمثل الشريان الحيوي للأدارسة، باعتبارها العاصمة ومنها كان يحصل المدد. ومع ذلك قاوم الحسن ورجاله، وساعدهم في ذلك التحصين الطبيعي للقلعة. وبهذه المناسبة نسجل هنا اعتراف ابن حيان الأندلسي نفسه- باعتباره المؤرخ للخصم - بصعوبة وصول الجيش الأموي إلى قلعة حجر النسر، يقول: "وكان إرهاق منهزميهم إلى الحجر في مضايق أشبه وشعاري ملتفة لقي الجند في توغلها عنتاً"[3].

وكسبب ونتيجة في آن، سارع الحكم بإرسال الوزير يحيى بن هاشم التجيبي، صاحب الثغر الأعلى ورجال العرب قاطبة، دعماً للوزير الأول غالب بن عبد الرحمن، في محرم سنة363هـ، وأجتمع مع غالب على حصن بن كنون (قلعة حجر النسر)، فاشتد الأمر عليه حتى طلب الأمان، فأجيب إلى ذلك، ونزل الحسن مع أهله ورجاله إلى غالب، وأنفذهم إلى الأندلس، فوافي قرطبة في شهر رمضان سنة363هـ[4]. وأستمر فيها إلى سنة365هـ[5] . وكان الحسن بن كنون، كما يشير صاحب مفاخر البربر" فظاً شديد الجرأة قاسي القلب، يطرح من ظفر به من ذروة قلعة الحجر، مهواها إلى الأرض يفوت البصر مع شدة المنحدر، يدفع الرجل منهم بخشبة تمد إليه فلا يكاد يصل إلى الحضيض إلا قطعاً"[6]. هذه الإشارة توحي بشدة المقاومة، من جهة، والتحصين المُحكم، من جهة أخرى.

---

[1] – ابن عذاري، **البيان**، ج2، م. س، ص247.

[2] – مجهول، **مفاخر البربر**، م.س، ص99. ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، م.س، ص221.

[3] – ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م.س، ص141.

[4] – مجهول، **مفاخر البربر**، م.س، ص99.

[5] – ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق3، مصدر سابق، ص222.

[6] – مجهول، مفاخر البربر، م.س، ص100.

ويصور لنا ابن حيان الأندلسي أهمية هذا الانتصار الذي حققه الحكم و مدى ما كان يشغله أمر الحسن بن قاسم بن كنون في بلاد المغرب[1].

ويسرد ابن حيان بالتفصيل خبر سقوط القلاعة الإدريسية، واستسلام الحسن بن كنون، وتسلم غالب قلعة حجر النسر ودخوله إليها، وصلاته في مسجدها صلاة الجمعة مع الأمير الإدريسي، ودعاءه للخليفة الحكم من على منبر مسجد القلاعة، كان ذلك في أواخر جمادي الأخر سنة 363هـ[2].

ما سبق كان قصة أول سقوط للقلعة الإدريسية (حجر النسر) بيد أمويي قرطبة. لكن هذا الأمر لم يكن نهاية المطاف بالنسبة للحسن، كيف كان ذلك؟ هذا ما سنراه في المرحلة الخامسة.

وفي ما يلي قصة محاولة الأمير الإدريسي الحسن بن كنون استعادة إمارته بالريف، خلال هذه المرحلة الأخيرة، وتخليص رمز مقاومتها (قلعة حجر النسر)، بمساعدة الفاطميين الخلفاء بالقاهرة، وسقوطها للمرة الثانية والأخيرة بيد الأندلسيين، وكان هذا السقوط الأخير قد تم بأمر من قبل المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة القاصر هشام المؤيد بن الحكم المستنصر، على يد قائده وابن عمه أبو الحكم عمرو بن عبد الله الملقب (عسكلاجة) سنة 375هـ، وقتله وهو في طريقه إلى قرطبة. فقد كان من نتيجة سقوط قلعة حجر النسر واستسلام أميرها الحسن، على يد القائد الأموي غالب بن عبد الرحمن سنة363هـ، اصطحاب الحسن ومن معه إلى قرطبة. وأثناء مقام الحسن في قرطبة،

---

[1] – يقول : " و في يوم الجمعة سلخ جمادي الآخرة منها (363هـ) شهد الخليفة المستنصر بالله صلاة الجمعة بجامع قرطبة، فبعد انقضاء الصلاة أعلم الوزراء بخضوع الملحد حسن بن كنون الحسني المنتزي عليه بأرض العدوة له وإنابته إلى طاعته، وأنه ورد عليه بذلك كتاب الوزير القائد غالب بن عبد الرحمان مولاه، وانه وجه إليه بذلك ابنه علي بن حسن الذي كان سنانه ومجنه ومدير حربه، وأن الخُطبة قامت لأمير المؤمنين في الحجر قلعة الفاسق، يوم الجمعة لثمان بقين من جمادي الآخرة، فاستبشر الوزراء وبشروا وهنوا وغبطوا وأعلنوا بشكر الله تعالى فأطالوا". ابن حيان، **المقتبس**، ج5، م.س، ص150، 151.

[2] –ابن أبي زرع، **القرطاس**، م.س، ص139.

ذكر المؤرخون قصة خلافه مع الحكم على قطعة عنبر كان قد طلبها منه الحكم ورفض الحسن تقديمها له، وعلى إثر ذلك قرر الحكم طرد الحسن من قرطبة. وقد وصف ابن أبي زرع هذه القطعة قائلاً: "إنها كانت غريبة الشكل، كبيرة الحجم، ضفر بها الحسن في بعض سواحله من بلاد العدوة المغربية أيام ملكه بها، فسواها منشورة يتوسد بها"[1].

وإذا صدقنا ما قيل عن قصة العنبر، فإنه يمكننا القول الظاهر إن الحكم أفتعل مشكلة مع الحسن لأنه ضاق من تبعات إقامته مع أتباعه، فأراد أن يتخلص منه، لذلك أجلى الحكم الحسن بن قنون عن الأندلس في البحر سنة 365هـ.

فلحق بالقاهرة عند حاكمها الفاطمي نزار بن معد بمصر[2]، ومن حسن حظ الحسن بن كنون استغلال الميول السياسية الفاطمية إزاء المغرب. فقد قيل إنه كتب له عهده على المغرب، وأمر بلكين واليه على إفريقية بإعانته بالجيش، فأقتحم به المغرب، وسارعت إليه القبائل، وشرع في إظهار دعوته، وتحصن بقلعة حجر النسر مجدداً، واستعاد ملكه على عهد هشام المؤيد[3].

لم يقف حاجب هشام المؤيد مكتوف الأيدي فسارع إلى إرسال ابن عمه أبي الحكم عمرو بن عبد الله[4]، الملقب بعسكلاجة، في ربيع الأول سنة 375هـ. واتجه الجيش نحو قلعة حجر النسر، وفرض عليها حصاراً شديداً، وهنا لم يجد الحسن بن كنون حلاً آخر غير الاستسلام وطلب الأمأن لنفسه على قبول اللحاق بالأندلس كحالته الأولى، فتم له ذلك، ولما بلغ خبر إجازته البحر [مضيق جبل طارق]، وهناك حدث ما لم يكن في حسبان الثائر ابن كنون، إذ أن المنصور فسخ آمان ابن عمه وأنفذ من قتل

---

[1] –ابن أبي زرع، **القرطاس**، م.س، ص139.

[2] – ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ق3، م.س، ص223.

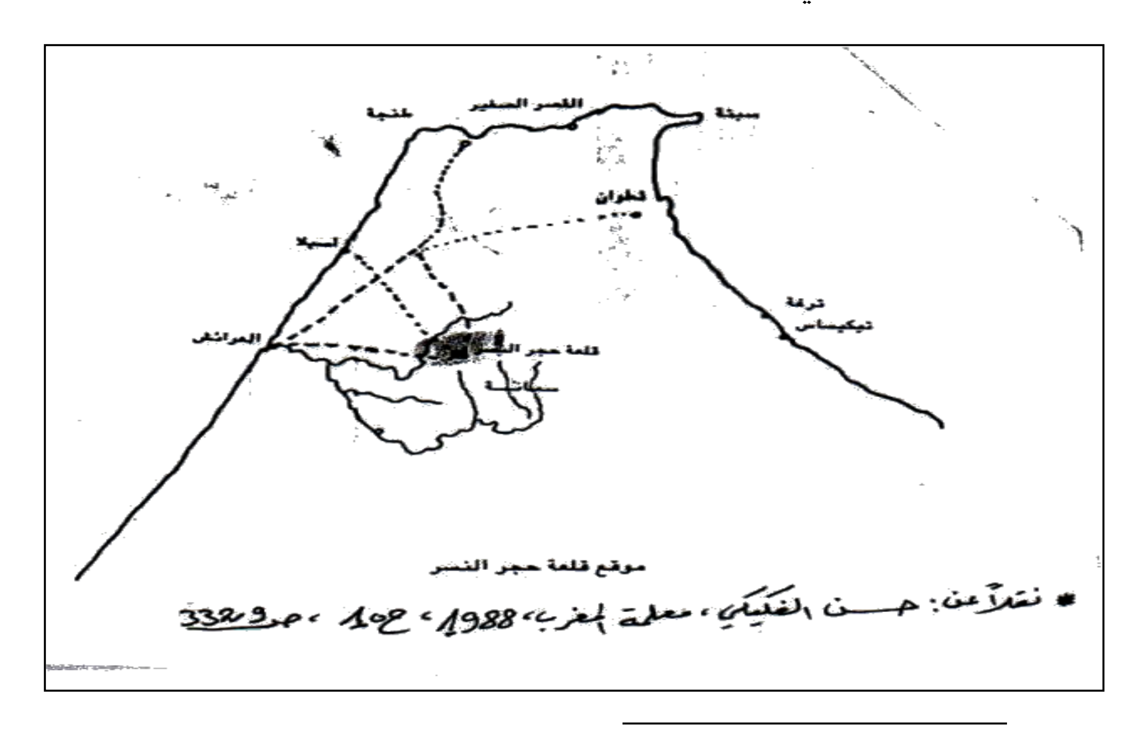
[3] – هشام المؤيد بن الحكم بن الناصر، الذي حجبه المنصور محمد بن أبي عامر ، وتصرف بشؤون الأندلس نيابة عنه، الأمر الذي سرع بزوال الحكم الأموي في ألأندلس فيما بعد على يد الحموديين الحسنيين أصحاب سبتة.

[4] – هو الوزير أبو الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر المعروف بعسكلاجة.

الحسن بالقرب من بريد الثنية[1] سنة 375هـ. فكانت دولة الحسن الأولى ست عشرة سنة [349-365هـ]، والثانية سنة وتسعة أشهر[2].

وبالنسبة لقلعة حجر النسر فقد بدأ دورها العسكري والدفاعي. ثم بقيت بها حامية أندلسية حتى تسلمها زيري بن عطية المغراوي بأمر من الخليفة المرواني هشام المؤيد، وكان صاحبها هو أحد قواده ويدعى محمد بن حمود المعروف بابن البقال، الذي استمر فيها حتى أرسل ابن أبي عامر جيش ضخم إلى العدوة بقية سنة ست وثمانين وثلاثمائة[3].

ومنذ ذلك التاريخ اختفت تماماً كل الإشارات المتعلقة بالقلاعة الإدريسية، بعد ثمانين عاماً من حياة حافلة بالأحداث المتلاحقة، وبذلك تنطوي صفحة مهمة من تاريخ الأدارسة وحصنهم المنيع قلعة حجر النسر، وتاريخ هذه القلاعة يلخص فصلاً من المطاردة والحصار والقتل، يقابله الرغبة في الاحتماء من الاستئصال والتصفية.



[1] – ينفرد صاحب مفاخر البربر بذكر المكان الذي قتل فيه الحسن بن كنون ، ولم يعثر على هذا الموضع في كتب الجغرافية، راجع: مجهول، **مفاخر البربر**، م.س، ص110.

[2] – ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ق3، م.س، ص224. ابن أبي زرع، **القرطاس**، م.س، ص143.

[3] – مجهول، **مفاخر البربر**، م.س، ص117.

خلاصة واستنتاجات

1- تقع قلعة حجر النسر في المنطقة الواقعة بين سلسلة جبال الريف وسهل الهبط بقبيلة سوماتة، بجوار قرية تولا، وفي اتجاه ضريح المولى عبدا لسلام بن مشيش إلى الجنوب من جبل حبيب، في منتصف الطريق مابين سبتة وفاس، أي على مسيرة ثلاث أيام من سبتة أو فاس..

2- مؤسسها هو الأمير الإدريسي إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس، مابين سنة 315:317هـ، (إي مابين سقوط فاس بيد موسى بن أبي العافية ومقتل الحسن بن محمد بن القاسم، المعروف بالحجام، وسنة حصار الأدارسة بالقلاعة.

3- يحيط بالقلاعة مجموعة من الروابي والهضاب تزيد من تحصينها، وتتخللها مناطق زراعية عالية الخصوبة، وتتوفر فيها المياه، بالإضافة إلى كونها تقع على إحدى طرق التجارة الداخلية الفرعية .

4- كان الهدف الرئيسي من إنشاء قلعة حجر النسر هو التحصن من المخاطر التي أحدقت بالأدارسة، وبالتالي فقد كانت أخر معقل لهم، وقد قاومت كثيراً، وبسقوطها على يد حكام الأندلس سقطت الدولة الإدريسية سنة 375هـ.

5- ورد ذكر المنطقة قبل تأسيس القلاعة، ضمن أخبار التقسيم الذي أجراه الأمير محمد بن إدريس للمغرب إلى ولايات بين إخوته بعد وفاة والده، فكانت ضمن نطاق ولاية القاسم قبل أن تؤول ولايته إلى أخيه عمر بأمر من أخيهما محمد.

6- تعد هذه القلاعة ضمن المواقع العسكرية (الدفاعية)، وبالتالي، فهي تندرج في إطار المدن التي تم إنشائها بإرادة وأمر الحاكم، لغرض معين، ولذلك انتهى دورها بانتهاء الغرض الذي أقيمت من أجله.

لائحة مقارنة بين حصن كُرت وقلعة حجر النسر

البيان	قلعة حجر النسر	مدينة كورت
الموقع	تقع ضمن إقليم الهبط، في جبال سُماتة، على أحدى الطرق الفرعية للطريق التجاري الشهير "سبتة ، فاس" بمسافة ثلاثة أيام من سبتة أو فاس. وتعد ضمن المراكز الجبلية التي تنتمي إلى غمارة، في قمة جبل منيع شامخ، ليس إلية إلا طريق واحدة يسلكه الراجل بعد الراجل.	في منطقة الغرب، وتابعة لإقليم سيدي قاسم، تبعد عن مدينة القنيطرة (المعمورة) بـ90 كم، إلى الجنوب من مدينة وزان، وشمال وادي سبو وسيدي قاسم، والى الشرق من بلقصيرى وسوق الأربعاء. وكُرت القديمة تبعد عن سوق حد كُرت بحوالي 9كم إلى الشمال الغربي، وتحتل مساحة شبة مستطيلة أعلى قمة جبل كُرت .
التأسيس	كانت المنطقة ضمن أعمال القاسم في تقسيم الأمير محمد للملكة بين إخوته بعد وفاة أبية إدريس الثاني 213هـ، والقلاعة هي موقع حربي/ دفاعي بناها الأمير الإدريسي إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس، سنة 317هـ. وكانت عبارة عن حصن يلجأ إلية الأدارسة عند تعرضهم للخطوب، وهي الموقع الوحيد الذي تؤكد المصادر أنة أنشئ بإرادة الحاكم، ولغرض محدد، وانتهى بزوال هذا الغرض، وبسقوط القلاعة بيد عسكلاجة قائد المنصور بن أبي عامر، صاحب قرطبة سنة 375هـ، ومقتل الأمير الإدريسي الحسن بن كنون، انتهت الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى. وشهدت القلاعة أدواراً حربية مهمة في تاريخ شمال المغرب، منذ سقوط فاس سنة 315هـ، بدءاً بحصار الأدارسة فيها من قبل موسى بن أبي العافية، ومروراً بالحملات الأموية على شمال المغرب، وانتهاء بحملة العامريين حجاب هشام المؤيد (أخر الخلفاء الأمويين بقرطبة).	تنسب المدينة إلى قبيلة بياتة من بلد جنيارة، وفي عهد الأدارسة ألحقت بأبي العيش (احمد بن القاسم كنون) 337-343هـ، وربما أنها كانت ملحقة بمدينة البصرة لقربها منها .

وصف الموقع	تتكون القلاعة من ثلاثة أقسام رئيسية هي: الساحة الرئيسية ، والقسم الشرقي، ثم الغربي، بالإضافة إلى القصبة المبنية على تل صغير يشرف على الساحة، ومسجد جامع، والأجزاء المتبقية من منحوتة بالصخر، ويحيط ببعض مرافق القلاعة أجزاء من السور، والأجزاء الباقية محصنة طبيعياً. ينبع من القلاعة مياه واد صاف الحمام " أحد روافد واد المخازن "، وبجوار القلاعة مياه عيون غزيرة، أحدها عند الحافة الشمالية للقلعة كانت مصدر تزويد أهل القلاعة بالمياه، ثم عينان متدفقان في الشمال الغربي من القلاعة، وهناك أربعة منابع أخرى للمياه موزعة على المنحدر المؤدي إلى (دار الراطي)، وتنتشر المساكن على التلال الواقعة بالشمال الغربي بين مجرى واد الخلوة، وواد مرحلة.	بعد الصعود إلى قمة الجبل شديدة الانحدار، يشاهد بقايا أساسات المباني ومواد البناء (الأحجار) وقطع الفخار المنتشرة بغزارة، ولا أثر للسور لأنها محصنة طبيعياً بالحواف الحادة شديدة الانحدار من كل الاتجاهات. وفي الموقع مغارات أكبرها تعرف لدى الأهالي بخلوة عبد القادر الجيلاني، وتحاك حولها الأساطير. وفي سفح الجبل توجد عيون غزيرة للمياه العذبة وكذلك في منتصف الجبل، وقد أشار الرحالة إلى أن الجبل في الأصل نهر ردات (أحد روافد واد سبو)، وربما كان ينبع من الجبل أحد الروافد الصغيرة لواد ردات .
الدور الاقتصادي	توفرت المنطقة على خيرات فلاحية عديدة، فهي خصبة، رفهة، كثيرة الخير، ولها بساتين وثمار وافرة. وكانت تستفيد من أحد الطرق الفرعية للتجارة البرية المارة بجوارها .	اشتهرت المنطقة المجاورة لجبل كُرت بالمياه الكثيرة والأجنة الواسعة، والمزارع العظيمة، وغلات أهل كُرت من القمح والشعير والقطن كثيرة، وكانت منطقة جباية لآل إدريس ضمن إقليم طنجة.
اندثار المدينة	ظلت القلاعة قائمة بعد سقوط الدولة الإدريسية الثانية بالريف وغمارة، وتمركزت فيها حامية عسكرية أندلسية إلى نهاية القرن 4هـ /10م، ثم فقدت أهميتها كحصن عسكري في العصور اللاحقة، ولا تزال بقايا القلاعة وأقسامها الرئيسية واضحة المعالم إلى اليوم.	كانت مدينة كُرت عامرة خلال القرنين 3،4هـ/9،10م، وتعرضت للخراب في القرن 5هـ/11م، ثم عادت لها الحياة من جديد في القرن 6هـ/12م كقرية كبيرة، وأستمر امتداد المدينة في العصور اللاحقة إلى الجنوب الشرقي من الموقع القديم، وهي اليوم مركز حضري.

استنتاجات ختامية

من خلال معالجتنا لموضوعات البحث المختلفة، توصلنا إلى إجابات عن الأسئلة التي تضمنتها إشكالية البحث. وسنقدم النتائج على هيئة إجابات مصنفة ومرتبة وفقاً للأسئلة المحددة سلفاً، على نحو ما يلي:

هل ما تقدمه لنا النصوص الواردة في المصادر العربية عن المدينة المغربية في الشمال الغربي خلال العصر الوسيط (الأول) كافية للتعرف على طبيعة النمو الحضري، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدته تلك المدن والحصون؟

للإجابة يمكن القول: إن تلك المصادر أفادتنا بالحقائق الآتية:

1- أتاحت لنا المصادر برسم خريطة تقريبية تم بواسطتها توزيع مدن وحصون الشمال الغربي المغربي خلال الفترة المدروسة على الواجهات البحرية الثلاث للشمال الغربي (المتوسطية،المضيقية، والأطلسية)، ثم المدن والحصون الداخلة في نطاق المنطقة المدروسة، بعد ضبط حدودها التاريخية.

2- مكنتنا تلك المصادر من التعرف على الشروط الضرورية للتأسيس، وهي التي شكلت مجال دولة الأدارسة في فترتها الثانية (315-375هـ).

3- اسعفتنا المصادر في رسم لوحة عامة عن أبرز المعالم والمكونات العمرانية للتخطيط الخارجي، كالخنادق والأسوار، والأبراج، والمداخل، والأرباض، وقنوات جلب المياه، والبساتين والمقابر، والطرق المؤدية إليها. وكذلك ابرز معالم التخطيط الداخلي، كالمسجد الجامع، ودار الإمارة، والسوق، والحمامات، والأحياء، والمساكن، وخزانات المياه.

4- وفي الجانب السياسي برز دور المدن والحصون في احتضان الدولة الإدريسية في الريف، ومقاومة مطاردة زعيم مكناسة

تسول (موسى بن أبي العافية) للوجود الإدريسي، ثم مناهضة الوجود العُبيدي والأموي.

5- في ما يتعلق بالجانب الاقتصادي وقفنا على الدور التكاملي الذي قامت به المدن والحصون، إذ ارتبطت بشبكة الطرق التجارية البرية والبحرية الرئيسية منها والفرعية، وبالأراضي الفلاحية بأحوازها والغنية بمنتجاتها المتنوعة، والتي شكلت محور التبادل بين المدن والمناطق المجاورة لها، كما اضطلعت معظم المدن بدور صناعي أهمها صناعة مواد البناء، والأواني، والمراكب، وبعض الحلي، وغير ذلك كثير. وقامت المدن الساحلية بدور الوسيط التجاري بين مناطق الداخل والمدن المتاخمة لها في الضفة الأخرى من المتوسط والمضيق، بالإضافة إلى ارتباطها بالخطوط التجارية الشهيرة الرابطة بين شمال المتوسط، وبلاد السودان (تجارة الذهب والعبيد)، من جهة، وبينها وبين المشرق، من جهة أخرى.

كل ما سبق كان محاولة للإجابة عن الأسئلة التي تضمنتها الإشكالية والأسئلة المتفرعة منها، والتي مثلت أبرز النتائج التي تشكل الخطوط العريضة لمعالم المدينة المغربية في الشمال الغربي المغربي، غير أن هذا لا يعني أن تلك النتائج نهائية، وإنما هي مؤشرات تفتح المجال للمزيد من البحث، وخاصة البحث الآركيولوجي.

ونعود إلى السؤال المطروح في البداية لنقول إن مصادرنا المغربية لم تلب جل ما كنا نطمح إليه من تسليط الأضواء الكاشفة عن مدن الفترة الوسيطية الإسلامية الأولى، وما كنا نرجوه من تشخيص جميع أدوار المدن والحصون والقلاع.

وبحثا عن العوائق التي نراها قد وقفت في وجهنا عرضة لتقديم المزيد من المعطيات التاريخية عن المدن والحصون والقلاع الوسيطية، نجد في مقدمتها قلة نلك المصادر التي تعد على رؤوس الأصابع، ولا

نعتقد أننا سنفاجأ في يوم ما بظهور جديد في باب اكتشافات المخطوطات المتعلقة بالموضوع.

كل هذا يرغم الباحث على الدخول في مجالات الترجيح، إن كان حظه النجاة من الغموض المطلق. ونعتقد أن صعوبة البحث تكمن في تثاقل سياسة الكشف عن المواقع والآثار المتعلقة بالموضوع من الوجهة الآركيولوجية. ويمكن الاستشهاد بالعدد القليل الشحيح من المواقع التي حظيت إلى الآن بالتنقيب الأثري.

وبالرغم من مساهمتي المتواضعة في هذا الكشف التاريخي للمدن والحصون في الشمال الغربي المغربي، فإنني - بحكم انتمائي إلى بلد عربي بعيد عن المغرب الذي استضافني لمدة دراسية تمتد على مدى خمس سنوات- سوف نترك ما أشرنا إليه من طموح إغناء هذا الموضوع للمزيد من البحث في المستقبل.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً- المصادر

1- ابن الآبار، (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، ت:658هـ)، الحلة السيراء، ج1، [تحقيق، حسن مؤنس]، القاهرة، 1963

2- ابن الأثير(عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني)، الكامل في التاريخ، المجلد 3، 8، دار صادر، بيروت، ط 1995.

3- ابن أبي الربيع، سلوك الممالك في تدبير الممالك، [تحقيق ناجي التكريتي]، دار الأندلس، بيروت،1981.

4- ابن أبي زرع، (أبو الحسن علي بن عبد الله)؛ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، [راجعه عبد الوهاب بن منصور]، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1999

5- ابن الأزرق، (أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الأندلسي، ت:896هـ/1491م)، بدائع السلك في طبائع الملك، [تحقيق محمد عبد الكريم]، ج2، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1977.

6- ابن حزم، (أبو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي)، جمهرة أنساب العرب، [تحقيق عبد السلام محمد هارون]، دار المعارف، القاهرة،1977.

7- ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، من منشورات دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، [بدون تاريخ]

8- ابن حيان، المقتبس في أخبار الأندلس، ج5، [تحقيق عبد الرحمان علي الحجي]، دار الثقافة، بيروت، ط 1983 .

9- ابن حيان، المقتبس، ج5، [تحقيق كورنيطي وصبح]، 1979.

10- ابن الخطيب، معيار الأخبار في ذكر المعاهد والديار، [دراسة وترجمة إسبانية للنص العربي، محمد كمال شبانه]، المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب، 1977.

11- ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، [نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، ومراجعة عبد العزيز الرهوني]، الدار البيضاء، [بدون تاريخ]، هامش، ص330.

12- ابن خلدون، المقدمة، [تحقيق علي عبد الواحد وافي]، دار الفجالة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ج2، [بدون تاريخ].

13- - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، 1979.

14- ابن خلدون؛ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج4، ج7، مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت، لبنان، 1979.

15- ابن خياط، (خليفة بن خياط)، تاريخ ابن خياط، [تحقيق أكرم ضياء العمري]، دار الطيبة، ط3، 1985.

16- ابن زيدان، (مولاي عبد الرحمن)، إتحاف إعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، ج2، ط2، 1990.

17- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، [تحقيق إسماعيل العربي]، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، سنة 1970.

18- ابن سعيد المغربي، وبسط الأرض بالطول والعرض، مطبعة كريماديس، تطوان، معهد مولاي الحسن، 1958.

19- ابن عبد الحكم، (عبد الرحمن بن عبد الله)، فتوح أفريقية والأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1987.

20- ابن عذاري، (أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، الجزء الثاني

[تحقيق ومراجعة، س كولان و إ. ليفي بروفنسال]، نشر دوزي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط 3، 1983.

21- ابن فضل الله العمري، (أحمد بن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، [تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد]، الأبواب:8-14، الدار البيضاء، 1988.

22- ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، القسم الأول، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.

23- ابن منظور، (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، ت:711هـ/1311م)، لسان العرب، المجلد(17)، بيروت، 1970.

24- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت،1987، المجلدان: الرابع والثالث عشر.

25- أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر. ت 732هـ)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، طبعة باريس، 1840.

26- الإدريسي، (أبو محمد بن محمد عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني، المعروف بالشريف الإدريسي)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، شارع بور سعيد، القاهرة، مصر، طبعة 1994.

27- الإدريسي، النزهة، [نشره دوزي ودي غويه]، ليدن، 1917.

28- الأصطخري، المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، طبع ليدن، مطبعة برايل 1927.

29- البكري، (أبو عبيد الله عبد العزيز)، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، طبعة باريس، 1965.

30- البيدق، (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1971.

31- الجزنائي، (علي)، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، [تحقيق عبد الوهاب بن منصور]، المطبعة الملكية، الرباط، ط 1991،2.

32- الحُميدي، جذوة المقتبس، ترجمة رقم 908.

33- الرقيق القيرواني، (أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم)، قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب، [تحقيق عبد الله العلي الزيدان، وعز الدين بن عمر موسى]، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990.

34- الرهوني (أبو العباس أحمد) في كتابه: عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، ج1، [تحقيق جعفر السلمي]، منشورات كلية الآداب تطوان، وجمعية تطاون، ط1، 1998.

35- الزياني، (أبو القاسم)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، دار نشر المعرفة، الرباط، طبعة 1991.

36- العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام، ج4، [تحقيق عبد الوهاب بن منصور]، المطبعة الملكية، الرباط، 1976.

37- العذري، ترصيع الأخبار وتتبع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك والممالك، [بدون].

38- المالكي، (أبو بكر عبد الله بن محمد)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، [تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي]، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

39- النويري، (شهاب الدين)، نهاية الإرب في فنون الأدب، [تحقيق علي محمد البجاوي]، وزارة الثقافة، القاهرة، ج21، 1976.

40- عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ط3، 1985.

41- الغرناطي، (أبو حامد عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي)، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، [تحقيق إسماعيل العربي]، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط1، 1993.

42- الفاسي، (محمد المهدي بن أحمد الفهري)، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، طبع على الحجر بفاس، 1906.

43- الفاسي، (عبد الرحمن بن عبد القادر)، ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، تحت رقم (32 ك).

44- الفيروزابادي، (محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1967.

45- الفيروزابادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، دار الريان للتراث، بيروت، لبنان، ط2، 1987، مادة (ن).

46- القادري، (محمد بن الطيب)، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، [تحقيق محمد حجي، وأحمد التوفيق]، مكتبة الطالب، الرباط، الطبعة الأولى، 1986، ج1.

47- القزويني، (زكريا بن محمد بن محمود)، أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، [بدون تاريخ].

48- القلقشندي، (أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، [شرح وتعليق نبيل خالد الخطيب]، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987.

49- الكتاني، (أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس)، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أخبر من العلماء والصلحاء بفاس، ج1، [تحقيق عبد الله الكامل الكتاني، وحمزة بت محمد بن الطيب الكتاني، ومحمد حمزة بن علي الكتاني]، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2004.

50- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب، لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري،12م، [نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد]، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.

51- مجهول، مفاخر البربر،[دراسة وتحقيق، عبد القادر بوباية]، دار أبي رقراق، ط1، 2005.

52- المراكشي، (عبد الواحد بن علي)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، [وضع حواشيه خليل عمر المنصور]، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1998.

53- المراكشي، (عبد الواحد بن علي)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، [تصحيح وتعليق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي]، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة السابعة،1978.

49- المقدسي، (شمس الدين أبي عبد الله محمد)، أحسن التقاسيم، دار صادر، بيروت، ليدن، مطبعة برايل، 1909 .

50- الوزان، (الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف بليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ج1، [ترجمه عم الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر]، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، 1983.

51- الهمداني، الإكليل، ج2، [تحقيق، محمد بن علي الأكوع]، منشورات المدينة، بيروت، ط3، 1986.

52- ياقوت الحموي، (شهاب الدين أبي عبد الله)، معجم البلدان، المجلد الرابع، المكتبة الفيصلية، دار صادر بيروت، [بدون].

53- ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الثاني، دار الرشاد الحديثة، و دار صادر، بيروت، [بدون].

54- اليعقوبي، (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب)، كتاب البلدان، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، 3ط،1957.

ثانياً- الموسوعات والقواميس والتراجم

1-ابن منظور، (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، [بدون تاريخ].

2- الحموي، (شهاب الدين أبو عبد الله بن ياقوت)، معجم البلدان، دار الرشاد الحديثة، دار صادر بيروت، [بدون تاريخ].

3- الحميري، (محمد بن عبد المنعم الصنهاجي)، الروض المعطار في خبر الأقطار، [تحقيق إحسان عباس]، مكتبة الثقافة، لبنان، الطبعة الثانية، 1984.

4-، دائرة المعارف الإسلامية، [مراجعة محمد مهدي علام]، ج4، 1934.

5- دائرة المعارف الإسلامية، [مراجعة محمد مهدي علام]، م3 ، [بدون تاريخ].

6- الرهوني، (أبو العباس أحمد) عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، الجزء الأول، [تحقيق جعفر السلمي]، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، جمعية تطاوين، الطبعة الأولى، 1998.

7- الزر كلي، (خير الدين)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط7، 1986.

8- الزياني، (أبو القاسم)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، دار نشر المعرفة، الرباط، ط 1967.

9- الزياني، (أبو القاسم)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، دار نشر المعرفة، الرباط، طبعة 1991.

10- العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام، ج4، [تحقيق عبد الوهاب بن منصور]، المطبعة الملكية، الرباط، 1976.

11- عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت، ط1، 1988.
12- معلمة المغرب.

ثالثاً- المراجع

1- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط3، 1993.

2- أحمد البوزيدي، حصن تازاكورت، معلمة المغرب، مطابع سلا، 1989.

3- أحمد التوفيق، أصادة، معلمة المغرب، ج2، مطابع سلا، 1989.

4- أحمد صالح الطاهري، القصر الصغير، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2004، ج19

5- أحمد الطاهري، إمارة بني صالح في بلاد نكور، مكتبة عالم الفكر، الدار البيضاء، ط 1، 1998.

6- أحمد عزاوي، مختصر تاريخ الغرب الإسلامي،الرباط، ط 2007، ج1.

7- أحمد قدور، تطوان، معلمة المغرب، ج7، مطابع سلا، 1995.

8- أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، [بدون تاريخ].

9- أحمد المكناسي، خريطة المغرب، تطوان، 1961.

10- إسماعيل العربي، دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

11- البيضاوية بلكامل، سبتة، معلمة المغرب، ج 14، مطابع سلا.

12- الحبيب الجنحاني، دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1986 .

13- الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1986.
14- الزركلي، (خير الدين)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط7، مايو 1986.
15- السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، [بدون تاريخ].
16- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم بالأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية، 1981.
17- السيد مصطفى سالم، المغرب الكبير، ج2، العصر الإسلامي، الإسكندرية، 1966.
18- المصطفى البوعناني، القصر الكبير، المعلمة، طبعة سلا، 2004، ج19.
19- النقيب فوانو، وجدة والعمالة، ترجمة وتعليق محمد لغرايب، الجزء الأول، مطبعة شمس، وجدة، 2003.
20- بوسلهام الكط، من وحي التراث الغرباوي، مطبعة إيميريال، 8، الرباط، ط 1، غشت 1999.
21- . البيضاوية بلكامل، سبتيم (Septem)، معلمة المغرب، ج14، مطابع سلا، 2001.
22- ج. يفر (G. Yver)، دائرة المعارف الإسلامية، م3، حرف الباء، [مراجعة محمد مهدي علام].
23- حسان عوض، جغرافية المدن المغربية على ضوء تطورها الديمغرافي الحالي، المركز الجامعي للبحث العلمي، [بدون تاريخ].
24- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، سنة1984.

25- حسن الفكيكي، المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلة، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997.
26- حسن الفكيكي، تهدرات، معلمة المغرب،مطابع سلا، 1984، م7.
27- حسن الفكيكي، سبتة المغربية صفحات من الجهاد الوطني، سلسلة المعرفة للجميع، العدد (14)، منشورات رمسيس، الرباط، أبريل، 2000.
28- حليمة فرحات، بادس، معلمة المغرب، ج3، مطابع سلا.
29- س. كولان، تطوان، دائرة المعارف الإسلامية، [مراجعة محمد مهدي علام]، ج4، 1934.
30- سعدون نصر الله، دولة الأدارسة في المغرب والأندلس، ق2، دار النهضة، بيروت، ط1، 1996.
31- سعيد أعراب، ترغة، معلمة المغرب، ج7، مطابع سلا، 1995.
32- طراديل، كتاباته، مصلحة الآثار، بمكتبة متحف تطوان الأثري، 1949-1955.
33- عبد الأحد السبتي، وحليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي)، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1994.
34- عبد الرحيم الجباري، أصيلا تاريخ وأعلام، مصلحة الطباعة، طنجة، الطبعة الأولى، 1999.
35- عبد العزيز بن عبد الله: سبتة ومليلة معتقلان مغربيان أماميان على البحر المتوسط، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996.

36- عبد العزيز توري، معلمة المغرب، المجلد الأول، مطابع سلا، 1989.
37- عبد العزيز توري، معلمة المغرب، ج7، مطابع سلا، 1995.
38- عبد القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها، الرباط، 1982.
39- عبد الله الحداد، مقدمة في الآثار الإسلامية اليمنية، دار الشوكاني للنشر والتوزيع، صنعاء، ط1، 2003
40- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 2000.
41- عبد الله العوينة، معلمة المغرب، مطابع سلا، م 1، 1998.
42- عبد المالك بن عبد الله، معلمة المغرب، ج13، مطابع سلا، 2001.
43- عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج1، الطبعة الأولى، 1992.
44- عزيزة محمد علي بدر، طنجة بوابة إفريقيا، دراسة في جغرافية المدن، القاهرة، 1996-1997.
45- عمر الجيدي، تيكساس، معلمة المغرب، ج8، مطابع سلا، 1995.
46- فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، الرياض، ط1، 1985.
47- لحسن تاوشيخت: عمران سجلماسة دراسة تاريخية وأثرية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج1، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 2008.
48- محمد أخريف، معلمة المغرب، مادة الحُمر، المجلد (11)، مطابع سلا، 2000.

49- محمد اللبار، موريطانيا الطنجية، معلمة المغرب، ج21، مطابع سلا، 2005.
50- محمد المنصور، طنجة، المعلمة، ج17، مطابع سلا، 2005.
51- محمد جمال الدين القاسمي، إصلاح المساجد من البدع والعوائد، المكتبة الإسلامية، ط4، 1399هـ.
52- محمد حجاج الطويل، تشمس، معلمة المغرب، ج7، مطابع سلا، 1995.
53- محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، ج1، المطبعة المهدية بتطوان، 1955.
54- محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، الدولة، المدينة، الاقتصاد، [تنسيق محمد المغراوي]، ط 1999.
55- محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت،1981، ص67-70.
56- محمد عمراني، معلمة المغرب، مادة جوطة، ج10، مطابع سلا، 2004
57- محمد عمراني، غمارة، معلمة المغرب، ج 19، مطابع سلا، 2004.
58- محمد فتح الله الزيادي، الاستشراف أهدافه ووسائله، دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون، ط1، دمشق، 1988.
59- محمد المازوني، تيط، معلمة المغرب، ج8، مطابع سلا، 1995.
60- محمود السعيد الكردي، ابن خلدون، مقال في المنهج التجريبي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ط1، 1984.

61- مصطفى أعشي، القصر الصغير، معلمة المغرب، ج 19، مطابع سلا، 2004.
62- مصطفى أعشى، طنجة، معلمة المغرب، ج 17، مطابع سلا، 2003.
63- مينة المغاري، القصبة، معلمة المغرب، ج19، مطابع سلا، 2004.

رابعاً- الرسائل الجامعية

1- أحمد الكيحل، الصناعة الفلاحية الغذائية باللكوس وانعكاساتها الاقتصادية والمجالية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987-1988.

2- أحمد قدور، تيطاوين المدينة والمجتمع في العصرين الوسيط والحديث، دكتوراه دولة، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ج1، 2003-2004.

3-الحسن الغرايب، الأقلية المسيحية في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط من القرن الأول الهجري/7م إلى أواخر القرن السابع الهجري،13م، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، مكناس، 2007- 2008.

4- المصطفى البوعناني، مساهمة في دراسة تاريخ منطقة الغرب من القرن6هـ/12م إلى11هـ/17م، ق1، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2001-2002.

5- جمال حيمر، مدينة مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث، دراسة في التاريخ السياسي والعمراني، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، 2003 – 2004.

6- حسن الفكيكي، مقاومة الوجود الأيبيري بالثغور الشمالية المحتلة 1415-1574، دكتوراه دولة، ج1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1990.

7- زاهر بن محمد بن عامر الحجري، الاباضية في الغرب الإسلامي، دبلوم دراسات عليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ط1، 2004.

8- محمد العمراني، دراسة وتحقيق مخطوطة تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وزان، لحمدون الطاهري الجوطي الفاسي (تـ 1191هـ/ 1777م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2003- 2004.

9- محمد أمليد، المدن الإدريسية خلال القرن 3-4هـ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، 1986.

10- فضيلة الوزاني التهامي: الزاوية الوزانية، الشيخ وعالمه، بحث في التصوف والتاريخ، مع تحقيق كتاب الكوكب الأسعد في مناقب سيدنا ومولانا علي بن سيدنا ومولانا أحمد، لأبي عبد الله محمد بن حمزة المكناسي، المتوفى بعد 1238هـ، من سنة 1005- 1238هـ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، 2002- 2003.

خامساً- المجلات العلمية ووثائق الندوات

1- - أحمد الطاهري، وإبراهيم بدوي، مدينة البصرة من خلال المصادر التاريخية والمخلفات الأثرية، ندوة المواقع الأثرية في منطقة الغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 2007.
2- أحمد قدور، المعمورة والبصرة: دراسة مقارنة، وثائق الندوة الوطنية التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، بعنوان: قصبة المهدية تراث ومؤهلات، أيام 22 و 23 أبريل 2003.
3- الحسين اسكان، المعمورة بين الخراب والتعمير خلال العصر الوسيط، وثائق الندوة الوطنية التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، بعنوان: قصبة المهدية تراث ومؤهلات، أيام 22 و 23 أبريل 2003.
4- إسماعيل الأكوع، كلمات تركية مستعملة في اليمن، مجلة الإكليل، وزارة الثقافة، صنعاء، اليمن، ع1، السنة 3، خريف 1985.
5- نورية مجاني، أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، نشر ملخص الرسالة في مجلة الإكليل، ع3، 1989.
6- بيتر فارب، بنو الإنسان، [ترجمة زهير الكرمي]، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1983.
7- جاك كيني، المغرب الشمالي في أواسط القرن الخامس الهجري(11م)، [تعريب، سعيد النجار]، مجلة البحث العلمي، الرباط، ع(210).
8- حسين مؤنس، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، (37)، الكويت، يناير 1981.

9- دانيل أوسطاش، الجامع في الدراهم الإدريسية، منشور ضمن مجلة جمعية تاريخ المغرب، عدد 2، سنة 1996.

10- زليخة بنرمضان، قضية أسوار المدن المحتلة: نموذج سبتة، ضمن أعمال الندوة الوطنية حول أسوار المدن العتيقة، مديرية التراث الثقافي، مطبعة دار المناهل، الرباط، [بدون تاريخ].

11- زينب عفيفي شاكر، ابن رشد ومدينته الفاضلة، مجلة العربي، الكويت، عدد 578، يناير، 2007.

12- سعيد البوزيدي، عبد العزيز أمريدخ، الضيعات الفلاحية بمنطقة الغرب مقاربة تاريخية للمخلفات الأثرية والمواقع التاريخية، وثائق أعمال الندوة الوطنية الخاصة بالمواقع الأثرية في منطقة الغرب بين البحث العلمي والبعد التنموي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طُفيل، القنيطرة، يومي 23-24، نونبر، 2005، سلسلة ندوات ومناظرات رقم (9)، إصدار 2007.

13- صباح إبراهيم الشيخلي، النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال القرن الـ4هـ/10م، دراسة من خلال كتاب، "صورة الأرض" لابن حوقل، نشرت ضمن مجلة التاريخ العربي، العدد السادس، ربيع 1998، الرباط.

14- عبد الجبار ناجي، مفهوم المدينة الإسلامية (2)، مجلة المدينة العربية، عدد (15)، السنة الثالثة، 1984.

15- عبد السلام القيسي الحسني، مدينة القصر الكبير، جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير، مطبعة الأمنية، الرباط، 2006.

16- عبد العال الشامي، جغرافية المدن عند العرب، مجلة عالم الفكر، المجلد التاسع، العدد الأول، 1978.

17- عبد العزيز توري، المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة، مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، ع(11)، 1985.

18- عبد الهادي التازي، المغرب في الدراسات الإستشراقية، ابن بطوطة نموذجاً، ضمن أعمال ندوة المغرب في الدراسات الإستشراقية المنعقدة في مراكش، أبريل 1993، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.
19- عبد الواحد ذنون طه، نصوص مغربية من تاريخ الوراق، مجلة البحث العلمي، ع 38، السنة23، الرباط، 1988.
20- عيسى قوراري، مجلة الجندول للعلوم الإنسانية، المركز الجامعي بالمدية بالجزائر، العدد (31) السنة الرابعة، نوفمبر 2006، الموضوع رقم (34).
21- مجموعة مقالات مترجمة أصدرت في كتاب بعنوان:طنجة في التاريخ المعاصر،1800-1956،من إصدارات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة محمد الخامس،الرباط،ومدرسة الملك فهد العليا للترجمة،جامعة عبد الملك السعدي،طنجة،1991.
22- محمد أقوضاض، المدينة المغربية"حصيلة الماضي وتحديات المستقبل"، ضمن كتاب "المدينة المغربية في أفق القرن الواحد والعشرين بين الهوية الوطنية والبعد المتوسطي، سلسلة التراث (12)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ديسمبر، 2000.
23- محمد الطاهر المنصوري، المدن المغاربية من خلال بعض المرشدات البحرية، أعمال الملتقى الثالث،بعنوان:المدينة المغاربية والكتابة، والمنظم بالتعاون مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، جامعة أبن طفيل، خلال الفترة من (2-5) أكتوبر1990، صادر عن المجلس البلدي بالقنيطرة، رقم(2)، 1992.

24- - محمد حجاج الطويل، دور الفلاحة في تأسيس المدن وتطورها، أعمال ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي، 24-26 نونبر 1988، ص167-176.
25- محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب، الرباط، الطبعة الأولى، 1999.
26- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة (128)، الكويت، 1988.
27- محمد عبد العزيز الحسيني، قرطبة درة الأندلس، مجلة المدن العربية، عدد (14)، لسنة 1984.
28- مصطفى الهشمي، على عتبة الذاكرة، وثائق مهرجان احد كورت، (19-24) أبريل، 20004.
29- وليد المنيس، التفسير الشرعي للتمدن، سلسلة رسائل جغرافية (62)، كلية الآداب، جامعة الكويت، 1984.
30- يحيى وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة، الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة (304)، الكويت، يونيو، 2004.
31- المذكرة الثقافية، مجلة العربي، العدد (543)، فبراير20004.
32- تاريخ الغرب عبر مواقعه، مؤسسة مشيش العلمي، القنيطرة، دوجنبر، 1999.
33- نشرة الآثار المغربية، عدد16، سنة81، 1982.
34- تقرير خاص ببلدية أحد كورت، صدر بمناسبة مهرجان حد كورت، لسنة 2004، إصدار اللجنة المنظمة.
35- الإحصاء الوطني للمغرب، لسنة 1994.

سادساً- المراجع الأجنبية

1- Boris Maslow, Ia Qubba Barudiyyin à Marrakuch, Ia Andalus, 1948, fasc.1. Marcais, L'Architecture Musulmane d'Occident. Paris. 1891.

2- Eustache (D), Corpus des dirhams Idrissie et Contemporains, collection de la Banque du Maroc et autres collection, Rabat, 1970. .

3 - Eustach,(D) Albasra Capital Idrissie et Sonport. Paris, 1955.T10.L2.

4- Ch.Tissot, Resechers sur la Géographie Comparée de la Maure'tanie Tingitave, Paris,1978.

5- Jean Lecoz, Le Rharb, Fallahs et Colons. Etudes de Géographie Régionance, tome II, Paris, 1964.

6- Mark Pollock, Water Maker, Progress Report on The Animal Borres, from Badis, Al Basra, Jebila Mouley Bou-Selham, Nakur, and Gsar Saghir (B.A.M), 15-1983-1984.

7- Maunes, Notes sur Quelques Villes Disparues du Maroc Septentrional, B.E.P.M, 1957.

8- Patrice Cressier et Larbi Erbati.Le pouvoir dans ses murs Villes et fortification dans le Maroc du haut Moyen Age Page (283- 294).dans le chateau et la ville Espaces et reseux (VI-XIII siècle) Etude rèunies par Patrice Cressier Prèsentation par Pierre Toubert.Casa de Veàzquez ècole Francais de Rome.

9- Redman (CH. L) Survey & Test Excavation of six Medieval Islamic Sities in Norther Morocco, (B.A.M),1983-1984.